الحمراء

AL - HAMBRA

قصـــة

«أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس وأسبانيا»

تأليـــف

واشنطن ايرفينغ

« القسم الأول »

ترجمـــة

د. هاني يحيى نصري

AL - HAMBRA / الحمراء

الناشر: مركز الإنماء الحضاري ـ حلب

الطبعة الأولى : 1996

التنضيد: دار الشجرة للخدمات الطباعية

دمشق ـ مخيم اليرموك ـ هاتف 6320775

تصميم الغلاف:

جمال الأبطح

CEC

مركز الإنماء الحضاري

CENTRE-ESSOR ET CIVILISATION

للدراسة والترجمة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم



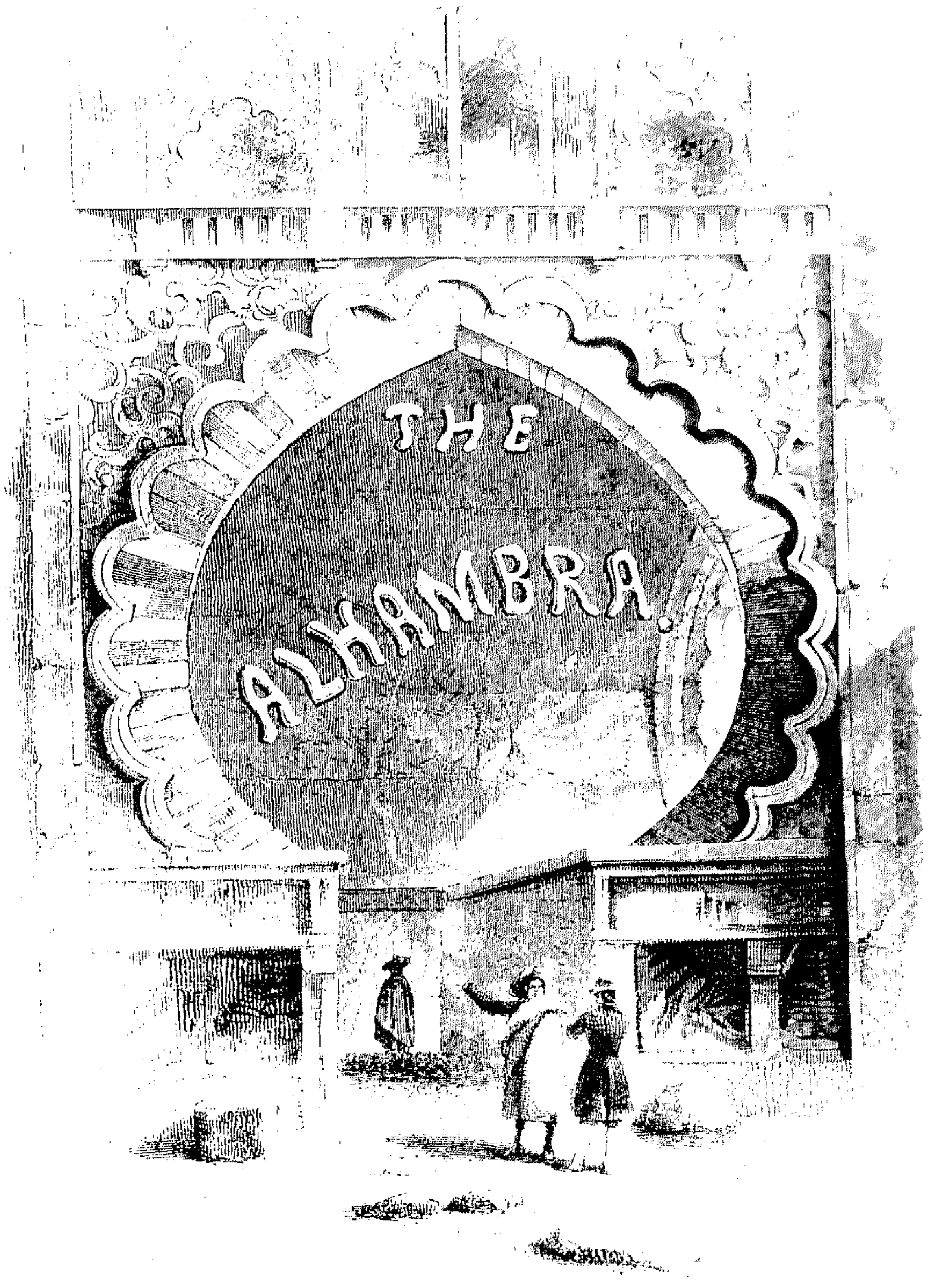
واشنطن ايرفينغ

إهداء المترجم

اوقفتني أمي: «وداد بنت محمد المسكي المكي الشريف»وأنا في مراحل الصياغة الأخيرة لهذا الكتاب، برحيلها عنا. لأهدي لروحها الطاهرة التي لحقت بوالدي في جنة الخلد، هذه الكلمات. عسى أن يضعاها معي تحت أقدامهما هناك.

الدكتور

يحيى نصري


THE
ALHAMBRA.

مقدمة الطبعة العربية

• الخلفية الثقافية والاجتماعية لمؤلف الكتاب:

هناك حقيقة ألسنية هامة في اللغة الإسبانية اليوم، وهي ان هذه اللغة ذات الأصول «الغالية»[1] لازالت تستعمل أل التعريف العربية، في كل جملها. إضافة إلى أن كل الكلمات التي تبدأ بأل والتي تشكل مايزيد عن ثلث المنطوق الاسباني المعاصر، كلمات عربية.

كذلك هناك حقيقة تاريخية أخرى وهي: أن مكتشف أمريكا الأول «كريستوف كولومبس» CHRIISTOPHER COLUMBUS الجنوي الأصل، كان جندياً في الجيش الاسباني الذي فتحت به «إيزابيلا» مع «فرديناند» آخر مواقع الأندلس أي «غرناطة» وأسقطت هذه القلعة العربية الأخيرة، في شبه الجزيرة

---

(1): Gallic

«الايبيرية»عام 1492 م. وما أعقب ذلك من احتفالات سميت TE DEUMR في كل أوروبا.

ومما يفسر وجود أمثال «كولومبس»من الأوروبيين في جيش «فرديناند» و«ايزابيلا»أن الهوية الإجتماعية في أوروبا القرون الوسطى كانت هوية دينية لاقومية.

لذلك اعتبر النصر الثاني الذي حققه «كولومبس» بعد ذلك بعدة سنوات في اكتشاف العالم الجديد، نصراً أوروبياً لا إسبانياً فقط . ودوافع هذا الكشف بالاساس تجنب البحر الأبيض المتوسط، الذي كان بحيرة تركية. إذ كان الاتراك يتحركون بدوافع دينية مشابهة في نفس هذه الفترة نحو الغرب ويدقون أبواب «النمسا»

ففي الوقت الذي كانت آخر معاقل «المور»[2] أو العرب في الاندلس تسقط وهي « الحمراء». كانت أوروبا الشرقية وحتى حدود فيينا تترنح تحت ضربات الامبراطورية العثمانية الفتية. مما يعني أن الحروب الصليبية انتقلت إلى الغرب، الذي أراد أن يعيدها إلى الشرق من البوابة الهندية.

وازاء واقع وجود القارة الأميركية بينهما، شعر فرديناند وايزابيلا بضآلة انتصارهما على الأندلس أمام الغرب ككل، ازاء اكتشاف كولومبس للعالم الجديد. وهو مجرد جندي ايطالي في جيشهم.

لذلك لفقوا له التهمة الرائجة في ذلك العصر تهمة «الهرطقة» وأقالوه من منصب «الأدميرالية الاسبانية» ، وعينوا بدلا عنه حاكما إسبانيا على العالم الجديد، وهو مجرد موظف تابع له هو «أمريكوفيسبوتشي». الذي نسبوا له افتتاح العالم الجديد كجزء من LA RECONQUISTA اي إعادة الفتح للشرق، الذي يجب أن تكون طليعته إسبانيا لأوروبا المهزومة بالنمسا من الاتراك.

وبينما كان كولومبس«في السجن كان «فيسبوتشي» يضع اسمه على الخارطة البحرية التي يرسمها للعالم الجديد، «أمريكو».

إلا أن الهجرات الاوروبية غير المنظمة الهاربة حرفيا من الاضطهاد الديني الكاثوليكي، في أماكن سيطرتهم بأوروبا، والهاربة من اضطهاد البروتستانت، في

---

(2) : عرب المغرب العربي، وهي تحريف لكلمة مراكشي.

أماكن تواجدهم فيها أيضا بسبب محاكم التفتيش التي شاعت في كل أوروبا لاباسبانيا فقط إلى العالم الجديد. قلبت المعيار الديني في فهم الأمور، وشكلت من المستعمرات الاميركية خليطاً اجتماعيا، عبر عن نفسه لأول مرة بعد ذلك، باستقلال امريكا الشمالية عن التاج البريطاني، الذي يتسابق مع الاسبان في موضع القدم هناك.

وما إن أطل القرن الثامن عشر إلا وكانت الولايات المتحدة الاميركية دولة عظمى، تضاهي كل الامبراطوريات الاوروبية الهزيلة بالنسبة لها مساحة وعدد سكان.

وفي هذه الفترة كان لابد من وضع دراسات تاريخية حيادية تُعَرفُ هذا الشعب المشكل من عدة شعوب واعراق، بمعنى ظهوره العملاق كقوة كبرى بين شعوب الأرض.

في هذه الفترة ولد واشنطن إيرفنغ - WASHINGTON IRVING - (1783 ـ 1859 م) :

في الوقت الذي دعت فيه الحاجة الاكاديمية إلى وجود باحث ثقافي يربط بين العالم الجديد والعالم القديم.

وايرفنغ« الذي ولد في نيويورك ومات فيها، في «تري تاون» هو أول امريكي أكاديمي يسد هذا الفراغ.

فمنذ كتاباته الأولى في جريدة أخيه الصباحية في نيويورك تحت اسم «جونسون اولد ستايل» بانكليزية راقية كان دقيقا ومعبرا ورائجا.

وقد حاول في البداية اكتشاف الكتابات الالمانية القصصية الشعبية، وبدأ بالقصص العاطفية والاجتماعية. إلا أنه ما لبث أن عين بعد عودته من رحلاته الأولى إلى اسبانيا وزيرا مفوضا فوق العادة في اسبانيا، لما اشتهر به من بحث اكاديمي في الاصول التاريخية لتشكل الشعب الامريكي، وقد اكتسب هذه السمعة بفضل البحوث التالية:

- تاريخ نيويورك 1809 م.
- حياة ورحلة كريستوفر كولومبس 1828
- غزو غرناطة 1829 م.

- الحمراء 1832 .

- محمد وخلفاؤه 1849 م.

ويعتبر واشنطن « ايرفينغ» اليوم من أعمدة الكتاب الكلاسيكيين الامريكيين لما يتمتع به اسلوبه من انكليزية راقية، مبنية حتى في المجال القصصي على وقائع وحقائق تاريخية، عالجها باسلوب حيادي علمي دقيق.

والحمراء:

هذا الكتاب القصصي الأدبي الذي نحن بصدده هو نتاج كل هذا الجهد الاكاديمي التاريخي الضخم. ويحوي في خلفيته القصصية الادبية أصول أسباب تشكل شعوب العالم الحديث.

تلك الأصول التي نظر إليها «إيرفينغ» بمنظار لما يتأثر بعد في القرن التاسع عشر بأية أفكار مسبقة عن الشعب العربي. كما هو حال الاميركيين اليوم. بعد أن فعلت فيهم ما فعلته الدعاية الصهيونية المنظمة. وخاصة بعد الثلاثينيات من هذا القرن.

كتب ايرفينغ في نيويورك قبل أن تزدحم بالهجرات اليهودية من اوروبا، بعد الحرب العالمية الاولى. ومات قبل قرن من تتويج اللوبي اليهودي لفاعلية قواه الصهيونية، في أروقة مراكز القراز الاميركية في الولايات المتحدة.

لذلك يمكننا القول: إنه القلم الحيادي الذي يكاد يكون وحيداً بين الاميركيين من أصول غير عربية في أمريكا. وأهميته بالنسبة لنا اليوم ترجع إلى، أنه من أكبر الكتاب في تاريخ الأدب الاميركي. وحيادية قلمه. بل تحيزه للحضارة العربية دليل من أسطع الادلة ومن صلب الفكر الاميركي على مصداقية الحضارة العربية ورسوخها بين أمم الارض. حتى في أسباب تشكل القارة الاميركية.

وتحكم هذا الكتاب خلفية تاريخية ضخمة وصافية في فهم الرسول (ص). عبر عنها «ايرفينغ» بعد ذلك بكتابه «محمد وخلفاؤه 1849 » وخلفية تاريخية دقيقة سبقت كتابة «الحمرا» حول أسباب غزو الاسبان لغرناطة بكتابه غزو غرناطة 1829م» ، وكتابه «حياة ورحلة كريستوفر كولومبس 1828 م» .

وإن دَخَل هذان الكتابان بالمجال الاكاديمي التاريخي البحث. ودخل كتاب «الحمراء» بالمجال الأدبي. فإن أثرهما على كتاب «الحمراء» واضح في مجال إبراز الواقع التاريخي بالجمالية الادبية القصصية، التي وصلت إلى حدِ أن الذي رسم الصور الملحقة بهذا الكتاب، في طبعته عام 1851م وهولايعرف شيئا عن الحضارة العربية، الا من الوصف القصصي في هذا الكتاب. قد جاءت مطابقة لواقع الزي والشكل الاندلسي بشكل لايصدق.

والنسخة التي بين أيدينا عن هذا الكتاب عبارة عن إعادة تصوير لطبعة عام 1851 م بما فيها من صور ILLUSTRATIONS ورغم انها نشرت عام 1982 من قبل SLEEPY HOLLOW RISTOR ATTON INC. فقد أصر الناشر على عدم استخدام التقنية الطباعية المتطورة الحديثة حتي يبقى للقارىء عبق قراءة الأمس البعيد بأسلوب الأمس القريب الإنكليزي، كما أخبرني بذاته حين أهداني هذه النسخة، في مدينة TARRYTOWN التي يسكنها هذا الناشر السيد «بروكاريو» والتي مات بها «ايرفينغ» وبها ضريحه الفخم.

ومنذ ذلك الوقت، بعد أن قرأت مجموعة القصص الرومنطيقية الرائعة التي تشكل كتاب الحمراء هذا، وأنا أفكر بوضعها باللغة العربية لاعادة بضاعتنا إلينا. تلك البضاعة الراقية التي مرت معتقة بأروع قلم امريكي كلاسيكي، تمكن من نقلها كما يوجب النقل المنهجي من جهة، وكما تتوجب شرائط العمل القصصي من جهة أخرى.

وبين فاصلتي الأدب الراقي، والفكر المنهجي ينداح الجمال الأندلسي الفريد ليفوق كل ما كتب عن جنة الأمس «الأندلس» التي تقاسمتها يد الأيام. فلا أقل من أن تبقى بذاكرة القارىء العربي بقاءها بذاكرة القارىء الاميركي مع «ايرفينغ»

وتبدأ هذه المجموعة القصصية عن أيام «الحمراء» الاندلسية بذكر الرحلة التي قادت المؤلف إلى هناك برفقة الأمير الروسي «دول غوركي» الذي أصبح بعد ذلك وزيراً مفوضا لروسيا القيصرية في «ايران» حيث بدأ يظهر للمؤلف بوضوح اثر الشعر العربي في الأغاني الشعبية الأندلسية.

وبعد وصف السهوب وجبال سييرانيفادا «التي سميت باسمها ولاية من الولايات المتحدة. يصف الكاتب بدقة تاريخية معالم قصر الحمراء» وقلعته

التاريخية في غرناطة» والتي هي كناية عن مصيف عذب الهواء بالمقارنة مع جو المدينة الحار.

مشيرا إلى أهمية الزخارف الخطية العربية، وإلى أنها أبدعت لأول مرة في دمشق. ومن هنا الصلة بين الأندلسيين وسوريا. كذلك تتبع أصل البورسلين الذي يشتهر به الهولنديون وهم جالية كبيرة في نيويورك أيامه، وكيف أنهم أخذوه من تلك الأصول الدمشقية.

ثم يصف مواضع إقامة أبي عبد ا لله النصرى آخر ملوك الاندلس وكيف أن مدفأة وضعت في غرفته يدمر رمادها «الارابسك» القديم الرائع.

مشيرا إلى أن قصور «الحمراء» في أساس بنيانها المعماري، الذي ياكل عليه الدهر ويشرب، بسبب إهمال الجانب الحضاري الاسلامي في اسبانيا، قد قامت لتشخص التصور الاسلامي لجنة الخلد في الارض.

وسكان الحمراء الذين رآهم وصفهم بأنهم أناس يعيشون كما لو كانوا بإجازة دائمة على حد قوله: «إنَّ فن (آنْ لاتفعل شيئاً) لايتقنه أي شعب من الشعوب إتقان الاسبان المعاصرين له» عل النقيض من أجدادهم. ثم يفرد المؤلف فصلا لوصف قاعة السفراء في قصر الحمراء حيث أكمل بناءها «يوسف الاول» وجعلها حاضرة ملكه وامبراطوريته التي هي كناية عن آخر موجة من موجات الامتداد العربي إلى الغرب.

هناك حيث كانت جامعات « قرطبة» و«طليطلة» و «اشبيليا» و «غرناطة» مركز إشعاع حضاري للوجوه الباهتة الاوروبية حسب تعبير المؤلف.

ويعدد القرون الثمانية من الاشعاع الحضاري على العالم من الاندلس، من رجال فتحوا وحكموا وازدهروا، ثم بادوا بسبب التعصب الديني.

والافرنسيون الذين نهبوا «مكتبة العدل» في الحمراء بعد فتحها لم يكونوا يعرفون شيئا عن أهمية هذا المركز الحضاري لكل أوروبا.

لذلك يعيدنا إلى تاريخ إنشاء الحمراء على يد «محمد بن الأحمر» من «ارغونا» سليل عائلة بني نصر التي امتد سلطانها على كل الاندلس. تلك العائلة التي بدأت حروب الطوائف بين أبناء عمومتها، مما أذن بسقوط الاندلس.

ثم يفرد فصلا عن يوسف بن الحجاج الذي أكمل بنـاء الحمـراء وقتـل فيهـا اغتيالا.

وبعد أن يضع الكاتبُ القارىءَ بهذا الجو التاريخي ينتقل به تدريجيا، نحـو التفسيرات الشائعة للظروف الغامضة التي صنعت كل هذا الأمر الذي أقـام النـاس وأقعدهم. والتي تنسل في أساطير سكان الحمراء بأيامه، من الرجال الذين وصفهم بإتقان فنّ عمل اللاشيء.

لينقلنا بعد حوالي مائـة صفحـة إلى قصـة الغرفـة الغامضـة في الحمـراء. ثـم يخرج بنا إلى «البانوراما» من «برج التجار» بقصة مشوقة أخرى. وبعدها قصـة عـن الشـريد، ثـم قصـة «ابـن سـراج» فوصـف اللحظـات التاريخيـة «لأبـي عبـد ا لله النصرى» آخر ملوك الاندلس، ثم أعياد غرناطة.

وهكذا في كل مَعْلـم وزاويـة مـن معـالم القصـر والمدينـة قصـة يرددهـا صـدى الأساطير الشـعبية، ويعيدهـا «ايرفينـغ» بقصـص قصـيرة رائعـة تخلـد الحـدث التاريخي وترسخه بإشراقة الخيال الرومانسي.

إن قراءة هذه القصص الصغيرة تحت عنوان الحمراء، هي استعادة لحضارتنا هناك، نقلها الفنان «ايرفينغ» مـن المنطـوق الشـعبي، إلىالمنطـق الفـني، بلوحـات متتابعة يمكن رؤيتها حين قراءتها ـ كمـا حصـل مـع الفنـان الـذي رسـم لوحـات الكتاب بعد ذلك ـ فإذا تأتت لها عين مخرج سينمائي عربـي وامكانـات يمكنهـا أن تتحول إلى مجموعة أعمال مسرحية وسينمائية يسهل قبولها والاعجاب بها في أي مكان. وتشكل ردا مسبقا على كل فكر قبلي يريد العدو أن يشيعه عن العـرب في الغرب.

قصتي مع الكتاب:

لقد عومل كتاب «واشنطن ايرفينغ» على أنه كتاب قصصي أدبي، ولعل هذا يتأكد مع القسم الثاني الذي قسمتُ فيه هذا الكتاب إلى حد مـا وأقـول: «إلى حـد ما» لأنني أعني أن القسم الثاني في صيغته القصصية لا يهدف إلى سرد حكايـات تصورها الكاتب، بقدر ما يهدف إلى رسم الواقع الاجتمـاعي والفكـري والحضـاري لتاريخ الاندلس القديم، من خلال الحكايات وعلى نفس هذا النمط يتضمـن القسـم الأول رسماً للواقع الاجتماعي والفكري والحضاري المتردي لاسبانيا القـرن التاسـع عشر في الأندلس . لامن خلال حكايات وقصص تعتمد على حدث تاريخي سابق،

بل من خلال حكايات وقصص حدثت مع المؤلف نفسه، في رحلتـه إلى «غرناطـة» وإقامته بقصر «الحمراء» فيها.

مما يعني أن لقصص الكتاب قصصاً حصلت مع مؤلفه. ويمكن للقارىء من خلال كليهما أن يشكل رأيا حول الحضارة العربيـة هنـاك والـتي كـان يجـب أن تبقى، كما يؤيد المؤلف ذلك.

ولأني رايت أن قصتي مع هذا الكتاب تشكل جزءاً من هذا التتابع التاريخي له من جهة، وخوفا من أي ادعاء وغرور من جهـة أخـرى، و لأنـني لا أريـد أن أتعاطى مهنة الأدب من جهة ثالثة. لابد من إيجـاز هـذه القصـة للقـارىء بشـكل مكثف.

ودون أن أدعي بأن هذا الكتاب لم يصل إلى يد عربية قبلي. كانت فرحـتي به غامرة.

ففي خريف 1986 م دفعتني الأقدار إلى ترك التدريس في جامعة الملـك عبـد العزيز في جدة بسبب مرض صدري أصـاب والـدي واكتشفنا لاحقاً في مستشـفى «ديجون» في «باريس» أنه بسبب فيروسات التبريد المركزي التي لايتحملها صـدر الشيوخ. ولأن إجماع الأطباء هناك كان بضرورة نقله إلى جو لايحتاج إلى التكييف، كان حقاً علي أن أبقيه في «أوروبا» وسرعان ما شكلت هذه الإقامة الطويلة والمملة له ولنا كعائلة كرست نفسها للاعتناء به، شكلت ضيقاً نفسياً، زاد عنده بازديـاد تحسن صحته نسبياً.

ولأن جو لبنان كان مثالياً له، لكنه مشتعل بالحرب الأهلية، قررنـا الإقامـة «بدمشق». وقد ساعد الإيثار الرائع الذي تتمتع به زوجتي وحبها المثالي لـه علـى إصرارها على مرافقته. تاركين لي فرصة العمل باي مكان أكاديمي مناسـب، علـى أن تصير «دمشق» مركز تلاقينا.

وبذات الوقت جاءني من جامعـة «روزهـل ـ برونكـس» في نيويـورك قبـول للتدريس فيها، كما وافقـت جـامعتي «فوردهـام» الـتي تخرجـت منهـا علـى أن أدرس في فرعها أيضاً في «منهاتن ـ لنكلن سـكوير» فكـانت فرصـة لكسـر عزلـتي الأكاديمية التي استمرت حتى خريف عام 1987 م.

أقول عزلتي الأكاديمية ولا أقول انقطاعي الأكاديمي، لأنني اهتبلت فرصـة إقامتي في باريس، بسبب استئجار منزل من مدير «البيبلوتيك ناسـيونال» صـارت

هذه المكتبة الضخمة معيناً لي لمزيد من الاطلاع على أعمال ومخطوطات «ابن خلدون» و «ابن الأزرق» ، وكذلك تفرغت لصياغة الكثير من أبحاث «ابن سينا» وخاصة كتاب «النجاة» باللغة الانكليزية.

وبذلك كنت مُعداً لرصيد لا بأس به من الأعمال التي يمكنني أن أحاضر بها في مواد الفلسفة المشرقية القرن وسطية.

وهكذا فعلت في نيويورك حين عهد إلي بتدريس علم الإجتماع والفلسفة القرن وسطية المشرقية.

وبطبيعة الحال كان لابد من التعرف على مدير مطبعة الجامعة لطباعة النصوص غير المتوفرة لطلابي، وللأسف كانت الخلفية الإعلامية و الدعائية ضد العرب فاعلة فيه. فيئست من إمكان تعاونه ولجأت إلى وسيلة الإملاء على الطلبة. إلا أنه مالبث أن عين وكيل جديد للجامعة، وكانت لي صداقة حميمة معه، ومع زميل له أسمه «جوزيف بروكاريو» والده مهاجر إيطالي فقير عمل على صقل مواهب ابنه الاكاديمية إلى الحد الذي مكنه من ترقية مهنته بتجارة الكتب إلى أن أصبح مختصاً بالمكتبات ، وناشراً من الطراز الأول في «نيويورك» فاستقطبت الجامعة هذا الناشر الفذ لتحسين مطبعتها، فأصبح مساعداً لمدير مطبعة الجامعة، وراح يحسن من إمكاناتها المحدودة نسبيا مما ساعدني بعمل «ببليو غرافيا» متكاملة لكل ماترجم إلى اللغة الإنكليزية من الأعمال الأكاديمية العربية قديمة وحديثة. وبذلك صارت لدي قائمة هامة بكل أسماء الكتب الكلاسيكية المترجمة من العربية إلى الإنكليزية.

ومكنني التوسع السريع والمنهجي لاستخدام «الكمبيوتر» في الجامعة والذي كان لصاحبي يد في تطويره أيضاً «روز - هيل» .. من نقل أي مرجع أشاء، أو أي مصدر مترجم من مكتبة الكونغرس الضخمة المعروفة ، قبل أن يرتد إلى طرفي.

وهكذا تلافيت عدم وجود نص لموادي بيد طلابي، بزخم هائل من المراجع، التي كل ما عليهم إزاءها هو تصوير النسخ التي أقدمها لهم منها.

ولما كان السيد «بروكاريو» مسهماً أساسياً بإعادة نشر كل أعمال «واشنطن ايرفنغ» بنفس صيغتها التقليدية التي ظهرت فيها في طبعاتها الأولى في القرن التاسع عشر. كان كتاب «الحمراء» بطبيعة الحال بجانب سريري أقرأ منه قبل

النوم، في كل يوم قصة جديدة. من ضمن كتب «ايرفنغ» الأخرى التي سبق لي ذكرها.

كذلك لأن السيد «بروكاريو» يسكن في نفس قرية «إيرفنغ» «تري تاون» في «نيويورك» تمكنت في بعض أوقات العطل من زيارة منزل المؤلف وقبره. ونحن نقضي الساعات الطوال حديثاً عن أثر الحضارة العربية غير المنظور في القارة الأميركية. والحاجة الماسة لنقل كتب «ايرفنغ» إلى اللغة العربية. والمساهمة إذا أمكن بتوسيع نشر كتبه خارج الإطار الأكاديمي في أمريكا نفسها، فيما لو تبنت هذا الأمر أي جهة عربية مسؤولة كرد مسبق على ماتصوره الدعاية الصهيونية عن العرب هناك.

لقد كان «السيد بروكاريو» وأمثاله من الأكاديميين الأمريكان وأخص بالذكر المرحوم الدكتور الأب فنست بوتر مساعد عميد جامعة فورد فوردهام والدكتور بايرون شيفر، وسواهم يشعرون بخطر نتائج التطميس الإعلامي للفكر والفلسفة العربية وتشويهها ، على تقدم الفكر الإنساني المعاصر، وتقصير الأكاديمية العربية من جهة أخرى بالرد على هذا التجهيل السياسي القصير النظر. وكل ماكانوا يستطيعونه هو استقطاب من يقدر من الامكانات العربية، التي يجب أن أعترف بأنها كانت أقل من أن أستطيع حتى الإشارة لها في هذا المجال.

وعلى كل حال ؟!

هذه هي أعمال «ايرفينغ» وسواه من سيوف الكلمة العربية في الغرب بيدي منذ عام 1987م، فماذا استطعت أن أفعل بها؟ ! علينا أن نعترف أن الإمكانات الفردية مهما أوتيت تظل حبيسة القدرة المحدودة. فأنا لا آمل أن استطيع حتى الآن 1995م سوى أن أقدم الجزء الأول من كتاب «الحمرا» على أحسن تقدير، وإن ساعدتني الظروف. ولولا الحماسة الشخصية لصديقي الأستاذ عبد الكريم ناصيف لكان حتى هذا شبه محال، فهو وحده حمل ثقل الاتصال بالناشر بحلب وصعوبة توصيل الأفكار.

هذا هو موجز قصتي مع هذا الكتاب والتي آمل أن أكون قد وضعت في ثناياها بعض ملامح هذا العصر الذي نعيش فيه، في موقفه من الحضارة والفكر والفلسفة العربية، على غرار نهج «ايرفنغ» بإضاءة قبسات الملامح. مع الاعتراف المسبق بكل صنوف التقصير عن بلوغ شأوه.

حصتي من الكتاب:

إنني منذ أن أنهيت رسالتي في الماجستير في الجامعة اليسوعية ثم اللبنانية في بيروت عام 1974م حول مفهوم «العصبية» عند ابن خلدون إلى أن نلت شهادة الدكتوراه في نيويورك في جامعة «فوردهام» عام 1974 بعنوان: «بدائل الفكر العصبي» وأنا أحاول أن اضع يدي على الأسباب الاجتماعية الرئيسية لانهيار وتداعي حضارتنا العربية بالصيغ المختلفة التي صيغت فيها في الماضي، ودواعي تراجعها المعاصر.

ولئن وضعني التاريخ المعاصر في صلب الحرب العشائرية الأهلية اللبنانية ــ بسبب ظروف الدراسة ــ فقد فرض علي التاريخ القديم مقارنة هذا الوضع الطائفي المتردي، مع دول الطوائف في الأندلس.

لذلك كان لابد لي من الغوص في الفكر الاجتماعي والفلسفي الأندلسي، لعليّ أدركُ تجربة ذاك الشقاق الذي لازال فعالاً في مجتمعاتنا العربية المعاصرة، فكانت الدراسات المطولة التي كتبت عن «ابن حزم» «وابن باجة» و«ابن طفيل» و««ابن رشد» ، وحتى عن «ابن ميمون» مروراً بالفكر الصوفي مع «ابن عربي» ومدرسة وحدة الوجود في صيغتها مع «اسبينوزا» أقول: كانت هذه الدراساتُ المطولةُ الأساسَ الذي شكل خلفية بحثي في رسالة الدكتوراة عن «بدائل الفكر العصبي»

وما إن أنهيت هذا العمل الأكاديمي الذي تطويه أروقة مكتبة الكونغرس اليوم، حتى التفت إلى مزيد من النشر حول هذا الموضوع في المجلات العلمية الأكاديمية الأمريكية، حتى كان البحث الذي نشرته في J P Q بعنوان: THE MYSTIC ANDSOCIETY، وله ضمن غيره من البحوث على الأقل فضلٌ في ترقيتي إلى استاذ مشارك حين كنت أدرِسُ في نيويورك، حتى عام 1993 م.

لكن كل هذا ظل حبيس الأروقة الأكاديمية من جهة، واللغة الإنكليزية من جهة أخرى.

ولم يفك هذه العزلة البحث الذي نشرته باللغة العربيةِ في النادي الأدبي الثقافي في جدة عام 1985 تحت عنوان «الفكر الاجتماعي الأندلسي» ــ المجموعة الثانية ـ ولاقبله ما كنت قد نشرته في لبنان بمشاركة المرحوم الدكتور كمال يوسف الحاج: (المسيحان والعصبية في الإسلام والصهيونية مطابع الكريم

الحديثة، عام 1973) . أو لاحقـاً (عصبيبـة لاطائفيـة، دار القلـم بـيروت 1982) فعدت إلى النشر المكثف في دمشق في مجلة الثقافـة الأسـبوعية والشـهرية، ومجلـة المعرفة. وعلى سبيل المثال لا الحصـر المقـال الـذي نشرته بالمعرفـة عـام 1991 / شباط حول ما يهمنا من البنيوية المعاصرة، ثم أسس الجهـل الغربـي بالحضـارة العربية 1992م آب. والإكراه الحضاري لأمتنا 1994 / ايلول.

وحتى المحاضرات التي ألقيتها في المركز الثقافي العربي بدمشق سواء في المزة أو العدوي أو أبو رمانة، والتي لاقت اهتمام وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة ـ مثـل «رسائل الفلسفة المشرقية» التي نشرتها جريـدة تشـرين 13 / 1992/4 علـى سـبيل المثـال لا الحصـر أو محـاضراتي في المركـز الثقـافي وطـىء المصيطبـة في بـيروت: «مقالات في الطبيعة الإنسانية ... التعصب والعصبية» كانون 2 /1994). أو كتـابي الذي نشرته 1995 بالإنكليزية THE RAHMANIC VERSES أقـول: حتـى كـل هذا لم يفك الطوق الأكاديمي والإطـار الجـامعي الصعـب بـين القـارىء أو السـامع العادي وبيني.

وإزاء هذا وأول ما يخطر أمام النقد الذاتي هو لوم قدرتي على نقـل الأفكـار الفلسفية والاجتماعية المعقدة بأسلوب سهل وبسيط يمكن لغير المختص أن يفهمـه. ومحك تعديل الأسـلوب هـو طبعـاً المحـاضرات العامـة، الـتي لم أجـد ولا في أي واحدة منها أي اعتراض على الفهم، بل على العكس من ذلك نالت رواجاً وفهماً أوسع مما كنت أتصور.

أما البديل الآخر للنقد فهو النقد السلبي للمجتمع بأنه مثلاً مجتمع لايقـرأ، وإن قرأ لايحب أن يتعب نفســه بمنظومـات الأفكـار الصعبـة، والـذي يحـاول أن يؤكده كل ناشر باللغة العربية مـن منطلـق أن أفضـل الكتـب الـتي تكتـب باللغـة العربية ، لايـوزع منهـا أكـثر مـن ألـف إلى ألفـي نسـخة علـى أحسـن الأحـوال. فمحطات الترفيــه التلفزيونـي بالأقمـار الصناعيـة، وتجـارة الفيديـو، قـد سـرقت القارىء العربي إلى غير رجعة؟!

وإزاء شعوري الذاتي كمحاضر أفنى من عمره أكثر من عشـرين سـنة يحـاضر في الجامعات العربية والأمريكية (إحدى عشرة سنة في جامعة الملك عبد العزيـز في جدة وثماني سنوات في نيويورك ونيو جرسي) عدا عن محاضراته العامـة الكثـيرة بكلتا اللغتين. ودعواتي كأستاذ زائر...الخ أقول: إزاء شـعوري الذاتـي بـأن لافـرق

بين متتبع المحاضرات العربي ونظيره الأميركي أو الغربي، ولا كبير فرق بين مقتني الكتاب العربي، ومقتنيه الغربي، فكلاهما متراجع نسبياً، وإن كانت الظروف الاقتصادية العربية تزيد من تراجع مقتني الكتب من القراء العرب. فلا بد من سبب آخر يخص هذه المنطقة من العالم دون سواها بما يخص هذا الطوق بين القارىء وبين الفكر العلمي والفلسفي والاجتماعي.

وقد لفت نظري إلى هذا السبب الآخر معاملة الجمهور ـ السامع ـ العربي في المحاضرات العامة لكل محاضر على أنه أديب.

فبمجرد أن تقف لإلقاء محاضرة، مهما كان عنوانها يدل على أنها علمية اجتماعية أو فلسفية، يظل الجمهور العربي يعاملك على أنك أديب يلقي خطبة ما؟!

حتى أن المتقعرين منهم يريدون أن يحاسبوك على بدائل المصطلحات العلمية التي تستعمل في إمكان إشتقاق عربي لها. وكأنه من المسموح للغرب أن يستعمل مصطلحاتنا، حتى البسيطة منها ــ قهوة سكر جبر كيمياء..الخ، ومحرم أن نستعمل مصطلحاتهم بأي لفظ عربي؟! زد على ذلك أن مراعاة الضمة والكسرة هي أهم ما يشد أذن القلة المتقعرة التي استطاعت أن تفرض قبلا على كل قارىء أو سامع أن كل ما يكتب أو يحاضر به خطأ لغوي لأنه يجب أن يكون أدباً؟!

هكذا بدا لي أن طغيان الأدب على القلم العربي، وعلى المنبر العربي، هو السبب الأساسي في إحكام تلك العزلة بين القارىء العربي وكل فكر آكاديمي علمي وفلسفي أو اجتماعي يطرح عليه.

وإذ يعلمنا علم الاجتماع استحالة المواجهة الفورية والآنية مع كل ـ قبْلية ــ اجتماعية أو فكرية عامة.لابد لنا من أن نقدم الفكر للقارىء العربي بصيغة أدبية. ونحن نعلم أنه وإن كان يعامل كل فكر على أنه أدب، قد مل في الوقت ذاته من كل الصيغ الأدبية الفضفاضة التي أصبحت رتابتها لاتثير أي جمالية جديدة عنده بل تعكرها.

نحن إذاً أمام قارىء متطلب، يريد الفكر بصيغ أدبية راقية، وفي الوقت نفسه يطلب شبه المستحيل من الفكر، أن يصير أدباً؟!

ومثـل هـذا المطلـب شـبه المحـال. لايمكـن أن يقدمـه سـوى قلـة في كـل الحضارات الإنسانية، من بينهم:

واشنطن ايرفنغ ، الذي اخترته هنا لأنني لاأدعـي اي قـدرة أدبيـة مشـابهه له، بل فقط لأنه يستطيع أن يوصل النمط الذي كرست عملي الأكاديمي الفلسـفي والاجتماعي في معظم جوانبه له. ألا وهو خط البحـث عـن إمكـان حـل معيقـات تقدمنا العربي نحو المعاصرة، اجتماعيا وفكرياً وفلسفياً.

واستطاعته وصل هذا الخط عن طريق الأدب، لا أطلب منها الكمال الفكـري بقدر ما أطلب لفت النظر، للقارىء العربي المتطلب الذي أعاقه الأدب للأسف ولا زال يعيقه عن كل شمولية فكرية، حقيقية تطالبه بالغوص في عمق الفكر دون أي مغريات جمالية.

وإنني إذ أقدم الجزء الأول من هذا الكتاب باسمي أضع الشص الذي أريد به أن أجلب القارىء إلى البحث الأعمق الذي جعل مـن الأديـب «ايرفنـغ» فيلسـوفاً عالماً ومستشرقاً ـ بالمعنى الجيد للكلمة ـ في الحضارة العربية. حتى لأكـاد أقـول: لولا هذه الحضارة لظل «إيرفنغ» مجرد أديب أمريكي راقي العبارة جميل التعبـير فقط.

الفكر والفلسفة العربية بقمة رقيهما في المجتمع الأندلسي هو هـدفي في تقديـم هذا الكتاب، أما قدرة نقل الجمالية الأدبية لنصوصه فمسـألة أخـرى. سـأحاولها بنصي في الجزء الأول مـن هـذا الكتـاب. وسـيجدها القـارىء بـإذن ا لله في الجـزء الثاني منه مع قلم الأستاذ عبد الكريم ناصيف الغني عن التعريف.

الدكتور

هاني يحيى نصري

مقدمة طبعة

1851 م

كتبت هذه الحكايات والقصص القصيرة كتابة أولية، حين إقامتي «بالحمرا»، ثم أضفت لها فيما بعد ملاحظاتي التي سبق أن دونتها ـ أثناء رحلتي إلى هناك. آخذاً بعين الاعتبار المحافظة على ألوان النظرة المحلية، لأظهر هذا العالم الأصغر ـ الأندلس ـ حياً ومعبراً ـ تماماً ـ كما ساقني حسن الحظ لأن أجد نفسي فيه. ولأن العالم خارجه ليست لديه إلا فكرة ناقصة عنه، حاولت أن ألتقط ـ وأبرز ـ وأعبر عن شخصية بنصفيها الشرقي والإسباني، في ذاك الخليط الأسطوري من البطولة والشعر، متتبعاً كل ما تلاشى في آثاره من العظمة والجمال. بهدف تسجيل تقاليد الفروسية التي نبعت منه، والتي كانت تجوب في قاعات ذاك الملك، بأسطورية خارقة جسدها عرق خليط من الناس، والشاهد عليها اليوم هو تلك الأطلال.

وقد ظلت أوراقي وملاحظاتي التي كتبتها حبيسة عندي مدة ثلاث سنوات ـ إلى أربع ولم أقرر تهيئتها للطباعة، إلا وأنا في «لندن» عام 1832 م ، عشية عودتي إلى الولايات المتحدة. لكن ظروف السفر وضرورة الاستعداد له حرمتني من

تلك المتعة. ولذلك لم أجمعها إلا بطريقة فوضوية عشوائية، كما أن جزءاً منها ظل غير مكتمل.

وفي هذه الطبعة أعدت تنظيم العمل ككل بتوسيع بعض أجزائه والإضافة إلى أخرى. حتى أوراقي الأصلية تضمنت تلك الإضافات لجعلها أكثر كمالاً، وبالتالي لتكون مهيأة للانتقاء والاختيار الأمثل.

واشنطن ايرفينغ

صيف، 1851 م

الرحلة

قاد الفضول وحب الاستطلاع مؤلف هذا الكتاب في ربيع 1829 إلى إسبانيا ــ وبدأ الأمر ـ برحلة استكشافية من سفيل ـ إشبيليا ــ إلى غرناطة، برفقة صديق من السفارة الروسية بمدريد. والصدف هي التي جمعتني ــ مع هذا الصديق ــ ونحن من طرفي العالم، كما جمعنا الذوق المتشابه، بالاندفاع إلى التطواف معاً في جبال الأندلس الرومنطيقية أما إذا كانت هذه الصفحات ستلاقي عينيه سواء كان الآن يقوم بواجباته الملكية في قصره، أو يتأمل عظمة الطبيعة التي اخترقتها مغامرتنا معاً. فإن لطفه لن يمحوه لا الزمان ولا المسافات بيننا، وكذلك أهميته ــ في هذا العمل[3] ـ

(3) :كان هذا الصديق المرافق للمؤلف الأمير الروسي «دول غوركي» الذي هو الآن ـ عام 1851م ـ وزير مفوض لروسيا في البلاط الإيراني

علي الآن إذا أن أقدم بعض الملاحظات عن هذه الرحلة الإسبانية، وما شاهدته فيها. فالكثير من الناس يعتبرون إسبانيا مجرد مقاطعة جنوبية ـ من أوروبا ـ تشبه إيطاليا بفخامتها. بينما وعلى العكس من ذلك بإستثناء بعض محافظاتها، تجد أنها بلد تغلب على معظمه الكآبة، التي تبرز بشكل جباله القاسية، وسهوله الممتدة الطويلة الصامتة والتي تشبه افريقيا. وغياب الطيور المغردة يضيف إلى ذاك الصمت تلك الوحدة. كما أنك ترى ـ الصقور ـ والجوارح تحلق في منحدراتها الجبلية، وتجوب سهولها، دون وجود أي طيور صغيرة كصفة مميزة لمعظم مقاطعات إسبانيا، باستثناء عدد قليل من تلك الطيور حول الحدائق العامة التي صنعها الإنسان.

وتمتد حقول القمح على مد النظر في المقاطعات الداخلية، كما تلوح للناظر بينها الأرض العارية دون إمكان رؤية من قام بفلاحتها. أما تحت الروابي فيمكن ملاحظة بعض القرى المزروعة بخرائب كأنها ناتجة عن معارك حربية مما يعطي لتلك القرى منظراً قاسياً، خاصة وإن تلك القرى كانت في الماضي ـ قبل تخريبها ثم إعادة بنائها فوق الخرائب ـ معاقلَ قوية في الحروب الأهلية. أو الغزو المغربي العربي ـ المور ـ . لذلك ظلت عادة التلاحم بين الفلاحين بعضهم مع بعض لتبادل الحماية راسخة في معظم أقسام إسبانيا ومقاطعاتها، للرد على كل حذاء يطأ أرضهم.

وهذا لايعني أن الغابات والأحراج غير موجودة في قسم كبير من إسبانيا حيث في تلك الأماكن ترسخ حضارة أرغد، يعكسها محتد كريم يظهر في صفات هؤلاء الناس. مما جعلني أفهم بشكل أفضل صفة الإباء والقسوة إزاء صفات الهشاشة عند الإسباني، بمجرد أن أعرف البلد الذي يسكنه.

إنَّ في الصفات الظاهرة للأرض الإسبانية شيئاً آخر ايضاً يضغط بشكل غير محدود على مشاعر الإنسان. فعظمة سهول (كا شتلا أوف لامنشا ـ منشأ سهول قشتالة) ـ الممتدة على مد النظر، بكل عريها وجلالها تملك صفات البحر المحيط، خاصة حين تلتقط العين قطيعاً من البقر هنا وهناك يرعاه راع واحد، يقف كالتمثال. بعصاه الطويلة كالرمح المرتفع في الهواء. أو حين ترى قافلة من البغال تتحرك من بعيد وكأنها قافلة جمال في الصحراء. أو تلمح فارساً وحيداً مسلحاً بغدارة وبندقية يطرد حصانه في السهول. مما يجعلك تشعر ان العادات ـ وحتى شكل البلاد والناس ككل به شيء من الشخصية العربية. على أن الاستعمال

الواسع للسلاح في هذه البلاد يوضح بشكلٍ بين جداً عدم الأمن العام فيها. فللفلاح في الحقل، وللراعي في السهول دائماً خنجر وغدارة وبندقية. ومن النادر أن يذهب الأثرياء إلى السوق بدون مرافقة خادم مسلح. وحتى أقرب رحلة يجري التهيؤ لها بما يشبه الذهاب إلى الحرب.

إن المزاج الخاص الذي أنتجته أخطار الطرق حين الترحال، يشبه إلى حد بعيد ما يحصل في القوافل في الشرق، حيث تلحق بها المرافقة المسلحة في يوم محدد. لذلك يقلل المسافرون الإضافيون عددهم ، و يعتمدون على قوتهم الذاتية. وبهذه الطريقة البدائية تتحرك التجارة في تلك البلاد. من جبال البرنيه ـ البرنس ـ والآوسترا إلى البكازارا ـ البقصار ـ والسيرادي روندا حتى جبل طارق. حيث على المسافر أن يعيش عيشة قاسية ويعتمد في بضاعته وزاده على نفسه مزوداً راحلته بزق ٍ مائه المدلى على سرج حصانه، والذي يحوي الماء بقدر مايحوي الخمر أحياناً، بسبب نضابة الماء في تلك الجبال الجرداء والسهول العطشى. أما فراشه فهو من جلد البغال يفرشه تحته لينام في الليل، ومخدته سرج حصانه. والمسافر الإسباني قوي البنية، أسمر القسمات، هادىء في التعبير ما لم تستفزه حركة مفاجئة. وهو صريح في تعامله، لايمر عليك دون أن يحييك بعبارة: «ليحمك ا لله » أو : «ا لله معك أيها الفارس».

وتظل أسلحة هؤلاء الرجال بأيديهم، أو معلقة على سروجهم استعداداً لإشهارها بسرعة مستميتة، لأنهم يحملون معهم كل ثروتهم دوماً. كذلك يعتمدون في حمايتهم على عصبتهم ضد الخارجين على القانون «الباندوليرو» الذين من طبعهم الهجوم فرادى بخيولهم الأندلسية السريعة، معتمدين على تسلحهم التام، ومناورتهم حول القوافل، لانتهاز فرصة مناسبة للهجوم.

وعند الإسباني مستودع ضخم من ا لأغاني ـ الشعبية ـ التي تمجد مغامرات الترحال بأنغام قاسية تغنى بصوتٍ مرتفع. وعند معظمهم أدوات العزف التي يعلقونها على سروج خيلهم. وغالباً ما تكون «الكوبلة» أو النغمة المغناة رومانسية عن آيام العرب القديمة، أو أساطير بعض القديسينٍ، أو عن قصص الحب، أو مغامرات قطاع الطرق «الكونترا بانديستا» التي غالباً ما يتشجع بها اللصوص والمهربون الذين يتمتعون بموهبة شعرية، غالبة بصورة عامة على الطبع الإسباني. ويقال إنها من وراثة العرب هناك. وهي تعبر عن شعور الوحدة

والقسوة الذي تحركه سكنى القفار بالنفس. ويرافق كل هذا طنين أجراس البغال المصاحبة.

إن رؤية قافلة البغال في الممرات الجبلية ذات تأثير بصري آخاذ. حيث تسمع أول ما تسمع صوت الأجراس التي تقطعها الريح ممزوجاً أحياناً بصوت سائسها الذي يلاحق أحدها، أو يغني بملء صوته أغنية تقليدية. ثم ترى بعد ذلك البغال وهي تتحرك ببطء على جوانب المنحدرات إما فوقك أو تحتك حسب مكانك في الجبل. وكلما اقتربوا منك تتبدى معالم زينتهم الخلابة، وسروجهم الملونة. وحين يعبرون بك يظهر وراءهم حامي القافلة الذي يعطيك فوراً الشعور بخطر الطريق وعدم أمنها.

ومملكة غرناطة التي نحن على وشك الدخول إليها، واحدة من أكثر المناطق الجبلية في إسبانيا «فاست سيرا» وهي عبارة عن سلاسل جبلية شامخة مليئة بالرخام والغرانيت. وفي قواعدها القاسية وادٍ خصبٍ تتجاذب الحدائق كتل الصخور فيه، حيث يخرج من جوانبها التين والبرتقال والليمون، والورود والرياحين المتفتحة.

وعبر هذه الممرات الجبلية الموحشة القاسية تبرز أحياناً مناظر قرى أو مدن محصنة، وكأنها أعشاش النسور فوق المنحدرات وتحيط بهذه المدن أو القرى المواقع الحربية العربية - القديمة - أو البروج العالية المهدمة التي تشرف من القمم العالية. مما يعيد الذهن فوراً إلى الأيام الخوالي للفروسية في الحروب التي كانت دائرة بين المسيحية والإسلام، وخاصة في ذاك الصراع الرومانطيقي حول إعادة فتح غرناطة. ويضطرك السفر في هذه السلاسل الجبلية إلى النزول عن حصانك أحياناً، لتقوده صعوداً أو نزولاً على ما يشبه الدرج المحطم. حيث يتسع الطريق حيناً ليضيق أخرى على هذه المنحدرات الخطرة. المليئة بكل أخطار الطبيعة واللصوص مما يشعر المسافر كأنه طريدة، فهو قد يكون تحت مراقبة أحد اللصوص في هذه اللحظة. أو أنه سيقع تحت حوافر حصان أو ثور أندلسي - ثور مصارعة - فيما لو ظهر الوادي فجأة أمامه. والتفكير بهذه الحيوانات الخطرة التي يمكنها أن تكون قريبة من متناولك. ومنظر هذه الثيران وهي تخفض رؤوسها على تلك المرتفعات الشاهقة الصخرية، يضيف على المنظر ككل مزيدا من الوحشة، خاصة وأنها لم تر وجه إنسان عدا رعيانها، وحتى هؤلاء لايجرؤون على الاقتراب منها، لقوتها الهائلة المنفلتة في البراري.

ولعل قصدي اللاشعوري من هذا الوصف المطول هو الحديث عن المعالم العامة للسفر بإسبانيا، غير أن هناك إضافة لكل هذا شيئاً رومانطيقياً حول هذه الجزيرة - الإيبيرية - يعجز الوصف عن تصويره.

ولأن الطريق إلى غرناطة يمر عبر مناطق جبلية، وممرات ضيقة لاتصلح إلا لقوافل البغال، فهو أفضل مكان للصوص وقطاع الطرق. وبوضع هذا الأمر في اعتبارنا رحنا نتقدم ببطء مما استغرق منا عدة أيام لقطعه. كما أننا لم نأخذ معنا إلا الضروري من الثياب والغذاء والمال لمثل هذه الرحلة، مع بعض الدولارات الإضافية لدفعها كخوة» لقطاع الطرق لإرضائهم. حيث أن المسافر الفارغ اليدين الذي يقع بين ايدي هؤلاء السادة سيء الحظ جداً. حيث يعتبرونه وكأنه يغشهم ويحتقرهم، فهم أولاً وقبل كل شيء لم يخاطروا - ضد القانون كي لايحصلوا على أي شيء.

ولأجل هذا جهزنا عدة ركائب لأنفسنا، وأخرى لمتاعنا، وأخرى للدليل الذي كان أيضاً يحرسنا، وهو في العشرين من عمره، يتمنطق سلاحه الذي وعدنا أن يدافع به عنا ضد كل معترض. ولكن عصابة قوية كعصابة «أبناء إيسيبما» أقر لنا بأنها أكثر من قدرته. ورغم إظهاره سلاحه لنا كي نراه، كان يتركه معلقاً دون ذخيرة خلف سرجه.

أما الذي استأجرنا منه الخيل فقد تعهد بنفقات إطعامها أثناء الرحلة، ورغم هذا التعهد ظل هو والخيل يعيشون على حسابنا ، والمال بجيبه لاينفق منه. ولكي نفوز بولائه لنا كان لابد لنا من تضييفه بعض «السيكار» . وهو في الواقع إنسان ذو قلب طيب وسريرة جيدة، ومرح. عاملناه بإلفة كاسبنيار حقيقي، وهو من طرفه لم يتخط حدوده.

تلك كانت تجهيزاتنا الأولية للرحلة . والأهم من كل هذا تمتعنا بروح المرح على أن نأخذ الأشياء كما نجدها، صعبة أو سهلة. لذلك كان زينا أشبه بزي قطاع الطرق ،وكنا نختلط بكل الطبقات، ونواجه كل الظروف التي تواجه مثل هذا الاختلاط. وهذه هي الطريقة الصحيحة للسفر في إسبانيا. فبمثل هذه الإرادات صارت أسوأ الفنادق كأحسن القصور بالنسبة لنا، وشكلت كل وجبة نتناولها إنجازاً بحد ذاته. فالنكهة النفيسة للرومانطيقية الإسبانية القديمة هي في الطرقات الصعبة شبه المتوحشة مع الوجه الرحب المضياف.

بهذه التجهيزات تحركنا من ضواحي إشبيلية «فيرسفيل ستي» في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم مشرق من أيام «مايو» يصحبنا سيد وسيدة من معارفنا سارا معنا عدة أميال، كما العادة عند الإسبان في إظهار ودهم لمعارفهم وأصحابهم. وهكذا سرنا في طريق «الكالا» ـ القال ــ بجانب نهر «آييرا» الذي يزود إشبيلية «سفيلا» بالماء. ومررنا بالمعامل التي تصنع«عيش ا لله» والمخبز الذي يزود المدينة بالخبز الشهي، ومعظم أبناء المدينة من الحرفيين الذين ينقلون بضائعهم إلى عملهم على قوافل من البغال.

وكذلك مررنا على الخزانات التي تزود اشبيلية بالماء من ـ القال ــ «الكالا» والتي بناها الرومان ثم العرب بدقة هندسية متساوية. مع ملاحظة أن ينابيع ــ القال ـ «الكالا» الحارة كالفرن تضفي على خبز إشبيليا ـ «سفيلا» نكهته الخاصة.

وعند هذه الينابيع توقفنا بعض الوقت في خرائب قصر عربي قديم، يعد مصيفاً للمدينة، حيث أمضينا وقتاً طيباً داخل فنائه الضخم المعمد بالعمد والبقايا المهدمة، والمحاط بجدران عريضة جداً. بينما الرياح تعصف بالهضبة كلها، والتي تحفل بالزهور بألوانها الزاهية تحت أشجار البرتقال والليمون. وهنا سمعنا غناء العندليب على أفنانها.

والجسر الذي يقطع النهر الذي بنهايته الطاحون العربي التابع للقصر محمي ببرج مبني من الأحجار الصفراء، علقت عليه شبكة صيد لتجف، وقارب الصياد في النهر، وعلى ضفته تمر القرويات الحسناوات بأثوابهن المزركشة، يبدو كالصورة، ويشكل موضوع صورة زيتية رائعة لرسام فنان.

ولعل الصفة الأساسية من صفات الريف الإسباني هو منظر الطاحون العربية القديمة، التي تنتصب دائماً على جداول الأنهار الأندلسية، مع مايرافقها من بروج للدفاع، حيث يتمركز المحاربون في أيام الحروب المتكررة، وهي التي تدعو إلى تأمل ماضي هذا الريف، و تلك البلاد التي كانت دوماً عرضة للهجوم من قبل طرفي الحدود، والحاجة إلى الأبراج كملاجىء مؤقتة فيها.

وقد كان توقفنا الثاني في «الفاندول» حيث بقايا قصر عربي آخر مع برجه المصاحب والمطل على سهل «الكامبينا» الخصب الفسيح، والذي يمتد حتى جبل «روندا» البعيد. إن هذه القصور كانت معاقل قوية لحماية السهول من الغزوات والنهب الذي كانت تتعرض له المحاصيل والماشية التي تساق خارج الحدود.

وحين توقفنا في « الغاندول» لم نعـرف الوقت بدقـة، لأن السـاعة العامـة هناك تدق فقط مرة واحدة كل يوم فيما بعد الظهر بساعتين لذلـك يخضـع الوقـت عندهم إلى التخمين. وبناء على هذا التخمين قررنا الغداء وطلبنا «الباسـتا» وبينمـا هي تحضر زرنا قصر المركيز في المدينة وهو خرائب عدا غرفتين أو ثـلاث مسـكونة ومفروشة بأثاث فقير، كذلك ظلت بقايا من سطحه «تراسه» الذي كـانت تمشـي عليه خطوات الفرسان الرشيقة، مع نسائهم الشـقراوات، مـع حديقـة خربـة بهـا حوض سمك وعريشة، وأشجار نخيل تحمل رطباً. وهناك لحق بنا مسؤول القصـر وبيده باقة ورد جمعها وقدمها بلطف للسيدة التي ترافقنا.

أما تحت القصر فالطاحونة وأشجار البرتقال على جدول مـاء عـذب فتفيأنـا ظلالها. ورافقنـا بـالجلوس عمـال الطاحونـة الذيـن تركـوا عملهـم للانضمـام لنـا، معبرين عن طبيعة الأندلسيين المستعدين للراحة دوماً. وقد كانوا بانتظـار الحـلاق الذي يزورهم أسبوعياً لهندمة لحـاهم.وبعـد قليـل وصـل الحـلاق، وهـو صـبي في السابعة عشرة من عمره، يركب حمارا عليه سرج قال: إنه اشتراه بسعر معقـول، حوالي دولار واحد يسدده في عيد القديس «جون» - يحيى - حيث - يجتمع لديـه إلى ذلك الوقت مالٌ كافٍ لتسديد أقساطه.

وبينما كانت الساعة العامة في القصـر تـدق دقتيهـا، كنـا علـى وشـك إنهـاء غدائنا. فودعنا أصحابنا الذين رافقونـا مـن إشـبيلية وتركنـا عمـال الطـاحون مـع حلاقهم ليهندم لهم لحاهم. وركبنا باتجاه «كمبينا» لنعبر السهول الواسعة المعتادة في اسبانيا، والتي ليس فيها لاشجر، ولا بيوت. حيث يتعرض المسـافر فيهـا إلى المطر الغزير الذي لامأوى ولا مفر منه، إلا بالعباءة الإسبانية التي تغطـي الحصـان وراكبه معاً تقريباً، والتي يزداد ثقلها كلما ابتلت وكانت كلما. تخـف حـدة غيمـة ماطرة تعقبها أخرى، نراها وهي تتقدم نحونا ببطء. يعقبها لحسـن الحـظ فواصـل مشمسة دافئة دفء شمس الأندلس، التي تسمح لعباءاتنا أن تجف قبـل أن تعـود لتبتل ثانية ووصلنا إلى «الأرحال» بعد غروب الشمس بقليـل، وهـي قريـة صغـيرة بسفح الهضبة، مسلحة ومستعدة ضد اللصوص، ومنظر الغرباء أمثالنـا يبـدو لهـم كشيء غـير عـادي، وخاصـة حـين دخولهـم للقريـة وبمرافقـة مسـلحَينْ مغطيـين بعباءاتهما. تفحص مضيفي جواز سفري بدقة، وهو يملي على أحدهما معناه علـى ضوء فانوس خافت. حيث أن جوازي مكتوب بلغة أجنبية يصعب عليهم فهمهـا. لكـن مرافقنـا الـذي سـاعدهم علـى الفهـم ضخـم مـن أهميتنـا في أعـين هـؤلاء

«الإسبنيارد» بينما قمنا نحن بتوزيع «اسيكار» عليهم ففزنا بقلوبهم جميعاً، وبسرعة صار كل الناس يرحبون بنا. امتلأت الغرفة التي كنا بها بالكراسي، وازدحمت بالراغبين بالتعرف على هؤلاء الغرباء الزوار المرموقين. وهكذا تناول قائد المجموعة الحارسة العشاء معنا. وهو رجل مليء بالحياة والمرح الأندلسي، وأخبرنا أنه كان في غزو لشمال أفريقيا، ثم أعاد على مسامعنا مغامراته بالحب والحرب بقصائد مفعمة، أضاف إليها مزيداً من التعبير بحركات يديه وعينيه البراقتين. اضاف بأن لديه قائمة باسماء كل اللصوص في البلاد، وعرض علينا رجاله للمرافقة قائلاً : « إن واحداً منهم كافٍ لحمايتكم أيها السنيور. فاللصوص يعرفونني. ويعرفون رجالي. وحيث يظهر واحد منا يكفي لإشاعة الرعب في قلوبهم عبر كل «السييرا» فشكرناه على ماقدم، وأكدنا له بنفس أسلوبه بأننا وبحماية مرافقينا لن نخاف كل قطاع الطرق في الأندلس.

وبينما كنا نتبادل الأنخاب على ذلك سمعنا صوت «الغيتار» وطرقات الصنجات - التي توضع بين الأصابع - «كاستانيتس» مع صوت يغني أغنية شعبية. فقد فاجأنا مضيفي بأنه جمع في ساحة الفندق الذي انتقلنا إليه جميع هواة الغناء والموسيقى والراقصين في الحي المجاور، مما أعطانا شعوراً بالاحتفال الإسباني «الفستفال» الحقيقي. فوضعت كرسيٌ بين مضيفي ومضيفتي تحت القوس الذي يحمل سقف الساحة وإزاء قائد الفرقة الموسيقية. بينما تناقلت الأيدي الغيتار، حتى وصل إلى إسكافي أظهر براعة بالضرب عليه، وهو يلتف بعباءة ضخمة، وراح يغني أغنية حب جميلة، جمال ملامح قسماته، موجهاً كلماتها إلى امرأة كانت حتماً على علاقة حب معه. وعقب على ذلك بأن قام يرقص رقصاً أندلسياً يسر المشاهد. إلا أن جمال إبنة مضيفي «ببتا» التي تزينت زينة خاصة للمناسبة فاق جمال كل النساء الحاضرات، وخاصة حين ملأت شعرها بالزهور. ورغم كل هذا الخليط من القرويين و المسلحين والجنود، فإن أحداً لم يتجاوز حدوده في المرح البريء.

فقدمنا للجميع الشراب على حسابنا، وكان الانسجام يستأهل صورة زيتية فنية. فالراقصون والجنود بنصف لباسهم الرسمي، والفلاحون بعباءاتهم من جهة، وذاك العجوز الذي يكتب على الضوء الخافت لمصباح كبير مصمم على غرار مصباح «دونكي شوت» - دون في يوتي - الذي لا يلتفت من جهة أخرى يشكل صورة فنية جميلة.

وفي صباح اليوم التالي من أيام «مايو» المشرقة غادرنا «ارهال» ـ الأرحـال ــ في الساعة السابعة صباحاً. والناس على بيوتهم يودعوننا، باتجاه السهوب الخصبة التي تبدأ في موسم الحصاد في الصيف تكتسي اللون البني فتعطي الشعور بالخواء والوحدة. وكمسيرة الأمس لم يكن في طريقنا لاناس ولا بيوت فالقرى في معاقل الهضاب كأنها تركت تلك السهوب الخصبة لغارات العرب حتى الآن.

وعند الظهيرة وتحت ظل مجموعة أشجار نادرة في منتصف الطريق، حضرنا طعامنا محاطين ببقعة رائعة. من الأزهار البرية والعشب ذي الشذى. والعصافير تغني حولنا. وكانت زقاقنا مليئة بالخمر وجعبنا بالطعام لأننا كنا نعرف أننا لن نصادف أي مكان أوفندق نتزود منه بعد الأرحال فملأ مرافقنا خرج الدواب[4] بكل أصناف الزاد الذي يكفي مدة طويلة.

وفرش المرافق أمامنا الزاد على بساط الحشيش الأخضر وطيبه بلحم الخنزير الجيد الذي أحضرناه من اشبيلية. فتذكرت بهذه المناسبة أشعاراً قالها «دونكيشوت» ويعتبرها معظم الأسبان أنها قيلت في مناسبة تاريخية حقيقية، وحين تلوتها قال مرافقي: لقد حصل كل هذا في زمن بعيد ايها السنيور.

فأجبته: بزمن بعيد حقاً؟! حتى لأجرؤ على القول: إنه أكثر من ألف سنة، وأنا أنظر له نظرة شيطانية

ولأني لم أضف أكثر من ذلك دخل السرور إلى مرافقي. هذا البسيط القلب الذي لايسره شيء أكثر من مقارنته «بسانكشو» ــ مرافق دونكي شوت ــ فهو يعجب بولائه لعمله، لذلك سمى نفسه بهذا الاسم طوال الرحلة.

وبعد الغداء فرشنا تحت الأشجار ورحنا في قيلولة «سيستا» على الطريقة الإسبانية، إلى أن أنذرنا الغيم وريح الجنوب الشرقي بالهبوب فتابعنا السير حوالي الساعة الخامسة إلى أن وصلنا إلى «اوسونا» وهي قرية قائمة بجانب هضبة، بل قصر خرب وكنيسة، ويعيش فيها حوالي خمسة عشر ألف نسمة. أما الخان فيها فمنظره متواضع غير جذاب به نزلاء تجمعوا حول الموقد ــ الشومينة ــ في

---

[4] : والخرج هو اختراع عربي مصنوع من الجلد أو من القماش المتين وذو فتحات ضيقة، ويتدلى على جانبي الدابة تحت السرج أو فوقه أو خلفه

ـ المؤلف ـ

زاويته بسبب البرد الليلي. و المضيفة فيه امرأة مسنة جافة تبدو مثل «المومياء» وبينما نحن ندخله حدقنا الجميع على الطريقة الإسبانية في البحلقة، التي ينظر بها الإسبان إلى الغرباء. والتي كان يجب أن نقابلها بابتسامة وتحية فرحة من جانبنا، لإضفاء جو التفاخر الإسباني. ثم جلسنا معهم وأشعلنا سيكاراً لكل منهم، وبذلك تحقق لنا النصر الكامل. فأنا لم أعرف أي إسباني يرفض سيكاراً مهما كانت درجته أو مكانته، لأن هذه الهدية لايستطيعون مقاومة إغرائها، شرط أنك حين تقدم شيئاً ـ للإسباني ـ أن تهتم بأن لاتظهر عليه أي شيء من التعالي، فهو لايقبل أي خدمة تقدم له على حساب كرامته.

وبمجرد أن غادرنا «اوسونا» في اليوم التالي دخلنا في «السييرا»، وهي مجموعة من السلاسل الجبلية، بها طرقات جميلة كاللوحات الفنية. لكن الدخول بطرقاتها الفرعية يضفي شعوراً بالوحدة، حيث علائم الجرائم هنا وهناك. كدليل على أننا نتقدم في مناطق قطاع الطرق. وتشتهر هذه البلاد الموحشة بسهولها وجبالها، بالخارجين على القانون «بانديتو». ومنذ القديم كان هنا يربض اللص «عمر بن حسان» في أيام المسلمين، في القرن التاسع ويفرض الجزية حتى على الخليفة في غرناطة. كذلك كانت هذه المنطقة مهد الثورات والانتفاضات أيام «فردناند وإيزابيلا» والتي كان يقودها « علي العطار» السيد ـ السيد ـ القديم للأقصى «لوكاس»، والذي كان والد زوجة أبي عبد الله(5) «بابدول». آخر ملوك الأندلس من العرب الذي طرده «فردناند وإيزابيلا». ولذلك سميت هذه المنطقة بحديقة علي العطار. وهنا أيضاً كان «جوز ماريا» الإسباني المشهور بقيادة العصابات يتخذ مكانه.

وخلال النهار مررنا عبر « فونتا لابيدرا» ـ نبع البيدر ـ بجانب بحيرة مالحة صغيرة لها نفس الإسم، وتعكس على صفحاتها الجبال البعيدة كالمرآة. حيث بدت معالم «أنتي كويرا» على أطراف سلسلة «السيرا» التي تخترق الأندلس، تلك المدينة القديمة ذات الشهرة الحربية الواسعة. وقد بدت كبقعة خصبة مؤطرة بإطار من حجار الجبال. ثم دخلناها بعد أن عبرنا نهراً صغيراً رقيقا

---

(5) : التي قالت لزوجها قولتها الشهيرة: «ابك على ملكك بكاء النساء، لأنك لم تحفظه حفظ الرجال». كما ينسب هذا القول لأم ابي عبد الله، وقد وضعه الأدب العربي في بيت مشهور هو:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال. ــ المترجم ــ

كجدول بين حدائق وأزهار يغـرد فيهـا العندليـب أغنياتـه المسـائية. ومـع حلـول الظلام كنا على أبواب المدينة الإسبانية الصبغة والطابع في كل ما فيها. فكان كبار السن يعتمرون «المونتر» وهو غطاء رأس أصله للعيد وشـائع الاستعمال في إسـبانيا. بينما يعتمر الشباب غطاء رأس أصفر مستديراً على شكل قبعة، يلفها شريط فيبدو شكلها كالفنجان الموضوع بالصحن. أما النساء فلا زلن يعتمـرن «الباسكويتا» ربما لأن الأزياء الباريسية لم تصلهـن بعـد وعبرنـا شـوارع المدينـة لنصـل إلى سـاحة «القديس فرنارندنا ومنها إلى فندق رث غير معتنى بـه، لأن المدينـة ليسـت علـى طريق المسافرين لذلك لاعناية بفنادقها. لكن غرف هذا الفندق نظيفة وطعامه وفير. ولذلك ذهب «سانكشو» إلى المطبخ كما كان يفعل خادم «دونـك وفي الصبـاح البـاكر من الرابع من «مايو«زرت خرائب القصر العربي هناك والذي كان قد بني على أنقاض قلعة رومانية.وعلى أنقاض برج من أبراجه المتهدمة جلست لأتمتـع بمنظـر الأرض المنبسطة أمامي والمزارع المليئة بالجمال والقصص الرومانطيقية الماضية. فأنا الآن في قلب البلاد الشهيرة بالتنافس الفروسي بين العـرب والمسـيحيين. وتنتمـي المدينة التاريخية التي ذكرهـا المؤرخـون في موسـوعاتهم والـتي مـن أبوابهـا خـرج وتصارع الفرسان الذين كانوا من أرقى، وأرفع الرتب من الإسبان، مع نظيرهم مـن العرب خلال الحروب التي رافقت فتح غرناطة. والتي انتهت بمذابح مروعة علـى جبال «مالاغا» ـ ملقا ـ تاركة كل الأندلس في حداد. وكل هذا الآن مغطى بالحقول والأزاهير، حتى صخرة العشاق المتمطية في السهل، والتي القت ابنة السيد العربي وعشيقها نفسيهما عليها من اليأس، لازالت باقية.

وحين بدأ جرس الكنيسة التي تبدو تحتى من السفح يدق تراتيل الصبـاح في الهواء العذب بدأت أنزل نحو المدينة باتجاه السوق الذي بدأت تدب به الحركـة والزحام، حيث تعرض البضائع وتباع الورود، فكل امرأة أو فتاة أندلسية لاتعتـبر فستانها كاملاً دون وردة تزينه.

ولما عدنا إلى الفندق وجدنـا صاحبنـا «سانكشـو» مـع صـاحب الـدار وإبنيـه المسلحين، يتحدث عن قصص «إشبيليا» الرائعـة ويقابلهـا بمـا حصـل في المـاضي الأندلسي عندهما. وهنا أخبره مالك الفندق ـ أنه كان في المدينـة بحـرة في إحـدى ساحاتها العامة إسمهـا «بحـرة الثـور» ماؤهـا يخـرج مـن فم راس ثور محفور بالصخر وتحته كتب:

EN FRENT DEL TORO SE HALLEN TESORO

أي : أمام الثور يوجد كنز. مما دفع الكثيرين إلى حفر البحرة، بجهد ضائع ولم يجدوا مالاً. إلى أن فسر أحد الأذكياء الشعار بطريقة مختلفة، بمعنى أن الكنز في رأس الثور، فجاء ليلاً وكسر رأس الثور. فماذا تظنه وجد؟!

قال «سانكشو»: الكثير من الذهب والماس!!

فأجابه المضيف صاحب الفندق ضاحكاً مع أبنائه: لاشيء لقد دمر التمثال والبحرة فقط. وظلوا يقهقهون لأن القصة مشت على «سانكشو» ومشت عليه خدع الألفاظ فيها.

ـ فحملها «سانكشو» في نفسه دون أن يظهر ذلك ـ ثم تركنا «انتيكوبرا» في الساعة الثامنة صباحاً، وركبنا بمحاذاة النهر عبر حدائق الأوركيك التي تملأ الجو بالعطر، و تغريد العندليب، ومررنا بصخرة العشاق، ثم قطعنا خلال الصباح «أرشيدونا» ـ قرية أرشدونا ـ المحاطة هضبتها بثلاثة أبراج جبلية، وبها خرائب قصر عربي ويقطع القرية طريق معبد بالحجارة يسمونه: «الطريق الملكي للحقول» وكان علينا أن نجتاز هذه القرية نزولاً من الجهة الأخرى من الهضبة التي تربض عليها.

ومع الظهيرة كنا في حقول الزيتون في موقع مطل مددنا على أعشابه سماطنا، تاركين لسانكشو مهمة إعداد الطعام، وخيولنا لترعى بالقرب منه. وهو صامت خلافاً لعادته هذا الصباح منذ أن سخر منه صاحب الدار. ويهيء «الفورجاز» ـ الفالوذج ـ بفخر من استطاع أن يضيف لزوادته من كل أصناف طعام الفندق المختلفة من لحم خنزير ودجاج وخضراوات إضافة إلى عدة أرغفة وكمية من الفواكه والتين والزبيب والبندق، وخمر من «مالغا» ـ ملقة ـ وهو يسترجع بين الفينة والأخرى قصة بحرة الثور ويضحك قائلاً : لقد ظنوا أن سانكشو خدع في «الأنتكويرا» لكن «سانكشو» يعرف اين يجد الكنز الحقيقي!!

وبينما نحن كذلك برز لنا شحاذ يمشي وحيداً، وكأنه عائد من الحج، ومعه خبز رمادي عفن قديم، وبيده عصاه يتكيء عليها رغم أن الزمن لم يحنه بعد، إذ كان طويلاً منتصباً أكل الزمن منه بشكل متناسب. ويعتمر طاقية أندلسية مستديرة، وعليه رداء من جلد الخروف، ويلبس بنطالاً يصل إلى ركبتيه فقط من

الجلد، تحته شراب وصندل. وبذلك بدا لباسه القديم محتشماً. وحيانا بطريقة الطبقة الدنيا للإسبنيارد. لكن مزاجنا كان يمكنه تقبل مثل هذا الزائر، الذي يبدو كطالب صدقة مزيف. فأعطيناه رغيفاً سميكاً من الخبز، وقليلاً من خمر «ملقة» فتقبلها شاكراً بصورة مقتضبة، ثم رفع الخمر إلى الضوء دهشاً قبل تذوقها، وجرعها دفعة واحدة، وقال: لقد مضى مدة طويلة قبل أن أتذوق مثل هذه الخمرة، إنها منعشة لقلب رجل عجوز مثلي. ثم نظر إلى الرغيف وقال: ليتبارك مثل هذا الخبز.

ثم وضعه في محفظة. إلا أننا طلبنا أن يأكل منه الآن!!

فأجاب: لا أيها السنيور، لقد كان علي إما أن أشرب الخمر أو أتركه أما الخبز فباستطاعتي أخذه إلى المنزل لأتقاسمه مع أسرتي. لذلك وبسبب هذا التعبير، وما تنم عليه نظراته التي لاحظها «سانكشو» قدم له وليمة على شرط أن يجلس ويأكلها.

فانتبذ مكاناً قصياً عنا، وبدأ يأكل ببطء وكرامة وأناة. دلالة على أن هذا الرجل العجوز يمتلك زمام نفسه، مما جعلني أعتقد أنه كان في رغدٍ سابق، إضافة إلى أن لغته رغم بساطتها تبرز بها صيغ شعرية عابرة في صيغة جملها. إلى حد أني أعتبره فارساً حط به الدهر. والواقع أنني كنت مخطئاً، فكل هذا لم يكن إلا تعبيراً عن ذات كل اسبنيارد. إذ يمكنك أن تجد الرقة الشاعرية في أوضع الطبقات لهذا لشعب الحاد الذكاء. وهو حين أخبرنا أن مهنته كانت منذ خمسين سنة رعي أغنامٍ، لكنه الآن عاطل عن العمل ـ تداركت خطأ حكمي السابق عليه ـ ثم أردف قائلاً: لم يكن أي شيء يؤذيني أو يزعجني لما كنت يافعاً، لذلك كنت دائماً مرحاً وأشعر بالرضا. ولكنني وقد بلغت التاسعة والسبعين بدأ قلبي يخذلني فصرت شحاذاً.

وعرفنا أنه لم يكن يشحذ دائماً، بل يشحذ حين تجبره الحاجة على مثل هذه المهانة، كما أعطانا انطباعاً يدل على الصراع في نفسه بين الجوع والكرامة. خاصة عندما تعرض الأشياء عليه لأول مرة. ولأنه كان عائداً من «مالطا» بدون مال، ولم يذق طعاماً منذ زمن، وهو يعبر أوسع سهول اسبانيا الخاوية تقريباً. من السكان، وإزاء مشارفته على الموت ـ شحذ ـــ . وأخبرنا أنه حين شارف على الموت، طرق باب خان سائلاً أصحابه أن يعطوه من مال الله. ولما كان الجواب

الإسباني رفض كل شحاذة، قال: لكرامة قلبي ـ ونفسي ـ علي اقتربت من نهر عميق وكدت أرمي نفسي فيه، فما قيمة العيش لرجل عجوز لاقيمة له مثلي؟! ولكنني عندما كدت أندفع في التيار، فكرت بمريم العذراء، فعدت أدراجي؟! واستمررت بالسير حتى رأيت معالم قرية بعيدة قليلا عن الطريق، ودخلت من الساحة إلى بوابة الدخول التي كانت مغلقة. فأغلق الشباك في وجهي. مما اضطرني إلى العودة إلى الساحة وقد غلبني الجوع وإنهار قلبي، حتى ظننت أن ساعتي قد أزفت، فاستلقيت أمام الباب مسلماً نفسي للعذراء ومغطياً رأسي استعداداً للموت. وبعد قليل ظهر سيد المكان عائداً إلى بيته، فرآني مستلقياً أمام البوابة، فرفع الغطاء عن وجهي، وأشفق على شيبتي، وأدخلني إلى منزله، وأعطاني طعاماً. وهكذا ترون أيها السادة أن على الإنسان أن يشعر دوماً بمريم العذراء؟!

لقد كان هذا الرجل العجوز في طريقه إلى مسقط رأسه «أرشيدونا» ـ أرشدونا ـ التي كانت تبدو على المنحدر من ذاك الجبل القاسي. فاشار لنا إلى خرائب قصرها، وقال: ذاك القصر كان مسكوناً بملك عربي أيام الحروب في غرناطة، وغزته الملكة «ايزابيلا» بجيش كبير، فنظر إليها الملك العربي من عليائه وسخر منها. فظهرت العذراء للملكة أثناء ذلك، وقادتها وجيشها بطريق سري لم يكن معروفاً من قبل عبر الجبل وعندما رأى ملك العرب جيشها امامه اندهش وقفز بحصانه من قمته، فوقع إلى الأرض قطعاً، وعلائم حوافر حصانه يمكنك رؤيتها على هامش الصخر إلى هذا اليوم. وكما ترى أيها السنيور فإن ذاك الخيط الذي يبدو كالشريط على جانب الجبل، هو الطريق الذي عبره جيش الملكة والمعجزة هي أنه رغم إمكان رؤيته من بعيد، فهو يختفي عندما تقترب منه؟!

وهذا الطريق المثالي الذي أشار إليه، كان بلا شك حزاما من حول الجبل، لايعود منظوراً حين الإقتراب من الجبل بسبب نتوءات الصخر، لكنه يتضح حين الاقتراب أكثر.

وبعد أن لعبت الخمر بقلب هذا العجوز، راح يخبرنا عن قصة الكنز المدفون الذي تركه الملك العربي في ذاك القصر. وكيف أنه لقرب منزله من القصر سمع صهره في إحدى الليالي ـ وقع معاول الخوري ونائبه اللذين عرف فيما بعد أنهما رأيا الكنز في الحلم ثلاثة أيام. لكن أحداً لم يعرف ماذا وجدا. إلا أن المعروف هو أنهما أصبحا أغنياء فجأة، دون البوح بسرهما لأحد. وهكذا أكد لنا هذا الشحاذ

أنه كان جاراً قريباً من ثروة ضخمة في يوم من الأيام. لكنهـا قـدر لهـا أن لاتكـون تحت سقفه.

و نلاحظ أن قصص الكنز المخفي من أيام العرب شائعة في كل اسبانيا، وفي كل مكان فيها، ومتداولة بين الطبقات الفقيرة جداً. ومثلهم في ذلك مثـل الرجـل العطش الذي يحلم بالماء والبحيرات، والجائع بالطعام، كذلك يحلم هؤلاء الفقـراء بـالذهب المخفـي، ولا شـيء أكـثر سعة في تخيـل مثـل هـذه الأمـور مـن خيــال الشحاذين.

تابعنا مسيرنا، بعد ظهر هذا اليوم نحو جبل منحدرٍ عـاس وكثـير الشعـاب يسمى طريق الملك، والذي يعتبر أحـد أهـم الممـرات نحـواً غرناطـة، وهـو نفـس الطريق الذي عبره جيش «فردناند» باتجاهها. ثـم أخـذ الطريـق بالاتسـاع مـع تقدمنا وحلول المساء فرأينا «لوكاسا» ـ الأقصى ـ تلك المدينة الحدودية التي ردت «فردناند» عن أسوارها، ولأن اسمها العربي هـو : «الأقصـى» فهـي تعـني البعـد الآخير، وتعـني «القـدس» أو الحـامي. فهـي حقـل غرناطـة وإحـدى حامياتهـا المتقدمة. وقد كانت في تلك الأيام معقلاً للمقاتل الناري «علـي العطـار» هـو أبـو زوجة «ببدول» ـ عبد الله ـ حيث جمع جنوده هناك وظل يقاتل بهم ـ بعد سقوط غرناطة ـ حتى أسر هذا السيد ـ السيد ـ وقتل صـبراً. فـالأقصى لم تقبـل بتسـليم مفـاتيح غرناطـة لأنهـا هـي البوابـة الحقيقيـة لهـا، وموقـع القيـادة نحـو الممـر باتجاهها . ومنظرها كلوحة مرسومة على جبل قاس يزيده بهاءً قلعتها الداخليـة التي تبرز من وسط المدينة. أما النهر الذي يتمسَّح بأقدامها، ويعصف بين الصخور والمنحنيات نحو بساتينها فعليه جسر بناه العرب. أما كـل مـافوق المدينـة فمـار من الأشجار وموحش وقاس. وعلىالنقيض منه بساتينها الوارفة فوق كـل تصـور، والنهر هو الذي يفصل بين هذا الاختلاف المتعارض بين مافوق الجسر وماتحته من حدائق وجنات، ويسير بانحدارات مائيـة ذات خريـر آخـاذ. ويمثـل الحـدود الأخيرة لهذه الأرض المتنوعة، والأكثر رومانطيقية في اسبانيا ـ الأندلـس ـ الجبـل الملكي لغرناطة والمعمم بالثلوج، «السيرا نيفادا» ـ السير النافذ ـ.

وحين ترجلنا علـى مدخـل المدينـة، وأخـذ «سانكشـو» الخيـول ليضعهـا في الخان، بدأنا بالتجول في هذا الحصن على صوت دقـات جـرسٍ الكنيسـة، الـذي يؤذن بوداع يوم العمل، ومعه بدأ النـاس برفـع قبعـاتهم تهيـؤاً للصـلاة المسـائية. كعادة تلاحظ في كل اسبانيا ناتجة من ذاك الخضوع العنيف للكنيسة، وخاصة في

الأماكن النائية منها. ومع ذلك كان مشهداً مسائياً جميل الغسق، يشير إلى بداية ظهور القمر اللامع بين ذرا النخيل. ولم ينبهنا من هذه المتعة الهادئة سوى صوت صاحبنا المتقطع الأنفاس الذي اندفع يبحث عنا وهو يقول: سيدي إن سانكشو لايساوي شيئاً دون دونكه شوت. فقد أقلقه عدم عودتنا إلى الخان ـ الفندق ـ بمثل هذه المدينة التي فيها الكثير من قطاع الطرق والدخلاء، فالأقصى مشهورة بوحشتها هذه، وهو لم يعرف ماذا يمكن أن يكون قد حصل لنا. لذلك انطلق يبحث عنا سائلاً كل انسان يصادفه، حتى تتبعنا عبر الجسر فلمحنا عبر الظلال!!

وعدنا معاً إلى النزل الذي دلنا عليه والذي لازال يحمل روح الأمس باسمه «كورونا» أي التاج. وكانت مضيفتنا أندلسية يافعة جميلة. أرملة تتشح بمئزرٍ أسود يزيد شكل جسدها بضاضةً واستدارة، تخطر بقوام رشيق ونظرات تشع ناراً من عينين سوداوين. ودلها وغنجها يدلان على أنها اعتادت نظرات الإعجاب. ولها أخ بعمرها تقريباً يبدوان كأندلسيين حميميين. وهو طويل حسن البنية حادٍ الملامح غامق البشرة والعينين، وبذقنه طابع جميل، يلبس جاكيتاً أخضر وردياً مزيّناً بأزرار فضية يلائم شكله، ويضع بكل جيبة من جيوبه محرمة بيضاء متدلية، مغلقاً كل أزراره حتى الرقبة، حيث يطوقها بمحرمة أرجوانية معقودة بخاتم، كوردة تخرج من قميصه الأنيق. ويتزنر بزنار ملائم من القماش حول وسطه من الجلد الفاخر الذي صنع بدقة وأناقة متناهية. وتحت بنطاله حذاء أنيق، يظهر قدمين متناسقين.

بينما كنا نقف معه على الباب، وصل فارس وراح معه بحوار حميم بصوت منخفض، وكان هذا الفارس بزي مشابه له، وبأناقة متقاربة. وهو رجل في الثلاثين من عمره تقريباً، مربوع القامة مكتنز البنية، ذو ملامح رومانية بها جمال، وتبدو عليه علائم الجرأة والصراحة. ويعطي مع حصانه الأسود القوي المزركش بطرر جميلة متراقصة، مع بندقيته القصيرة ذات الفوهة الواسعة والمعلقة خلف سرجه، سمة هؤلاء اللصوص الذين رأيتهم في جبال «روندا». وقد كان واضحاً تفاهمه مع شقيق مضيفتنا، فهو إن لم أخطيء محظي لدى الأرملة . ان الفندق ككل يوحي بأنه مأوى لقطاع الطرق هؤلاء، فالبنادق ذات الفوهات العريضة تنتصب في الزاوية قرب الغيتار. الذي استعمله الفارس ليقضي الأمسية وهو يغني أغان جبلية رومانطيقية. وبينما كنا على العشاء جاء رجلان من

«أستوريا» معريان من ثيابهما وكل أموالهما لتعرضهما لقطاع الطرق الذين سرقوا خيولهما وكل تجارتهما، يطلبان الطعام والمأوى وآثار الضرب عليهما نتيجة محاولتهم المقاومة. ونتيجة للكرم المتأصل بمرافقي الأمير الروسي، أمر لهما بعشاء وغرفة، وأعطاهما بعض المال كي يعودا إلى ديارهما.

ومما زاد الجو ثقلاً على هذا العشاء، دخول رجل في الستين من عمره ذي ملامح تدل على القوة، وبدأ بالتحرش بمضيفتنا، بخيلاء هشة وكل واحد من الحضور ينظر إليه نظرة مختلفة. وكان أندلسي الزي، ذا شاربين كبيرين ويتأبط سيفاً رفيعاً.

وهمس «سانكشو» لنا أن هذا هو: «دون فنتورا رود ريغوس» بطل الأقصى والشهير بقوة ذراعيه. الذي فاجأ أيام الغزو الفرنسي ستة جنود نيام بسكينة، فقتل بعضهم وأسر بعضهم الآخر، وغنم خيولهم، مما سر الملك، فأعطاه معاشاً قدره دولار يومياً مع لقب «دون Don» المشرف.

وقد كان هذا يفترض فيه أن يكون مؤدباً وحسن السلوك والتصرف . لكنه كان وقحاً يحمل سيفه الرفيع كما يحمل الطفل لعبته، ويسميه قديسته «تريزا» ويقول: عندما أمتشقه تهتز الأرض؟!

وقد اختلط هؤلاء الناس المختلفون حسب الطبع الإسباني، فجلست إلى وقت متأخر أسمع من كل هؤلاء. وهكذا حصلنا على أغنيات قطاع الطرق، وقصص السرقات، وحروب العصابات وذكرى أساطير العرب. أما المسحة الشعرية لقصص «الأقصى» التي يؤكد الناس أن بها كنوزاً في مغارة أغلقها ملك العرب ولم تعرف إلى الآن، فقد أعطتها سيدة جميلة بجو من الغموض زادته أصوات خرير الجداول.

وهكذا عدت إلى سريري مفعماً بتصورات قصصية مما سمعته ورأيته في هذه المدينة المقاتلة. وعلى هذا الشعور من الرهبة نمتُ لأصحو فجأة على صوت زمجرة مروعة، تخيف حتى البطل «لامنشا» نفسه، ورغم ماأعرفه من الفنادق الإسبانية المليئة بالضجة دائماً ـ كان ذلك يفوق الحدود. إذ بدا للوهلة الأولى كما لو أن العرب قد عادوا إلى المدينة، أو أن ماأخبروني به قد أطلق من نطاق الخيال إلى الواقع. فنهضت نصف عار ذعراً، لأتبين أن ليس في الأمر أكثر من أن رجلاً

عجوزاً قد فاز بليلة دخلته على عروسه، فتمنيت له السعادة عائداً إلى هدوء سريري لأنام بعمق حتى الصباح.

وحين صحوت في الصباح لأرتدي ثيابي، لمحت من الشباك جماعة من الشبان الأندلسيين بأزيائهم المهندمة الجميلة، ويتمشون بعباءات بنية على النسق الإسباني التي لايمكن صنع مثيل لها، وعلى رأسهم القبعات الفريدة «ماجيوهات»، وملامحهم تشبه أولئك الذين صادفتهم في جبال روندا. لأن الملامح والصفات في هذا الجزء من اسبانيا متشابهة. وهم يجوبون الطرقات كمن لديه كل الوقت والمال الكافي ـ للبطالة ـ ، وتحتهم خيولهم وبيدهم أسلحتهم، من بنادق طويلة وأخرى ذات فوهات عريضة، وغيتاراتهم التي يغني بعضهم عليها أنغام «البوليرو» الشهيرة. فالفراغ الطويل الذي يتمتع به كل الاسبان مرسخ عندهم كصفة من صفات الفروسية، فعلى الفارس دائماً أن لايظهر في عجلة من أمره. أما الأندلسيون فيزيدون على ذلك صفة المرح، وعدم ادعاء أي مثالية. كذلك تبرز عند قطاع الطرق عندهم من الأماكن الجبلية حتى حدود الأندلس الصفات ــ المورفولوجية ـ الغالبة.

لكن على العكس من منظر هؤلاء كان هناك اثنان من «فالنسيا» ذوا سيقان طويلة يسوسان حماراً، محملاً ببضائعهما. ويعلقان بنادق طويلة على ظهريهما، استعداداً للدفاع، ويلبسان جاكيتات مستديرة «جاليكوس» من الحرير القطني تصل إلى الركبتين وكأنها فستان امرأة. وحول وسط كل منهما شلة حمراء، وينقلون الصنادل، وعلى رأس كليهما منديل ملون يشبه العمامة يترك قمة الرأس مكشوفة. أي بصورة موجزة يبدو مظهرهم بمجمله مظهراً عربياً.

ثم غادرنا «الأقصى» بمرافقة فارس مسلح يعمل رئيساً لقسم الجمارك، ومهمته مرافقة وحراسة الطرق من الخارجين على القانون، ومعه حارس يسير على قدميه، حيّانا وتركنا نغادر. وخلال ركوبنا معه علمت منه كيف يتحول المهربون إلى فرسان في إسبانيا. قال: جاؤوا إلى الأندلس من أماكن مختلفة، وخاصة من «لامنشا» ـ المنشأ ـ ليهربوا البضائع عبر خط «البلازا» أو عبر جبل طارقٍ. وينزلون أحياناً من السفن التي ترسو في ليلة محددة على الشاطيء. وهم دوماً يسيرون مع بعضهم البعض، ويسافرون ليلاً. أما في النهار فينامون بهدوء في الأحراج، أو في شعاب الجبال، أو في البيوت المهجورة، أو عند الفلاحين الذين

يرحبون بهم بسبب ما يقدمون لأسرهم من مهربات، فمعظم أدوات التجميل والزينة لدى نساء القرى الجبلية والسهول. هي هدايا من هؤلاء المهربين.

وفي الوقت الذي يفترض أن تلاقيهم السس يصلون إلى أماكن معينة على الشاطيء، ويرصدون قدوم السفن من الشعاب الصخرية والمرتفعات . فإذا قرروا النزول إلى البحر بعد إشارة ثلاثية من السفينة، ينزلونه فرادى . ويقومون بعملهم بسرعة حين تقترب السفينة لإنزال المهربات على شكل حزم صغيرة يسهل وضعها على الخيل. ثم يتحركون بسرعة بعد التحميل إلى الجبال. ليسافروا عبر أصعب الطرق الموحشة، حيث تصبح مطاردتهم مستحيلة تقريباً. لذلك لايلاحقهم رجال الجمارك، بل يكمنون لهم في طرق أخرى. فإذا عرفوا بوجودهم تكمن لهم قوة من اثني عشر فارساً وثمانية مدافع في مكان توقع نزولهم من الجبل نحو السهل. وبعد أن تمهلهم الدفعية حتى يبتعدوا عن الجبل. تمطرهم بقذائفها. فإذا حاولوا العودة تظهر لهم كمائن الفرسان. وهنا يحصل قتال حقيقي قد يضطر فيه المهرب إلى النزول عن حصانه وإطلاق أحماله لإعاقة الهجوم. والنجاة بنفسه. ومن ينجو يفقد متاعه، ومن يؤسر يؤسر مع كل شيء. وهنا صاح «سانكشو» الذي كان يسمع هذا بأذن نقدية: بعد ذلك يجعلونهم لصوصاً شرعيين.

فضحكت على هذه الشرعية في قطع الطريق التي أشار اليها «سانكشو» لكن رئيس الجمارك أكد لي أن هذا مايحصل فعلاً. فعند تضييق الخناق عليهم يصبح من حقهم قطع الطريق. فيضعون الجزية على المسافرين. كتعويض يمكنهم من تجهيز أنفسهم ثانية. وعلى هذا النحو يتحول المهرب إلى قاطع طريق.

وعلى هذا ودعنا مرافقنا وتابعَهُ حوالي ظهر ذاك اليوم. وبعد قليل خرجنا من الجبال، ودخلنا وادي غرناطة الشهير. حيث قضينا الظهيرة بالاستراحة تحت شجرة الزيتون محاطين بالزهور وقد كنا ببقعة معروفة تقليدياً. فبالقرب منا بستان «سوتو دي روما» الذي أشاده كما تقول الاسطورة الكونت «جوليان» ليسلي ابنته «فلورندا». ثم صار منتجعاً ريفياً لملك غرناطة العربي. وهو الآن إقطاع للدوق «أوف ولنغتون[6] ». وبمسحة أسى من وصل إلى غاية رحلته الاستكشافية هذه قال مرافقنا: مع فرسان مثلكم يمكن السفر إلى أقاصي المعمورة. مبدياً بعد ذلك بعض البهجة لإشرافه السعيد على هذه الرحلة. وكان النهار صحواً تلطف حر هاجرة

(6) : القائد الإنكليزي الذي هزم «نابليون» في معركة «واترلو» الشهيرة - المترجم -

الشمس فيه الرياح القادمة من الجبال، التي تحرك أمامنا وادي «فيغا» المجيد. حيث من البعد تبدو غرناطة الرومانطيقية محاطة بأبراج قصر الحمراء، وفوقها إكليل من الثلج على سفوح جبال «سيرا نيفادا» ـ السير النافذ ـ يشع كالفضة.

وعلى الأغطية التي فرشناها أخذنا قيلولة يهلل لنا فيها أزيز النحل على الورود، وهمهمة الحمام فوق أشجار الزيتون، إلى أن مرت الهاجرة وتابعنا رحلتنا. لنصادف بعد قليل من السير رجلاً سميناً كالضفدع يركب بغلاً، دخل «سانكشو» في حديث معه. وحين تأكد أننا غرباء دلنا على مكان استراحة، مدعياً أنه مكاري(7) وأنه يعرف المدينة كراحة يده، وقال: «أي مدينة سوف ترى أيها السنيور؟! بطرقاتها وساحاتها وقصورها، والبناء؟! أي نساء بحق «سانتا ماريا». فقلت له ـ مقاطعاً: «ولكن الاستراحة التي تتحدث عنها، هل أنت واثق من جودتها.

جيدة!! بحق «سانتا ماريا» هي الأفضل في غرناطة بصالوناتها وحدائقها الفخمة، وغرفها الرائعة وأسرتها المفروشة... ستكون أيها السنيور مثل الملك «شيكو» في الحمرا.

وهنا سأله «سانكشو»: كيف ستطعم جيادي؟! فأجاب: مثل جياد الملك «شيكو» تنال الحليب والشوكولاة على إفطارها؟!

ولأننا لانرغب فيما نتجه اليه بأكثر من شبه هذا التقدير الجيد ركبنا بهدوء، والدليل يدلنا ويلتفت إلينا بإعجاب إزاء كل مشهد نقترب منه.

وبمثل هذا النوع من المرافقة، عبرنا حقول التين الهندي والزنجبيل. في برية الحدائق التي تحف بالوادي من كل جانب. ومع الغروب كنا على أبواب المدينة. ودليلنا الصغير ـ القصير ـ هذا يقودنا عبر الأزقة، حتى وصل إلى ساحة الفندق، وكأنه وصل إلى داره، فحيا صاحب المكان باسمه المسيحي. وادعى أنه تركنا بعنايته كفرسان نستحق كل تقدير، مؤكداً ومذكراً بأن العادة هي مصاحبة السادة أمثالنا بالزفة والأبواق من مضيف ومضيفة الفندق، مع ترجمان خاص للمرافقة على نفقتهما. وهنا قال صاحب الفندق: « إنكم لاتعرفون ماالذي حصلتم عليه»؟! فهذا المرافق الذي معكم كنز يجب أن تحافظوا عليه، فهو عجيبة من عجائب

---

(7) : الرجل الذي يؤجر الحمير للركب.

الدنيا الثمانية، فالسنيور «جيل بلاس» يستحق أن يخدمه كل شيء في هذا المكـان كأمير؟!

لكننا من جهتنا قررنا أن لايبقى هذا المكاري على حسـابنا دائمـاً، واكتفينـا بدعوته فقط على العشاء، حتى لانبدو كناكري جميلٍ. وتأكد حدسنا عند الصبـاح عندما اكتشفنا أن هذا المكاري الحقير الذي هو قطعاً صديق صـاحب الفنـدق، قـد دلنا على أكثر فنادق غرناطة فوضى وسوء ترتيب.



قصر الحمرا

إن قصر الحمرا هو كعبة زوار إسبانيا، من الذين ينشدون رؤية الجانب التاريخي والشعري الرومانطيقي لتلك البلاد. فكم من أسطورة وتقليدصحيح ووهمي، وكم من رقصة وأغنية عربية وإسبانية حول الحب والحرب والفروسية، مرتبطة بهذا الركن التاريخي. فهو سرير ملك العرب هناك، المحاط بالروائع والعجائب من أفخم ما صنعته يد الفن الجميل، بهدف تشخيص وتكريس تصور الجنة السماوية عند المسلمين في إمبراطوريتهم الإسبانية. والقصر الملكي يشكل جزءاً أساسياً من حصن الحمرا في غرناطة. وهذا الحصن تمتد جدرانه بأبراجها المرتفعة على امتداد الرابية ـ المطلة على البلد ـ بشكل موازٍ ومناظر لسيرا نيفادا وثلوج جبالها، ويطل على المدينة من جهة أخرى ملاحقاً الهضبة بانحناءاتها غير المنتظمة، فيبدو من ظاهر عمارته الخارجية أقل بكثير من انطباع العظمة والجمال بداخله.

وقد كان هذا الحصن في أيام العرب يستوعب جيشاً لا يقل عن أربعين ألـف مقاتل. يقومون أيضاً باخضاع رعايا المدينـة في حـال ثورتهـم. وظـل قصـر الحمـرا قاعدة للملك النصارى بعـد أن خضعت المدينـة لهـم، فسكنه العديـد مـن الملـوك القشتاليين، مثل الإمبراطور «شارل الخامس» بما بناه من قصـر خـاص لـه داخـل هذا القصر، ولم يتمكن من إنهائه بسبب الهـزات الأرضيـة المتعاقبـة. ولعـل آخـر سكان قصر الحمرا من الملوك، كان «فيليب الخامس» وزوجته الجميلة «إلـيزابيث أوف بارما» اللذين سكناه في مطلع القـرن الثـامن عشـر. حيـث أُعِـدت تأسيسـات ضخمة لاستقبالهما، فأعيد إصـلاح القصـر وحدائقـه، وبنيـت ملحقـات جديـدة، وأثثت بأثاث صنعه فنانون من إيطاليا، رغم أن إقامتهما كانت عابرة وقصيرة. ثـم خلا القصر بعد رحيلهما وأقفر ثانية. لكنه ظـل تحـت الصيانـة العسـكرية. وبعـد ذلك استلمه المحافظ من التابع، وامتدت الأوقاف الملحقة به إلى ضواحي المدينـة، فظل مستقلا عن الحاكم العسكري لغرناطة رغم بقاء حاميـة عسـكرية لا بـأس بهـا فيه. وهكذا صار للمحـافظ شقة فيـه، توجـد في مواجهـة القصـر العربـي، وكـان المحافظ لا ينزل إلى المدينة بدون مرافقة عسكرية، خاصة وأن الحصن بحـد ذاتـه كناية عن مدينة

صغيرة، فيها عدة شوارع وبيوت داخل أسـواره، إضافـة إلى كنيسـة صغـيرة وبيت عبادة لرهبان «الفرنسيسكان».

وهكذا هجر القصر داخل الحمرا فكان هجره ضربـة فاتلـه لهـا، حيـث بـدأ الخراب يدب في قاعاتـه الجميلـة إلى حـد تداعـي بعضهـا، كمـا ذوت حدائقـه، وتوقفت نوافير بحراته عن التراقص. وظلت القلعة ككل مفتقرة إلى السكان إلى حد مـا. ممـا مكـن المهربـين واللصـوص مـن دخولهـا والاختبـاء بهـا. بعـد أن يقومـوا بعملياتهم في النهـب مـن غرناطـة وجوارهـا. ومـع الانتقـال التدريجـي للحاميـة والحكومة منهـا، لم يبـق لهـا كسـاكن رسمـي ذي حـق بسـكناها إلا القليـل مـن أصحاب هذا الحق، وبذلك زال قسم كبير من البيوت الملحقة بالقلعة في داخلهـا، والذي بقي منها آهل. وأهملت الكنيسة و«الفرنسيسكان» معاً. ثـم تحولـت الحمـرا خلال الأحداث الأخيرة مع الاحتلال الفرنسي إلى معسكر لجنودهم. فسكن القصـر قادة فرنسيون، حافظوا على هذا الأثر العربي من الزوال النهـائي الـذي بـدا شبه محتم، حسب طريقتهم المعهـودة في الأمـاكن الـتي يحتلونهـا. فـأصلحوا السـقوف وحموا الصالونات وأثاثها من عوامل الجو، وزرعوا الحدائق، وأعادوا تجهيز بـرج

المراقبة، وهكذا عادت نوافير القصر للتراقص، فعلى إسبانيا أن تشكر غزاتها، لأنهم حفظوا لها أجمل وأهم أثر من آثارها.

لكنهم حين رحلوا نسفوا بعض الأبراج في الحصن الخارجي، دون أن يعني هذا أنهم لم يتركوا الحصن قابلاً لأن يحتفظ به ككل. بل يعني أن الحصن لم يعد مركزاً عسكرياً. لذلك صارت الحامية التي فيه قليلة، هدفها الأساسي حراسة بعض الأبراج التي تستخدمها الحكومة كسجن. وهجر المحافظ هذه الرابية وقصرها وسكن في قلب المدينة لإنجاز مهامه الرسمية بطريقة أكثر عملية. وأنا لن أنهي هذه الملاحظات السريعة دون أن أشير وأشهد للقائد المعاصر لهذا الحصن النبيل «دون فرانسيسكو دو سرنا» الذي يوظف كل الإمكانات القليلة تحت يده لترميم القصر بصورة دائمة. فيقظته وحذره وحدهما يحميان هذا المكان من التداعي، تماماً كما فعل أسلافه بإخلاص مشابه. لذلك يمكننا القول: إن الحمرا اليوم مكان لا زال يحتفظ بجماله الأصلي. والقابل لأن يحفظ لأجيال قادمة ستعجب به، وبأرض ستجذب فضول المثقفين من كل مكان.

وصبيحة يوم وصولنا كان أول موضوع لنا طبعاً هو زيارة هذا المكان الواقف ضد الزمن، الذي نال دقة وصف زواره من الرحالة، الذين لن أسهب في الحديث عنهم، بل سأرسم معالم انطباعاتهم التي تركوها عن هذا المكان.

فتركنا مكان إقامتنا، وعبرنا ساحة «فيفا رامبلا» التي كانت في يوم من الأيام مسرحاً للفرسان العرب بزينتهم الخلابة، وصارت الآن سوقاً مزدحمة، وتابعنا نحو «زاكاتين» ـ الزقاقين ـ الذي كان أيام العرب الطريق الرئيسي لسوق المدينة المسقوف ـ بازار ـ والذي فيه إلى الآن متاجر صغيرة، وزواريب ضيقة تسمه بالطابع الشرقي. ثم عبرنا قصراً مفتوحاً خلف قصر الحاكم العسكري، ونزلنا بشارع واسع ذكرنا اسمه «كالي» ـــ قال لي ـــ بفرسان غرناطة. و«التالي» أو «القوالون» أسرة من المغنين العرب نسب المكان لها. وهو طريق يقود إلى «بيوتادي لاس غرانادا» وهي بوابة ضخمة مبنية على الطريقة الهندسية الاغريقية، بناها «شارل الخامس» لتشكل المدخل الرئيسي للحمرا.

ويحرس هذه البوابة عدد من الجنود كبار السن يجلسون محملقين بالأحجار، بينما يقف غلام طويل يتشح عباءة قديمة تحتها ثياب أقدم، ويثرثر مع أحد الخفراء. وبمجرد دخولنا البوابة عرض علينا خدماته السياحية ولازمنا.

أما من جهتي فقد كنت أمقت المتسكعين الرسميين، لذلك لم يعجبني عرضه بعضه على بعض. فقلت له : إنك تعرف القصر على ما أفترض؟!

أجاب لاأحد يعرفه أكثر مني، أنا ياسيدي ابن الحمرا!! والواقع أن لدى الإسبنيارد طريقة مقنعة لإظهار ماًلديهم. فكلمة : ابن الحمرا!! استولت علي مباشرة، ورفعته في عيني، إنه حتماً يعرف كل خرائب الحصن. لذلك حين سألته المزيد من الأسئلة وجدت أن إجاباته مقبولة. فأسرته قد عاشت في الحصن جيلاً بعد جيل منذ أيام فتحه. ولأن اسمه «ماتيوكزيمنس» قلت له : ربما أنت من سلالة «غرادينال كزيمنس» الشهير؟! فأجاب : الله أعلم أيها السنيور، قد يكون هذا؟! لكننا أقدم أسرة من المسيحيين في الحمرا بدون أي أصل عربي أو يهودي. وأعرف أننا ننتهي إلى أسرة عريقة الأساس لاأعرف من هي. لكن أبي يعرف ذلك، فعنده درع معلق في كوخه الصغير في الحصن.

إن كل اسبنيارد يدعي كرم المحتد مهما كان وضيعاً أو فقيراً. وهذا الأشعث الأغبر قد التقطني بعبارة: ابن الحمرا. فقبلت خدماته بسرور. وهكذا اتجهنا عبر زقاق ضيق مليء بالزهور، ومرصوف بالحجارة، يتسع في أماكن بها «فستقيات» تخرج منها النوافير المائية. وعلى يسارنا برج الحمرا، ونحن نمر تحت أبراج أحاطت بنا بعد ذلك. والتي علمنا أن اسمها أبراج «فرميليون» ولا أحد يعرف من أسسها قبل بناء الحمرا. ويفترض البعض أن الرومان كانوا قد بنوها، بينما يعتبرها آخرون مجرد بقايا مستعمرة «فينيقية». وبعد نزولنا عبر زقاق منحدر وصلنا إلى ساحة برج عربي ــ مراكشي التصميم يمكن المرور عبره إلى المدخل الرئيسي للحصن. حيث هناك أيضاً مجموعة أخرى من الحراس المجندين عديمي الأهمية. يمتطي أحدهم حصاناً للحراسة، بينما يلتف الآخرون بعباءاتهم وينامون على صخور مجاورة. وتسمى فرقة الحراسة هذه: حراس باب العدالة. وهم من عماماتهم وزيهم الموروث منذ الفتح الاسلامي إلى اليوم يشبهون العرب. وفوقهم نقشت الآية الكريمة: «اذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل».

أما القوس الكبير فوق البوابة فهو على شكل قوس عربي، أشبه مايكون بحدوة الحصان. وهو بنصف ارتفاع برج كامل. وفي الحجر الرئيسي في وسط هذا القوس صورة يد ضخمة محفورة بالصخر، وهي رمز اسلامي، ترمز اليد فيه إلى الانسان، والأصابع الخمس إلى أركان الاسلام الخمسة وهي: (الصوم وطهارة

الصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد ضد الكفار[8] وبجانب اليد المحفورة في الصخر، مفتاح محفور أيضاً في الصخر وهو يرمز إلى مفتاح الإيمان الذي انتقل من «داود» إلى الرسول (ص). ففي التوراة: «سألقي مفتاح داوود على عاتقه ــ على كتفي الرسول القادم ـ ليفتح مالايغلقه أحد، ويغلق مالايفتحه أحد». وقيل لنا إن هذا المفتاح كان رمزاً للمسلمين في مقابل الصليب عند النصارى عندما غزوا الأندلس، ويعني رمز قوة الفتح الاسلامي. الا أن هناك تفسيراً آخر تكرم بإعطائنا إياه ابن الحمرا، على عادة كل العوام الذين يلصقون السحر والغموض بكل شيء عربي، ويتطيرون من كل مايتصل بهذا المعقل الاسلامي. لذلك أخبرنا «ماتيو»: أن الأمر يتعلق بتقاليد قديمة لسكان الحمرا، عرفها من أجداده. وتؤكد أن اليد والمفتاح أدوات سحرية تتصل بتحديد مصير الحمرا، وعليهما يعتمد بقاء هذه المدينة

فالملك العربي الذي بنى الحمرا كان ساحراً كبيراً. باع نفسه للشيطان كما يؤكد البعض. لذلك وضع كل هذا الحصن تحت هذا الرمز الذي يشكل تعويذة سحرية. وهذا هو السبب الذي أبقى الحمرا كل هذه المئات من السنين رغم كل عوامل الطبيعة والزلازل، بينما تهدمت باقي بيوت العرب هناك ؟! وتذكر التقاليد أن هذه التعويذة ستظل إلى أن تصل اليد المنحوتة وتقبض على نحت المفتاح. آن ذاك سيتداعى القصر كله إلى حطام، وتظهر الكنوز التي دفنها العرب تحته؟!

أما أنا اليوم فلم أتحمل هذا التنبؤ الساذج، لذلك استمررت بالسير عبر البوابة تحت هذه التعويذة المفترضة، وأنا أشعر بضعف الثقة بفن سحري يحميه تمثال العذراء فوق البوابة؟!

وبعبورنا للبوابة واجهنا نزول بخط ضيق بين الجدران، ينفتح بباحة داخل الحصن تسمى: «مكان الأحواض». حيث تحتها خزانات المياه الضخمة التي حفرها العرب بالصخر ليجمعوا فيه الماء الذي يصل إلى الحصن من «دارو»ــ دارق

---

(8) : الحديث المشهور : «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا».

من أجل تزويد المكان بالماء. وبها أيضاً بئر عميقٍ يخرج منه ماء بارد جداً. كعلامة أخرى على ذوق العرب الرفيع كشعب يهتم دوماً بكل عنصر نقي.

لكن خلف هذه العظمة ينتصب نصب «شارل الخامس» الضخم، والذي وضع هنا كما قيل لنا لكي يخسف ذكرى ملوك العرب. ولهذا السبب أزيل بناء المشتى من قصر العرب ليفسح المجال لهذا النصب، الذي سد المدخل الرئيسي للقصر. فصار المدخل إلى قصور العرب حالياً يمر عبر ممر جانبي صغير وحقير في زاوية المكان. ورغم ضخامة نصب «شارل الخامس» والفن المعماري الراقي المسخر له، بدا لنا كدخيل في هذا المكان، لذلك مررت بجانبه مرور المسلم الغاضب من الصنم.

ووقفنا بعد ذلك ننتظر السماح لنا بالدخول، مع «ماتيو» الذي فرض نفسه علينا، وراح يخبرنا أن العناية بالقصر الملكي بعهدة سيدة تدعى «دونا أنطونيا مولينا»، ويسمونها حسب الطريقة الاسبانية: العمة أنطونيا. وهي التي تعتني بالقاعات العربية وتنظم الحدائق وترشد الزوار. وبينما نحن نتحدث فتحت الباب سيدة أندلسية ذات عينين سوداوين، خاطبها «ماتيو» باسم «دولوريس»، وهي تبدو لماحة النظرات وتستأهل أن يكون لها اسم أكثر إشراقاً. ثم همس «ماتيو» لي بأنها ابنة أخت العمة أنطونيا. بينما كنت كمن وجد فيها كما في القصص الخيالية ـ أسطورة ستقودنا إلى عالم سحري من زمن غابرٍ، كمن يمزق لنا الزمن لنشهد قصة عربية بعالم شرقي آخر. فلا شيء أكثر تعارضاً مما بداخل هذا المكان عن خارجه بدا بمجرد أن دلفنا إلى قاعة فسيحة بطول مائة وخمسين قدماً، وبعرض ثمانين قدماً، معبدة بالرخام الأبيض، ومزينة بكل ركن فيها بالزخارف العربية الآخاذة، حتى لتشعر وكأنك بمعرض لهندسة عمارة المنمنمات. فأحجار الزفير[9] الكريمة التي تتداخل في الجدران تبدي شخصية الفن العربي المعماري الرفيع، مع تكرار الشعار السابق للحمرا في أماكن مختلفة. كما تظهر عظمة وروعة الفسيفساء. وفي وسط القاعة «فستقية» ضخمة بطول أربعة وعشرين قدماً، وبعرض سبعة وعشرين. وتسمى هذه القاعة بقاعة «البركة». وتسيّج هذه الفستقية الورود. ويسبح السمك الذهبي في مياهها.

---

(9) : نوع من الأحجار الكريمة . ـ المترجم ـ

ثم إجتزنا قاعة «البركة» عبر قوس عربي لندخل إلى قاعة السباع، التي يمكن القول : بأن الزمن لم يؤثر عليها أبداً. حيث في وسطها البركة الشهيرة في الشعر والأدب. والإثنا عشر سبعاً التي أعطت هذه القاعة اسمها لازال يخرج الماء الصافي من أفواهها وهي مركوزة حول القاعة تماماً كأيام أبي عبد الله. لكن على الأغلب أن سبب كون السباع منحوتة بشكل سيء هو أن الذي نحتها كان نحاتاً مسيحياً أسيراً.

والقاعة محاطة بسرير من الزهور، كان بينها ممرات رخامية جميلة، لكن الافرنسيين عندما كانوا هنا عمدوا إلى وضع ممرات حجرية تدل على ذوق سيء. أما في الزوايا الأربعة للقاعة فقد حفرت زهور الأوركيد على دعائم عواميد رخامية بيضاء، بفن معماري أنيق ورائع يسم كل هذا القصر ويدل على ذوق رفيع، كما يشعر بالبهجة. والغريب كيف بقي هذا العمل الفني المرهف الناعم كل هذه المدة، ونجا من عوامل الجو، ودموع القرون، وهزات الأرض، وقسوة الحروب؟! ألا يمكننا أن نعذر التقاليد الشائعة بعد رؤية كل هذا الجمال بأنه محروس بعمل سحري؟!وبجانب قاعة السباع هذه باب مزركش يفتح على قاعة «ابن سراج» الذي يقال إنه قام بإعدام عدد كببير من الفرسان هنا. والبعض يشك بكل هذه القصة. لكن «ماتيو» الساذج أشار فوراً إلى المدخل الذي أدخل إليه الفرسان واحداً إثر واحد من قاعة السباع، إلى البركة التي تلقت رؤوسهم المقطوعة. ولم يكتف بذلك بل أرانا بقعاً من الصدأ القديم على رصيف البركة، مدعياً أنها آثار دمائهم، والتي لايمكن إزالتها حسب المعتقد الشائع.

ولأننا نسمع له ونجاري مايقوله بسهولة، أضاف أنه يسمع أحياناً في الليل، وفي قاعة السباع بالذات أصواتاً مشوشة خافتة تشبه الهمس، وكذلك طرطقات سلاسل حديدية، وهي من أرواح الذين قتلهم المجرم «ابن سراج». فالمكان المسكون بارواحهم ليلا حيث يستعيدون آلامهم، مطالبين بثأرهم ممن كان سبباً لدمارهم.

والواقع أن هذه الأصوات ناتجة عن حركة الماء في مجاريه التي توصله إلى البركة ، كما تبينت ذلك لاحقاً، دون أن أبرز هذه الفكرة لروائي قصر الحمرا المتواضع الإمكانات هذا.

لكن تشجعه من قبولي السهل لما يقول جعله يضيف ما ادعاه أنه حقيقة لاشك فيها عرفها عن جده وهي:

أنه كان هناك جندي يرشد السواح إلى القصر، وعند غسق إحدى الأمسيات، سمع وقع خطوات في قاعة ابن سراج، فتوجه للمكان علّ بعض الغرباء قد ضل طريقه ليرشدهم، لكنه بدلاً عن ذلك ولشدة استغرابه، شاهد أربعة عرب بزيهم الفخم وعمائمهم اللماعة التي توضع الجواهر في مقدمتها. يتمشون بهدوء في القاعة جيئة وذهاباً. وحين رأوه توقفوا واستداروا نحوه، ففر هذا الجندي الكهل، ولم يعد يجرؤ أن يدخل ثانية إلى قصر الحمراء. فأدار بذلك ظهره عن ثروة ضخمة، لأن هؤلاء الأموات كما يعتقد «ماتيو» يريدون أن يدلوا الناس على كنوزهم الخفية. بدليل أن من حل محل هذا الجندي كان أنبه منه لأنه أتى إلى الحمرا فقيراً، لكنه بعد سنة ذهب إلى «مالغا» ـ ملقا ـ واشترى منزلاً وعربة، ولا زال يعيش هناك كأثرى ما يكون، لأنه عرف السر الذهبي من هؤلاء الأموات العرب برأي «ماتيو»؟!

ومعلومات ـ ماتيو ـ التي أطلعني عليها، على افتراض أنني أصبحت صاحبه، وتنبؤاته التي لا أنظر إليها أكثر من أنها أوهام، ربما ركام عقلية غبية، قررت أن أتعرف عليها بصورة أكثر.

وهكذا تابعنا التجوال عبر مدخل مزين بشكل ثري، مقابل غرفة ابن سراج، إلى قاعة أقل صلة بالحوادث التراجيدية. معبدة بالرخام الأبيض، ومضيئة مشرقة بكل زينتها المعمارية، تحمل اسم: قاعة الأختين، المكتوب اسماهما على رصيف القاعة، والمخرب أحدهما على ظن أنهما رقيقتان من العبيد. وقد أكد ذلك «ماتيو» بشدة. بينما يعتبرهما آخرون مجرد جميلتين عربيتين رومانطيقيتين سكنتا هذه القاعة، التي كانت جزءاً من قسم الحريم. وقد أيدت هذا الرأي مضيفتنا حوراء العينين «دولوريس» وقالت: إنها علمت أن هذه القاعة كانت تابعة لشقة النساء. وكما ترى أيها السنيور: كل هذا الجمال الرائع الشبيه بالمتحف الفني المطل على ما يشبه الكنيسة، هو بسبب أن نساء العرب كن مثل الراهبات اللواتي يشهدن القداس من وراء حجاب. لأن ملوك العرب كانوا يعزلون النساء كما تعزل الراهبات.

فعبر هذا الروشان ـ الخص ـ تستطيع النساء مشاهدة الراقصين وعروضهم الترفيهية، دون أن يراهن أحد. أما على طرفي القاعة فقد فرشت المطارف والحشايا حيث يجلس سيد القصر آن ذاك لتتجسد أمامه كل أحلامه الشرقية.. والضوء يخترق القاعة من الأعلى، بينما من جنباتها تمر تيارات هوائية لطيفة، وينساب إلى الأذن معها همهمة خرير الماء المنعش من بركة السباع، وما يلحق بها من مسابح حدائق «ليندا راكسا» ـ ليندا رقصا ـ.

ولعله من الصعب على القارىء تتبع هذا المشهد بدقة، دون معرفة بقصص الحب العربية المتصلة به. فبإمكانك أن تتصور الأيدي البيضاء البضة ـــ للأميرات الغامضات وكما لو أنها تخرج من تلك التحف المعروضة، أو تتخيل عيوناً دعجاً تلمح خلف تلك «الرواشين» في الشرف، وكأن هذا الجمال الأخاذ يوحي بساكني الأمس البعيد قريباً. ولكن؟!! من هما هاتان الأختان «زريدا» و«ليندا رقصا»؟! اللتان يزود الماء البارد حمامهما، مجلوباً من الجبال بأقنية عربية طويلة، تدور حول القصر وتتراقص لامعة بمجاريها الرخامية. وبعد ان تدفع جزيتها للقصر الملكي بأن تزود حدائقه وأقسامه، تنزل عبر طريق طويلة إلى المدينة، لتعود وتندفع في نوافيرها، لكي تصون خضرة وجمال الحمى ككل.

ولا يقدر نعمة هذا المكان إلا الذي يعرف حر هاجرة الجنوب. فالهواء العليل القادم من الجبال، والمحمل بشذى السهول يصل إلى الحمرا قبل المدينة الأكثر حراً تحتها. ويلعب هذا الهواء الرقيق القادم من «سيرا نيفادا» بقاعات الحمرا، مدخلاً معه عبق الأزهار المجاورة. وبينما تتراءى لك ومضات عيون سوداء وراء خص الروشان، تمتليء الأذن بهمهمة تصاحب خرير الماء المجاور. وكأنه قد سخر كل ما هو موجود من أجل نعيم هذا المكان.

وهدفي من هذا الوصف العام لأقسام القصر الرائعة، هو أن أعطي فكرة عامة للقارىء لما سآتي على تفصيله، حتى يتحرك معي بشوق من يألف هذا المكان يوماً بعد يوم، قبل عرض تفاصيل القصص فيه.

ملاحظة حول

«الهندسة المعمارية العربية»

يبدو «الأرابسك» للعين غير الخبيرة، والذي يزين جدران قصر الحمـرا، أنـه مجرد عمل من حفر اليد. لكن التفاصيل الدقيقة فيه لا تظهر إلا للعين الفاحصـة، التي عليها أن تراعي عمومية الانسجام في متغيرات تلك التفاصيل المذهلة. ويمكننا أن نعمم هذا الأمر على كل النمارق والمنمنمات التي تزينها، أو التي تزين الأوانـي والأدوات الأخرى، فتضفـي عليهـا صفـة سماويـة سـامية. ونحـن حـين نكتشـف زخارف المرمر على صحون الدار نجد مطابقات شكلية لأشـكال مربعـة ومسدسـة ومثمنة وإثني عشرية، لا تكف عـن التشـكل أمـام عـين النـاظر بصيـغ مختلفـة، حسب زاوية منظور الرؤيـة لهـا. وهـي أبدعـت أول مـا ابدعـت في دمشـق، لكـن التحسين عليها حصل في المغرب ـــ العربـي ـــ ممـا أضـاف خطـوة إضافيـة رائعـة للأرابسك السوري، فأبدع تفـاصيل زخرفيـة إضافيـة بديعـة، ممـا جعـل العمـارة

والنحت ـ العربي ـ يشكل فناً قائماً بذاته. أما المبدأ الذي تقوم عليه كل هذه الروعة التي ترضي كل تصورات الخيال السماوية، فهو بأساسه بسيط، شأن كل المبادىء الهامة في الوجود. إذ على الفنان أن يرسم الخطوط والدوائر على الحائط المراد زخرفته، بزوايا متقاطعة. تماماً كما يفعل الرسام الذي يريد أن ينسخ صورة ما. وفوق هذه الخطوط والدوائر ترسم أحياز المربعات والمثمنات المتقاطعة. ثم يبدأ العمل بكل واحدة منها ليؤكدها ويوضحها ثقة الفنان. مدخلاً القطع الخشبية أو الرخامية أو الحجرية النفيسة حسب مقاساتها الدقيقية بكل نتوءاتها على المخطط الرئيسي. مستعملاً الكثير من الغراء في تثبيت هذه الزخارف، ويرسم على فواصل الغراء بذاته ألواناً زاهية، جاعلاً من الغراء النافر جزءاً أساسياً من التصميم. كمن يضع الغراء على بيضة مثلاً فيصبح نافراً ثم يلونه. أما الألوان التي كانوا يستعملونها فقد كانت ألواناً مجلوبة من الطبيعة، تماماً كتلك التي استخدمها الفراعنة ومن بعدهم الاغريق. لتعود وتظهر مع العرب في الحمرا، سواء كان الفنان عربياً مشرقياً أم مغربياً ـ مور ـ أندلسياً. ولهذا السبب بقيت تلك الألوان عبر القرون.

أما الجزء السفلي من الجدران في القاعات، فيشكل إطاراً لهذه اللوحات الحفرية، بارتفاع عدة أقدام، وبه خلفيات لونية مختلفة، وعلى بعضها أسماء ملوك الاسلام وشعاراتهم، وتسمى باللغة العربية: «الزُلاّجْ». وهو أيضاً من أصول مشرقية. ونظافة ونصاعة هذه الأطر تضفي شعوراً بالبرودة يتلاءم مع الجو الحار المحيط، كذلك تُعبّد أرضيات النوافير بها أيضاً، إضافة إلى غرف الاستحمام والنوم. كذلك تضفي هذه الأطر على الزخارف فوقها نوعاً من القدَم، خاصة إذا كان بها نصوص قرآنية مقدسة، غالباً ما تكون بألوان زاهية بين الزرقاء إلى الزفير. كالنص القائل: «يَخرُجُ منهما اللؤلؤ والمرجان» (الرحمن 22).

أما السيراميك أو البورسلين فقد أدخل إلى إسبانيا مع بداية الفتح الاسلامي، ويمكن رؤية بقاياه في خرائب بيوت العرب المغاربة هناك. فمنذ القرن الثامن الميلادي إلى اليوم لا زالت صناعته قائمة في شبه الجزيرة الإيبيرية، ولا زال يستخدم في البيوت الإسبانية الراقية، وخاصة في المقاطعات الجنوبية، حيث تزين وترصف به البيوت الصيفية بشكل خاص.

وقام الإسبنيارد في جهتهم بتصديره إلى «نيزرلاند» عندما احتلوها، ومن هناك تبنى الهولنديون هذه الصناعة، لأنها تلائم طبعهم في حب نظافة بيوتهم. وهكذا وصل هذا الاختراع العربي تحت اسم «الزلاج» للهولنديين(10) واشتهروا به.

(10) : الهولنديون هم الذين اسسوا مدينة نيويورك، وظلوا يشكلون الجالية الرئيسة فيها، حتى وصلتهم الهجرات الإيرلندية والإيطالية ثم البولندية الهاربة من الإضطهاد الديني لأسباب مختلفة، وأخيراً الهجرات الزنجية من جنوب الولايات المتحدة الأميركية إبان الحرب الأهلية فيها. ثم أعقبهم اللاتين من بورتوريكو وكوبيين، فاليهود بعد الحرب العالمية الأولى والثانية حيث سيطروا على الولاية اليوم، ولازالوا في نزاع قوي مع الجاليات الأساسية فيها.

ـ المترجم ـ



مفاوضات عامة

توصل المؤلف إلى قصر أبي عبد الله

هكذا مضى معظم النهار دون أن نتمكن من انتزاع أنفسنا من هذا المكان الشاعري الرومانسي. فعلينا أن ننزل ثانية إلى المدينة، لنواجه واقعنا في ذاك النزل الاسباني. لكن كانت معنا رسالة للحاكم الإسباني للمدينة، فزرناه بطريق عودتنا كي نوصلها له. وأعربنا له بحماس عن عجبنا من عدم سكناه قصر الحمرا، وبقائه في المدينة. لكنه بين لنا أن الصعوبة ترجع إلى بعد القصر عن المدينة، فهو على قمة الرابية حيث تصعب اتصالات العمل. وهو كذلك مكان يصلح للملوك الذين هم بحاجة إلى أسواره لتعصمهم من رعاياهم. وبعد أن لفت نظرنا إلى ذلك أضاف: إذا كنتم ترغبون بالسكن هناك فشقتي في الحمرا تحت تصرفكم؟!

ولأننا نعرف أن محط الحديث عند الإسبنيارد، هو ضرورة إخبار مضيفه أن بيته هو بيته كمجاملة عامة، يجب أن يرد عليها بعدم القبول، وكذلك عدم قبول ما يعجبك في منزله حين يقدمه لك فوراً. كدلالة على كرم عندك. كدنا أن نفهم

من عرض الحاكم لشقته الملكية هذا النحو. لكننا كنا مخطئين. إذ أن الحاكم كان يعني ما يقوله حين أضاف: ستجدون غرفة غير مفروشة، ولكن العمة «انطونيا» المسؤولة عن القصر يمكنها أن ترتبها لكم، كذلك ستعتني بكم طوال إقامتكم، فإذا نحن رتبنا الأمر معها سيكون قصر الملك «شيكو» تحت تصرفكم!!.

وبمجرد أن لمسنا محمل الجد في كلام الحاكم عدنا فوراً دون أي تأخير إلى الباب الرئيسي الكبير للعدل، لنفاوض العمة «أنطونيا»، ونحن نشك فيما إذا كنا بعلم أم بحلم، واثقين من أن لنا صديقاً سيساعدنا في هذا الأمر من القصر هو: لامعة العينين «دولوزيس» التي أظهرت لنا طيبتها من أول لحظة، متمنية عودتنا إلى القصر بلغة عينيها الثاقبتين.

وهكذا سار كل شيء على ما يرام، فالعمة أنطونيا قامت بفرش الشقة، رغم كل تأكيداتنا بأننا مستعدون أن ننام على الأرض، وعدم مطالبتها بأكثر مما تؤديه بطريقتها البسيطة في تهيئة الغرفة، بينما راحت ابنة أختها دولوريس ترمقنا بنظراتها عندما تم كل شيء ونحن نرمي بقبعاتنا في الهواء فرحاً.

ثم نقلنا في اليوم التالي متاعنا إلى القصر، مشاركين بدورنا في هذا الملك المقسم، ومرت الأيام كالحلم. لكن مرافقي وصديقي اضطر بعد عدة أيام إلى العودة إلى «مدريد» من أجل واجب «دبلوماسي» كان ينتظره هناك، ليتركني متوجاً وحدي في هذا الملك المنعزل. وأنا أطلق كل فضولي في مشاهد روعته، باحثاً عن كل ما يجب أن أعرفه عن هذا القصر المسكون؟! وسأودع القارىء أسرار كل ما شاهدته، وما أعرفه عن هذه الحضارة بكل بحوثي حولها، لثقتي فيه وشعور صداقتي إزاءه. فإذا كانت لدي القدرة على نقل ما أنا معجب به إلى تصوراته من كل هذا السحر، لن يمل التجوال معي في هذا القصر الأسطوري، قصر الحمرا.

ومن أجلِ هذا الغرض أبدأ بإعطاء القارىء فكرة عن أثاث شقتي هناك، والتي هي طبعاً أقل بكثير من أثاث أسلافها، من شقق الملوك بنفس هذا المكان.

فأنا قد أقمت بنهاية شقة الحاكم، التي كانت فارغة تماماً والمطلة على منظر رائع اسمه: «مكان الأخوة»، والمؤثث بأثاث حديث. وفي نهاية الطرف المواجه لغرفة نومي، تتصل غرفة صغيرة نصف تصميمها عربي، والنصف الآخر اسباني. متصلة بدورها بشقة العمة أنطونيا، التي تصون القصر كما تصون منزل عائلتها، وتوجب على زوار القصر المتطلبات الضرورية منهم، كما تنسق هذه

السيدة المسنة الأزهار وتزرعها وتنتجها، وتبيع ثمار الفواكـه في القصـر «ضمانـة»، وتعطي قسماً من ذلك إلى الحاكم على شكل هبات من الثماز والأزهار. أما عائلتهـا فمؤلفة من ابن أخ وإبنة أخت، وابـن أخيهـا «مـانويل» شـاب صغـير ذو جاذبيـة إسبانية، كان قد خدم في الجيش في إسبانيا وجزر الهند الغربية. لكنه الآن يدرس الطب، على أمل أن يصير في يوم من الأيام طبيباً لحامية القصر. وهي وظيفة تـدر حوالي 140 دولار في السنة. أما ابنة أختها دعجاء العينـين اللامعتـين «دولوريـس» التي سبق لنا ذكرها، فمهيأة لأن ترث في يوم من الأيام مركـز خالتهـا المرمـوق في الحصن. وقد تأكدت من «ماتيو أكزيمنس» أن أجر ذلك 150 دولاراً في السـنة وهـو ميراث ضخم كما عبر عن ذلـك ابـن..... الحمـرا. وكذلـك أخـبرني هـذا المراقـب الموثوق، أن العلاقة بين أبناء الخؤولة قوية ولا يمنعهم من الزواج إلا انتظار شهادة الدكتوراه، وموافقة البابا على زواج الأقارب هذا.

وكنت من جانبي سـهل الإرضـاء، بعـد أن أنجـزت العمـة الطيبـة أنطونيـا التزامها بنقلي إلى الشقة، خاصـة وأن دولوريـس بطيبتهـا ومرحهـا دومـاً توضـب شقتي بشكل جيد، وتقدم لي الطعام الذي تعده بيدها في كل وجبـة. وكـان تحـت تصرفي خادمٌ أشقر اسمه «بي بـي» كـان يعمـل أساسـاً بـالحدائق. ممـا أشـعر ابـن الحمرا بضرورة التنافس معه آخذاً بالتداخل في كل مشـاريعي منـذ أن التصـق بـي يوم لقيته على باب الحمـرا. حتـى أنـه عـين نفسـه مرافقـاً لي، ومرشـداً، وحتـى حارساً ومرجعاً تاريخياً؟! لذلك كان علي أن أحسن من هندامه، حتـى لا يسـيء ذلك إلى عمله ككل. فنزعت عنه عباءته البنية القديمة، كما تنزع الأفعى جلدهـا، وأصبـح يتبخـتر في الحصـن بقبعـة أندلسـية وجـاكيت جديـد، مبديـاً الرضـا إزاء اسـتغراب زملائـه. فتصـور نفسـه علـى أنــه مهــمٌ لدرجــة دفعتــه إلى التدخــل بمستخدمي. فأظهرت له عين المراقـبٍ مـن خـلال طبعـي الهـادىء. وهـو بذكائـه بالمقابل كان يحاول أن يظهر أنه دوماً تحت أمري. لدرجة ـ مزعجة ـ فـلا أكـاد أطأ أي مكان في القصر إلا ويهرع لمساعدتي بشرح كل ما أراه. وإذا أردت التجـول في التلال المجاورة، أصر على حراستي، وأسرع ليلحـق بـي. وكلـي ثقـة بسـرعة رجليه لا بقوة ذراعيه في حال أي هجوم.

إنه وعلى كل حال ساذج مسكين، ولديه حسـن دعابـة مسـل يشـبه حـلاق القرية الذي يعرف كل ما يشـاع هنـا. إلا أنـه يضخـم مـن قيمـة هـذه المعلومـات

المحلية، وينسب للناس قصصاً شبيهة بما ينسبه من قصص لمشاهد القصر وأبراجه، ويصر على تأكيدها بإيمان ساذج.

وهذه المعلومات في معظمها استقاها من جده حسب قوله. ذاك الخياط الأسطوري الذي عاش مئة سنة، سافر خلالها مرتين خارج الحمرا. أو أصدقاء جده الذين يغص بهم متجره حتى منتصف الليل، وهم يتحدثون عن الأيام الخوالي؟! والأحداث الهامة والمخابئ السرية للقصر. ولحسن الحظ لم تمت هذه المعلومات بموت هذا المؤرخ الخياط الملتصق بجدار الحمرا، حيث ولد وعاش ومات ودفن، فتوارث «ماتيو» معلوماته وظل راوية حديث موثوق عن جده، وأحد حوارييه من متجر الخياطة. لذلك هو مؤتمن على معلومات قيمة عن الحمرا، لا يمكن أن توجد في الكتب، وتستأهل اهتمام كل سائح.

هؤلاء كانوا مستخدمي الذين أشك أنه كان لدى من كان قبلي مسلماً كان أم مسيحياً في هذا القصر مثلهم، بمثل هذا الاخلاص أو بمثل هذه الطريقة في الترويح.

فعندما أستيقظ يحضر الغلام الثأثاء «بي بي» الأزهار من الحديقة، ثم تنظمها بعد ذلك دولوريس في المزاهر وتعطي لترتيب غرفتي لمسة أنثوية. ثم أتناول الإفطار في القاعات العربية أحياناً، وأحياناً تحت ظلال الأوركيد في قاعة السباع، محاطاً بالنوافير و الزهور، ولكن عندما أخرج يرافقني «ماتيو» إلى أحسن النزه الزومنطيقية الجبلية، ولا يتركني دون خبر عن كل ما أرى؟!.

لقد كنت أقضي معظم أيامي وحيداً، ونادراً ما ألتحق بحلقة السيدة العمة أنطونيا في المساء، حيث تعقد غالباً في قاعة عربية، تجلس فيها العمة المسنة وهي تهيء الطعام للطبخ وحولها الأهل والأصدقاء. لكن المدفأة التي وضعت حديثاً بزاوية هذه القاعة، التي كان بها بريق أيام العرب، وخاصة «في التراس» الذي لا زال باقياً فيها، أدت إلى تغيير ألوان الجدران بسبب دخانها، مما يكاد يقضي على الأرابسك العربي في القاعة. لكن في القاعة نافذة تطل على شرفة تشرف على وادي «داره» يمكنها أن تدخل الهواء المسائي العليل لو فتحت. وكنت إذا حضرت أتناول عند العصر الفواكه والحليب، وأتحدث قليلاً مع العائلة. فالإسبان يتمتعون بذكاء فطري يجعل منهم أناساً جيدي الصحبة، مهما نقصت مرتبتهم الاجتماعية أو ثقافتهم. زد على ذلك عدم تهتكهم، لما هو مطبوع بهم من كرامة

روحية وراثية. والفاضلة العمة أنطونيا من هذا النوع غير المثقف، وكذلك لامعة العينين دولوريس قليلة الثقافة، فهي لم تقرأ أكثر من كتاب أو اثنين في كل حياتها. مما جعلها خليطاً من السذاجة والحس المرهف. إذ تفاجئني غالباً بتعبيرات تدل على حس جمالي عال. أما ابن خالتها فأحياناً يقرأ لنا بعض القصص الكوميدية ليرفه عنا من جهة، ويزيد معلوماته من جهة أخرى، بقدر ما يرغب بتسلية ابنة خالته دولوريس، لكن لخيبة أمله تنام السيدة الصغيرة عادة قبل إنتهاء الفصل الأول. وتأتي إلى حلقة العمةأحياناً إحدى زوجات سكان الحصن، أو إحدى زوجات العسكر فيه، وهن يعتبرنها الأكثر ثقافة وفهماً، لأنها قبل كل شيء المسؤولة عن كل الحامية. لذلك يزودنها بالمعلومات كجزء من واجبهن تجاهها. وأحياناً يتحدثن عن الشائعات المتداولة في غرناطة. والواقع أن استماعي إلى هذه الجماعات المسائية أحياناً جعلني أخرج بالكثير من الحقائق الهامة، التي سمحت لي بتشكيل لوحة عن الخاصية التي يتميز بها هذا الجوار والمواطنون فيه.

ولعله من غير المهم ذكر تفاصيل هذه التسلية البريئة هناك، لولا وجود القصر. فأنا بمكان يسكنه الماضي ومحاط فيه بصحبة رومانطيقية. خاصة وأن هذه المدينة كانت موضوع حلمي الواعي منذ نعومة أظفاري حيث كنت أقرأ على نهر الهدلسون[11] قصص «جني بيرز دو هيتاس» تلك القصة عن فروسية الحرب الأهلية في غرناطة. وفرسان الإقطاع هناك، أمثال «زعزير» و«ابن سراج». وكثيراً ما تصورت بخيالي صالات قصر الحمرا. والآن أستعيد من الواقع، وألتقط بالحواس تصوراتي تلك. إذ أنني حقاً وفعلاً أسكن قصر أبي عبد الله، وأنظر حقاً من شرفاته إلى مدينة الفروسية غرناطة. وها أنا ذا أتجول بهذه القاعات الشرقية، وأسمع خرير مياهها وغناء العندليب على أفنانها، وأستنشق عبير زهرها الفواح. وأشعر بأثر الطقس على سكانها. حتى لقد ظننت نفسي أسكن الجنة الحقيقية التي وصفها النبي محمد «ص». وأن الحوراء براقة العينين دولوريس، إحدى تلك الحوريات فيها المكرسات لسعادة المؤمنين الاخروية.

---

(11) : نهر ضخم يفصل بين ولايتي نيوجرسي ونيويورك.



سكان الحمرا

لاحظت التناسب العكسي بين عظمة القصور التي تسكنها بيوتات الملك في أوج سلطتها، وبين حقارة سكانها عندما تنهار وتهجر. وكيف أن قصور الملوك تعود مع الزمن لتصبح أوكار لصوص ومتكدين.

والحمراء تسير في اتجاه هذا التغير بسرعة، فكلما انهار برج من أبراجها، سيطرت عليه أسرة وضيعة، لتسكنه برفقة البوم والوطواط. رافعة أعلام الفقر والضعة العائلية، بحبال الغسيل الذي ينشر من النوافذ والشرفات.

هكذا كنت اراقب مشاهد هذا التعدد بالصيغ، بين الملكيات التي كانت تحكم في القديم، ووضعها الحالي اليوم، الذي كأنه إعلان عن نهاية مأساوية لكل نبل إنساني. لذلك يكثر هنا مدعو الأصول النبيلة، أمثال: «ماريا انطونيا سابونا» التي تدعي الانتساب إلى أسرة «كوكلي» الملكية. ولا أحد ـ كما تقصيت ـ يعرف أصلها، كما أنها هي بحد ذاتها أصغر من أن تكون استمراراً لأي أسطورة. وهي تسكن غرفة أشبه بخزانة تحت درج القصر، وتجلس طول النهار على صخر

الدهليز المجاور تغزل الصوف، وتغني من الصباح إلى المساء، مستعدة لأن تمزح مع كل من يمر. لأنها أمرح كل النساء رغم كونها أفقرهن. كما أنها تتمتع بموهبة قصصية، فلديها قدرة على اختلاق حكايا تفوق حكايا «ألف ليلة وليلة». وقد سمعت بعض حكاياتها في حلقة العمة أنطونيا المسائية، حيث أحضرها بتواضع المستمع. وأشعر بضرورة وجود نوع من الموهبة عند هذه المرأة الصغيرة الحجم الكبيرة السن، تمكنها من سرد كل هذه الحكايات الخيالية. كما أنها تجسد كل حظ عاثر وقبح في الحجم الصغير. والفقر، حين تعد لك خمسة أزواج تعاقبوا عليها. وتضيف خمسة ونصفاً. أما هذا النصف فهو الزوج الذي مات أثناء حفل زواجه منها.

ويماشي هذه الشخصية الخيالية تقريباً، رجل صغير الحجم. له أنف كأنه قنينة ملصوقة بوجهه، يلبس قفطاناً رثاً قذراً، وعلى رأسه طاقية زيتَ جلدها من الاتساخ. وهو أيضاً من الأبناء الشرعيين اليوم لقصر الحمرا. فقد قضى كل حياته في القصر، فعمل مساعد حارس، ومنظف كنيسة. وواضع علامات على قواعد الأبراج... الخ. وهو أفقر من جرذ قذر، لكنه يتظاهر بكرامة من ينحدر من سلالة «أغويلار» التي منها ظهر «غوتزا فلو القرطبي» الكابتن المشهور. وأكثر من ذلك حمل هذا الجرذ اسم «آلونزو دي أغويلار» وهو نفس الاسم الذي ذكر كثيراً في حروب إعادة فتح غرناطة. والذي أعطاه «البابا» لقب: «الأب المقدس». كلقب كنت أظنه مقدساً عند الكاثوليك لدرجة لا تمكنهم من تركه لهذا المخلوق أمامي. والذي يدعي التحدر من ذاك الرجل الذي كان يمثل مرآة الفروسية الأندلسية. والذي كان يحتل مركزاً مرموقاً بين من فتحوا في يوم من الأيام هذا الحصن. وكل هذا يشبه رؤية شحاذ في خرائب «طروادة» يقول لك: إنه من سلالة «أفيلس» أو «آغا ممنون»؟!

ومن هذا الخليط الاجتماعي الحواري الملتصق بـي «ماتيو أكزيمنس» والذي شكل ركناً أساسياً من أركان هذا الاختلاط. فهو يدعي أن أسرته سكنت هذا الحصن من يوم فتحه. وكأنه نتيجة ذلك قد ورث الفقر أباً عن جد. فوالده ورث مهنة الخياطة من جده صانع الضمادات، وهو يعيش اليوم بتخشيبة بناها بيده فوق الباب الحديدي. ويعمل شبه خادم يضع في تخشيبته نفايات الأثاث. من سرير سيء الصنع وعدة كراسي مهشمة، إلى صندوق خشبي به أخلاط الثياب الرثة، إضافة إلى شجرة العائلة. المؤلفة من مجموعة من الأوراق الممهورة بأختام

العهود المتتالية؟! ولكن ومع ما فيه هؤلاء الناس، يبدون مرحين وغير مهتمين، ويتعرضون دوماً إلى جيرانهم الذين يصرون على أنهم ليسوا استمراراً للمسيحيين الأوائل، بل هم من أصول يهودية أو مغربية. مما جعلني أشك كيف أن غيرتهم على أحسابهم سمحت لهم بأن يكونوا ويستمروا بهذا الفقر، ولا يفخرون إلا بالتصاقهم في هذه الجدران، أو بأسلحة «المركيز» القديم التي يجعلها فقرهم عديمة المعنى، والنفع.

حتى «ماتيو» الذي يبلغ اليوم الخامسة والثلاثين من عمره، قد بذل كل جهده كي يحافظ على سلالته بالاحتفاظ والاستمرار بفقره. تاركاً زوجته وأطفاله بجحر آخر في هذا القصر. فكيف تستمر هذه العائلات بالحياة؟! إن أحداً غير المكشوف عليهم لا يمكنه أن يعرف؟! لذلك كانت معضلة بالنسبة لي معرفة كيفية استمرار سلالات ملوك الإسبان. ولكنها مستمرة. والأسوأ استمتاع هؤلاء بوجودهم هذا. حيث تسير زوجاتهم في ساحات وطرقات غرناطة بمرح، وعلى يد واحدتهن رضيع وحولها نصف دزينة من الأطفال، والبنات العذراوات الأكبر يزين شعرهن بالورود، ويرقصن بالصنجات مرحاً ؟!.

لذلك يمكن القول: ان الحياة تبدو كإجازة طويلة لطبقتين من الناس، الأغنياء جداً، والفقراء، فالأولى لا تحتاج أن تفعل شيئاً، والثانية لأنها ليس لديها شيء لتفعله؟! إلا أن فن أن لاتفعل شيئاً، لا يتقنه أحد أكثر من الطبقات الفقيرة في اسبانيا. اللوم نصفه على الطقس ونصفه الآخر على الحرارة. فإذا أنت أعطيت «الإسبنيارد» الظل في الصيف، والشمس في الشتاء، وقليلاً من الخبز والثوم والزيت، وعباءة قديمة وغيتاراً. فليسر العالم بعدها كما يشاء. وهو لا يعتبر الحديث عن الفقر عاراً، لأنه يجثم فوقه مثل عباءته، ويظل يعتبر نفسه شريفاً وإن كان على البساط.

وتجسد قمة هذه الفلسفة بإبن الحمرا، الذي لا يفعل شيئاً ولا يملك شيئاً، ولا يهتم بشيء. وأنا الذي كنت أتخيل أن أضواء الماضي الذهبي لازالت مشعة في هذا المكان، تماماً كما تصور العربي الجنة السماوية في هذه البقعة من العالم، أرى أمامي أناساً لا يعملون طوال الأسبوع، ويظلون ينتظرون أيام العطل والأعياد، وأعياد القديسين، مثلهم مثل كل كادح حرفي مفترض. وهم يحضرون كل احتفال بالعيد أو الرقص في غرناطة وجوارها، فتشعل المشاعل على الروابي في عيد

القديس جونز - يحيى - وتقام حلقات الرقص في حقول المحصول القليل من القمح في القلعة.

إن علي قبل إنهاء هذه الملاحظات أن أذكر - للقارىء - واحدة من تسليات هذا القصر التي فاجأتني؟! فهم يستعملون شباك صيد السمك لصيد الطيور. وينصبونها في مواقع الدفاع فيه. ولأنني لم أكن أعرف سبب وجودها هذا، سألت «ماتيو» الذي أزال هذا اللغز من أمامي؟!.

إذ يبدو أن هواء هذا القصر العليل يجلب الطيور كما يجلبها قصر «مكبث» - في قصة شكسبير - فعندما ينهي أطفال هذه السلالات الكريمة المحتد مدارسهم يساهمون بهذه الفخاخ للطيور، كإحدى التسليات، إضافة إلى « كش الحمام» التي يفضلها أبناء الحمرا. فهم حيث لم يعودوا يستطيعون أن يوقعوا أحداً بفخاخ أصولهم وأحسابهم التي اخترعوها، نصبوا فخاخهم للايقاع بالسماء.

قاعة السفراء

لاحظت باباً مخفياً غامضاً في إحدى زوايا القاعة التي تطهو فيها العمة «أنطونيا» الطعام وتحضره، حين تستقبل ضيوفها، في إحدى زياراتي لها في هذه الغرفة الشرقية. فأثار حب الاستطلاع لدي، لأنه قد يقود إلى قسم قديم من القصر، ففتحته. لأجد نفسي إزاء دهليز معتم، قادني حين دخلته إلى فسحة درج معتمة تؤدي إلى أسفل برج التجار. فنزلت أتلمس الجدران المعتمة، حتى وصلت إلى باب صغير آخر بأسفل الدرج. ففتحته بصعوبة، وحين دفعته وجدت نفسي وأنا أندفع بذهول إلى الغرفة المواجهة لقاعة السفراء، حيث تتألق أمامي فستقية قاعة ـ البركة ـ «البركا». ويفصل هذه الغرفة عن القاعة معرض «غاليري» أنيق به دعائم مزخرفة بالأسلوب الزخرفي العربي المغربي الرائع. وفي كل زاوية من هذه الغرفة ـ المواجهة لقاعة السفراء ـ مخدع سقفه مزين برسوم غنية، فاجتزتها عبر

باب رائع إلى قاعة السفراء. التي كانت مجلساً للملوك العرب هناك. وهي قاعة بعرض 37 قدماً، وارتفاع 60 قدماً، وتشغل كل الحيز الداخلي لبرج التجار. ولا زالت تحمل كل آثار ماضيها العريق. فالجدران الجميلة المبنى والمليئة بالزخارف العمارية تحمل كل تصورات العرب عن الجمال. وكذلك السقف به نفس المواد المفضلة من هذه الزخارف وكأنها مرسومة بقلم سماوي به ألوان حية لماعة. ورائعة إلى أقصى درجات الروعة.

لكن شرخاً أدى بالسقف لسوء الحظ إلى إسقاط عمود من أعمدته بسبب الزلازل، وقد ظل هذا العمود ممدداً عبر القاعة. واستبدل مكانه عمود جديد من خشب الأرز ليحمل السقف، بجذوعه المتفرعة لكنها المدهونة على شكل شرقي. والمشهد ككل يذكر بالسقوف الخشبية التي نقرأ عنها بقصص أمثال «يوكهارت» عن الليالي العربية وعن أعمدة هرقل.

وقد محي الجزء الأعلى من القسم الأكبر فوق الشباك ودمر. ورغم ذلك لا زال يعطي تألقه السابق العظيم، الذي نلمحه دوماً بذاك «القلم» الفني العربي المتألق.

أما العرش الملكي بإزاء المدخل فلازال يحمل طابع الملك «يوسف الأول» الذي أكمل بناء الحمرا، وجعلها سرير ملكه. وقد صمم كل شيء في القاعة ليحيط العرش فيها بانطباع مشرق بالروعة والإباء. ولا يماثله نظير بأي قسم آخر من القصر. والبرج الراسخ المتين الذي يحتوي هذه القاعة فوق مرتفعات الهضبة المنحدرة على جوانبه ـ يشكل دليلا آخر على الرسوخ والقوة ـــ وبه فتحت على الجوانب الثلاثة لقاعة السفراء شبابيك عبر الجدران السميكة. كأماكن تشرف على الخارج. ويصاحب شرفة الشباك المتوسط بصورة خاصة إطلالة على وادي «دارو» ـ داره ـ ومنه يمكن مد متعة النظر إلى «الفيغا» من بعيد. بينما تظهر أمامه مباشرة منطقة «البسين» ـ البائسين ـ بطرقاتها وشوارعها، وحدائقها التي كان يضمها حصنٌ وكأنه تاج للحمرا. حتى أن الملك «شارل الخامس» عندما نظر مرة من نفس هذا المكان ورأى هذا المشهد، قال: «سأظل أدين الرجل الذي فقد كل هذا».

لهذا صارت هذه الشرفة من أفضل أماكن خلوتي. حيث أجلس هناك لأستمتع بنهاية غروب كل يوم. فالشمس حين تهبط خلف الجبال الزهرية

للحمرا، ترسل بأشعة ملونة على وادي «داره» وكأنها توزع أنغام قصيدة حزينة على بروج الحمرا. بينما الوادي مغطى بالضباب الذي تتراقص عليه ألوان الغروب هذه، فيبدو من بعيد وكأنه بحر من الذهب. وسكون مثل هذه الساعة الذي لا تهزه ولا نسمة، تخرج منه همسات الموسيقى الخافتة بين الفينة والأخرى من جهة الوادي. فيعطي هذا السكون المخيم حولي ظلالاً تلف الزمن الذي أنا فيه بقوة سحرية تأسر الذاكرة، لتعيدها إلى ذاك الماضي المجيد، تماماً كما تعود أشعة الشمس إلى حضن أمها في الغروب.

وإذ أراقب غروب الشمس عن هذا الركن العربي، لابد من أخذ الاعتبار لتلك الشخصية الأنيقة للعرب التي تتبدى عبر عمارتهم، ومقارنتها مع العمارة «الغوطية» التي تمثل شخصية الفاتحين الإسبان. فالعمارة هنا هي التي تظهر التعارض بين الطبقتين المختلفتين لهذين الشعبين المحاربين، اللذين تصارعا لمدة طويلة من أجل السيطرة على شبه الجزيرة «الإيبيرية» هذه.

لذلك أشعر إلى حد بعيد، أن: دخولي الوحيد والمحظوط بين العرب والإسبان سيسهم في استعادة تشكيل هذا التاريخ، الذي شكل وجودهما بقصة فريدة من قصص التاريخ الانساني.

فعلي أن أعرف الجوانب المسيطرة منه علينا، والتي لا نكاد نعرف حتى ماذا نسميها. فهما أمة بدون اسم شرعي يوحدها، نتجت عن مد موجة الفتح الاسلامي على شواطئ أوروبا. مشكلين كما يبدو امتداداً فريداً. من جبل طارق حتى «البيرينة»، سريعاً وقوياً يشبه ذاك الامتداد الذي شكله العرب في سورية ومصر قبل ذلك. وأكثر من ذلك تجد آثار بصماتهم في سهول «تولوز» في فرنسا، وكل أوروبا، التي كانت معرضة لاجتياحهم المماثل للشرق. فقد كان من الممكن للهلال أن يتألق على صواري «باريس» و«لندن».

لكن ارتدادهم عند حدود «البيرينة» دفع بذاك الخليط من الأفارقة والعرب، الذين شكلوا تلك الامبراطورية العظيمة، إلى ترك المبدأ الاسلامي في الفتح، ليعملوا على توطيد أقدامهم في اسبانيا فقط، وهم كفاتحين كافأت بطولاتهم عدم تعصبهم فتضافر هذان العاملان مع الزمن على تشكيل أمة فريدة في مكان تواجدهم في الأرض التي افترضوا أن الله قد أعطاها لهم. لذلك أرادوا أن يزودوها بكل ما يمكن أن يرفد سعادة الانسان فيها. فساعدوا كل علم وفن. مما حسن الزراعة،

والصناعة والتجارة. ومكن من تأسيس امبراطورية لا تضارعها أي امبراطورية مسيحية. جاذبين إلى فلكهم كل عظمة وإتقان الحضارة العربية في المشرق. لذلك كانوا في أوج عظمتهم الحضارية النور الشرقي الذي اهتدت به ظلمات أوروبا.

ولهذا كانت مدن إسبانيا العربية منهلاً للغرب الأوروبي المسيحي لتعلم كل الفنون، فجامعات «طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة» كانت مقصد الطلاب من الغرب ممن أرادوا تعلم العلم من العرب، ليستخرجوا من ذاك الكنز الذهبي العتيق رغادة العيش بالعلم. ومن مراكز «قرطبة» و«غرناطة» التي انبثقت منها الموسيقى والشعر، تعرف محاربو الشمال أيضاً كيفية الاستعمال الأمثل لزخم واندفاع الفروسية.

فقد ظلت الآثار الاسلامية في اسبانيا كالجوامع في قرطبة والكزار(12) في اشبيلية، والحمرا في غرناطة تشهد على تأثر الغرب بكل ما كتب فيها. كما ظلت الأرض لهم على مر القرون مدة تفوق مدة دخول «النورمانديين» إلى «انكلترا». لذلك لم يتوقع المنحدرون من «موسى بن نصير» و«طارق بن زياد» أن يطردوا إلى المنفى بنفس الاتجاه الذي جاء منه أجدادهم، تماماً كما لم يكن يتوقع المنحدرون من «رولو» و«وليم» وأمثالهم أن يطردوا إلى شواطئ «النور ماندي» مرة ثانية.

وعلى الرغم من كل ما حصل، وبكل الأحوال ظلت الحضارة الاسلامية في اسبانيا، شعاعاً مشرقاً، وومضة لم تجذر في الأرض التي طورتها. بسبب عوائق الدين التي أحاطها بها جيرانها، وهي المفصولة عن مثيلاتها في الشرق بعائق البحر. وبذلك صار مراكشيو اسبانيا شعباً معزولاً. فصار كل وجودهم يعتمد على صراع فكري، وفروسي فريد، من أجل ترسيخ القدم بأرض رجراجة.

لقد كانوا ثغراً اسلامياً بمعنى الكلمة. وأرضهم ساحة حرب مستمرة بين الفاتحين «الغوط» من الشمال، والمسلمين من الشرق. حيث كان اللقاء بينهم دوماً من أجل تحديد من تكون له السيطرة فدائماً كانت ترتد الشجاعة النارية للعرب، بالاحتياطات المتأنية «للغوط».

ونتيجة ذلك كان المراكشيون الإسبان، أكثر الشعوب غربة وشعوراً بالشقاء. واليوم إن أنت سألت: أين هم الآن ؟ يجبك شاطئ المغرب في المنفى وهناك لم

---

(12) ـ القصر.

يقوموا بأي تأثير يذكر بعد نفيهم، إذ كفوا عن التواجد كأمة ذات معالم. ولم يتركوا ولا أي اسم محدد خلفهم. رغم أنهم كانوا شعباً تشكل بثمانية قرون يختلف عن كل شعوب المغرب العربي. وهكذا رفض المغرب العربي حيث منفاهم وجودهم كما رفضتهم بلادهم التي كانوا فيها؟ لقد رفض الجميع اعتبارهم إلا كغزاة أو لاجئين؟ ولذلك لم يبق لهم أي أثر إلا على صخور الحمرا، وبعض الآثار الشاهدة على عظمتهم وسيطرتهم كرمز اسلامي في قلب الأرض المسيحية. والدليل الذي لدينا الآن على هؤلاء الشجعان الأذكياء المتألقين من ذاك الشعب العظيم، هو: الحمرا، هذا القصر الشرقي بقلب العمارة «الغوطية». لشعب غزا وفتح وحكم وازدهر ثم غاب عن الوجود(13) .

---

(13) :عن نفح الطيب، عن الحلل السندسية، لشكيب آرسلان، دار مكتبة الحياة، بيروت عام؟، مج 1،ص 450 . قال شاعر أندلسي مجهول:

عظيم أن يكون الناس طُراً   بأندلس قتيلا أو أسيرا.

المكتبة اليسوعية

دفعني انخراطي في هذا الهاجس إلى استطلاع كل شيء عن هؤلاء الأفراد، الذين تركوا وراءهم هذا الأثر التاريخي الشرقي الرائع. والذين لا زالت أسماؤهم تزين جدرانه. ولهذا قررت النزول من عالم الحلم والقصص الشاعرية، إلى المكتبة اليسوعية في الجامعة، وهناك بدأت أبحث بين أكداس الكتب المغبرة. وهذه المكتبة بالرغم من أن أعمالها النادرة تعرضت إلى السرقة من قبل الإفرنسيين، عندما كانت لهم السيادة على غرناطة، إلا أنه بقي مع الآباء اليسوعيين الكثير منها، ولم يجرؤ الإفرنسيون على مسهم أو مسها. وفي ضمنها الكثير من الآثار الأدبية الإسبانية. وعدد من المقالات المخطوطة الملفوفة، التي كان لي اهتمامٌ خاصٌ باختراقها.

ولأنني أئتمنت على مفاتيح الأبواب في هذه المكتبة، وتركت وحدي دون أي إزعاج، قضيت ساعات طويلة هادئة في هذه المكتبة القديمة كما أشاء بعزلة نادرة،

كما لو كنت فيها بدير، أو كما لو كنت تلميذاً عطشاً للمعرفة إزاء منبع من المعارف.

وقد كشفت النقاب عن الكثير من الحقائق التاريخية، خلال زياراتي هذه، وعن شخصيات تاريخة تتصل بالحمرا، سأعرض بعضها على القارىء، عسى أن يلاقي منه قبولاً:

مؤسس الحمرا

لأن العرب كانوا يعتبرون «الحمرا» معجزة فنية. ظهر في تقاليدهم ما يشير إلى أن مؤسسها كان يتعاطي سحراً كانوا يسمونه: «الكمي» أو ـــ السيمياء ـــ وبه استطاع أن يحول كماً هائلا من المعادن الرخيصة إلى ذهب، أنفقه على بنائها؟ ويعرف هذا الرجل في التاريخ العربي باسم: «محمد بن الأحمر». ويكتب اسمه عادة «الأحمر». وقد أعطي له هذا الاسم بسبب لون بشرته الحمراء.

وهو ينحدر من نبلاء بني نصر، أو قبيلة «بني نصر». ولد في «أرغونا» في السنة الهجرية 592هـ الموافقة 1190م. وقد طالع المنجمون برجه، حسب التقليد الشرقي، فاعتبروه في فلك عال جداً، ولذلك تنبؤوا له بمستقبل ماجد. فلم يُبْخَل عليه بأي إنفاق تربوي كي يلاقي هذا المستقبل. وهو قبل أن يبلغ طور الرجولة، كانت «حرب السهول» في «تولوسا» قد دمرت الإمبراطورية العربية في اسبانيا، وفصلت مسلمي إسبانيا عن مسلمي أفريقيا. ونتيجة ذلك ظهر عند الأندلسيين

زعماء طوائف يطمحون إلى الاستقلال في الجزيرة. وانخرطت غرناطة بهذه الحروب، وكان صاحبنا قائداً من قواد بني نصر فيها. وهو في تعارض مع طموحات «ابن هود» ذي التجهيزات الحربية القوية في شعاب جبال «البقصارا» المنيعة. والذي أعلن نفسه ملكاً على «ملقا» و«غرناطة» بعد عدة صراعات خاضها مع ملوك الطوائف التي كانت تحكمها، فخضعت الحمرا له، وأعلن بعد ذلك أنه خليفة على كل الأندلس. وكان رجلاً ذا نفس طموحة وكريمة، فما يناله بيدٍ ينفقه بأخرى. وبعد وفاة «ابن هود» هذا عام 1238م. أعلن ابن الأحمر نفسه وصياً على كل أملاكه. ودخل غرناطة رسمياً بنفس السنة، مع هتاف الجماهير. التي اعتبرته أعظم موحد لتلك الانقسامات الملكية، التي تهدد بجعل الامبراطورية تحت رحمة أمراء النصارى.

ومن يومها جعل ابن الأحمر غرناطة قاعدة ملكه. فكان أول من شكل سلالة بني نصر فيها. واضعاً كل الاحتياطات التي تجعل من مدينته معقلاً، ضد كل الهجمات على مملكته الصغيرة، المحاطة بجيرانه النصارى الذين يمدون ويقوون حدودهم باتجاه عاصمته. وشكل جيشاً نظامياً لحماية معقله، لأنه لم يكن مقتنعاً بالقانون التقليدي القائل: بأن كل مسلم جندي. وكافأ جنوده بثغر لكل واحد منهم على الحدود. كأجر لهم، مما مكنه من تقوية الدفاع عن أرض يملكها جنود. وقد أثبتت الأحداث صحة هذا المنهج. إذ أن النصارى كانوا ينتظرون فرص خلو الأرض بسبب حروب الطوائف، فيستعيدونها مباشرة وبسرعة. وهذا ما فعله «جيمس الفاتح» حين أخضع كل «فالنسيا»، و«فردناند القدس» حين أخضع قبل «جين» معظم ملحقات «غرناطة»، فاصطدم مع «ابن الأحمر» بساحات حرب اضطرت الأخير إلى العودة للاعتصام بغرناطة، فحُصِر العرب بهذا الجيب، بسبب مقاومة «جين»، بينما عمد «فردناند» إلى عدم مهاجمتهم حتى يجد في نفسه القوة الكافية لتدمير معقلهم هذا. مما بدا واضحاً «لابن الأحمر» أن سقوط مدينته صار وشيكاً، إذا هي حوصرت. وأدرك عدم فائدة حلفه مع «قشتالة» البعيدة، فاتخذ مبادرة سلام مفاجئة، حين ذهب إلى المعسكر المسيحي وبرز بدون توقع أمام الملك «فردناند». وبعد أن عرف عن نفسه بأنه ملك غرناطة، قال: لثقتي بحسن إيمانك جئت لأضع نفسي تحت حمايتك؟ خذ كل ما أملك واقبلني مولى لك؟ ثم انحنى وقبل يد الملك بطريقة أنيقة.

وبهذه الثقة ربح «ابن الأحمر» «فردناند» الذي كافأه عدوه السابق، بأن رفعه عن الأرض، وقبله كصديق، رافضاً ملكه. وتاركاً له هذا الاقطاع، مقابل جزية سنوية، يدفعها كغيرة من النبلاء في امبراطوريته. شرط تزويد جيش «فردناند» بعدد من الجنود في حال أي حرب مع أعدائه؟ ثم أعطاه مقابل ذلك لقب فارس وألبسه خلعة ودروع الفروسية بيده.

ولم يمض وقت طويل حتى دعا ابنَ الأحمر ليؤدي واجبه القتالي معه، ويدعمه ـ هذه المرة ـ في حصار «اشبيلية» الشهير. وهكذا ظهر هذا الملك العربي مع خيرة من فرسان غرناطة المشهورين باستعمال الحراب الطويلة، ليشهروا حرابهم وسيوفهم هذه المرة ضد إخوانهم عرب «اشبيلية» إخوانهم بالايمان؟

وشكلت مشاركة ابن الأحمر في هذا الفتح. عبئاً كبيراً على نفسه، لكنه ظل على عهد الفروسية مع فردناند. وعاد إلى إقطاعه حزيناً عندما استسلمت «اشبيلية» المدينة العربية الشهيرة عام 1248م لملك قشتالة المسيحي. يردد عبارات كانت تصدر منه وقت حزنه وهي:

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل؟

لكنه دخل غرناطة دخول المنتصر من فتح فتحه. فخرج الغوغاء والعوام للترحاب به، خاصة وأنه كان محبوباً من الجميع. وحيثما سار كانوا يحيونه بعبارة: الغالب؟ .

لكن المسلمين في الحمرا كانوا يعرفون شعارهم الأساسي: شعار الأندلس ككل: «لا غالب لكم إلا الله». وهو ما رفعه كي يخفف من غلواء عوامه. فظل شعاراً أساسياً لكل خلفائه من بعده. وهو موضوع إلى الآن في قاعات الحمرا.

إلا أن ابن الاحمر كان يعرف أن خضوعه للنصارى، لن يجعلهم يقبلون به مدة طويلة، بسبب ذاك العداء المديد والراسخ بين الفئتين، لذلك عمل بالمثل القديم: «اشترِ ثياب الشتاء في الصيف، وتسلح في وقت السلم».ولهذا زاد من تحصين قلاع ملكه، وقوى دفاعاته، وأغدق على كل علم وفن يزيد من قوته. وولى على مدنه رجالاً صالحين يقبل بهم الشعب، ونظم الشرطة، ووضع قوانين صارمة لحماية العدل. وكان يجلس بنفسه للقضاء بين الناس، دون أن يبخس حق فقير أو مظلوم. كذلك بنى «التكايا» لغير القادرين على العمل، و«المارستان» للعميان

وكبار السن. وأشرف على كل هذا بنفسه، معطياً لكل شيء وقته وحقه ونظامه. لدرجة أنه كان يتعرف بنفسه على كيفية علاج المرضى، ويحقق في أي سوء طبابة يتلقونها. وأوجد المعاهد والجامعات وأشرف عليها بنفسه.

واهتم أيضاً بتوجيه الدراسة فيها، وزيارتها بين فينة وأخرى. وبنى المسالخ والأفران العامة، ليضبط أسعار الغذاء. وهو الذي جر الماء إلى المدينة، لدورها وحماماتها وبركها، فشكل نظام سقاية زاد من سعة خضار الوادي ككل. وهكذا ازدهرت المدينة وزاد جمالها بهاءً. مما جعل التجار يطرقون أبوابها، فامتلأت بكل السلع من كل مكان في البلاد.

كذلك أعطى امتيازات للحرفيين، وعمل على تحسين سلالات الخيول وباقي الحيوانات، ودعم الزراعة وحتى المزارعين، مما جعل هذا الوادي الخصب في مملكته حديقة غناء. فازدهرت صناعة وزراعة الحرير لدرجة تفوق بها حرير غرناطة على الحرير السوري بجودة صناعته. والأهم من كل هذا أنه استخرج مناجمَ للذهب والفضة والمعادن التي وجدت في المناطق الجبلية التابعة له. فَصَنَّعَ هذه المعادن، وكان أول مَنْ يصك العملة باسمه، من ملوك غرناطة بصناعة نقدية متقنة.

وهو لم يبدأ ببناء قصر الحمرا إلا بعد عودته من «إشبيلا»، منتصف القرن الثالث عشر. وأشرف على بنائها بنفسه، موجهاً العمال والفنانين فيها.

ورغم كل هذه الصفات الرائعة العظيمة فيه، كان متواضعاً، معتدلاً في نزواته، فثيابه أنيقة، لكنها لا تمتاز عن ثياب رعيته، وحريمه جميلات لكنهن قليلات، ولا يزورهن إلا قليلاً رغم تمتعهن بكل الإمكانات. وكانت زوجاته من بنات نبلائه، يعاملهن كصديقات ورفاق حياة عاقلات. وهن مع بعضهن بالمقابل يعشن بصداقة. وكان يقضي كثيراً من وقته في حدائق قصره، في الحمرا. حيث زود هذه الحدائق بأندر النباتات، وبأجمل عبق الزهور. وهو يقرأ التاريخ. أو يستمع لقارىء يقرؤه له، ويشرف على تثقيف أولاده الثلاثة، الذين يقوم على تدريسهم أفضل المعلمين أيضاً.

وقد ظل على ولائه لفردناند يؤدي له الجزية التي فرضها على نفسه، كدليل صداقة. وعندما مات «فردناند» في «اشبيلية» عام 1254م، أرسل سفراءه مع مائة فارس عربي إلى وريثه «الونزو العاشر» وواكبوا الجنازة برتبهم المختلفة الرفيعة

وشاراتهم. وكرر هذا الأمر بموت الملك «فردناند آل سانتر» الذي سار معه من الكاتدرائية إلى مرقده، مائة فارس عربي برماحهم الطويلة.

وعمر ابن الأحمر إلى أن بلغ السابعة والتسعين عاماً، ومات عام 1272م. وحادث موته كان إثر خروجه لرد غزوة عن مملكته بصحبة فرسانه، فكسر أحدهم رمحه الطويلة وهو يخرج من باب الحصن، ولأن ذلك كان يعد نذير شؤم، عاد الملك متطيراً ليقع فوراً بالمرض، ولم يعد يقوى على ركوب الخيل. ورغم إخراجه إلى الوادي، زاد مرضه دون أن يعرف الأطباء سبب ذلك أو علاجه. ومات بعد عدة ساعات وهو يتقيأ الدم بشكل عنيف. وكان بجانبه الأمير القشتالي «دون فيليب» أخو «آلونزو العاشر» عندما لفظ أنفاسه. فكفن ووضع بتابوت فضي، ودفن تحت قبر رخامي في الحمرا، مشيعاً بصرخات شعبه الذي ودعه كمن يفقد أباً.

هذا المؤسس الأول لملك بني نصر في إسبانيا، كان مؤسس آخر مملكة عظيمة من ممالك المسلمين القوية الرائعة في الجزيرة «الإيبيرية» أيضاً. والتي بلغت بصيتها أقصى الممالك، وبعظمتها أقصى هيبة. ولأن خزائنها كانت مليئة دوماً، كانت الشائعات بأن ملكها يتعاطى «السيمياء» والسحر، وأنه كان يعرف سر تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. أما الذين كانوا يعرفون طبيعة ذاك السحر والسيمياء البسيطة في سياسته ومنهجه الحكيم الذي نهجه في حكمه، فهم الذين يعرفون بسهولة السبب الذي جعل خزائنه مليئة دوماً بالذهب !! من الحكمة.

الذي أنهى بناء الحمرا
يوسف أبو الحجاج

سأضيف لمحة موجـزة عـن الملك الـذي أنهـي بنـاء الحمـرا: «يوسـف أبـو الحجيج» ـ ابو الحجاج ـ أو كما يكتب اسمه أحيانا: «هاكسس». إضافة إلى ذكـر الأمراء الذين حكموا هذا المكان.

وهو واحد مـن نبـلاء آل نصـر. استلم تـاج غرناطـة عـام «1333م». ووصفـه المؤرخون المسلمون بأنه: كان نبيلاً قوي البِنية، أشقر الملامح، ذا حضورٍ مهيـب، ولحية طويلة يصبغها باللون الأسود. رقيقاً مرهـف الإحسـاس، ومتمدنـاً إلى أبعـد الحدود. ويحمل صفاته هذه معه إلى كل الحروب، مانعـاً كـل قسـوة وتعـدٍ فيهـا. فكان يحمي الأطفال والنساء العجزة من مصائبها، كما كـان يحمـي رجـال الديـن المسيحي حين كان يهزم جيوشهم. وكان شـجاعاً ذا نفس عاليـة، وعبقـري سلم أكثر منه عبقري حرب. فرغم اضطراره لها كان لا يحالفه الحظ فيها.

ومبادرته بالتحالف مع ملك مراكـش، لم يكتـب لـه الحـظ فيهـا ضـد ملـك قشتالة والبرتغال. فهزم في المعركة الشهيرة «سلادور» التي شكلت ما يشبه الضربة القاضية للنفوذ الاسلامي في اسبانيا.

وبعد هزيمته حصل «يوسف» على هدنة طويلة، أظهرت شـخصيته الفـذة في السلم. فقد كان موسوعة علم وثقافة، ذا ذاكرة فائقة، ورهافة شعور، مما مكنه من أن يكون أفضل شاعر في عصـره. وهـو الـذي كـرس نفسـه لرفـع معنويـات شـعبه وسلوكهم، فأسس المدارس في كل قرية، على منهج موحـد بسـيط، منقيـاً المشـاعر الدينية من البدع. والأعياد والاحتفالات منها أيضاً. ضابطاً سياسة المـدن بتكثيـف دوريات الحرس فيها. كما كان يشرف بنفسه على الشؤون المدنيـة، موجهـاً جـل اهتمامه إلى إكمال فن العمارة الذي بدأه أسلافه، وهو يوجه الكل للأخذ بخططـه. وقد كانت الحمـرا الـتي بناهـا وأوجدهـا الفـاضل ابـن الأحمـر هدفـاً مـن أهدافـه الأساسية، فتوجــه كليـة لإنهائهـا. ولهـذا أسـس بـاب العدالـة كمدخـل رئيسـي للحصن الذي أنهاه عام 1348م. كما أنهى بناء الكثير من قاعات القصـر، ويمكـن رؤية ذلك على النقوش الجدارية الكثيرة فيه، حيث يتكرر اسمه عليها.

كذلك بنى قلعة ـ مالقا ـ «مالاغا» الرائعة في «الكزار» ـ القصر ــ وهـي اليـوم ولسوء الحظ كتلة من الخراب. لكن الذي كـان فيهـا يشـبه مـا في الحمـرا، روعـة وبناء وعمارة.

هكذا ترك بصمات عبقرية على مـا بقـي مـن زمـن العـرب هنـاك، فغرناطـة الشـريفة الـتي ملئـت بـالقصور المشرفة، المرصوفـة قاعاتهـا بـالموزاييك وسـقوفها وجدرانها بالأرابسك، المدهون بدقة بالأزور وغـيره مـن الألـوان المشـرقة. والمدعمـة بالأرز وباقي الخشب النفيس، وغيره من المواد التي نجت من تقلبات الزمـن عـبر العصور، عكست كلها ذوق «يوسف». كما عكست ذاك الفن الراقي الرفيع لشـعب راق ورفيع. فقد كان للكثير من البيوت فسـتقياتها، وبركهـا الـتي تقـذف المـاء في الهوَاء لإنعاش المكان، ولها ايضاً أبراج. من الخشـب أو الأحجـار المحفـورة بدقـة والمزخرفة، أو المغطـاة بصفـائح المعـدن المتـألق في أشـعة الشـمس. فـإذا استخدمنا عبارات الكتاب العرب عن غرناطة قلنا: «لقد كانت غرناطة في أيام يوسف إبريقـاً من الفضة المملوء زمرداً».

ويكفي ذكر واقعة واحدة لإظهار عظمة هذا الأمير الكريم. فقـد أدت الهدنـة الطويلة التي أعقبت معركة «سلادو»، والتي باءت كـل جهـود «يوسـف» بالفشـل

لتجديدها، مع عدوه الميت «الفونسو الحادي عشر» صاحب «قشتالة»، أدت إلى حصار جبل طارق. ودون جدوى حاول يوسف مراراً رفع هذا الحصار. وفي غمرة هذا التوتر، تلقى نبأ بأن خصمه الميت قد وقع ضحية الطاعون؟ وبدل أن ينتهز هذه الفرصة، يعيدنا يوسف إلى ماضي العرب المشرق في مثل هذه الظروف حين يحزن عليه ويقول: «إن العالم قد خسر أحسن أمرائه»، فهو رجل يعرف كيف يقدر الامتيازات بأصدقائه وأعدائه.

والمؤرخون الإسبان الذين شهدوا على هذا القول، أكدوا أن فرسان العرب، ولتأثرهم بقول أميرهم هذا، أعلنوا الحداد على موت «ألفونسو». ولم يقم أي منهم من الذين كانوا قرب جبل طارق المحاصر بأي عمل عدائي ضد المسيحيين أثناء الحداد. وخاصة حين انقسم معسكرهم وانسحب الجيش حاملاً جثة «الفونسو» على مرأى من الفرسان العرب الذين لم يتحركوا حداداً عليه. والواقع أن هذا ما حصل على كل الحدود، وما فعله القادة كافة، كما رصد ذلك المؤرخون، فمرت الجنازة بأمن وسلام بالنعش من جبل طارق إلى إشبيليا.

ولم تمتد الحياة «بيوسف» كثيراً بعد عدوه الذي عامله بمنتهى الكرم، ففي عام 1354م، بينما كان يصلي في مسجد الحمرا اغتاله مجرم متمسحن متعصب، حين طعنه بسكين في جنبه، فاندفع حرسه وبطانته لمساعدته، فوجدوه مكللاً بدمائه، ويحاول أن يقول شيئاً: لكن كلماته لم تكن مفهومة، فحملوه إلى جناحه في القصر حيث توفي فوراً. فغضب الجمهور وقطع القاتل قطعاً ثم أحرقه.

أما جسد الملك فقد دفن في قبر رخامي أبيض، كتبت عليه آيات بالذهب والآزور، تذكر فضائله وتقول: «هنا يرقد الملك المجاهد الشهيد، النسيب العالم، الرفيع الفاضل، المحيي لسنن آبائه وفضائلهم. وأياديه البيضاء التي تنعم بفضلها مملكة غرناطة، تدل على أمير عظيم، وقائد مرموق، وسيف من سيوف الاسلام الماضية. وواحدٍ من أفضل السلالات الملكية».

والمسجد الذي شهد مصرع «يوسف» لا زال باقياً، لكن النصب الذي وضع لتخليد فضائله، أزيل منذ زمن بعيد. بينما لا زال على كل حال اسمه يدل على عظمته على جدران قصر الحمرا، ليدل بدوره عبر الزمان على مدى صلة هذا النصب الضخم به، معبراً بفخر عن جمال مبهج خالد.

الغرفة الغامضة

في إحدى قاعات القصر باب بعيد ، لفت انتباهي له التحف الفنية التي تحيط به، وتحفّه من كل جانب. فهو حتماً وكما يبدو متصل بمكان ما في الحمرا لم أكتشفه بعد. لذلك حاولت فتحه فوجدته مقفولاً، وحين قرعت عليه لم يجب أحدٌ، وبدا صدى قرعاتي ترددها قاعة خاوية. فكيف عليّ أن أدخل هذا الجزء السري المغلق عن عيون الناس ؟! الذي تراءى لي فيه سر جناح مسكون ؟! فهل عليّ أن أحضر في المساء سيفي ومصباحي كما يفعل من تحكي عنهم القصص الرومانطيقية ؟! أم أستدرج فلاح الحديقة الثرثار ليبوح لي بهذا السر؟! أم دولوريس، أو ماتيو الثرثار؟! أم يجب أن أذهب إلى العمة أنطونيا وأطلب منها بصراحة لتميط لي هذا اللثام؟! فطبعاً اخترت هذا كأبسط الأفكار وأقلها رومانطيقية. وحين رحبت بفتح الباب، وأعطتني المفتاح، دهشت لأني وجدت أن ليس هناك سر «ولاما يحزنون»

فعدت إلى الباب والمفتاح بيدي ، وفتحته لأجد أمامي غرفة فارغة. تختلف عن بقية القصر، إذ رغم غزارة الفن المعماري فيها وقدَمه إلا أنه فن أوروبي ولا شيء عربياً فيه، وقد تآكلت القاعتان الأولى والثانية، وكذلك سقفهما المبني من خشب الأرز المقطع بعدة أماكن، والمحفور عليه الزهور والفواكه المتداخلة برسومات تشبه أقنعة الوجوه.

أما الجدران التي كانت في الماضي مستورة بستائر «الدامسكو» فهي الآن عارية، وتذخر بالأسماء التي تركها عليها زوارها من السياح، بشكل فوضوي. والشبابيك مفتوحة ومتروكة للرياح لتلعب بها. وهي تطل على حديقة منعزلة، فيها نافورة ماء جار تتدفق ببركة محاطة بالزهور، وتطوقها أشجار الليمون والبرتقال التي تدخل بعض أغصانها من هذه النوافذ. وخلف هذه القاعة، صالونان أطول منها وأقل تآكلاً، يشرفان على نفس الحديقة، زين سقف كل منهما بوسطه بسلة من الفواكه المنحوتة والزهور المحفورة بالسقف، والمدهونة بشكل سيء لتشكل منظراً غير مستحب. أما الجدران فمدهونة ومزخرفة على الطراز الإيطالي. ويكاد دهانها أن يختفي كلية. وشبابيك هذه القاعة على نفس حال تآكل شبابيك سابقاتها. وتنتهي هذه القاعة بمتحف ـ «غاليري» مفتوح على درابزين يمتد بزاوية يمنى على الجهة الأخرى من الحديقة. وقد أيقظ بي هذا الجناح الأنيق ككل، والمزخرف جداً، والمتاز بعناية ليطل على حديقة معزولة والمختلف بفن عمارته عن جاراته من الأجنحة الأخرى في هذا القصر، أيقظ بي حب استطلاع تاريخه. وبعد تقص عرفت أنه من صنع فنان إيطالي في بداية القرن الماضي ـ الثامن عشر ـ أيام «فيليب الخامس» وزوجته الثانية «اليزابيث الفرنسية» ، إبنة دوق «بارما» التي كرست هذه الشقة لها ولحاشيتها، عندما كان من المتوقع وصولها إلى الحمرا. وخصصت للملكة أكثر غرف النوم راحة، والتي تصل اليها من داخل هذا الجناح بدرج، هو الآن مغلق، ويقود إلى غرفة سلطان عربي متصلة بشقة حريمه. التي أعيد تأثيثها كي تصبح ملائمة لنوم «آليزابيث» الشقراء، وعليها اسم لازال بارزاً وهو: مكان زينة الملكة «تواليت»

وأحد شبابيك هذه الشقة يشرف على المنظر العام للقصر وخارجه، والآخر على الحديقة سالفة الذكر. وذات الطابع العربي الأصيل. وذات التاريخ الخاص

بها أيضاً. فقد كانت هذه الحديقة حديقة «ليندا رقصا» التي يذكر اسمها كثيراً على جداريات الحمرا. فمن هي «ليندا رقصا» هذه وماذا كانت؟!

هذا ما لم يوضحه لي أحد، لكن بعض البحوث التي قمت بها، مكنتني من أن أعرف بعض الأشياء عنها. فقد كانت غانية جميلة معروفة في عصر وقصر السلطان «محمد الأعسر» وهي ابنة تابعه المطيع «الآلسيد» ـ سيد ـ ملقا، الذي آوى السلطان في مدينته حين طرد من العرش، وعندما استعاد ملكه كافأه على إخلاصه، فكان لإبنته جناحها الخاص في الحمرا، وبه زوجها إلى الأمير «نصر» الشاب المنحدر من سلالة «ابن هود» العادل. واحتفل بزواجها في القصر الملكي في الحمرا حسب عادة تزويج الأسياد في القصر الملكي، حيث تخصص لدخلتهم شقق خاصة. وهنا حتما تم الاحتفال بدخلتهما معاً في هذه الغرفة.

لقد انقضت اربعة قرون على موت «ليندارقصا» ولم يبق إلا ظلال الجمال الهش للمكان الذي شغلته!! لكن الحديقة لازالت تزهر كما كانت، ولازالت البحيرة تغدق بالماء كالمرآة التي عكست في يوم من الأيام سحر ــ ليندا ــ الفاتن. لكن المكان فقد نضارته، فامتلأت «جرون» الحمام بالطحالب، وعشعشت به السحالي. ففي المشهد ككل، تداعٍ يدل على عرضية الإنسان مع كل ما يتركه من صنعة.

كذلك طوت هذه الجدران فخر ونضارة وأناقة «أليزابيث» وانعكس كل هذا عليَّ بلمسة سحرٍ، كأني اقف أمامهما، وبحضورهما الرائع، وهما تتآلقان وتؤلقان روعة القصر.

لكن كل شيء عاد عادياً، عندما عدت إلى مخدعي في شقة الحاكم. بعد أن تركت ذاك القسم الشاعري. وتداعت علي الأفكار: فما المانع أن أغير مكان إقامتي إلى تلك القاعات؟! التي بها وحدها يمكن القول: إنني أعيش في الحمرا، محاطاً بحدائقها ونوافيرها، تماماً كما في أيام العرب بذروتها. وعرضت الأمر علىالعمة أنطونيا وعائلتها، فأبدوا الاستغراب؟! إذ كيف يمكن لأي شخص عاقل أن يختار جناحاً منعزلاً موحشاً ومنفرداً؟! وتساءلت «دولوريس» عن أي شيء يمكن أن يوجد هناك سوى البوم والوطواط، والثعالب التي ترتع مع القطط الوحشية في تلك الحمامات، وتجول وتصول في الليل؟! وكان للطيبة «تيا» اعتراضٌ أكثر منطقية، فبجوار هذا المكان على الهضاب يتجول الشذاذ من الغجر،

والقصرِخرب، ومن السهل دخوله من كل مكان. وبمجرد أن يشاع أن فيه غريباً وحيداً، في شقة قصية متهدمة، بعيداً عن سمع الباقين من سكانه، قد يغري ذلك بزوار غير مرغوب بهم ليلاً. إذ من المفروض أن الغرباء مليئة جيوبهم بالمال؟! ورغم تأثير ماقاله هؤلاء الطيبون على معنوياتي، بقيت على مزاجي المرح ولم أغير رأيي؟! فأصلح مرافقي الرسمي «ماتيو» بعون أحد النجارين الأبواب والشبابيك

بشكل آمن نسبياً، وهيؤوا غرفة نوم «اليزابيث» لإستقبالي. وتطوع «ماتيو» بالنوم كمرافق حراسة، في غرفة مقابلة. دون أي ميل لي باختبار ولائه هذا.

ومع كل الجهد الذي بذلته، وكل الاحتياطات التي اتخذتها، أعترف بأن الليلة الأولى التي قضيتها هناك، قضيتها بحالة ترقب لايمكن التعبير عنه. والسبب ليس فقط من خوف الخطر الخارجي. بقدر ماهو بسبب هذا المكان الخاص بحد ذاته. مع كل ما رافقه من غرائب في الماضي: فأفعال العنف التي ارتكبت في هذا المكان، والنهايات المحزنة لمن حكموا هنا، كانت عجيبة.

وفيما كنت أجتاز برج التجار باتجاه غرفتي هذه، استدعى عقلي شعراً كان يثيرني زمن الصبا، وفيه:

يجلس القدر العابس في تلك الليالي المعتمة.

وحين يفتح الباب لأدخل.

يتردد صوت الصدى من جدران القصر.

مليئاً بأفعال أناس لامسمى لهم.

وكانت كل العائلة ترافقني إلى غرفتي، كما لو أنني ذاهب لأنخرط في مغامرة. وعندما غابت أصوات أقدامهم وهم عائدون، يردد صداها قاعات «الغاليري» وأقفلت غرفتي علي، تذكرت إحدى قصص المردة، حيث يترك البطل لينجز مهمته وحده في البيت المسكون.

والذي أضاف سحراً للسحر الذي أنا فيه، أفكاري حول «اليزابيث» الشقراء، وجمال مرافقاتها الملكيات، اللواتي شرفن هذا المكان في يوم من الأيام. فهذا المسرح الذي تجلى فيه حسنهن وفرحهن. وهنا الآثار الباقية التي مرت

عليها متعهن وأناقتهن: ولكن أين كل هـذا؟! أشـباح ذكريـاتهن فقـط! ! والبـاقي رماد وغبار! ! تراب إلى تراب في قبورهن؟!

لقد كان ينسل نحوي الـتزام غـامض، عللتـه بأنـه مـن فكـرة إمكـان وجـود لصوص في هذا المكان، التي أثارها حديثنا المسائي السابق، لكنـه في الواقـع شـيء غـير حقيقـي. قـد يعـود إلى خرافـات قديمـة مدفونـة في لاشعوري، تعـود لتؤكـد وجودها عبر خيالي. هذا الخيال الذي راح يؤثـر حتـى في الأشياء المحيطـة بـي. فهمس الريح في أشجار الليمون تحت شباكي، صار به شيء ذاتي. وحين حدقت بحديقة «ليندا رقصا» تراءت لي أشباح تتحرك في الظلال. فأغلقت النـافذة، لتمتـد العدوى إلى غرفتي بذاتها، ففوق رأسي صوت خافت أعقبـه انطـلاق خفـاش مـن شق من السقف، ليملأ الغرفة حركة أدت إلى إطفاء فانوسـي. وهـذا الطـير الـذي كاد أن يلامس وجهي بحركاته السريعة، كان كمن يصرخ في وجهي حقاً.

ولكي أخرج نفسي من هذا الضعف المؤقت الذي سيطر عليها، شجعت ذاتي بـأنني إزاء أرواح أبطـال تسكن هـذا المكـان المسـكون. فاشـعلت مصبـاحي ثانيـة وتجولت رغم كل هذا الضغط النفسي، ليحاصرني ضوءه حولي وأنـا أتحـرك بهـذه القاعات الواسعة، ويمتد لمسافة قريبة جداً أمامي، فسرت وكأنني محاط بهالـة في ليل حالك غير قابل للاختراق. وراحت المرات كالسـراديب مـع السـقف تومـض وتعتم. فعاد لي الشعور بالخطر، وتذكرت كل ما ذكر عن هذه الغرف النائية. فهل يوجد متطفل ما يسير خلفـي أو أمـامي، في هـذا الظـلام الحـالك الوقـب. وبـدأ خيالي يزعجني حـين راح يتمـدد علىالجـدران، ويوقفـني صـدى خطواتـي عـبر المرات لأنظر حولي. وتابعت بممر قادني إلى المسجد الذي كان فيـه الملـك العربـي الذي أنهى بناء «الحمرا» «يوسفـ»، وبه قتل. وفي مكان آخر، وصلت إلى متحـف صالون قتل فيه ملك آخر، من قبل ربيبه ومحل ثقته الذي كان يحبه.

ثـم راحـت تصـل إلى أذنـي في تلـك اللحظـة الأصـوات الخافتـة كقرعـات السلاسل الهامسة، من قاعة «ابن سراج». وكنت أعرف أنها من حركـة مجـاري الماء تحت القاعة. لكنها تبدو الآن غريبة في هذا الليـل. فتذكـرت القصـص الـتي أنكرتها حول هذا المكان وقد قيلت في وقتها.

وبينما أنا كذلك، وصـل إلى أذنـي صـوت أوضـح مـن أن يكـون مـن صنـع الخيال، وأنا أجتاز قاعة السفراء، وكأنه أنين لايتقطع يتبـع أقدامـي. فتوقفـت

وأنصت؟! ليبدو وكأنه آت من خارج البرج، ثم اقتحم وأصبح من داخله كما لو كان عواءً لحيوان، فأثر ذلك علي بشكل قوي، فعدت أدراجي إلى غرفتي، مسرعاً، إذ لم يعد لدي أي رغبة بالتقدم . ودخلتها بسرعة أكبر لألتقط أنفاسي فيها، وأقفل الباب.

وحين شع ضوء الصباح من شباكي، وأضاء كل المكان، بشعاعه المبهج، استيقظت وأنا ناس تقريباً أوهام ومخاوف الليلة السابقة. فمن غير المصدق أن المشهد الرائع المحيّط بي الآن، هو نفسه الذي غلل تصوراتي المرعبة في الأمس.

وحينما أكدت لي دولوريوس وجود وحش افترس أخاً لعمتها، عندما كان مرة في قاعة قريبة من قاعة السفراء، وعلى حين غرة. تأكد لي أن الصوت الذي سمعته في الليلة الماضية، لم يكن كله ناجماً عن مثال خيالي.

ومع مرور الأيام تغير المشهد وما يصاحبه من رؤى، فالقمر الذي كان يضيء المكان أول تواجدي فيه. اختفى تدريجياً، فزاد الظلام في الليل. ثم عاد بكامل بهائه فوق الأبراج، ليضيء كل مكان وقاعة ، وحديقة تحت شرفتي. والتفت اشجار الليمون بلطف بضوئه الفضي، وتلألأت النوافير عبر شعاعه الذي يخترقها، لدرجة أنه حتى حمرة الورد صارت مرئية بشكل باهت نوعاً ما.

كذلك صارت اشعار العرب المكتوبة على الجدران بادية أتذوق جمالها، مما جعل جمال هذا المكان كالجنة السماوية، تزينها الحدائق. والورود فيها كالنجوم. ولا يملأ البركة بمائها الكرستالي الذي به تصبح أشبه بالمزهرية، إلا ضوء القمر حين يصير بدراً، وهو يضيء من وسط السماء الصافية، بلا غيوم.

آه ... من هذا المنظر الفردوسي الليلي الذي يجعلني أجلس الساعات في شباكي، لأنهل من أريج حديقته أعذب الهواء، وأفكر بأولئك الذين صنعوا التاريخ عبر ظلالهم المتروكة هنا، في هذا النصب التذكاري الأنيق. فحين تدق ساعة منتصف الليل من كتدرائية غرناطة، يخيم الهدوء، فأبحر في جولة أخرى كل يوم بيّم عجائب هذا المكان. بشكل يختلف كلية في كل مرة عن جولتي الأولى فيه!! فلا غموض الظلام أصبح مجهولاً، ولا الظلال مرعبة.كذلك لم أعد أتذكر أي مشهد عنف أو جريمة حصلت هنا. فقد فُتحَ كل شيء أمامي عبر جماله وبهائه، ليستدعي كل التصورات الرومانطيقية المسرة. لتتألق قاعة السباع مرة ثانية وكأن «ليندارقصا» تسير في حدائقها، وفارس غرناطة العربي يحيا في

قاعاتها. فكيف لي أن أجزي القمر فيما يقدمه هنا ويفعله بهذا الجو وهـذا المكـان. مع الطقس المعتدل الرائع لمنتصف ليل الأندلس. والذي يجعلنـا نرتفـع إلى فضـاء أطهر، لنشعر بروحية الروح السماوية التي تعطي الوجود سعادته. وكـأن الحمرا قد استعادت عظمة طهرها ، بتأثير ضوء القمر الآثر. وبهذا تختفي كل المضايقات وحجب تبدل الطقس، ليعود إلى الرخام بياضه الأصلي. وتنصع جذوع الصفصـاف بلون أشعة القمر. وحين تشرق القاعـات بهـذا الضـوء الخـافت، يستعيد القصـر المسكون حكاياه العربية.

وأي بهجة يمكن الحصول عليها في مثل هذا الوقت، أكثر من الـنزول إلى غرف زينة الملكات، الـتي تبـدو كأقفـاص الطيـور فـوق وادي «داره» تتـأمل زهـر الأوركيد الأبيض الذي يزينه. وعلى اليمين يشرئب جبل «سييرانيفادا» ليضيـف إلى نعومة ما حوله صلابة قصة خرافية، يكللها برأسه الثلجي كالفضة التي تخترق السماء الزرقاء، ثم لينحني على مرتفعات «التوكادور» ـــ تلـك الـدور ـــ ليحـدق في الأسفل بغرناطة وببركها المنثورة تحته كالخريطة. وحـين ينـام القصـر الأبيـض في شعاع القمر، يختفي الوادي خلف كل هذا الغمام، مثل بلاد الأحلام البعيدة.

ومن «اللاميدا» ـ المدى ـ تسمع أحيانـاً دقـات صنجـات اليـد، مـن مـدى، حيث يرقص أندلسي مرح في ليلة صيفية، أو تسمع أحيانـاً أخـرى نغـم «غيتـار» موقع على ألحان حـب، يحكـي قصـة عاشـق تحـرك بشـعاع القمـر نحـو شـباك حبيبته التي غادرها من زمن.

وكل هذا الوصف غير كافٍ وضحل، لليالي القمرية الـتي قضيتهـا أتجـول في الشرفات والقاعات، والأبهاء، في هذا الأثـر الموحـي الـذي مـلأ تخيلاتـي وغذاهـا بحـلاوة رائعـة ومتعـني بخليـط مـن المشـاعر الـتي سـرقت وجـودي بـذاك الجــو الجنوبي. جاعلة من المساء صباحاً قبل أن أخلد إلى النوم في كل ليلة. يهدهـد لي فيها خرير ماء بركة «ليندا رقصا» كل استغراق حالم.

منظر عام من «برج التجار»

اعتليت برج التجار، في صباح يوم جميل مشرق، قبل أن تتمكن الشمس من تدمير شذى الليل المنعش. وأخذت منه منظراً عاماً عن غرناطة وجوارها.

فتعال معي لترافق خطواتي أيها القارىء. مع كل نقلة غنية قبل أن نصل إلى قاعة السفراء. ونحن لن ندخل القاعة، بل سنتجه إلى ذاك الباب الصغير المفتوح في جدارها الجانبي. ونصعد بدرج متعرج لولبي، قليل الإضاءة، يجلب الإنتباه لخطانا فيه. هذا الدرج الذي سلكه االملوك رغم كل رفعتهم، ليصطحبوا زوجاتهم كي ترى استعراض جيوشهم العائدة من الغزو، أو ليراقبوا بكل جوارح قلوبهم المعارك التي كانت تحدث في الوادي المهمل «فيغا» أمامهم.

وإذا وصلنا إلى السطح لنلتقط أنفاسنا على «تراسه» سنجد أننا إزاء منظر «بانورامي» عام جميل للمدينة والريف حولها. وللجبال الصخرية والسهل

الخصب. والآثار المبعثرة بأخاديد تتعشقها. ثم لنقترب من ساحات المعارك حين ننظر فوراً إلى الأسفل. ألا ترى على هذا الجانب كل سهل الحمرا مفتوحاً لناظرنا بحيث نستطيع رؤية قاعاته وحدائقه. وأسفل البرج يمكن رؤية قاعة البركة بخزانها المليء بالسمك، والمسيج بالورود. وخلفه قاعة السباع بنوافيرها الشهيرة ولونها العربي الفاتح. ووسط هذا النصب الضخم، تقبع حديقة «ليندا رقصا» الصغيرة، بمركز القلب من هذا البناء. بكل زهورها وأشجار ليمونها، ولونها الزمردي الأخضر.

هذا الموقع الحربي الذي يلف كل الهضبة بأبراجه المربعة الشكل، هو الجد الخارجي للحصن، يمكنك أن ترى فيه بعض أبراجه المخربة، وقطعاً ضخمة منها تدفنه أشجار التين.

لننظر إلى الجانب الشمالي من البرج، إذ يبدو ارتفاعه شاهقاً جداً، لأنه يقبع على منحدر أساسي فوق التل المنحدر بشدة. ألا ترى الشروخ الطويلة في الجدران الضخمة التي تدل على أن البرج قد تعرض للزلازل التي تهز غرناطة من وقت لآخر. والتي تتضافر مع الزمن على تحطيم هذا الرمز ككل. وتحتنا الوادي الذي ينفتح على سهل «داره» . ألا ترى هذا النهر الصغير كيف يشق طريقه تحت السطح الذي نقف عليه، بين الزهور والأوركيد في الحديقة. لقد كان هذا النهر مشهورا باحتوائه على الذهب في الزمن الغابر. ولازالت رماله تغربل بين وقت وآخر بحثا عن المعدن الثمين. أما هذه الأرصفة البيضاء التي تزين الممرات وبعض الشرفات، فقد كانت أماكن استراحة يجلس عليها العرب، للتمتع بنضارة الحدائق. والتي شبهها بعض شعرائهم باللؤلؤ المزين لصفيحة من الزمرد(14) .

والقصر الصيفي لملوك العرب، الجيد التهوية، بأبراجه الطويلة ودعائمه التي تبدو كالجبل الذي تطوقه الحدائق، بعيد عن مجال الحمرا الأكثر حراً. ومنه تستطيع أن ترى بعض الخرائب في «سيلاري مورو» الذي كان مجلساً للعرب،

---

(14) : عن الحلل السندسية مرجع سابق مج1 كقول ابن سفر المريني:

أنهارها فضة، والمسك تربتها والخز روضتها والدر حَصباء.

الذين انسحبوا منه أيام «ابو عبد الله» يوم الفتح الإسباني. ليتركوه وحيداً ناحباً ينظر إلى مدينته المتمردة.

وخرير الماء الذي يسمع بين حين وآخر في الوادي من ناعورة عربية قديمة تئن، يقع على أقدام الهضبة تقريبا. ويقود طريق الأشجار وراءه إلى «الميدا» ـ المدى ـ حول شط «داغرو» ـ داره ـ الذي يشكل منتجعاً منفصلاً في المساء لاجتماع العشاق في الليالي الصيفية، ومنه تخرج نغمات «الغيتار» من وقت لآخر. أما الآن، فليس فيه إلا بعض الرهبان وسقاة الماء، الذين يحمل أحدهم جرة ثقيلة مصنوعة من الفخار بطريقة شرقية، مثل التي كان العرب يستخدمونها. وقد ملأها من نبع بارد اسمه «لافلانوس» ـ نبع ابن الأنيس ــ الذي يتدفق من عين الدمع، من مصيف بالجبل، ذكره الرحالة «ابن بطوطة» حين ذكر قصص الحب عند الأندلسيين وتاريخهم.

ولما كان هذا البرج العالي الذي نحن فيه، أفضل مكان للعقبان، أخافنا صقر يحمي عشه وصغاره فيه، وهو يدور حوله طول النهار. أما في الليل حيث تنام الطيور، فيخرج البوم لينعب على أطلال القصر نائحاً على قتلى المعارك فيه. ويمكنك أن تنظر إلى الصقر الذي أخافنا، كيف هبط تحتنا ليستقر على قمة شجرة هنيهة، أبحر بعدها إلى السهل الأخضر المفتوح! !

أما إذا رفعت عينيك إلى الثلوج التي تكلل الجبل وتضيئه كغيمة صيفية في السماء الزرقاء، فسترى «سييرانيفادا» رمز غرناطة المشرئب، ومصدر هوائها العذب، وينابيعها المتفجرة، ونوافيرها الفوارة، وجداولها المترقرقة. وهذا الصرح الجبلي هو الذي يعطي غرناطة بهجة، نادراً ما توجد في المدن الجنوبية. فالخضار الطازجة، والطقس الشمالي، مع الشمس المشرقة، واللون اللازوردي للسماء الجنوبية، والكنز الثلجي الذي يذوب ببطء مع زيادة حر الصيف فيحرك كل جدول بإتجاه «البقصارا» كل هذا هو الذي يعطي لهذا الوادي خصبه، ويمتد إلى كل وادٍ يليه.

هذه الجبال هي مجد غرناطة، وتسيطر على كل ناحية الأندلس القديمة، ويمكن رؤيتها من كل البلاد الأندلسية، وقممها تطل حتى على أبعد السهول. كما يستطيع كل بحار إسباني أن يلحظ تلك القمم من أبعد نقطة في البحر المتوسط ليذكر فوراً رقة غرناطة، ويغني لها بصوت خافت أغنية أندلسية عربية

قديمة. وعلى أعتاب هذه السلاسل الجبلية، هضاب تتحرك عليها قوافل البغال ببطء يكمل أثر مشهد التواجد الإسلامي القديم. ومن إحدى هذه الهضاب، ألقى تعيس الحظ «أبو عبد الله» نظرته الأخيرة على غرناطة، وأطلق آخر تنهيدة عليها.

وعلى أحدها الآن توجد بقعة تسمى: آخر ما رآه العرب.

وحين تنحدر الهضاب إلى الوادي «فيغا» تظهر البراري المزهرة المتفتحة بكل حديقة من حدائقها، بأوركيدها و أزهارها، التي تتسع بترابط فني، يخفي فيه جداول لاحصر لها بناها العرب عبر أقنية تؤمن «العدادين» التي توزع الماء بشكل حصص متساوية. هذه هي الأرض التي حارب من أجلها الأندلسيون حتى اليأس، وهي الآن خاوية خربة وعشوائية التنظيم . لكنها تظل تشهد على ذوق جمالي لأناقة سكانها أيام الإسلام. فمن وسط هذه السهوب الجميلة، تظهر قصور قديمة خربة، منها ارتبط العالم القديم بالعالم الحديث بأبراج تلمع في ضوء الشمس، خاصة من مدينة «سانتا في» التي بنيت خلال حصار غرناطة من قبل الكاثوليك بعدالحريق الذي دمر معسكرهم. وضمن أسوارها استدعت الملكة : «كولومبس» واتفقت معه على كشف العالم الجديد. أما خلف هذه المدينة فجسر «بينوس» الذي شهد حرباً دامية بين المسلمين والمسيحيين. وعليه مر رسول كولومبس حاملاً مشروعه في كشف العالم الجديد، إلى البلاط الفرنسي، حين يئس من نجاحه مع السلطة الإسبانية.

أما الحدود القديمة بين غرناطة والمناطق المسيحية، فهي فوق الجسر، في السلاسل الجبلية التي تلتحم بالوادي «فيغا» إلىالغرب. وعلى هضابها لازالت مدن الثغور بجدرانها و معاقلها التي تنسجم مع الصخر الجبلي الذي بنيت منه. فهنا وهناك تجد برجاً وحيداً للمراقبة، كالراهب الذي ينظر من قمة الجبل كمن ينظر من السماء إلىالوادي. وكم مرة أعطت «الآتاليا» ـ مراكز القتال ـ هذه الإشارة بالدخان في النهار أو النار في الليل عن اقتراب العدو! !

وفي شعاب هذه الجبال ممر يسمى «ممر لوبي» منه نزل الجيش المسيحي إلىالوادي الملتف على جبل «الفيرا» الذي تمتد صخوره الكبيرة إلىالسهل الخصب، ومن خلفه ظهرت قوات الغزو بأعلامها وطبولها وزمورها! !

لقد مضى خمسمئة عام منذ كان «اسماعيل بن فراج» ملك غرناطة العربي في برج أراه أمامي الآن، ليصد غزواً مشابهاً مهيئاً لهذا الوادي. ومن هذا البرج كان ينطلق بفرسانه المتميزين بالفروسية الإسلامية النادرة. التي ذكرها التاريخ، واشتهر بها الأمراء العرب: «حيث كانوا خليطاً من الفضل والكرم الدائم. الذي أورثوه لأعقابهم كي يبقى أبداً في ذاكرة الشعوب»

تعالوا لنجلس على هذا السطح ـ سطح برج التجار ـ لأذكر لكم الأحداث، وأربطها أمامكم.

ففي عام 1319 م تصدى «اسماعيل بن فراج» لغزو مسيحي جاء من «الفيرا» ورده. خلال الفترة التي حكم بها «الفونسو الحادي عشر» وقد جاء هذا الغزو من حاكمي «قشتالة»: «دون جوان» و «دون بدرو» اللذين راحا ينهبان ويسلبان من «القودة» إلى «قالة الرجال» فاحتلا قصر «غيلورا» واشعلا النار في ضواحيها. ثم نقلا تمردهما الثائر هذا إلى أبواب غرناطة وراحا يتحديان ملكها كي ينزل إلى ساحة الحرب.

واعتبر إسماعيل أن هذا التحدي من أمراء مراهقين لا يستأهل قبوله، خاصة وأنه لم يكن تحت يده قوات كافية آن ذاك. فظل ينتظر وصول قواته من أماكن مجاورة. فيئس الأميران المسيحيان من دفعه إلى خارج الأسوار بالتحدي، فقوضا خيمهما وعادا إلى وطنهما. وقاد «دون بدرو» المقدمة «ودون جوان» المؤخرة للجيش العائد، والذي أفسده السبي الذي ربحه، فلم يكن جيشاً منظماً.

أثناء ذلك وصلت التعزيزات للملك «إسماعيل» تحت قيادة «اوسمين» ــ عثمان ـ أحد قادته الأشاوس. فقاطعوا للعدو في الجبال، وفاجؤوهم في الشعاب، فمزقوهم شر ممزق، وطردوا من بقي منهم خارج الحدود. كما قتلوا الأميرين. وتمكن الجنود المسيحيون من حمل جثة «دون بدرو» وضاعت جثة «دون جوان»!! في ظلام الليل. لذلك كتب ابنه إلى الملك العربي يطلب جثة والده الضائعة، لتدفن بما يليق بالملوك. هنا نسي «إسماعيل» عداءه له وكل إهاناته التي سبق وأظهرها على باب مدينته، ولم يفكر به إلا كفارس وأمير. فأمر بالجثة أن تحاط بما يجب من التكريم الفروسي بإحدى قاعات الحمرا. وعين الفارس «عثمان» وعدداً من الفرسان كمرافقة شرف، وجعل الأسرى من جيش النصارى تطوف حولها.

ثم كتب إلى ابن الأمير «دون جوان» أن يرسل مرافقة لاسترجاع الجثة، مؤكداً له أنه سيسلمها لهم بأمانة. فجاء فرسانهم لهذه الغاية، وتلقاهم «اسماعيل» بكرم ضيافته. وحين عادوا بالجثة، رافقهم الفرسان المسلمون إلى الحدود، إكراماً للجنازة.

ألا يكفي ما قلناه هذا. لقد ارتفعت الشمس فوق الجبال وسكبت أشعتها على ما نكتب، فصار «التراس» حاراً تحت أقدامنا. لذلك سنتركه لننزل إلى ظلال الأوركيد حول نوافير قاعة السباع.

الشريد

إن جميلة الحمرا المشرقة السمات التي تحدثنا عنها «دولوريس»، تتمتع بعاطفة أمومة نسائية تجاه كل الحيوانات الأليفة. ولذلك جعلت من إحدى قاعات الحمرا المهدمة، مكاناً مفضلاً لرعاية هذه الحيوانات. واضعة على عرض هذه القاعة ديكاً بلدياً وحوله دجاجاته، يسانده ديك حبش من أصل نبيل. ومن شرفة هذه القاعة أدخلت حمامتين تستمتع بهما بصورة أساسية. إضافة إلى هرة وصغارها.

وقِنُ الحمام الذي يشرف على القاعات الملكية بنته دولوريس من أجل رعاية أفضل لهذه المتناقضات المتنافرة في هذه القاعة. مما عزل هذه الحيوانات عن كل شيء خارج القصر، فعاشت متآلفة دون أن تعرف شيئاً عن الخارج. ونتيجة القران المقدس بين الحمامتين وضعتا بيضتين منقطتين، أفرحتا مربيتهما، بشكل لا تعادله أي فرحة مماثلة عندها. وهما من جانبهما تناوبتا الجلوس على البيض

حتى فقس. وتذهب كلتاهما إلى الملجأ الدافئ في القاعة للرعي وإحضار التموين من هناك.

وهذا الصباح الباكر، بينما كانت دولوريس تطعم ذكر الحمام فتحت له النافذة لتعطيه نظرة على العالم الخارجي، وكان الشباك يطل على وادي «داره». الذي منه انطلق الطير لأول مرة كي يجرب أجنحته خارج سور الحمرا. ثم حط في الوادي، وبعدها ارتفع إلى ما يقارب السحاب، ليختبر متعة الطيران. وهو سعيد بما حصل عليه من هذا المنفذ إلى الحرية التي فتحت له أبوابها فجأة. وهكذا ظل يحلق متعرجاً طوال اليوم، من برج إلى برج، ومن شجرة إلى شجرة. وباءت كل محاولات اعادته برمي الحبوب له على السقف بالفشل. وبدأ وكأنه لم يعد يهتم ببيته، أو بمساعدة رفيقته الرقيقة بحضن صغارها. ولكي يزيد قلق دولوريس اختار رفيق طيران له، من الحمام الذي يسحب الطيور إلى صاحبه «كشاشها». وتبعهما آخر من أولئك الذين يسخرون غريزتهم ولاءً لسيدهم، فشكلا خطراً حقيقياً عليه. خاصة وأن هذا الهارب قد بدا مستمتعاً بصحبتهما، فقاما بتفسيحه وإطلاعه على الحياة، وتعريفه على مجتمعهما. وهكذا راح يتسكع معهما على كل سقف ومنحدر في غرناطة. وأثناء ذلك مرت عاصفة رعدية على المدينة، ثم حل الظلام، ولم يعد الطير. وزيادة في الإشكال، بعد أن ملت رفيقته من حضن الفراخ وحدها، ذهبت لتبحث عنه، فكاد الصغار أن يهلكوا من افتقارهم إلى دفء ملجأ الآباء، ونقص الطعام، وفي ساعة متأخرة من الليل وصلت الأخبار لدولوريس، أن الطير الفار قد شوهد على برج «جنراليف» حيث هناك كشاش حمام يلتقط الحمام الضائع بشباكه، وعنده اثنان أو ثلاثة من أمثال صاحبنا. فاستنتجت دولوريس هلاك طيرها المحتم على هذا البرج. لذلك عقد مجلس حرب في غرفة العمة أنطونيا لأن «جنراليف» يعتبر شرعاً خارج الحمرا، وهناك نوعٌ من الغيرة بين المسؤولين عن كل منهما. وتقرر إرسال «بي بي» الحدائقي الثأثاء فوراً كسفير للمسؤولين إلى هناك. ليؤكد لهم أنه في حال وجود هذا الفار في مقاطعتهم يجب إعادته وتسليمه لأنه من رعايا الحمرا. وعلى هذا الأساس انطلق «بي بي» في مهمته السياسية على ضوء القمر الذي يضيء الشوارع. ثم عاد بعد ساعة بإنكار وجود مثل هذا الطير في شباك «جنراليف». ومع ذلك أخذ منهم عهداً باعتقاله فور ظهوره، حتى ولو كان في منتصف الليل، وإعادته مخفوراً إلى صاحبته، صاحبة العينين الدعجاوين.

وهكذا عم الحزن والقلق كل القصر، لدرجة أن دولوريس لم تضع رأسها على مخدتها طوال الليل وكما يقول المثل: «مع الصباح تأتي البشائر... لتزيل الحزن بزوال الليل». كان أول ما تصبحت أنا فيه هذا الصباح هو دولوريس وطيرها بيدها، وعيناها تتألقان فرحاً. فقد ظهر باكراً في مراكز الدفاع في القصر، «يسترغل» من سقف إلى سقف، ثم سلم نفسه كأسير، ودخل أخيراً من الشباك، فنال عفواً فورياً بسبب عودته. لذلك وضع الطعام أمامه فوراً، وكأنه ولد مشرد جائع عاد إلى منزله، فيجب أن يطعم ويتلقى كل أنواع التوبيخ مع احتضانه وزفه بالقبلات. ولاحظت أن دولوريس قد عمدت إلى قص أجنحته حتى تتلافى حادثاً آخر في المستقبل. وهو بالمناسبة اقتراح اقترحته أنا أيضاً لكل من عندها عشيق أو زوج زائغ يحب الترحال. وهذا الاقتراح هو العبرة التي يمكن استخراجها من قصة دولوريس وطيرها الفار.


A.KINNERSLEY SC

الشرفة

تحدثنا عن الشرفة التي تحت الشباك الـذي يتوسط قاعـة السـفراء، والـتي أعدت كمكان مراقبة، لذلك رحت أجلس فيها أحياناً، لأتأمل السماء من فوقـي، والأرض من تحتي. إضافـة إلى مـا تتيحـه لي مـن رؤيـة الجبـال الرائعـة، وسـهل «الفيغا»، وكل مشاهد الحيـاة اليوميـة في المدينـة الـتي يمكـن مراقبتهـا مـن هـذه الشرفة. ففي أعتاب الهضبة مكان عام للتجمع العصري عند الممـر الرائـع للمكـان الذي كان يدعى «أكزنيل» والذي شهد غزاة المدينة. وهو الآن مكـان نزهـة للذيـن يأتون من الضواحي، إضافة للرهبان و«الفرير»، الذين يتريضون بالمشي بعد الطعام فيه، مع الطبقات الفقيرة بلباسهم الأندلسي، وأحياناً يظهـر فيـه الخـارجون عـن القانون ببنادقهم، أو رجال الطبقات العليا يتباحثون بأمور سرية.

فاندفعت لدراسة هذه الصورة المثيرة لشخصية وحياة الإسبان، وكـأنني عـالم فضاء يجلب بمنظاره المكبر النجوم إلى مكانه ليفحصها. ومع أن معي منظاراً مكبراً ـ مثله ـ وبحجم الجيب، استعملته في مراقبتي ومسح المقاطعة تحتي، فقربت هذه

التجمعات لي قدر المستطاع، لدرجة أنني ومع الوقت صرت قادراً على تقدير حديثهم من علامات وجوههم. وهكذا صرت في وسط المجتمع دون أن أخرج من عزلتي . وهي فرصة نادرة يستطيع بها رجل خجول مثلي، مشاهدة دراما الحياة، دون أن يكون أحد الممثلين فيها.

والريف الذي يملأ الوادي تحت «الحمرا» يمتد إلى التل المقابل للحمرا، تل «البايسين» ـ البائسين. الذي بنيت معظم بيوته على الطريقة العربية. بأرض دار فيها فستقية بركة، تنطلق في السماء المفتوحة لتبرد الدار، وبها يقضي سكانها معظم وقتهم. أو على مصاطب السقف، في أيام الحر في الصيف. دون أن يلاحظوني وأنا أرقبهم من علٍ، وكأنني أنظر إليهم من غيم الجو.

فتماماً كما في القصة الإسبانية الشهيرة للتلميذ الذي استطاع أن يطلع على كل ما يجري في كل دور «مدريد» التي أصبحت مكشوفة لناظره، وجدت نفسي بنفس الموقع، فكل أمور هؤلاء الناس تحتي أصبحت واضحة. فكل وجه جميل أو مقطب أراه يومياً، أستطيع أن أبني من خلاله قصة درامية. رغم أن بعض شخصياتها قد يتصرف أحياناً بعكس ما رسمته له، مما يغير واقع الدراما ككل. وبينما كنت أراقب بمنظاري المكبر طرقات «البائسين»، لاحظت إجراءات لبس الحجاب التي تحدد مصير شابة صغيرة، تحصل لدفنها حية في الوجود. ومن شدة تعاطفي معها، تصورتها شابة جميلة، لما تؤكده لي وردية خدودها، وتدل على أنها ضحية وليست متطوعة، ثم غطيت بعد ذلك برداء، وكللت بطوق من الزهور بخبث روحي، كان قلبها ضده، وحتماً يهتف بحب واقعي أرضي. وبجانبها رجل طويل حاد القسمات يمشي بتؤدة، فهو حتماً والدها الطاغية، والذي يقوم بهذه الأضحية لدافع مجهول؟ رغماً عن شاب أسمر يلبس عباءة أندلسية، ويبدو أنه يحدجها بنظرات الحزن، فهو لاشك عشيقها السري الذي ستفترق عنه إلى الأبد. ومما زاد من تحفزي، تلك النظرات الشريرة التي يرمقها بها الآباء المعمدون و«الفرير» لحظة وصول الموكب إلى كنيسة الرهبنة، حيث تلمع الشمس آخر مرة على هذه الضحية المسكينة قبل دخولها للكنيسة. وحين توقف عشيقها لبرهة أمام الباب، أحسست بمشاعره التي سيطر عليها، ثم دخل، وصورت نفسي الكثير من التعارضات في الداخل، حيث ستخلع هذه المسكينة، كل أردية الزينة، لتلبس لباس التحول إلى راهبة بجلبابه الواسع. ويأخذ منها القائمون على الكنيسة القسم بعد ذلك، ثم يحلقون شعرها الحريري الناعم.

فشعرت وكأنني أسمعها تؤدي هذا القسم الذي لا عودة منه، وهي ساجدة كأن الموت يحيط بها من كل جانب. وهكذا تستمر إجراءات مثل هذه الجنازة، التي تعلنها ميتة بين الأحياء، على نغمات «الآرغن» الجشة، ومتطلبات الراهبات الفظة. ويشاهد والدها كل ذلك، دون أنٍ يدمع له جفن. أما عشيقها فتخيلته بحال لا يمكن وصفه، فظل موقفه معتماً في خيالي.

وبعد ذلك بمدة خرج الموكب، وتوزع الناس بكل وجه للتمتع بأشعة الشمس، ومخالطة كل متع الحياة ومشاهدها، دون أن تعود معهم الضحية المكبلة بلباس العرس الكنسي، فقد أغلق باب الدير بشكل فصلها عن العالم إلى الأبد. ثم رأيت الأب والعشيق في حوار مصارحة على ما يبدو. وكانت إيماءات الأخير حادة. لذلك توقعت نهاية عنيفة لهذه المأساة التي تصورتها. لكن زاوية البناء تدخلت، ومنعتني من متابعة رؤية المشهد، فأعدت نظري بلهفة إلى الدير أرقبه حتى المساء، حيث لاحظت ضوءاً وحيداً يومض من قاعة بعيدة بأحدالأبراج، فقلت لنفسي: هناك تجلس الراهبة التعيسة، لتنتحب في زنزانتها، بينما يذرع عشيقها الطرقات تحتها، جيئة وذهاباً بغضب.

ودخل ماتيو كعادته عليٍّ فجأة فقطع أحلامي وتأملاتي، ليطير كل تخيلاتي بما جمعه من حقائق عن المشهد نتيجة طبعه المتلمس. فالبنت لم تكن جميلة ولا شابة، وليس لها عاشقٌ؟! وهي قد دخلت الدير بكل إرادتها، كمؤمنة محترمة. وهي من أسعد الناس المقيمين فيه.

فاستغرقت بعض الوقت، حتى أستطيع أن أغفر لهذا التناقض الخاطئ بكون الراهبات سعيدات في سجنهن، بكل ما فيه من تعارض مع كل قواعد الرومانسية؟!.

وعلى كل حال لابد من تحويل نظري إلى جانب آخر من الأمر والمكان، فرحت أراقب إحدى الجميلات الدعجاوات، وهي تخرج من شرفتها، متشحةً بلباس حريري، وتتزين بالورودِ، وتحمل رسالة من فارس أسمر جميل، يأتي دوماً إلى تحت شباكها. وأراه أحياناً في الصباح الباكر، يسرق النظرات ويتبادلها معها، ثم يربض في الزاوية، ربما بانتظار إشارة منها ليدلف إلى المنزل. وفي الليل أسمع نغمات «غيتار» يصاحبها حركة في الشرفة من زاوية إلى أخرى فيها. لذلك تصورت قصة غرامية، تشبه قصة «ألمافيفا». ولكن مرة ثانية تبينت أن العاشق هو

زوج السيدة، وهو من الخارجين عن القانون، وكل الإشارات من أجل تمرير بضائع مهربة؟!.

قلم يعد يمتعني في هذه الشرفة، إلا تغير مشهد المدينة بتغير ساعات النهار فيها:

فالشروق حين يطرد من السماء لونها الرمادي، تعقبه أصوات الديكة عند الفجر، كدلالة على أن الساعات الأولى هامة من نهار هذا الطقس الصيفي، لأنها الأكثر إنعاشاً. لذلك يحرص الكل على بدء نهارهم مع الفجر. فسواس البغال يجهزون قوافلهم للسفر، ويربط المسافرون أمتعتهم على سروجهم ويمتطونها، محملين بالفواكه والخضار الطازجة للرحلة. أما الفلاحون السمر فيعرضون منتجات حقولهم باكراً، فتهرع ربات البيوت لشرائها.

وحين ترتفع الشمس بسماء الوادي لتمتد بأشعتها على كل زاوية فيه، وتدق أجراس الكنائس الهواء، معلنة ساعة الصلاة والطاعة، يوقف سواس البغال بغالهم أمام الكنيسة، تاركين بضاعتهم ليدخلوا وقبعاتهم بأيديهم وهم يمشطون شعرهم الأسود لسماع القداس. والدعاء لمن يهمهم أمره بعيداً عنهم في القرى الجبلية. وضمن كل هذا، لاحظت دخول سيدة بخطوات متئدة ـ إلى الكنيسة التي أراقبها ـ وهي مزينة بشكل جيد، وعلى رأسها غطاء صغير وأنيق، وبيدها مروحة تتحرك، أمام عينين سوداوين مضيئتين، خلف حجابها المسمى: «منتلا» ـ منديلاً ـ لقد جاءت لتطلب الآخرة بإرضاء الله بصلاة صباحية. لكن فستانها الأنيق، والحذاء اللماع تحته، والموصول بشرابات حريرية؟! والشعر المصفف بأناقة، والوردة الطازجة فيه، مجلبة للأنظار اللماعة، لتدل على ذاك الخلط بين طلب الأرض والسماء داخل مملكة عقلها. لكن الذي يكفل إبعاد الأفكار الأرضية، عمة أو خالة أو أم، تمشي وراءها.

أما عندما يتقدم النهار، فيبدأ العمل بكل مجال، لذلك تزدحم الطرقات بالرجال. والدوابِ بأحمالها. مما ينتج همهمة تُسْمَعُ كهدير البحر. ولا تخف هذه الهمهمة تدريجياً إلا مع ارتفاع الشمس نحو الظهيرة، ومعها تتوقف، لتهجع المدينة وتتوقف عن العمل عدة ساعات. فتغلق الشبابيك، وَتسدل الستائر، وينسحب الناس إلى الأماكن الباردة في بيوتهم. ويبدأ الراهب الذي تناول وجبة دسمة بالشخير في قيلولته. بينما يتمدد الحمال الأسمر بجانب أحماله. وينتبذ

الفلاح ظل شجرة يتفيأ به. ويقيل الفلاحون كلهم على طول سهوب «لاميلا» ـ المدى ـ على هدهدة صرير الصراصير. أما في المدن فتهجر الطرقات، ما عدا السقاة الذين يحملون الماء، وينادون على شرابهم الطهور بعبارات مثل: «انه أبرد من ثلج الجبال».

ومع العصر يبدأ الناس بالحركة تدريجياً، ومع قرعات جرس الكنيسة، تبتهج الطبيعة بانقشاع طغيان النهار، وتظهر معالم هذه البهجة مع تدفق المواطنين لتنفس الهواء المسائي العذب، وهم يتمشون، مع خيوط الزوال في حدائق «داره»
أو «أكزنيل».

ومع الغروب تحس بمظاهر جديدة، حين تبدأ البيوت بإضاءة مصابيحها بالتتابع.: هنا من شرفة بيت، وهناك أمام تمثال قديس تجلى في هذا المكان أو ذاك. وهكذا تتألق المدينة تدريجياً. وتخرج من كل قصر وحديقة وشارع، أصواتٌ لا تحصى من نقرات «الغيتار»، وطرقات صنجات اليد «كاستا ليتا»، لتختلط مع بعضها بصورة عامة تظل تسمح بإمكان تمييزها. من منطلق أن شعار الأندلسيين هو: «التمتع بالوقت». ولا يظهر هذا الشعار بشدة أوضح من ظهوره، في أضواء الليل الصيفي. حيث يصطحب كل واحد خليلته إلى حلبات الرقص، وتظهر كل العواطف.

وبينما كنت في إحدى الأمسيات أجلس في الشرفة هذه، لأتمتع بالنسيم العليل، جاء «ماتيو» راكضاً من طرف الهضبة، للالتصاق بي وعدم مفارقتي، والإصرار على مساعدتي بالتاريخ، وأشار إلى بيت محدد في شارع حقير من شوارع «البائسين»، ونسب إليه على ما أذكر الحدث التالي:



مغامرة البنّاء

كان في غرناطة في يوم من الأيام بناءٌ، صناعته العمارة. وكان الرجل متديناً يحافظ على حضور أيام القديسين. وكلما زاد ورعه وتدينه زاد فقره، لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يؤمن خبز عائلته.

وبينما هو نائم في أحد الأيام، صحا على قرع بابه، ففتحه فإذا هو أمام راهب طويل عريض، لكنه شاحب النظرات كالميت؟

فبادره قائلاً: «مرحباً أيها الأخ المستقيم».

أجاب الغريب: لقد لاحظت أنك مسيحي جيد، يمكن الوثوق به. فهل لك أن تحصل على عمل هذه الليلة؟ .

أجابه: على الرحب والسعة، شرط أن يدفع لي سلفاً.

قال الغريب: سأفعل هذا شرط أن تعصب عينيك؟ .

وعلى هذا الشرط الأخير لم يعترض البناء. فهو كان بطبعه سهل الانقياد. ولذلك قاده الراهب معصوب العينين عبر أزقة متعرجة، وممرات مختلفة، حتى توقفا أمام باب دار. فأخرج الراهب مفتاحاً فتح به الباب المغلق منذ زمن بعيد بصعوبة. وبعد أن دخلا، عاد إلى قفل الباب، ثم سارا عبر دهليز طويل راح يردد صدى خطواتهما، ومنه إلى القاعات «البرانية» الخارجية، التي تقود إلى قاعات «جوانية» داخلية في البناء[15]. وهنا أزال عن عيني البناء العصابة، في قاعة يضيئها مصباح واحد خافت، وتبدو في وسطها «فستقية» عربية جافة. ثم طلب الراهب منه أن يحفر تحت هذه «الفستقية»، وقدم له معولاً لهذا الغرض. فراح البناء يعمل طوال الليل، دون أن يتمكن من إنهاء عمله. وقبل بزوغ الصباح، أعطاه الراهب قطعة ذهبية، ثم عصب عينه مرة ثانية، وقاده إلى خارج المنزل.

وهناك قال له: هل ترغب أن تعود مرة ثانية لإتمام عملك؟

فأجابه: بسرور أيها السنيور «الأب» طالما أنال أجري بشكل جيد.

فرد عليه: حسناً... سأمر عليك غداً في منتصف الليل.

وهكذا فعل وحفرت الحفرة. وعندها طلب الراهب منه أن يساعده بنقل ما أسماه جثثاً لتدفن فيها. توقف شعر رأس البناء من الخبر، وهو يتبع الراهب بخطا مرتجفة، إلى غرفة الاستراحة في المنزل. على أساس أنه سيرى منظر أمواتٍ مرعب. لكنه استراح حين دفع إليه أربعة جرار من الفخار كانت في زاوية الغرفة، وهي مليئة بالمال حتماً. وساعده الراهب بحملها، ثم دفناها بعد جهد كبير. وأغلقت الحفرة، وأعيد رصف الأرض فوقها، ليمحى كل أثر عمل في المكان، ثم نظفت الأرض. وبعد ذلك أعاده الراهب هذه المرة من طريق يختلف عن الذي أحضره منه، بعد أن جعله يلف في طرقات، وزواريب مختلفة. وبعدها توقف ليضع بيد البناء قطعتين من الذهب، طالباً منه التوقف في هذا المكان وعدم رفع العصابة عن عينيه حتى يسمع جرس الكنيسة الصباحي، وإلا ستحل عليه لعنته، ثم غادره. فانتظر البناء بأمانة جرس الكنيسة، وهو يسلي نفسه بتحريك

---

(15) : البراني في تصميم البيوت العربية القديمة هو: قاعة أو عدة قاعات لاستقبال الرجال، وحتى إقامتهم فيها، بمعزل عن «الجواني» الذي هو قاعة أو قاعات الحريم ومضافاتهن ـ المترجم ـ .

الذهب في يده. ولما دق الجرس، أزال العصابة ليجد نفسه على شاطئ «أكزنيل» حيث عرف الطريق إلى بيته. فذهب فوراً ليستمتع مع أهله بأجر الليلتين المجزي، حتى أنفقه وعاد فقيراً كما كان.

وهكذا ظل يعمل قليلاً ويصلي كثيراً، ويحافظ على أيام القديسين والأعياد، من سنة إلى سنة، بينما تزداد عائلته فقراً، حتى أصبحوا وكأنهم غجرٌ مشردون. وبينما هو كذلك يجلس على باب كوخه، في أحد الأيام. لاحظ رجلاً غنياً كبيراً في السن ومعروفاً عنه أنه صاحب إقطاعات وأموال. فحدق به الرجل من تحت حواجبه الكثيفة، وقال: بلغني أنك رجل فقير جداً.

فأجابه: تلك حقيقة لا يمكن إنكارها أيها السنيور لأنها تتحدث عن نفسها.

قال: مما يفترض أنك تقبل العمل بأجر رخيص، ويكفيك فرحاً أن تصير إليك فرصة عمل مهما كان.

أجاب: أقبل يا سيدي بأجر أرخص معماري في غرناطة.

قال: هذا ما أريد. ان عندي بيتاً قديماً، يتداعى، وقد كلفني الكثير من المال. وهو يستأهل أن أصلحه رغم أن أحداً لا يعيش فيه. لذلك يجب إقلال تكاليف الاصلاح بأكبر قدر ممكن.

ولأجل هذا ذهب معه البناء إلى بيت كبير متداع. ومرا عبر غرف، ودهاليز وممرات فارغة، إلى أن دخلا إلى «الجواني» من البيت، حيث رأى البناء «فستقية» عربية قديمة، جعلته يتوقف لحظة، استعاد خلالها مشهداً سابقاً مشابهاً؟

فقال: الصلاة على روح من شغل هذا البيت سابقاً.

أجاب صاحب البيت: ليرحمه الله. لقد كان راهباً كبيراً في السن دون عقب ولا عائلة تعتني به. وقيل إنه كان ثرياً ولا وريث له. لذلك ترك كل أملاكه للكنيسة. وحين مات فجأة ذهبت كل ثروته للرهبان. ولأنه لم يكن يدفع لي أجر سكناه هنا، لم أستطع أن أحصل حقي منهم. إضافة إلى كل ما قاله الناس لي: بأنهم كانوا يسمعون صوت النقود الذهبية التي كان يعدها ليلاً في الغرفة التي ينام فيها. كما قال بعضهم بأنه سمع أصوات أنين وأصواتاً أخرى في القاعات، جلبت سمعة سيئة للبيت، سواء كانت صحيحة أم لا، فلم يسكنه أحد.

فقال البناء: دعني أسكن في هذا البيت حتى يأتيك مستأجر له، مقابل إصلاحه لك. وبذلك أطرد لك منه الأرواح الشريرة أيضاً فأنا مسيحي جيد، ورجل فقير، لن يقترب منه حتى الشيطان بذاته. ولو تقمص لي على شكل حقيبة نقود.

فقبل عرض البناء بسرور. وهكذا انتقل البناء وأسرته إلى البيت، وراح يصلحه خطوة خطوةٍ، معيداً إياه إلى ما كان عليه. ولم يعد أحدٌ يسمع صوتٍ نقود في غرفة الراهب ليلاً، بل صار هذا الصوت يسمع في جيب البناء نهاراً. حيث زادت ثروته فجأة، مع استغراب كل الجيران ودهشتهم. وصار واحداً من أغنى الناس في غرناطة. وأرضى ضميره حتماً، بأن تصدق بمبلغ كبير للكنيسة، ولم يَذع سره إلا وهو على فراش الموت لأبنائه وورثته.

قاعة السباع

إن السحر الخاص لقصر الأحلام القديم هذا هو: في القوة الغامضة فيه التي تجعلك تستعيد صور الماضي. فتلبس الحقيقة أمامك صبغة التصور والخيال. وبسبب سروري حين التجول بين هذه الظلال الموهة، اندفعت إلى كل مكان كان مفضلاً في الحمرا بالماضي، لأستعيد ظلال أشباحه بذهني. ولعل أفضل تلك الأمكنة هي «قاعة السباع»، وما يحيط بها من قاعات. حيث لم تعبث هنا يد الزمن بقوة فيها بعد. فآثار الأناقة العربية، والروعة، توجد تقريباً كما كانت في أصلها المتألق. ورغم كل الهزات الأرضية التي هزت وحرفت أسس هذا البناء وأبراجه الراسخة، فإن أياً من أعمدة هذه القاعة لم يتأثر بها. هذه الأعمدة التي تبدو خفيفة وأنيقة، لم يزح أي واحد منها عن مكانه، وظلت تحمل القباب الرائعة فوقها، تماماً كما تحمل أشجار الغابات السامقة قبة السماء، عبر العصور. لقد ظلت هذه القاعة جديدة وكأن الفنان العربي قد انتهى من صنعها لتوه. وأنا

الآن أكتب من قلب هذا الحدث التاريخي في بكرة صباح مشرق، في القاعة القدرية «لابن سراج». وأمامي البركة وآثار الصدأ عليها، تخلد لحظة المذبحة الأسطورية، وتعكس بقوة على ورقي صعوبة استعادة الماضي العنيف، من هذا المشهد الرقيق الذي أنا فيه. حيث فيه كل شيء مدروس بدقة لإثارة الشعور بالرقة والسعادة بجمال رقيق أخاذ.

فالضوء الذي يلف المكان من عل بلطفٍ، عبر القباب المتشابكة كما لو أنها ربطتها يد أسطورية مع بعضها، عبر القوس الأساسي الذي يحمل سقف قاعة السباع. يسمح لشعاع الشمس أن يتألق على أعمدته، وأن يتراقص على بركه، فينداح عبر القاعة ليرتفع إلى حدود خيالية نحو السقف. والنحل الذي يطن على الزهور، والفراشات الملونة التي تنتقل من زهرة إلى أخرى، تلعب وتتراقص مع بعضها في هذا الضوء الشمسي. لا تحتاج إلا لقليل من الخيال لتصور «الحريم» في الماضي بينها، وهن يتجولن في هذه الفخامة الشرقية المعزولة.

إن كل من يستطيع أن يحوي هذه التصورات بتناغمها الثري، عليه أن يأتي إلى هذا المكان، عندما تلفه ظلال الغروب اللامعة على القصر، والتي تلقي بتموجاتها الضوئية على القاعة المجاورة. ولا شيء أكثر حزناً في الذات، من معرفة قصص العظماء التي رافقت وجودهم في هذا المكان، ثم كيفية تركهم له.

ودائماً كنت آتي إلى قاعة العدل في مثل هذا الوقت الغارب، حيث ظلال «الأوركيد» تتمدد على الجزء العلوي من نهاية القاعة. هناك حيث قام «فردينانـد وإيزابيلا» بصلاة شكرهم، مع حاشيتهم المنتصرة. صلاة شكر متعجرفة تهدف إلى تطويب إمتلاكهما «للحمرا».

ولا زال يرى صليبهما على الجدار، الذي رفعت عليه صورة العذراء أيضاً، وطوب تحتها الكردنال الأكبر لاسبانيا، ومعه رؤساء المقاطعات الدينية. فصورت لنفسي مشهد هؤلاء الفاتحين، من الفرسان والرهبان. بكل أخلاطهم. وحرابهم ولباسهم القتالي الذي فيه تختلط الصلبان بالحراب لتعلن ولادة رئيس ديني واحد لكل اسبانيا. وهي تدق أبواق النصر على الإسلام في قاعاته كذلك صورت لنفسي «كولومبوس» الذي سيكتشف العالم الجديد، وهو يقف بزاوية متواضعة من زوايا هذا المشهد كملحد معزول. ورأيت في تصوري اندفاع الكاثوليك نحو المحراب. ليغيروا الصوت العميق للشهادة، بصلاة شكر على نصرهم بعبارة: Te Deum

اللاتينية. وأنهيت تصوري باختلاط الملوك، والرهبان، والملاحدة، والمحاربين من الذين تقلبوا جميعاً على المسلمين المساكين ليطردوهم. وهكذا رأيت كيف تهجر القاعات، ليطير الخفاش في أضوائها الوردية، ويحط البوم على برج التجار المجاور.

فلم أعد منذ هذا أدخل قاعة السفراء لعدة أمسيات، ثم فوجئت بأحد الأيام بوجود عربي مراكشي معمم يجلس بهدوء جانب البركة: فخلته للحظة وكأنه أحد أساطير القصر العربي المسكون، وقد عاد ليكسر لعنة القرون عن هذا المكان، فصار مرئياً. لكنه كان انساناً حياً وعادياً، من سكان «تطوان»، وله دكان في حي الزقاقين ـ زاكاتين ـ في غرناطة حيث يبيع «الأفاويه» ـ البزورية ـ والعطور. ولأنه يتقن الاسبانية بطلاقة، تمكنت من التحاور معه. فوجدته ذكياً وماهراً، وأخبرني أنه يأتي إلى هنا ـ الحمرا ـ في الصيف لتمضية جزء من النهار الحار. حيث يذكره هذا المكان بقصور العرب والبربر عندهم. فهو مبني على نسق مشابه، لكن بصورة أعظم.

وبينما رحنا نتمشى معاً في القصر، أشار إلى الكثير من الجداريات الشعرية العربية، على أنها تحوي شعراً جميلا جداً.

ثم قال: عندما حكم المراكشيون غرناطة أيها «السنيور»، كانوا شعباً أبهج مما هم عليه اليوم. إذ كانوا لا يفكرون إلا بالحب، والموسيقى والشعر. لذلك عملوا من كل مناسبة فرحاً، وكرسوها بالموسيقى. فمن كان يقول أفضل الشعر، ومن كانت تغني أفضل الألحان، كانوا المفضلين عند الناس. وفي تلك الأيام كان إذا طلب الشحاذ خبزاً، طُلِبَ الغناء منه مقابل ذلك، وحتى أفقر الشحاذين كانوا يشحذون على نغم وحُداء، ويجازون أحياناً على ذلك بقطع ذهبية. •

فقلت له: هل يعني هذا أنكم قد فقدتم الاحساس الشعري العام الآن؟!

أجاب: كلا أيها السنيور، ان سكان «بربرا» وحتى من هم من الطبقات الفقيرة، لا زالوا يؤلفون «الكوبلات» الشعرية والموسيقية الجيدة، كما في الماضي. لكن الموهبة الشعرية، لم تعد تجازى كما في الماضي، لأن الأغنياء الآن يفضلون رنين الذهب على الشعر والموسيقى.

ثم لفتت نظره بينما كان يتحدث، مخطوطة جدارية تخبر عن عظمة وقوة الاسلام أيام امبراطورية وسيادة هذا الصرح ففرك عينيه، وهز كتفيه وهو يحاول

تفسيرها. وقال: هذا يصلح لأن يكون مثالاً. فلو لم يكن «أبو عبد ا لله» خائناً وجباناً، لظل المسلمون يحكمون الحمرا إلى اليوم، لأن الاسبان لم يكونوا يستطيعون احتلالها بالقوة.

وأضاف حين استعيد لك ذكرى أبي عبد ا لله التعيسة، كما أتصورها يمكنني أن أظهر أن الانذار الذي أدى إلى سقوط الملكية العربية سببه قسوة قلب والد أبي عبد ا لله. رغم أن العرب لايقرون بذلك!!

ثم قال مولاي «أبو الحسن» ربما كان طاغية قاسياً. لكنه كان وطنياً وشجاعاً وشهماً، ولو ظل على عرش غرناطة لظلت لنا. لكن ابنه ابا عبد ا لله هو الذي أفشل مساعيه، وأحبط خططه. حين عمم الشقاق والخيانة في القصر. فلتحل عليه لعنة ا لله لخيانته.

وما أن أنهى العربي كلماته هذه حتى غادر القصر.

وتتفق ملاحظات صديقي العربي المهم هذا، مع ما قاله لي صديق زار المغرب العربي، حيث أكد له باشا «تطوان» أن تقصياته عن إسبانيا، وخاصةالجزء الأندلسي المفضل منها، تؤكد أن روعتها الدائمة، تذكرهم بجذر تاريخي بحضارتهم، وقد تحدث «الباشا» إلى مجموعة من الحضور المسلمين، وهو يعبث بلحيته بشكل عاطفي كمن يغط قائلاً: لو ظل العرب على إيمانهم لما كان لهذه العظمة أن تزول. ثم تدارك قائلاً: إنني على قناعة أن القوة الإسبانية والأمة الإسبانية بانحدار، لذلك لن يمضي وقت طويل على المغاربة،إلا ويعيدوا فتح هذا البلاد. وربما لن يكون هذا اليوم بعيداًو آن ذاك سيعود دين محمد (ص) إلى هناك، وستعود الجوامع إلى قرطبة، وسيجلس الأمراء المسلمون على عرش الحمرا ثانية. تلك هي العقيدة العامة عند المغاربة الذين لازالوا يسمون اسبانيا بإسمها القديم: الأندلس، ويعتبرونها إرثاً شرعياً لهم فقدوه نتيجة الغدر والخيانة والعنف. ومثل هذه الآراء المنتشرة هناك هي التي عبر عنها هذا العربي من بقايا الأندلسيين، لدرجة أن الكثير من أمثاله في «تطوان» لازالوا يحتفظون بأسمائهم الأندلسية القديمة مثل: «بايز» و «مدنسي» ولم تؤثر عليهم اختلاطات الزواج العائلي ، ولا على أصولهم الأندلسية، فأحسابهم مختلفة بشكل معروف، ونادرا ما يحافظ على هذا في المجتمع الإسلامي إلا الأشراف والملوك.

وهذه العائلات التي تتطلع إلى فردوسها المفقود ، لازالت تدعو في صلوات الجمع إلى ا لله أن يقرب يوم إعادة فتح غرناطة، وأن يؤيد المسلمين بالقدرة على ذلك، كحدث ينظرون إليه بقدر أهمية نظر المسيحيين إلى استعادة الصليب الذي صلب عليه المسيح، لدرجة أن بعضهم لازال معه سندات ملكية الأرض ومفاتيح البيوت، التي تؤيد حقه في امتلاكها، ووراثتها في غرناطة، والتي يمكن إبرازها يوم إعادة الفتح.

إن الحوار مع هذا العربي هو الذي وضعني أمام ضرورة تقصي مصير «أبي عبد ا لله» المنعوت بالزائغ أو التعس، والذي لم يتوقف سوء حظه حتى بعد موته. وفي حياته لم يستطع أن يترك للتاريخ اسمه كي يمدح! ! فسيرته بعيدة عن لفت النظر الرومانطيقي لحكم العرب الخالد في اسبانيا. فمعه قتلت معاني الأسطورة الخالدة فيها. «أبو عبد ا لله» هذا الذي لم يتأثر بزوجته الرقيقة، التي عرضها لكل أنواع المحن بحياته وحين موتها، خاصة حين كان يتهمها زورا بالخيانة الزوجية، وهي التي تعرف خيانته لأخته، وقتلها مع طفليها في ثورة غضب إتهام مشابه، كما لم تثر غضبه من جهة أخرى المجزرة الدموية «لابن سراج» حين أمر بقطع رؤوس ستة وثلاثين فارساً ليموتوا صبراً في قاعة السباع؟!

وقد عرف الناس كل هذه الإدانات المختلفة، وصاغوها بصيغ مختلفة، فصارت كنوع من مأساة ،- دراما - في ضمير الشعب وعقله. لدرجة أنه ولاغريب مر على «الحمرا» دون أن يسأل عن البركة التي تلقت رؤوس من قتلهم «ابن سراج». ودون أن يحدق في الغرفة التي عزلت فيها الملكة. وكل فلاحي «السييرا» أو «الفيغا» يغنون هذه القصص المحزنة، بكوبلات كئيبة على الغيتار. والكل يلعن «ببدول» أو «أبو عبدا لله»

ومع كل هذا أقول: إن اسماً في التاريخ لم يُفترَ عليه كما افترى على هذا الاسم. فقد جمعت كل الوثائق التاريخية والمراسلات التي كتبها كتاب اسبان معاصرون له. وبعضهم من أهل الثقة عند الكاثوليك وكانوا متواجدين في المعسكر إبان الحرب، وتفحصت كل الوثائق التاريخية العربية التي استطعت الحصول عليها عبر الترجمة، ولم أجد ما يبرر هذا الجانب الإداني الأسود المظلم للرجل، وذاك الكره لأبي عبد ا لله.

كما قرأت كل الأعمال التي كتبت تحت عنوان «الحرب الأهلية في غرناطة، وتاريخ إقطاعات أيام «الزغارزة»، و«ابن سراج» و «زغريز» في حقبة الصراع الأخير مع الدولة العربية ضد الأسبان. وبعض هذه البحوث إسباني بالأصل، يؤكد أنه ترجم من أصول عربية على يد أمثال: «جينس بيرز دوهيتا» من سكان مرقا «موريكا» ومنه إلى كل اللغات، ومنه أخذ «فلورين» الكثير من القصص الخيالية عن شخصية «غرنزا لفو» القرطبي، والتي جعلها تبدو كقصص تاريخية حقيقية، فصدقها الناس وخاصة فلاحي غرناطة، بينما هي كلها في الواقع من نسج الخيال المخلوط ببعض الوقائع الحقيقية التي تعطيها نفحةالصحة، وصفة التزوير واضحة فيها بحد ذاتها، حين تفسر سلوك العرب وأزياءهم بشكل خاطيء سيء، لايتوافق لا مع عاداتهم ولا تقاليدهم ولا إيمانهم، ولا مع ماذكره أي مؤرخ مسلم.

فبدا لي أن ثمة إرادة إجرامية مخططاً لها، لحفظ وترويج هذا العمل، إذ من حق القصص الرمانطيقية التجاوز، ولكن ليس إلى هذا الحد. فالأعمال العظيمة في التاريخ يجب ألا تخضع لما يلائم رغبات العداوات المعاصرة. ألا يكفي ما عاناه أبو عبدا لله مثلاً من عداء «الاسبنيارد» في سرقتهم لملكه؟! حتى يلاحقه عداؤهم إلى إسمه، بجعله موضوع كره واحتقار في بلده، وبلد اباثه وأجداده؟!

فإذا أراد القارىء الحقيقة التاريخية بارزة مفصلة، ليتبن كل هذه التساؤلات!؟ فسأعطيه الحقائق التالية من مصادرها التاريخية الموثوقة. حيث سألاحق معه «ابن سراج» الذي وازى مالصق به، ما لصق بأبي عبد الله من المذبحة المنسوبة له. وأثناء ذلك سنضيء جانب الاتهام الظالم لأبي عبد الله بسجن الملكة زوجته.

ابن سراج

كان هناك في اسبانيا تمييز سلاليٌ بين المسلمين الذين هم من أصل مشرقي، وأولئك الذين هم من أصل مغربي افريقي. ويمثل النمط الأول العرب الذين يعتبرون أنفسهم من أنقى السلالات البشرية، خاصة أن النبي «ص» منهم، وفيهم وبهم كان أول ظهور الإسلام. أما النمط الثاني فهم «البربر» المحاربون الأشداء، وخاصة من جبال «الأطلس» والصحراء الكبرى. والذين يعرفون «بالمور» أي «المغاربة» أو المراكشيين[16]. الذين أوجدوا مدينة «مراكش» على المحيط، وبها تجمعت قبائلهم، وكانت تزود دائماً بالعنصر المشرقي العربي الذي سيطر من هناك على مسلمي إسبانيا.

---

(16) : إن كلمة (مور) عند الغرب، هي : تحوير لكلمة المغربي العربيـة ومنهـا مراكشـي أو موريتـاني وكانت تشمل كل سكان شمال افريقيا بعد مصر . المترجم.

و«ابن السراج» هذا من أصل مشرقي، يدعي الأصل العربي النقي، و «بنو سراج» كلهم كذلك. لذلك حازوا على أعلى المناصب، خاصة وأنهم من أحد أفخاذ قبائل الأنصار التي نصرت رسول الله «ص» وقد ازدهروا أساساً في قرطبة، ثم لأموا صدعهم بعد سقوطها بسقوط الخلافة غرب الأندلس وتماسكوا في غرناطة، بما لديهم من عصبية تدعمها أهمية تاريخية رومانطيقية. وهكذا صاروا أرقى وأشد فرسان الحمرا فروسية.

وظهرت أهميتهم وخطورتهم أيام حكم «محمد نصر» المكنى «بالحيدري» أو «الهيذاري» والملقب «بالأعسر» أحياناً.والذي استلم عرش غرناطة عام 1423م. فأغدق على الأنصار ومنهم آل سراج، جاعلاً من «يوسف بن سراج» زعيماً على آل «نصر» ووزيراً ومستشاراً له في القصر، مما سبب تقلب باقي القبائل عليه، وإنقلاب رؤسائها ضده. وبذلك فقدَ «محمد» شعبيته. فإذا أضفنا إلى كل ذلك استهتاره وحمقه وسوء خلقه وعزلته في قصره الفخم «بالحمرا» وعدم اختلاطه بشعبه، وإقامة العدل بينهم و إقصاءه للعلماء، نجد كل أسباب الثورة التي قامت عليه، حين هجم الناس على القصر ـ الحمرا ـ فاضطر إلى الفرار من الحديقة إلى شاطيء إفريقيا، لاجئاً إلى تونس.

فاستلم الحكم الملك محمد «الزجور» ـ الصغير ـ ابن عمه، فاتبع سنة مخالفة لسابقه، فراح يشترك مع الناس في أعيادهم، ويمارس الفروسية مع فرسانه، ويرعى حصانه بنفسه، ويخوض سباق الحلبات، جاعلاً من فرسانه كوكبة مقاتلة رائعة.

لكنه أظهر العداء للذين كانوا مستفيدين من سابقه ودالت دولتهم، لدرجة أن خمسمئة من فرسانهم المرموقين غادروا المدينة. وغادر «يوسف بن سراج» مع أربعين فارساً من «بني سراج» كذلك المدينة ليلاً، إلى مملكة «جوان» في «قشتالة»؟! فحضّ «جوانُ» حاكمَ تونس برسالة على إعادة الملك المخلوع إلى عرشه حملها الوزير المخلص «ابن سراج» إلى ملكه المخلوع.

وفعلت الرسالة فعلها، فنزل محمد الحيدري إلى بر الأندلس من البحر مع خمسمائة حصان إفريقي، يدعمه فرسان «بني سراج» ومن غادر غرناطة، مع حلفائهم النصارى؟!

ولهذا خضع الناس له دون مقاومة، واستعاد المدينة دون أن يضرب ضربة سيف، ووالى له جيش غرناطة فوراً. فاضطر خلفه إلى الاحتماء «بالحمرا» لكن جنوده قطعوا راسه بأنفسهم عام 1424 م بعد حكم دام له عدة سنوات؟!

وهكذا استتب الحكم للحيدري ثانية، فقدر ولاء وزيره، بأن أعاد بني سراج للتألق في القصر. ثم ارسل السفراء إلى الملك «جوان» ليشكر صنيعه ومساعدته، ويعرض عليه حلف صداقة. لكن هدف ملك قشتالة لم يكن هذا، فطلب منه الجزية. وحين رفضها «الأعسر» بدعوى أنه قد خاض الكثير من الحروب التي تمنعه من ذلك، وقعت مملكة غرناطة تحت ضربات الغزو، وخربت سهولها. ومع نجاحه في الكثير من المعارك، ظل الخطر على الحيدرِي من الداخل. «فدون بدرو فنغاس» النصراني المحتد، والمسلم بالعقيدة كان رجلاً وصولياً غير محمود السيرة، لعب دوراً وهو نبيل من عائلة «لوكي» أسر طفلاً في الثامنة من عمره على يد السيد «يحيى النيار» أمير «الميرة» الذي تبناه كابن له، وأنشأه تنشئة إسلامية، ورباه كما يربي الأمراء في الأسر. والسيد «يحيى» من عائلة نبيلة ترجع إلى «ابن هود» أحد ملوك غرناطة الأوائل. وبسبب علاقة الحب بين هذا الربيب وبين ابنة السيد الشهيرة بجمالها، والتي يتكرر اسمها في آثار غرناطة، ، بشكل لازال يحمل معه ظلال الأناقة والفخامة العربية، صار سليل عائلة «لوكي» صهراً لعائلة «ابن هود»

وفي الزمن الذي نبحث فيه كان «دون بدرو» شاباً نشطاً ذا نفس طموحة، وبدأ يظهر اسمه وراء مؤامرات عصره، التي أطاحت بالأعسر عن عرشه المهتز. ليرفع بدلاً منه «يوسف بن الأحمر» الذي كان من أقدم الأمراء ذوي الأصول «السلتية» والذي يدعمه طبعاً ملك «قشتالة» عبر التراسل السري مع «دون بدرو» وامتدت مراسلات «بدرو» إلى «قرطبة» ايضاً لهذا الغرض، على أمل أن يهيء «بدرو يوسف بن الأحمر» لمساعدة «جون» بمجرد أن يظهر جيشه في «الفيغا» كي يمكنه من اعتلاء عرش غرناطة بعد الإطاحة بالأعسر. وهكذا: ترك المتآمرون المدينة تحت مختلف الأعذار. وما أن اقترب الملك «جون» من الحدود حتى حضر «يوسف بن الأحمر» مع ثمانية آلاف رجل لمساعدته، وتقبيل يده ولاءً.

ونحن لن نسجل المعارك المختلفة التي نشأت من هذا الموقف، في هذه المملكة، وما أعقبها من انتفاضات بل سنذكر بأن «ابن سراج» كان دائماً يقف بجانب الحظ العاثر لسيده «محمد» طوال هذا الصراع. إلى أن سقط في «الأقصى»

بعد معركة خاضها بكل شجاعة، مع عدد كبير من النبلاء والفرسان، وبهذه الكارثة الحربية تحطمت سيادة عائلة «بني سراج» تقريباً.

ثم طرد «محمد» مرة ثانية من ملكه، ولجأ إلى سيد «السيد» «مالقا» الذي ظل على ولائه له.

وهكذا دخل «يوسف بن الأحمر» المعروف «بيوسف الثاني» غرناطة منتصراً في أول يناير عام 1432 م، ليجدها مدينة في حداد على نصف سكانها. فلا عائلة شريفة فيها لم تخسر نصف أبنائها، فمع ابن سراج ذبح في «الأقصى» أروع الفرسان.

فمرّ هذا الملك «الملحد» في أزقة فارغة، ولم يجتمع له إلا القليل من الأتباع الموالين في قاعات الحمرا، فشعر بخطورة موقفه، خاصة وإن «محمد» المخلوع لازال في «مالقا» ويؤيده حاكم تونس وبعض حكام النصارى. والأنكى من ذلك كله أن أحداً لايحبه في غرناطة التي فجعها بأبنائها. فوقع بكآبة أدت إلى الوهن الذي ظل يلازمه ستة أشهر انتهت به إلى القبر.

وبمجرد وصول خبر موته للأعسر تحرك من مالقا وعاد مرة ثانية إلى عرشه. واختار من «بني سراج» وزيراً اسمه «عبد البر» وكان من أسوأ الإداريين في عصره. ومن خلال نصائحه اتبع سياسة العزلة عن الناس والعداء لهم، واقعاً بتناقض العفو عن كل أعدائه، بما فيهم أبناء يوسف الثلاثة: الأكبر «ابن سليم» الذي أعطاه لقب «أمير الميرة» وسيد «مارشينا» في الأقصى. والأصغر «أحمد» الذي سمي «سنيوراً»؟! على «الأوشار» و «أكويفيلا» والبنت التي نالت إقطاعاً كبيراً في «الفيفا» وعدة بيوت ومحال في الزقاقين بغرناطة. فتزوج «ابن سليم» عمة من عمات الملك بينما نال «الأمير نصر» يد «ليندا رقصا» الجميلة ابنة الموالي «للأعسر» سيد «مالقا» وهي التي يزيّن اسمها جداريات إحدى حدائق الحمرا، الداخلية السابق ذكرها.

أما «دون بدرو فنغاس» زوج الأميرة فلم ينل أي شيء، لأنه اعتبر مسؤولاً عن كل الشغب الذي حصل، وحُمّلَ مسؤولية موت الفرسان الشجعان مع ابن سراج. لذلك لم يذكره الملك بأي خير. ومن جهته ترك زوجته الأميرة، خوفاً من العقاب و الاعتقال، وكذلك ترك معها ولديه: «أبو القاسم» و «رضوانه» ولحق

بالملك «جون» مع صهره، مستبدلاً غطرسته وطموحه بذل اللجوء و الأسى، ومات عام 1434 م كرجل محطم الآمال.

إلا أن قدر «الحيدري» ظل مرهوناً بمزيد من القلاقل. إذ كان له أبناء أخوين إثنين: «ابن عثمان» الملقب «بأنَفْ» و«ابن اسماعيل» وكان الأول طموحاً نشأ في «الميرة» بينمانشأ الثاني في غرناطة، وكان له الكثير من الأتباع والأصدقاء. وكان على وشك الزواج من فتاة جميلة، حين تدخل عمه وأعطاها إلى أحد رجاله المفضلين، فخرج من غرناطة بسلاحه وفرسانه غاضباً باتجاه الحدود. وقد لاقى سلوكه هذا استياءً عاماً، وخاصة من عائلة بني سراج، والوزير «عبد البر» الذي كان وثيق الصلة بالأمير. لكن الأخبار حين وصلت إلى «ابن عثمان» عن أخيه حول هذا المقيم المقعد، ومابه الناس من استياء عام، أ ثارت طموحه، فاندفع إلى غرناطة مثيراً مزيداً من الشغب، ثم فاجأ عمه في قصره، وأجبره على التنازل عن العرش له. وأعلن نفسه ملكاً، في سبتمبر 1445 م.

في الوقت الذي كان فيه أخوه «ابن اسماعيل» لاجئاً إلى «قشتالة» ونتيجة ذلك وبسبب يأس عائلة بني سراج من «الأعسر» وحظه العاثر من جهة، ولكونه رجلاً غير أهل للحكم، كتب «عبد البر» إلى الأمير «اسماعيل» في «قشتالة» واعداً إياه بمساندته في الوصول إلى الحكم، وقاد حاشيته وعصبيته، مع عدد من الفرسان هاجرين القصر إلى «مونتى فريو» ، ودعا الأمير إلى اللحاق به، ونصحه بأن يفعل ذلك بأن يغادر «قشتالة» سراً، خوفاً من أن يكون في رحيله ما يعارض إرادة ملكها «جون الثاني» ولكن الأمير االذي كان يدين بكرم هذا الملك، أخبر الملك قصته صراحة.

ولم يكن مخطئاً بذلك، فقد أعطاه الملك الإذن بالسفر إضافة إلى وعد بالمساعدة، وزوده برسائل إلى قادته على الحدود. وهكذا غادر«ابن اسماعيل» مع مرافقة علنية مهيبة، ووصل إلى «مونت فريو» بسلام، وهناك أعلنه «عبد البر» فوراً ملكاً على غرناطة وملحقاتها. وبذلك بدأ حرباً أهلية بين أبناء العم، انتهزها ملك «نافارا» و «آراغون» فساعد «ابن عثمان» بينما لم يقدم الملك «جون الثاني» سوى مساعدة بسيطة لابن اسماعيل، لأنه كان يتعرض لثورة شعبية.

فملئت الحقول بالدماء بسبب هذا التدخل الأجنبي، و الخلافات الداخلية. ورغم أن «ابن عثمان» كان شجاعاً يميز نفسه بسلاحه. إلا أنه كان قاسياً عديم

الرحمة، راح يحكم بيد من حديد، مسيئاً لشعبه بطغيانه، ولنبلائه بغطرسته. لذلك التأمت القلوب على ابن عمه لرأفته. وظل الناس يهجرون غرناطة إلى «مونت فريو» مما قوى من جماعة ابن اسماعيل. وبعد الصلح الذي تم بين ملك «قشتالة» وملك «نافارا وآراغون» تمكن ملك قشتالة من إرسال وحدات عسكرية ساعدت ابن إسماعيل، وبذلك تمكن ابن اسماعيل من ترك خنادقه في «مونتي فريو» والذهاب إلى ساحات القتال، باتجاه غرناطة، فرد ابن عثمان بتحرك مشابه للمواجهة، وحصلت معركة دموية، حارب فيها كل من أبناء العم ببطولة، وانتهت بهزيمة «ابن عثمان» وارتداده إلى حصونه. وحين طلب من السكان فيها حمل السلاح، لم يستجب له سوى القليل منهم، وخذلوه لقسوته التي أبعدت قلوبهم عنه، لذلك أغلق على نفسه الحمرا حين رأى أن نجمة قد بدأ يأفل، وقرر أن ينهي حياته بعمل إنتقامي ضد من خزله. فأدخل عدداً من الفرسان من الذين شك بولائهم. وراح يعدمهم واحداً إثر واحد، فور دخولهم القصر.

وهذه هي المذبحة الأولى التي لصقت بقاعه «ابن سراج» أما صاحبها الحقيقي المجرم، «ابن عثمان» فقد فر بعد أن ارتكب هذا العمل الانتقامي، حيث سمع بالناس تنادي على «ابن اسماعيل» ملكاً على المدينة، عن طريق ممر إلى «سيرو دل سول» فوادي «داره» ومنها إلى جبال «البقصار» مع أتباعه ليعيشوا هناك حياة قطاع الطرق. يجبون من المسافرين والقرويين تحت سيطرتهم «الخوة» والمكوس.

أما ابن اسماعيل الذي لقب بالثاني فتسلم الملك عام 1454 م فتصادق مع الملك «جون الثاني» بعقد فروسية، ولم يكن ذا نفس نزاعة إلى الحرب، فأعطى جوائز مجزية للذين أخلصوا له، ورعى عائلات من قتلوا لأجله، وجعل أبناء سراج من المفضلين في قصره من خيرة الفرسان طوال حكمه، ولذلك تميز عهده بالعمارة وخاصة تلك التي تشاهد أطلالها في «سير دل سول» اليوم.

لكن الملك «جون» مات في نفس ذاك العام الذي تسلم به «ابن اسماعيل» وخلفه «هنري الحادي عشر» الملقب «بالعاجز» على «قشتالة» فرفض «ابن اسماعيل» تجديد عهد الصداقة والفروسية معه، كما كان مع سابقه، لأن سكان غرناطة لم يرحبوا بذلك. فما كان من الملك هنري إلا أن طالب بالجزية، وراح يعتدي على مملكة غرناطة، ويساعد «ابن عثمان» وعصاباته، مستعيناً ببعضهم لتحصيل «الخوة» والمكوس، لكن فرسان «هنري» رفضوا بإباء التعاون مع خارجين

عن القانون، وقرروا القبض على «ابن عثمان» الذي تمكن من الفرار أولاً إلى «اشبيلية» ثم إلى «قشتالة»

ولأجل تأمين الأمن، وافق «ابن اسماعيل» عام 1456 م بمناسبة عيد الفصح المسيحي لسكان «الفيغا» المسيحيين، على دفع جزء من الجزية إلى ملك قشتالة، إضافة إلى تحرير ستمئة مسيحي من الأسر إذا شاء مسترقوهم من العرب ذلك.

وكتب معاهدة بذلك، وظلّ ملتزماً بها. وبذلك حكم لسنين عديدة ملكية مزدهرة، نادراً ما يمكن لمثيلاتها في ذاك العصر مثل ذاك الإزدهار، فتمتعت غرناطة خلال حكمه بالتقدم و الإزدهار، وصارت مركز إشعاع حضاري.

أما لكي نفهم أحداث سقوط غرناطة، فعلينا أن نعرف أن زوجته أم البنين ابنة سيد مقاطعة «حيايا» إبراهيم النيار والذي كان أميراً «للميرة» أيضاً، قد أنجبت له ولدين وهما: «ابو الحسن» و «أبو عبد الله الزجال»[17]

واستلم الملك من بعد ابن اسماعيل ابنه «سيدي ابو الحسن» عام 1465 م، وبدأ عهده برفض دفع أي جزية مخزية إلى ملك قشتالة . فسبَّبَ ذلك الكارثة الحربية القادمة.

أما أنا فألتزم بالحقائق المتعلقة بعائلة «بني سراج» والتهم التي وجهت لهم، ولأبي عبد الله «ببدول» ، لذلك سأكتب حول هذا الأمر فقط.

ولأجل هذا سأذكر القارىء بما حصل «لدون بدرو فنغاس» الملقب «بالزوبعة» فهو بعد أن غادر غرناطة عام 1433 م ترك فيها ولدين هما: «ابو القاسم» و «رضوان» وابنة اسمها «ستي مريم» وبسبب انتمائهم الملكي من جهة أمهم، ولأنهم متصلون بأمير «الميرة» ذي الفضل مع آخر ملك حالي، ظلوا ذوي حظوة بالبلد. كما تميز هؤلاء الأولاد بموهبة وسلوك جيد، وتزوجت «ستي مريم» من حفيد الملك يوسف وسيد «حيايا» وصهر «الزجال» وبسبب هذه الصلات العائلية القوية مع العائلة الملكية ، أصبح «أبو القاسم فنغاس» وزيراً لمولاي «أبو الحسن» وأخوه «رضوان فنغاس» من قادته المقربين. مما آثار حسد «بني سراج» الذين فقدوا الكثير من عقبهم، وحلت معظم المصائب بعائلتهم بسبب الحروب التي آثارها والد

(17) : هو عم «ببدول» أو ابو عبد الله آخر ملوك العرب في الأندلس.

هؤلاء «دون بدرو فنغاس» في أيام «يوسف الأحمر» والواقع أن التباغض حل منذ تلك الأيام بين بيت «بني سراج» وبيت «فنغاس» وتصاعد بشكل مذهل بين الحريم الملكي.

وزاده مولاي » أبو الحسن» االذي كان قد تزوج في شبابه من ابنة عمه ابنة السلطان الأعسر «ايقصا» ـ آيكسا لاهورا ـ ومنها أنجب ولدين أكبرهما ببدول ـ أو أبو عبد الله، ولي العهد. لكنه بعد تقدمه بالعمر تزوج لسوء الحظ مرة أخرى من امراة مسيحية أسيرة جميلةٍ هي : «ايزابيلا دي سوليز» وتعرف عند العرب باسم «زوريا» ومنها أنجب أيضاً ولدين، فانقسم القصر بين السلطانتين، حيث تسعى كل منها لبنيها وراثة العرش. وقد دعم الوزير أبو القاسم فنغاس «زوريا» وكذلك أخوه «رضوان» لتعاطفهما مع أصلهما المسيحي الواحد، ولأن الملك يفضلها، بينما على العكس من ذلك التفت عائلة بني سراج حول السلطانة «آيقصا» ، من خلال ولائهم التقليدي «للحيدري» صاحب الفضل السابق عليهم من جهة أهم، ومن جهة أخرى ضد ورثة فنغاس أيضاً.

فزاد الانقسام في القصر، وأخذ كل اشكال التعارض، كما يحصل في كل القصورالملكية بمثل هذه الحال. لكن أعداء «آيقصا» استطاعوا أن يزرعوا الشك في عقل مولاي «ابو احسن» بأنها تعمل على تنحيته عن الملك لتضع ابنها «أبو عبد الله» ـ ببدول ـ بدلاً منه على العرش، فحبسها وابنها في أول ثورة غضب في برج «التجار» وهدد حياة «ببدول» بالقتل. لكنها أنزلته من شباك البرج على حبال صنعتها من ثيابها وثياب وصيفاتها ليلاً، حيث كان ينتظره موالون له بخيول سريعة، اخذوه بها إلى «البقصارا» . فكان سجن السلطانة هذا وراء أسطورة ملكة «ببدول» السجينة. فأمه وليست زوجته هي التي سجنت واستبدلت نفسها بالسجن مقابل حياته، كما حصل في الواقع، بينما الطاغية الذي سجنها لم يكن هو، بل والده.

وفي نفس الوقت حصلت مذبحة أخرى ثانية في قاعة بني سراج، بأمر من السلطان والضحايا فيها كانوا بني سراج أنفسهم، بناء على نصيحة الوزير «ابو لقاسم فنغاس» حيث قتل خيرة فرسان بني سراج، كوسيلة لبث الرعب في قلوب الآخرين الذين اشتبه السلطان بتآمرهم. فإذا صح هذا الأمر، فإن اختزالاً وتحويراً حصل لهذه الأحداث البربرية.وعلى أية حال فقد ظل بنو سراج على ولائهم لقضية «أيقصا» وابنها أبي عبد الله، خلال الحرب التي نشأت من جراء ذلك.

بينما كان «الفنغاس» يصف «أبو الحسن» و «الزجال» فمن المفيد هنا التذكير بما حصل لهذه العائلات بعد ذلك؟! فحين حصار غرناطة من قبل الفاتحين النصارى، كان «الفنغاس» أول الخاضعين ـ بل المتآمرين ـ مع الغزاة، والمتنكرين لعقيدتهم الإسلامية. وإن عادوا فوراً إلى الإيمان الذي كان عليه أجدادهم، وكوفئوا على ذلك بالمراكز الرسمية والإقطاعات، والزواج من عائلات اسبانية. وظلوا متقدمين على كل النبلاء. بينما ظلت عائلة «بني سراج» على صدق إيمانها بدينها ومليكها، و قضيتها الخاسرة. فانحدرت مع حطام البنية الإسلامية التي كانت مسيطرة، فلم يتركوا خلفهم أي عقب، عدا عن أسمائهم التاريخية الرومانطيقية.

هكذا استطعت أن أظهر مدى زيف هذه الأساطير التي روجت على «ابو عبد الله» وعلى عائلة «بني سراج» بهذا السياق التاريخي الذي اعتمدت به على الوقائع الحقيقية. فقصة إدانته لملكته، وقسوته مع أخته، يمكن اعتبارها بناء على هذا من القصص الملفقة أيضاً، وغير القائمة على أي أساس. فنحن نجد من سيرته التاريخية، أنه كان عاطفياً رقيقاً، كما لم يكن له سوى زوجة واحدة، هي «مريم» ابنة المجاهد الكبير في «الأقصى» وسيدها، «علي العطار» الشهير في قصص وأغنيات الدفاع الأخيرة في الحرب، والذي حارب بشكل مأساوي في أرض النصارى التي كان «أبو عبد الله» اسيراً فيها. أما زوجته فقد بقيت معه، بعد أن أطاح به القشتاليون» في الإقطاع الذي حجزوه فيه، في وادي «البقصار» وحين وصل الحقد «بفردناند» إلى طرده من وطنه إلى «افريقيا» اعتلت صحتها وهم يجهزونه للسفر وانهارت معنوياتها من طول الإجهاد وسقطت فريسة المرض، نتيجة الحزن «المانغولي» القاسي. بينما ظل أبو عبد الله مخلصاً لها حتى النهاية. وحينها أخر «فردناند» سفرهما عدة أسابيع بسبب شكوكه وقلقه، حتى ماتت «مريم» ودفنت في أرضها، ضحية قلب مكسور.

وحين وصل الخبر إلى «فردناند» من عملائه بموتها، شعر بأن ذلك تتويج لأحد أهدافه، بإزالة العائق الوحيد الباقي الذي يمكنه أن يربط أبا عبد الله بأي شيء.

تذكرة بأبي عبد الله

تعلق في ذهني حظ أبي عبد الله العاثر، فتوجهت إلى الأحداث التاريخية التي رافقته، والتي لازال بالإمكان النظر فيها، والتي حددت مصيره وسوء طالعه. ففي برج التجار تحت قاعة السفراء مباشرة، غرفتان صغيرتان، يفصلهما ممرٌ ضيق، قيل إنهما المكان الذي سجنت فيه أمه، الفاضلة «أياكسا لاهورا». ولا يفي بفرض السجن هذا في الواقع أي مكان آخر في البرج سوى هاتين الغرفتين. فجدرانهما الخارجية سميكة وبها نوافذ صغيرة، عليها قضبان من الحديد، وتحت النوافذ مصطبة حجرية ذات انخفاض تتمدد على جوانب البرج الثلاثة. ومن هذه المصطبة يفترض أن الملكة دلت ابنها إلى الأرض، بثيابها وثياب مرافقاتها، التي جعلت منها حبالاً، خلال الليل المظلم، حيث كان ينتظره أصدقاؤه الخلص بأقدام ثابتة، لحمله إلى الجبال.

لقد مضى بين الثلاثمئة إلى الأربعمئة سنة على هذا الحدث المأساوي، ولازال مشهده ثابتاً غير متغير تقريباً. فذهب خيالي وأنا أمر بين هاتين الغرفتين، إلى صورة الملكة القلقة أن ذاك وهي تنظر من النافذة، وتسمع بأذن الأم أصداء حوافر الخيل، بينما يجتاز ولدها وادي «دارة» الضيق.

وفي مناسبة أخرى عندما تصورت الباب الذي خرج منه أبو عبد ا لله لآخر مرة من «الحمرا»، شعرت بنفسه الحزينة المكسورة، وهو يسلم عاصمته وسرير ملكه، وقد أحاط به التشاؤم والتطير، لأنه طلب من الملوك الكاثوليك، أن لا يسمح لأحد بالمرور من هذا الباب من بعده، وتعاطفت «إيزابيلا» معه بأن أغلقت الباب وطينته، ووافقت على أن لى صلاته الأخيرة هناك، بناء على شاهد عيان معاصر قديم.

وقد أكد لي «ماتيو» عبث البحث عن هذا الباب الذي أغلق بالحجارة، بناء على ما سمع هذا المرافق لي المتواضع الإمكانات، عن أبيه عن جده، وهو نفس المخرج الذي خرج منه الملك «شيكو» من الحصن. وبه سر لم يعرفه أحد من سكان القلعة القدامى؟!

وقادني إلى أثر مكان به أثر باب، في منتصف ما كان بالماضي صرحاً ضخماً للقصر. كان سكان غرناطة يعتبرونه المدخل الأساسي للقصر، ويسمى «برج الطوابق السبعة» المشهور بين الناس على أنه كان مكان ترفيه عربي، ويعتبره الرحالة «سوينبر» المدخل الأساسي الذي يوصل إلى الجناح الملكي، حيث يقف حراس الملك ومرافقوه. لذلك يمكن عده مدخلاً للقصر، بينما تعد البوابة الضخمة للعدل، مدخلاً للحصن ككل. وحين نزل أبو عبد ا لله من هذا الباب ليسلم مفاتيح المدينة للغزاة الملوك الإسبان الفاتحين، ترك وزيره «بن كوميكسا» ــ ابن قميقسة ــ ليستقبل على باب العدل طلائع الجيش الفاتح، وقادته الذين سيستلمون الحصن ككل.

أما اليوم فكل «برج الطواب» السبعة مهدم، بعد أن نسفه الافرنسيون حين غادروا الحصن، وهو كتل من الجدران الضخمة المبعثرة المدفونة في أرض الأقصى، والتي تخفيها أشجار الكرمة، أو التين، لكن القوس الرئيسي للمدخل لازال سليماً رغم الانفجار. وهكذا تحققت آخر أمنية لأبي عبد ا لله المسكين بإغلاق المدخل بكتل حجرية ضخمة نتيجة الانفجار، فبقي لا يسمح بمرور أحد منه.

ثم ركبت حصاني لألحق الطريق الذي اتخذه هذا الملك المسلم عبر هضبة «الشهداء المجهولين» بموازاة سور الحدائق التي تحمل نفس الاسم، فنزلت في منحدر شديد معشوشب، به أشجار التين والزنجبيل، وفيه كهف يسكنه الغجر. ولأن المنحدر كان متعرجاً وشديداً، اضطررت إلى أن أنزل وأقود حصاني بيدي.

فمن هنا مر المسكين الحزين أبو عبد الله ليخرج متجنباً المرور بالمدينة، ربما لكي لا يرى الناس مهانته، أو لأنه لم يشأ أن يسبب هياجاً عاماً. ولهذا السبب أيضا وبلا شك سلكت القوات الفاتحة نفس الطريق لأخذ مواقعها في الحصن.وما أن خرجت من هذا المنحدر الشديد، المرتبط بتلك الذكريات الحزينة، وعبرت «بوابة النواعير» حتى وجدت نفسي في مكان النزهةالعامة الذي يسمى «برادو» ـ البارد ـ وبعد أن عبرت باحة «أكسنيل» وصلت إلى كنيسة صغيرة كانت في يوم من الأيام مسجداً، وهي الآن «دير سان سباستيان» وهنا حسب ما يذكره الرواة، سلم أبو عبد الله إلى «فردناند» مفاتيح غرناطة.

وتابعت سيري عبر الفيغا» إلى القرية التي كانت أسرة الملك بانتظاره فيها، إذ كان قد أرسلهم لها من الحمرا في الليلة السابقة ، كي لاتشارك زوجته وأمه بمهانته الشخصية، أو حتى لاتتعرضا إلى تحديق الجيش الفاتح. ومنها يسيرون إلى المنفى. وحين تبعت هذا الطريق وصلت إلى سلسلة من المرتفعات تشكل حزاماً على جبال «البقصارا» ومن أحد هذه المرتفعات ألقى «أبو عبد الله» نظراته الأخيرة البائسة على «غرناطة» وهذه هي التلة التي لازالت تحمل اسم: «تلة الدموع» وخلفها طريق رملي يتسع نحو الفضاء الواسع الذي احتجز الملك التعيس المتجه إلى المنفى.

فنهرت حصاني إلى أعلى التلة حيث الصخرة التي وقف عليها أبو عبد الله، وعلى وجهه نظرات التساؤل الحزينة. وهي تسمى الآن «آخر ما رآه العرب» لكن من ذا الذي يستطيع أن يجوب في مشاعر رجل طرد من مملكة ومجد كهذا؟! فهو قد قاد كل سلالته، ومعها كل مجد وفرح الحياة من «الحمرا»؟!

والذي زاد من مرارته ما قالته له أمه «أياس» التي غالباً ما ساعدته أيام محنه، دون أن تتمكن من أن تدفع في نفسه ما بنفسها من روح وثابة!!؟

قالت: إفعل خيراً، وابك على ملكك بكاء النساء لأنك لم تحفظه حفظ الرجال. متأثرة بإباء الإمارة لايعطف الأم، هذه المرة.

إن المطران «غيفارا» حين أخبر الملك «شارل الخامس» بهذه الحادثة، قال: لو كنت مكانه لجعلت من الحمرا مدفناً لي بدل العيش بدون ملك في «البقصارا» ؟!

لكن كم من السهل على من هم في قمة السلطة الوعظ بالبطولة ونقد سابقيهم، وكم قليلة معرفتهم بقيمة الحياة لتعساء الحظ عندما لايبقى لديهم سواها؟!

ونزلت من هضبة الدموع ببطء، تاركاً حصاني ليتجه إلى بوابة غرناطة وحده. بينما أقلب قصة «ببدول» التعيس بذهني، دون أن أرى في هذه الحقبة السوداء المتراجعة ما يدينه وحده، فهو قدر ترك ما يثبت أنه شخصية متلائمة معتدلة، عبر كل الحقبة الكارثية المضطربة التي عاشها بوقت قصير. ففي أول أمره حظي بقلوب شعبه لكرم سلوكه وتصرفاته. فكان دوماً يبحث عن الرخص والتخفيف، فلم يوقع اي عقوبة قاسية ضد الذين انقلبوا وثاروا عليه أحياناً. وكان يتمتع بشجاعة ينقصها شجاعة خلق الإقدام والثبات إزاء الأيام الصعبة المتقلبة عليه، فروحه اللاثورية الضعيفة هذه هي التي عجلت بسقوطه، وحرمته من عظمة البطولة، التي كان بالإمكان أن تعطيه كرامة المصير، مما أبعده عما تستحقه السيادة الإسلامية على إسبانيا في خاتمة درامية رائعة.

أعياد غرناطة العامة

إن وصف مرافقي الذي يعتبر نفسه حجة في التاريخ، والإخلاص «ماتيو أكزينس» للأعياد والعطل، تؤججه عاطفة شيطانية لهما. فلا أحد يضارعه بشرح الأعياد الدينية والمدنية لغرناطة. لذلك كان مجال تنقل دائم بين الحمرا والمدينة، خلال التحضيرات للعيد السنوي الكاثوليكي لصلب المسيح. ويزودني على الرغم مني بالأحداث اليومية لتقدم التجهيزات الرائعة التي ستحصل. وهو يحاول محالاً إنزالي من منتجعي البارد المهوى لأشهدها إلى أن خضعت أخيراً يوم العيد، لإلحاحه ونزلت من قاعات الحمرا الفخمة بمرافقته ، كما ينزل «هارون الرشيد» مع وزيره ومرافقه «جعفر» ، بحثاً عن المغامرة خارج القصر. وكان الوقت مع مغيب الشمس، وعلى أبواب المدينة نماذج من الناس تصور كل صور الريف الجبلي، وفلاحي «الفيغا» السمر. لأن غرناطة منذ تأسيسها ، كانت مركزاً للمقاطعات الجبلية المليئة بالقرى والنواحي. فكان هؤلاء يأتون منذ أيام العرب ليشهدوا الاحتفالات والأعياد، وليمارسوا الفروسية شبه الحربية في ساحات الميدان، واليوم يأتون لكي يستريحوا ويستمتعوا بالشعائر الكنسية. ومعظم هؤلاءالقرويين الجبليين من «البقصارا» «وسييراروندا» ممن خضعوا الآن للكنيسة،

وصاروا من أشد الكاثوليك حماسة. رغم أنهم مازالوا على سماتهم المراكشية الوراثية القديمة. وهم بلا شك من سلالة الشعب الذي كان يحكمه أبو عبد ا لله.

وسرت بإرشاد «ماتيو» في الطرقات المزدحمة بالمعيدين، إلى ساحة «فيفا رامبلا» المكان الآخاذ الذي غنى له العرب أغاني الحب والفروسية. وقد أقيم على جانب الساحة سرادق من الخشب والورود، من أجل الحفل الديني الكبير في اليوم التالي وهو الآن في هذا المساء، مضاء كمكان نزهة، وعلى شرفات زوايا الساحة الأربعة تقف فرق موسيقية . أما في الساحة فتنتظر كل الأزياء الغرناطية، ويعرض كل أنيق جماله وهو يتنزه في «الفيفا رامبلا» هذه، حيث يلبس الفلاحون من كلا الجنسين ألبستهم التقليدية وتلمع عيونهم البراقة بإشراقة أندلسية مرحة. وفيهم من جاء من «روندا» المعقل الجبلي القوي، الشهير بقطاع الطرق، ومصارعي الثيران، والنساء الجميلات.

وبينما كان هؤلاء يتحلقون حول السرادق بسعادة، كان مركز الساحة مشغولاً بالفلاحين من أماكن أخرى محيطة بالمدينة، من الذين لم يأتوا ليقدموا عروضاً، بل جاؤوا لمتعة المشاهدة فقط. وملئت الساحة بجماعات عائلية وجيران منهم. على شكل جعلهم يبدون كالغجر، وخاصة حين يتحلقون لسماع نقر «الغيتارات» وبعضهم يرقص على نقرات الصنجات التي توضع بأصابع اليد. بينما آخرون ينشغلون في حديث مرح.

وكنت أمر بجماعات جالسة على الأرض، وأنا أخترق الصفوف بمساعدة «ماتيو» وهي تحتفل بهذه الطريقة. فإذا تلاقت عيناي بعيونهم التي كانت تحدق بي، كانوا يحاولون دعوتي لأشارك معهم باحتفالهم البسيط كعادة ضيافة موروثة عندهم من المسلمين، وأصلها من القيم العربية، ويمكن ملاحظتها عند أفقر «االإسبنيارد» وفي كل مكان.

وقد خف الاحتفال مع تقدم الليل، وتوقفت الفرق الموسيقية عن العزف، وبدأ الناس بالانسحاب إلى بيوتهم، لكن ظل مركز المدينة مليئاً بالناس نسبياً؟! وأكد لي «ماتيو» أن معظم االفلاحين نساءً وأطفالاً ورجالاً سيقضون الليل هنا، وينامون على الأرض بجانب سرادق الجنة هنا؟! خاصة وأن الليالي الصيفية لاتحتاج لدثار في هذا الجو الحار. إضافة إلى أن السرير يُعَدُّ فخامة وعادة لايتمتع بها معظم طبقة الفلاحين في أسبانيا، حتى أن بعضهم يحتقرها، فالإسبنيارد

لاينام بعمق إلا إذا لفَّ نفسه بعباءته أو بغطاء البغل على الأرض فـإذا أراد مزيـداً من الترفيه سيضع سرج حصانه كوسادة تحت رأسـه. وصحـت كلمـات «مـاتيو» حين رأيت معظم الفلاحين يهجعون على الأرض حتـى أن سـاحة «فيفـا رامبـلا» بدت في منتصف الليل كما لو أن بها جيشاً هاجعاً.

وعدت في اليوم التالي لأراقب الساحة عند طلوع الفجر، حيث لازالت بعـض الجماعات نائمة، ممن أنهكهم الرقص في الليـل، أو ممـن تـرك قريتـه في الليلـة السابقة، وما زال بحاجة إلى مزيد من النوم والراحة من جهد السفر والعيـد. أمـا الذين لم يأتوا من قراهم في الليلة السابقة فبدأوا يتدفقون على المدينة مـع نسـائهم وأطفـالهم، وهـم يحيـون بعضهـم، بـروح معنويـة عاليـة، ويتبـادلون النكـات والأحـاديث ومع تقدم النهار زادت كثافتهم، وكثافة دخولهم مـن أبـواب المدينـة، حيث ملئت الشوارع الـتي يجوبونهـا برئاسـة رهبـانهم الذيـن يحملـون صلبـانهم المقدسة وشعاراتهم الدينية المحترمة، وصور العذراء والقديسين وهي مواضيع تسر الفلاحـين. وهكـذا تضخمـت الحشـود. بشـكل يشـبه تجمـع الفرسـان في الأيـام الخوالي، حيث كانت كل قرية ومدينة، ترسل محاربيها ورؤساءها إما للدفاع عـن المدينة، أو لتشريف الاحتفالات فيها.

وأخيراً، توحدت هذه الحشود المختلفة، بحشد ضخم، بـدأ العـرض حـول ساحة «فيفا رامبلا» وكل الشوارع الرئيسية، حيث عُلِقَ علـى كـل نـافذة وشـرفة علم وشعار. بينهما شارات كل نظام ديني. وكل سلطة عسكرية ومدنيـة وكنيسـة كانت تبرز شعارها وصورها، مظهرة بفخر إمكاناتها المادية، بهذه المناسـبة. أمـا «الأرشبيشوب» فقد سار في وسط الحشود محاطاً بأتباعـه مـن النـاس الـتي تبجلـه وتعتمد عليه، على أنغام التراتيل والفرق الموسيقية بوقار وسكون نحو «الكاتدرائية»

أما أنا فدهشت من تغير العادات بتغير الزمن، فهؤلاء الرهبان الذيـن أراهـم يسيرون نحو «الفيفا رامبلا» مركز الإسلام وفرسانه القدامى، يهدفـون إلى ترسـيخ مشاهد الفتح. لكن التعارض يفرض نفسه على العقل مـن خـلال زينـة السـاحة، فكل واجهة السرادق الخشبي، الذي يمتـد إلى عـدة مئـات مـن الأقـدام، مغطـى «بالكنفا» التي يظن من لايعرف أنها مجرد عمل فني. بينما هي سـجل تـاريخي يرسم مشاهد الفتح المتتابعة. وهذا يعني أن ثمـةً شـيئاً لازال في الذاكـرة الشـعبية يريد من يريد خلطه على غرناطة الاسطورية.

و «ماتيو» أثاره كل هذا، فقال بينما كنا نشق طريقنا عائدين إلى الحمرا: لامكان في العالم مثل غرناطة حين احتفالاتها الكبرى، فهنا يمكن للإنسان أن يجد كل المتع بروعتها أمامه، دون أن يحتاج إلى البحث عنها، فيوم استعادة المدينة أيها السنيور... يوم استعادة المدينة هو الذي يتوج الكمال، ويحتفل بهذا التتويج للكمال منذ أن سقطت المدينة ، ووقعت بيد «فردناندو إيزابيلا»

في ذاك اليوم حسب ماتيو» أخليت كل المدينة لفاتحيها. وراح جرس الإنذار في برج المراقبة يقرع من الصباح إلىالمساء، حتى بلغ صوته كل السهل، ورددت صداه الجبال، ليدعو الفلاحين إلى الاحتفال في كل مكان. وأضاف «ماتيو«: سعيدة المرأة التي قرعت ذاك الجرس، وكل من لها فرصة بقرعه بعدها إلى الآن ستظل مع زوجها لاتنفصم عنه أبدا؟!

ومن يوم فتحت الحمرا وصار مجلس الملك فيها، وقاعاتها الإسلامية مسرحاً لعزف «الغيتار» و «الكاستانيت» يأتي الناس كل سنةٍ ليمرحوا بأزيائهم الأندلسية، ويرقصوا رقصات تقليدية، موروثة عن العرب.

لقد أرادوا تخليد يوم احتلال المدينة التي سار في شوارعها «فردناند وإيزابيلا» يوم أخرجت المقتنيات الملكية من مستودعاتها على يد الغزاة، وحملها «الفرز» بنشوة ونصر، ليعرضها على كل المعسكر بشكل ظاهر، ثم لتتحول هذه المحمولات بعد أن رآها الجميع إلى الكنيسة الملكية في الكاتدرائية، حيث وضعت بغرف رخامية مغلقة. وأقيم قداس دائم في ذكرى الفتح، وفي لحظة من لحظات هذا القداس لوح «آلفرز» بقبعته على قبور الفاتحين تحية لهم.

وكرست الذكرى. ففي المساء تمثل في المسرح «دراما » مشهورة بعنوان: «آفي ماريا» تظهر في أعمال وإنجازات «هرناردو دل بولغار» الملقب «بالطارد» كأفضل بطل قصة في غرناطة ايام حصارها، حيث تصارع مع فارس عربي بشكل رائع. وعندما حل الظلام، اندفع «الطارد» إلى سور غرناطة مع عدد قليل من الاتباع وحفروا اسم «آفي ماريا» بسكينة علىالبوابة الرئيسية للمسجد الجامع، كأيقونة كرسها للعذراء، ثم تمكن من العودة بسلام. ورغم إعجاب الفرسان العرب بهذه الجرأة، أجمعوا على المقاومة، لذلك برز في اليوم التالي الفارس الشجاع «طريف» أمام الجيش المسيحي يجر هذه الأيقونة المقدسة «افى ماريا» بذيل حصانه، فخرج

له «غارسيلاسو دي لافيغا» وقتله ثاراً للعذراء، بعد جولة معركة واحدة، ثـم رفـع اللوحة على قائم رمحه كعلامة نصر.

وقد مثلت هذه الدراما المشهورة بين العوام منذ زمن طويل، ولازالـت تجلـب المتفرجين الذين يثيرهم مافيها من مشاعر. فلما يقف «بولغار» بالمشهد الذي دخـل فيه بين الحشـود الإسـلامية، داخـل العاصمـة العربيـة يحيونـه بحمـاس عبـارة «برافو» وهو عندما يحفر اللوحة على بـاب الجـامع، يهـتز المسـرح بعاصفـة مـن الحماس. أما الممثل الذي لسوء طالعه يمثل العربي، من جهـة أخـرى، فعليـه أن يتحمل إهانات الجماهير، حتى أنه عندما يسـحب الأيقونـة بذيـل حصانـه، قـد يقفز عليه أحد المتفرجين انتقاماً لإهانة العذراء.

وبالمناسبة، فإن أحد المنحدرين من «هرنـاردو دل بولغـار» هـو المركـيز «دي سالار» الذي يعد الممثل الشرعي لذاك البطل، عبر صلة الدم بينه وبينه. ومكافـأة على ذلك، ورث حق الدخول إلى «الكاتدرائية» في مناسبات معينة علـى حصانـه، وحق الجلوس مع جوقة المعبد، وأن يضع قبعته مع قبعات مضيفيه. وهذا الامتياز محصور بالرهبان غالباً. وقد قابلته مـرة بـين النـاس، فكـان شـاباً مقبـول الشـكل والسلوك، ذا عينين لامعتين سوداوين، تقدحان شرراً موروثاً. وفي العصر الحديث، وضعت سلالة عائلته على رسم «فيفا رامبلا» في عيد تجسد المسيح. وبالرسـم صـور السلالة المنحدرة من ذاك البطل يحمله عادة خادم العائلة ذو الشعر الرمادي وهـو يحث الخطى والدموع على خديه نحو «المركيز» ليجره بحماس قائلاً له ولأخيـه، عبر تلك الدالة التي يتمتع بها خدم العـائلات القدامـى علـى أسـيادهم الأسـبان: تعال أيها السنيور وأنظر جدك بكل مجد.

إن في كل قرية، أو مدينة جبلية صغيرة ذكرى خاصـة لليـوم المجيـد الـذي أعيد فيه فتح «غرناطة» تخلده شـعائر معينـة يعلنـون مـن خلالهـا خلاصهـم مـن الحكم العربي وتظهر فيها الأسلحة والدروع القديمـة والسـيوف الكبـيرة المحمولـة بكلتـا اليديـن، والثيـاب القديمـة للفرسـان، وغيرهـا مـن أدوات الحـرب، الـتي توارثتها الأجيال جيلاً عن جيل. وقد أكـد «مـاتيو» ذلـك وأضـاف: سـعيدة هـي العائلة التي لديها بعض الغنائم الحربية من الغزاة، حيث يطـاف بهـا في الجبـال طول اليوم، مع طلقات المدافع. التي تدفع عائلات الفلاحين ثمنها.

ويُلعَب ويُمثل طول اليوم ما يشبه «الدراما» بين كل الناس، حيث تخترق الطرقات قوافل الفرسان ، باللباس والسلاح القديم، بعضهم يلبس شارات أبطال الإيمان، وآخرون بلباس العرب، بينما تنصب خيمة في الساحات العامة حول صور العذراء، وإليها يتقدم المحاربون لإظهار الولاء والطاعة. بينما يحاول أعداؤهم سد المداخل لمنعهم، فيحصل مشهد حرب، ينسى فيه المتحاربون أحياناً أنهم بدور تمثيلي. فتظهر الضربات القوية بينهم، إلى أن ينتهي المشهد طبعاً لصالح القضية الخيرة، فيهزم العرب ويؤخذون أسرى، ويتم إنقاذ صورة العذراء، ليرفعها المنتصرون ويمشوا بها بكل فخر بين أسراهم وهم في الحديد. مع تأييد الجماهير وسرورهم.

وتستهلك هذه الاحتفالات الكثير من مدخرات هذا المجتمع البسيط، وتشكل عبئاً مادياً عليهم. فعندما يكون المحصول جيداً، يحول قسم كبير منه لهذا الهدف، بحماس يجدد استمرارها.

وأخبرني «ماتيو» أنه ساعد أحياناً في هذه الاحتفالات وكان له دور حتى في المعارك، لكنه كان دائماً بجانب المؤمنين بالدين الصحيح. وهو فخور بذلك، على أن لاتنسى أنه من سلالة الكردنال «أكزيمنس» ولهذا ضرب على صدره بكل فخار وقال: لأنها أيها السنيور المسيحية هي وحدها حق[18] .

---

(18) : يقول الأمير شكيب ارسلان في «الحلل السندسية»، مرجع سابق، مج3، ص 403: إن احراق كتب العرب أتي وجدت في اسبانيا، بأمر الكردنال «شيميناس» قد كان السبب في الجهالة... وقد تتبع «ديوان التفتيش» المشهور كتب المسلمين بالإحراق والإتلاف... كما يقول، ص 446 : عاش العرب في إمارة «مرسيه» من بعد سقوطها في أيدي النصارى إلى الجلاء. الأخير في ذل وهوان. ثم أمر «فيليب الثالث» بإجلاء هؤلاء... ... في مدة ثلاثة أيام من نشر الأمر..... وكل مسلم يوجد بعد ثلاثة أيام في غير المكان الذي عين له، فيكون لأي شخص .... أن يقتله. وفي ص 447 قال : والذي أسند الملك إليه مهمة إجلاء العرب: «دون لويس فخاردو» سنة 1610 م... .... وكان هؤلاء يرفعون الصليب فوق منازلهم وأكواخهم... أو يقتلون أولادهم ثم ينتحرون..... ومنهم من ماتوا جزعاً، يقدر بمئتين وستين ألف نسمة. ورغم تكرار الأوامر... بمعاقبة كل من يتكلم العربية «بطليطلة» حيث صكوك معاملاتهم بالعربية إلى سنة 1580م. «فماتيو» هو النموذج الذي ارادت «محاكم التفتيش» THE LNGUSITION أن تختزل فيه الحضارة الأندلسية؟! بينما نموذج الحضارة الأميركية في القرن التاسع عشر، تمثل في «واشنطن إيرفينغ»، وبين هذين النموذجين تظهر الكوميديا التراجيدية، في قصة الحمراء هذه، ليلمس القارىء صلة الانفتاح واللاتعصب بكل عمل ونتاج حضاري.

التقاليد المحلية

للشعب الإسباني نفس المزاج الشرقي، في حب سماع الحكايات، والغرام بالغرائب. فهم يتحلقون حول أكواخهم في الأمسيات الصيفية، أو حول المدافيء بزوايا المحال في الشتاء. ليستمعوا بسرور إلى قصص معجزات القديسين، ومغامرات الرحالة، ومخاطرات قطاع الطرق واللصوص. فبلادهم الواسعة، ذات الشخصية المتوحدة، وكذلك اختلاط المعرفة عندهم ونقصها، هو سبب بحثهم الدائم بموضوعات متشعبة. كذلك لازال التنقل عندهم بدائياً عبر بلادهم الواسعة. وهو يوحي بالمغامرات الرومانطيقية التي يمكن أن يتعرض لها أي شخص. وجماع كل هذا هو سبب ذاك الحب المنتشر لكل خبر شفهي مما يؤدي إلى الخلط بين الغرابة والعظمة. لكن لايوجد موضوع أكثر شيوعاً من قصص الكنوز التي دفنها العرب عندهم، والتي تتناقلها كل البلاد. فكل من ينظر إلى جبال «السييرا» الموحشة، سيرى الأبراج والقلاع العربية منتصبة فوق القمم، أو فوق الصخور المطلة على القرى. كذلك حين تسأل سائق البغال أي سؤال، سوف يتوقف، ويؤخر شعل سيكاره ليخبرك عن بعض قصص الكنوز الإسلامية المدفونة تحت هذه المعاقل. وكذلك لاتجد أي قصر مهدوم في أي مدينة، إلا وله قصة تقليدية عن كنز كان فيه، يتناقلها الناس من جيل إلى جيل، وخاصة ممن يجاورون هذا القصر من الفقراء.

وأساطير الكنوز كغيرها من الأساطير، تشيع وتنبع من بعض الأسس الحقيقية. فخلال الحروب بين الإسلام والمسيحية التي مزقت هذه البلاد لقرون طويلة، كان قدر المدن والقرى، تغيير حكامها، ومواطنيها أيضاً فجأة. وخلال الهجوم على السكان أو حصارهم، كانوا حتماً يدفنون أموالهم ومجوهراتهم في الأرض، أو يخفونها في الكهوف أو آبار الماء. كما يحصل في أيامنا هذه ـ القرن التاسع عشر ـ في بلاد شبيهة في الشرق. كذلك يحصل مثل هذا الأمر حين الإحتلال المفاجيء، على أمل أن يعود النازحون إلى ديارهم ليخرجوا أموالهم وأشياءهم الثمينة، على ظن أن نزوحهم قد يكون مؤقتاً. لذلك حصل من وقت لآخر أثناء الحفر بالمصادفة ظهور الذهب والفضة فجأة، بعد مرور القرون. وخاصة بين خرائب القلاع العربية، أو أماكن سكن العرب السابقة. مثل هذه الوقائع القليلة، هي التي ولدت آلاف الأساطير حول الكنوز.

وقد بدا لي الخليط الذي يشخص كل شيء في إسبانيا، من خلال العقلية العربية والغوطية معاً، بتلك القصص الخاصة، ذات الصلة بالشرق، وخاصة في المقاطعات الإسبانية الجنوبية. حيث أن كل ثروة مخبوءة محروسة «برصدٍ» سحري يحميها، ويكون هذا «الرصد» الحامي على شكل وحش مرعب، أو «داراغون» تنين. أو أحياناً أخرى على شكل روح عربي جالس بجانب كنزه بكامل سلاحه. شاهراً سيفه دون حراك كالتمثال، وهو يراقب من عصور دون أن يغفو.

أما الحمرا فبسبب موقعها الخاص في التاريخ، فتعد طبعاً المعقل لأساطير من هذا النوع، وتأتي الحفريات فيها بين وقت وآخر، لتؤكد هذه الأساطير. ففي إحدى المرات مثلاً، وجدت جرّة بها عملة عربية مع هيكل ديك، اعتبره أحد المتحذلقين، أنه قد دفن مع الجرة حياً.

ومرة أخرى أخرجت جرة أخرى بها «جُعَلُ» أو خنفساء مغلفة بالطين، وعلى غلافها خط عربي. ففهم منها أنها تحوي على «تعزيمة» سحرية حارسة. ولذلك يجمع التحذلق الغرناطي الأجوف، على أنه لا برج ولا قاعة ولا مكان في القصر القديم بني إلا على رصد يحرسه، بناء على تقاليد معينة. ولهذا سآتي للقاريء على ذكر الأساطير الرائعة التي ربطت بالحمرا، بعد أن ألفَ معي في الصفحات السابقة أحوال سكانها. تلك الأساطير التي تشكلت، من كل إشارة أو رمز، مهما كان شكله، والتي جمعتها خلال بحثي وتجوالي، تماماً كما يبحث

الباحث عن وثائق التاريخ القديم، من شذرات الرسائل، والكلمات الباقية في المخطوطات.

فإذا صدمت إحدى هذه الأساطير القارىء الشكاك، عليه أن يتذكر طبيعة المكان الذي سمح بمثلها. فهو هنا يجب أن لا يتوقع قوانين الاحتمال التي تحكم فهم الأماكن العادية، ولا التي تحكم الفهم اليومي للحياة. لذلك عليه أن يتعامل مع «قاعات مرصودة» في القصور، قائمة كلها على أرض سحرية مسكونة؟!



بيت «ديك الطقس»[19]

بمواجهة قصر الحمرا مباشرة، وعلى مرتفع فوق هضبة من هضاب مرتفع «البائيسن» الذي يشكل أعلى منطقة في غرناطة، ويشرف على وادي «داره» الضيق، يقف ما تبقى مماكان قصراً من قصور «المراكشيين» وقد تداعى هذا القصر منذ زمن قديم، مما سبب لي جهداً كبيراً في محاولة إيجاده. على الرغم من مساعدي الباحث الذي يعرف ويدعي كل شيء «ماثيو أكزيمنس» وكان قد حمل هذا الصرح الضخم منذ قرون اسم : «بيت ديك الطقس» من علامة تمثال «برونزي» يتحرك كديك طقس على برجه، منذ الزمن الغابر، على شكل محارب على ظهر حصان، يدور مع كل نسمة هواء، وهذه العلامة الطقسية، كانت تعتبر

(19) : ديك الطقس هو: عبارة عن صفيحة معدنية متحركة على محور بالاتجاهات الأربعة، حسب دفع الريح لها، ويحفر عليها عادة شكل ديك، وتثبت في بعض الأبنية الغربية، فإذا ضربها الهواء حددت الاتجاه الذي يأتي منه الريح.

- المترجم -

عند مسلمي غرناطة نذير سوء، كما أخبرهم بذلك أحد العرافين. ويوجد على هذا التمثال «البرونزي» حسب ماتخبر بعض الحكايات، عبارة مكتوبة باللغة العربية على الشكل التالي:

calet el Bedici Aben Haby

Quidat chahet Jinadabuy

وتعني باللغة الانكليزية:

بهذه الطريقة قال ابن «هابوز» الحكيم.

تُحْرَسُ الأندلس من كل مفاجأة . [20].

---

(20) : وقد نقل «ايرفنغ» هذا المعنى من الترجمة الإسبانية للعبارات العربية وهي:

DiceEl-Salio Aben Haby

Que asi Se Defînde El Anduluy

وطبعاً هذه الترجمة خاطئة للنص العربي. ولأن المؤلف لا يعرف العربية، كما سبق وأعلمنا في قصة : «قاعة السباع» حين التقى مع «التطواني» الذي يعمل بالآفاويه كتاجر في سوق «الزقاقين»، والذي قال عنه: «لأنه يتقن الإسبانية بطلاقة تمكنت من التحاور معه». نقل النص العربي أولا بأحرف لاتينية، ثم عمد إلى ترجمتة من الترجمة الإسبانية الخاطئة له.

ونحن اذا عدنا إلى النص العربي، كما كتبه المؤلف باللاتينية، آخذين بعين الإعتبار عدم وجود حرف الحاء في اللاتينية واللغات المشتقة منها، وقرأنا الهاء حاءً والسي قافاً. يمكن كتابة النص بالأحرف العربية على الشكل التالي:

قلعة الباديس ابن حبوس

قائد ناحية ـ أو حامية ـ الأندلس.

فلا يوجد إذا لا ابن حبوس الحكيم، ولا أي اشارة إلى الحراسة من كل مفاجأة؟!

فمن أين جاءت صفة التنبؤ والحكمة لابن حبوس لتدخل في التقاليد الإسبانية وتتداخل مع الترجمة الإسبانية الضعيفة للنص العربي على ديك الطقس هذا؟

يقول خير الدين الزركلي في «الآعلام» ط3، ج2 ،عام؟، دار النشر؟، ص 4 ـ 5 : «المظفر الصنهاجي باديس بن حبوس... من ملوك الطوائف في الأندلس... وباديس هذا هو الذي مصّر

«غرناطة» واختط قصبتها، وشاد قصورها، وشيد حصونها»، . ويقول لسان الدين بن الخطيب في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» تحقيق محمد عبد ا لله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة عام 1973 م، ط2، ج 1، ص 435: باديس بن حبوس بن مساكن بن زيري بن مناد الصنهاجي، ولقبه الحاجب المظفر با لله... .... كان طاغية جباراً، شجاعاً ، وداهية.... جماعة للمال... ... يكنى أبا مسعود... خاطب شيخ بيته ومعه أبناء أخيه ليجوز إلى الأندلس رغبة في الجهاد - ص 432 - فلما انهدمت الإمامة سنة «448هـ» وانشقت عصا الجماعة، سعوا إلى الفتنة سعي غيرهم، من سائر قبائل البربر... فإنحازت صنهاجة مع شيخهم... إلى مدينة «غرناطة» ثم آثر زاوي العودة إلى وطنه افريقية... والتفّ قومه على ابن أخيه حبوس - حوالي ألف ومئة ميلادية - وأقام بها ملكاً.

وابنه الباديس بن حبوس هو الذي ترجم له «الزركلي»، وقال عنه «ابن الخطيب»: أنه استوزر يهودياً قتل ابنه غيلة بالسم، ليمكن اليهود من غرناطة، وقال ص 440 من المرجع السابق:

«باديس في هذا الحال منغمس في بطالته، عاكف على شرابه. ونمى هذا الأمر إلى رهط من صنهاجة، فراحوا إلى دار اليهودي مع العامة، فدخلوا عليه، فاختفى في بيت فحم وسود وجهه، يروم التنكر. فقتلوه لما عرفوه، وصلبوه على باب غرناطة، وقتل من اليهود من يومه مقتلة عظيمة «459هـ».

أما كيف تحول باديس البربري هذا إلى حكيم وعرافة؟! فيخبرنا لسان الدين بن الخطيب، في المرجع السابق ص 433 عن ذلك بقوله: «وأدال قدم العهد بتعرف أخبار جبروته وعتوه على ا لله سبحانه - العامة - لما جبلهم من الإنقياد للأوهام، و الانصياع للأضاليل. فعلى حفرته اليوم من الإزدحام بطلاب الحوائج والمستشفين من الأسقام، حتى أولو الدواب الوجيعة، ما ليس على قبر معروف الكرخي، وأبي يزيد البسطامي».

وفي ص 443 قال الخطيب: «وداره اليوم طلول قد تغيرت أشكالها... وقد ألمعت من قصيدة اثبتها فكاهة:

عسى خطرة بالركب ياحادي العيس

على الهضبة الشماء من قصر باديس.

وابن «هبوز» أي «حبوس» هذا، بناء على مؤرخ إسلامي قديم ـ ؟ ـ كان مقدماً «كابتن» في جيش طارق بن زياد الغازي، الذي فتح اسبانيا وتركه كسيد «ألسيد» على غرناطة[21] كطريق متقدم لإنذار المسلمين في الأندلس ، المحاطين بمناهضيهم، وبذلك تتوقف سلامتهم على كونهم دوماً على استعداد للمعركة.

وبناء على مؤرخين آخرين من النصارى، أكد «مارمول» أن الباديس بن «هبوز» أي «حبوس» كان سلطاناً مغربياً على غرناطة، وأن ديك الطقس هو دلالة على عدم إستقرار القوة الإسلامية، مدعياً أن العبارة العربية عليه تترجم على النحو التالي:

«هكذا تنبأ ابن حبوس الباديس أن الأندلس سوف تزول وتختفي في يوم من الأيام»[22].

ونسخة أخرى من تفسير هذا المخطوط ـ على ديك الطقس أعطاه مؤرخ مسلم. بناء على «سيدي حسان» الفقير الذي عرف في أيام «فردناند وإيزابيلا» والذي كان

---

(21) : وهذا طبعاً خطأ تاريخي واضح. لمن اطلع على ما أوردناه بالهوامش السابقة

ـ المترجم ـ

(22) :إن تنبؤ ابن حبوس لم يكتب على «ديك الطقس» كما بينا، ولا على سقوط الأندلس، وكل ما هنالك ماذكره لسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة» المرجع السابق ص 414 قوله: « خاض باديس مع أصحابه... من دار الشراب بقصره، واصطفت الصقاليب... فورد عليه نبأ قام لتعرفه... وخبثت نفسه، فحذر ندماءه على أنفسهم وتخيلوا وقوع الشر بهم، ثم قال: دخل المرابط الدمنة ـ مشيراً إلى يوسف بن تاشفين..... ثم وجموا لوجومه ... قال:.... اليوم خمر وغداً أمر، بيننا وبينه أمداد الفجو.... ولكن لابد له أن يمتلك بلدي ويقعد منه مقعدي. وهذا أمر لايلحقه واحد منا، وإنما يشقى أحفادنا». وقد تحققت هذه النبوءة أو هذا الإستقراء على الأصح زمن ابن الخطيب حين أخبر أمير المسلمين بذلك في نفس المكان. قال: « وقصصت عليه قول باديس فتعجب وقام إلى المسجد بمن معه، فصلى فيه ركعات، وأقبل يترحم على قبره» المرجع السابق ص 443 .

حاضراً سقوط بيت «ديك الطقس» عندما خضعت هـذه القصبـة الجديـة إلى الهـدم والإصلاح. قال:

لقد رايتها بعيني كانت على دعائم سبعة وعليها مكتوب الشعر التالي:

القصر في غرناطة المشرقة يخبر القصة.

فالفارس الذي من جماد، يدور مع كل ريح.

وهذا سر يعرفه العاقل. فقريباً سيدمر القصر وملاكه.

ثم حدثت الأحداث بعـد ذلـك بقليـل. فبعـد أن كـان مـولاي الحسـن «أبـو الحسن» ملك غرناطة جالسـاً يستعرض عسـكره مـن شرفته، بسـلاحهم اللمـاع، وأثوابهم الحريرية الفـاخرة، يمتطـون جيـادهم كاللجـة الثابتـة، ومعهـم سـيوفهم ودروعهم ورماحهم المطعمة بالذهب والفضـة، رؤيـت زوبعـة عاصفـة تتقـدم مـن الجنوب الغربي. وبعد قليل غطت السماء السحب الداكنة التي انفجرت بالأمطار الغزيرة ثم جاء الإعصار مزمجراً من الجبال يقتلع معه الصخـور والشـجر، فمـلأ «دارو» حتى جانبي واديها، وقلع النواعير، وسبب دمار كل الحدائق. واندفعـت العاصفة حتى داخل المدينة لتغرق المنازل بسكانها، حتى ساحة المسجد الجـامع، فاندفع الناس إلى الجوامع طلباً لرحمـة ا لله، وهـم يـرون في هـذا التغـير في الجـو مجلبة لكل دمار. وحسب المؤرخ العربي «المقري»[23]، كانت هذه صورة من صور الحرب المتعددة التي أدت إلى سقوط المملكة الإسلامية في غرناطة.

---

(23) : صاحب (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب).

- المترجم -

الحمراء

AL - HAMBRA

قصـــة

«أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس وأسبانيا»

تأليـــف

واشنطن ايرفينغ

« القسم الثاني »

ترجمـــة

عبد الكريم ناصيف



حكاية

المنجم العربي

في غابر الزمان ، كان هناك ملك عربي يحكم غرناطة يدعى ابن حبوس تقدمت به السن بعد أن كان فاتحاً كبيراً ، عاش شبابه كله معارك وصراعات دائمة...ولكنه وقد شاخ، بات ضعيفاً «ينشد الراحة» ولا يرغب بأكثر من أن يعيش بهدوء وسلام مع العالم كله، ناعماً بانتصاراته السابقة، مستمتعاً بما وضع يده عليه من ممتلكات جيرانه. لكن حدث ان كان يحيط بهذا الحاكم الراغب بالسلام والهدوء منافسون شبان، امراء مفعمون بما كان يملأ صدره في شبابه من طموح للشهرة وحب للقتال وكان اكثر ما يسعدهم أن يطلبوه لتقديم الحساب عن كل ما فعله بآبائهم. عدة مناطق بعيدة من بلاده تلك التي كانت أيام عزه يديرها بقوة مسيطراً مهيمناً، غدت ميالة لشق عصا الطاعة عليه، حين رأته يميل للراحة والدعة، بل وتهدده بأن تغزوه في عقر داره. من كل جانب، كان الاعداء يحيقون به، ولما كانت غرناطة محاطة بالجبال الوعرة الجرداء التي تخفي اقتراب

الاعداء، فقد اضطر ابن حبوس التاعس الحظ لأن يظل في حالة دائمة من التنبه واليقظة. دون أن يعلم من اي اتجاه يمكن ان يهاجمه الاعداء. عبثاً اقام ابن حبوس ابراج مراقبة في الجبال. وضع حراساً على الممرات ومعهم الأوامر باشعال النار في الليل واطلاق الدخان في النهار إذا ما اقترب أي عدو. فاعداؤه اليقظون كانوا يخترقون احتياطاته كلها وينفذون من ثغرة من دفاعاته لم تخطر له ببال ليهاجموا أراضيه تحت سمعه وبصره ناهبين سالبين، مدمرين مخربين، عائدين بأسراهم وغنائمهم إلى الجبال. فهل كان هناك فاتح ينشد السلام والراحة اسوأ حالاً ...؟

في تلك الحال من الازعاجات والقلاقل، وصل إلى بلاط ابن حبوس حكيم عربي عجوز، لحيته البيضاء تنزل الى حزامه، سيماه تحمل كل علائم الشيخوخة والكبر، مع ذلك كان قد قطع الطريق كله من مصر إلى غرناطة مشياً على القدمين، دون مساعدة إلا من عصا عليها كتابات هيروغليفية. شهرته كانت قد سبقته. اسمه ابراهيم ابن أيوب يعيش كا يقال منذ أيام محمد وهو ابن أيوب آخر صحابيي الرسول عليه السلام. التحق، وهو غلام صغير، بعمرو بن العاص، حين دخل بجيشه الفاتح مصر؛ وهناك بقي سنين كثيرة يدرس العلوم السوداء، وخاصة السحر والتنجيم على ايدي الكهنة المصريين.

زيادة على ذلك، يقال انه توصل إلى السر الخطير: سر إطالة الحياة، الأمر الذي جعله يطيل عمره حتى ناف على القرنين، لكنه لم يكتشف ذلك السر إلا وقد تقدمت به السن فلم يستطع إلا أن يستمر بشعره الاشيب وتجاعيد وجهه.

هذا الرجل العجيب لقي كل ترحاب وتكريم من الملك الذي بدأ ككل الحكام المسنين يولي الحكماء والأطباء عظيم رعايته ووافر عطفه. بل لقد خصص له جناحاً في قصره، غير أن الحكيم المنجم فضل أن يعيش في كهف من كهوف الرابية التي تطل على مدينة غرناطة ، ظل على حاله مذ بنيت الحمراء هناك. كل ما طلبه هو توسيع ذلك الكهف ليغدو قاعة رحبة فخمة، في أعلاها ثقب دائري يمكن من خلاله تأمل النجوم حتى في عز النهار، جدرانها نقشت بالكتابات الهيروغليفية ذات الرموز والاشارات وبينها رسمت اشكال النجوم والصور. كذلك، جهزت تلك القاعة بالكثير من الأدوات التي صنعها، بتوجيهاته، صناعيو غرناطة المهرة، لكن دون أن يعرف خصائصها الغامضة سواه.

خلال فترة وجيزة، أصبح الحكيم ابراهيم المستشار الأكثر حظوة لدى الملك، يقدم له النصيحة والمشورة في كل أمر وطارىء. ذات يوم اشتكى ابن حبوس، من جور جيرانه كما تذمر من القلق والسهر وشدة اليقظة التي كان عليه ان يتسلح بها لرد غاراتهم وغزواتهم. حين انتهى من شكواه ظلّ المنجم صامتاً هنيهة من الزمن، بعدئذ أجاب:

ـ اعلم ايها الملك انني حين كنت في مصر شاهدت اعجوبة عظيمة صنعتها كاهنة وثنية من كاهنات ايام زمان، فقد اقيم على قمة جبل، يطل على مدينة برصة وعلى وادي النيل العظيم تمثال كبش فوقه تمثال ديك كلاهما من النحاس المصهور، يدور على محور. في أي وقت يهدد البلاد خطر الغزو، يدور الكبش على محوره باتجاه الخطر الداهم، فيما يبدأ الديك بالصياح، عند ذاك يعرف سكان المدينة بالخطر وبالجهة التي يقترب منها. وفي الحال يتخذون استعداداتهم للوقوف في وجهه. «الله أكبر»، هتف ابن حبوس الميال للسلام والهدوء «أي كبش ثمين سيكون ذلك الكبش وهو يحرس هذه الجبال من حولي فلا تفوته شاردة ولا واردة !! أي ديك رائع سيكون ذلك الديك وهو يصيح حين يدهمنا أي خطر !! الله اكبر !! كم سأنعم في قصري بالطمأنينة والسلام، إذا ما وجد حرس كأولاء على الذرى هناك.» تريث الحكيم قليلاً، ريثما خفت نشوة الملك، ثم تابع: «وبعد أن أكمل عمرو المظفر فتوحه لمصر. مكثت بين الكهان هناك، ادرس شعائر عباداتهم وطقوسها وأسعى لأن أجعل من نفسي سيد المعرفة السرية التي اشتهروا بها منذ قديم الزمان. ذات يوم، كنت جالساً على ضفة النيل أحاور كاهناً قديماً عندما اشار بيده إلى الاهرامات العظيمة التي كانت تنتصب كالجبال في الصحراء القريبة ثم قال: «ما يمكننا ان نعلمك إياه كله ليس بشيء مقارنة بالمعرفة الحبيسة في تلك الصروح الهائلة. ففي القلب من الهرم الرئيسي ذاك، ثمة حجرة منحوتة في قلب الصخر ـ وفي لب تلك الحجرة، ثمة مومياء للكاهن الاعلى الذي ساعد في رفع ذلك الصرح العظيم، وقد دفن معه كتاب عجيب فيه المعارف واسرار السحر وفنونه كلها. ذلك الكتاب هو الذي أعطي لآدم عند هبوطه من الجنة ثم تناقلته الايدي جيلاً بعد جيل حتى سليمان الحكيم، وبمساعدته تم بناء هيكل سليمان في القدس. أما كيف وصل الى ايدي باني الاهرام ذاك فأمر لا يعرفه إلا هو وحده العالم بكل شيء».

عندما سمعت تلك الكلمات عن الكاهن المصري، خفق قلبي شوقاً لامتلاك ذلك الكتاب، ولحسن الحظ كان باستطاعتي أن أطلب خدمات الكثير من جند جيشنا الفاتح وكذلك عدد من ابناء البلد المصريين. وهكذا انطلقت إلى العمل، تغلغلت في تلك الكتلة الصلدة للهرم إلى ان توصلت، بعد الكثير من الجهد والعناء، إلى احد ممراته الداخلية الخفية. تبعت ذلك الممر، منسلاً صاعداً متاهة مخيفة إلى ان نفذت إلى قلب ذلك الهرم، بل بلغت الحجرة المنحوتة في الصخر ذاتها، حيث كانت مومياء الكاهن الاعظم ترقد منذ قرون. كسرت الاطر الخارجية التي تضم تلك المومياء، ثم فككت اللفائف والعصائب الكثيرة التي تلفها إلى أن وصلت أخيراً إلى المجلد الثمين الذي يرقد على صدره. أمسكته بيد راعشة، ثم انسللت عبر الممر الذي يقودني خارج الهرم، مخلفاً ورائي المومياء في ضريحها الصامت المعتم تنتظر هناك يوم البعث والقيامة.

«يابن أيوب الحكيم» هتف ابن حبوس: «أنت رحالة عظيم، شاهدت العجائب، لكن ما تراه يفيدني سر الهرم وكتاب المعرفة ذاك، كتاب سليمان الحكيم» «هو الذي يفيدك أيها الملك!! إنني بدراستي لذلك الكتاب، برعت في فنون السحر كلها وصار باستطاعتي أن أستمد العون من الجن وأتخذ كل ما أبتغيه من خطط. سر تعويذة برصة أعرفه أيها الملك، ومثل تلك التعويذة يمكن أن أصنعْ وهو امر ذو فضائل عظيمة».

« يا بن ايوب الحكيم » صرخ ابن حبوس هاتفاً ' «تعويذة كهذه خير من ابراج المراقبة المنتشرة على الجبال كلها وخير من كل ما هنالك من حراس منتشرين على الحدود. اعطني مثل ذلك الحارس الامين، وكل ما أملك من كنوز سيكون رهن امرك»، وهكذا، تلبية لرغبة الملك انطلق المنجم الى العمل في الحال آمراً بنصب برج عظيم في أعلى القصر الملكي الذي كان ينتصب بدوره على حافة رابية «البائسين». لقد شيدوا البرج من حجارة جاؤوا بها من مصر بل يقال انهم أتوا بها من أحد الاهرامات. في الجزء العلوي من البرج، كانت هناك قاعة دائرية ذات نوافذ مفتوحة على جميع الجهات. امام كل نافذة كان هناك طاولة اشبه برقعة شطرنج، رُتب عليها جيش من تماثيل على رأسه تمثال للملك الحاكم، وقد صنع الكل من خشب. على كل طاولة من تلك الطاولات كان هناك رمح صغير لا يزيد حجمه عن دبوس شعر، وقد نقشت عليه عدة كتابات كلدانية، وكانت تلك

القاعة مغلقة باستمرار بباب من النحاس ذي قفل كبير من فولاذ، مفتاحه لدى الملك وحده.

في أعلى البرج كان ثمة تمثال برونزي لفارس عربي مثبت على محور، في يده ترس، وفي اليد الأخرى رمح مسدد إلى الأعلى، وجه الفارس متجه الى المدينة، كما لو أنه يقف حارساً عليها، لكن إذا ما اقترب أي عدو استدار الفارس في ذلك الاتجاه ووجه رمحه وكأنه يأمر بالانطلاق إلى الدفاع.

حين اكتملت تلك التعويذة كان ابن حبوس متشوقاً كل التشوق لاختبار فعاليتها، تائقا كل التوق لأن يأتي غزو من تلك الغزوات التي كان يشكو منها، وسرعان ما لبيت رغبته، فذات صباح جاء الحارس المكلف بمراقبة البرج قائلاً: ان وجه الفارس البرونزي قد استدار باتجاه جبال الفيرا وان رمحه مسدد مباشرة نحو ممر«لوب». «مُر بقرع الطبول ونفخ الابواق وإعلان النفير في غرناطة» قال ابن حبوس لكن المنجم قال:

«ايها الملك، لا تدع مدينتك تضطرب ولا محاربيك يقلقون وينفرون للسلاح. فما نحن بحاجة للمساعدة من أية قوة عسكرية لتخليصك من اعدائك. اصرف اتباعك ولنذهب بمفردنا إلى قاعة البرج السرية».

في الحال، اسرع ابن حبوس الشيخ يصعد درج البرج، مستنداً على ذراع ابراهيم بن ايوب الاكبر سناً والأكثر شيخوخة. فتحا الباب النحاسي ثم دخلا فوجدا النافذة المطلة على ممر «لوب» مفتوحة، «في هذا الاتجاه يكمن الخطر»، قال المنجم«تقدم ايها الملك وانظر سر الطاولة».

اقترب ابن حبوس من الطاولة الاشبه برقعة الشطرنج، والتي صفت فوقها التماثيل الخشبية الصغيرة، ولشدة دهشته لاحظ انها كلها في حالة حراك. الخيول تتواثب وتتقافز، المقاتلون يشهرون اسلحتهم، فيما ينطلق صوت خافت كأنه قرع طبول ونفخ ابواق وصليل سلاح وصهيل خيول. لكن دون أن تكون كلها أعلى صوتاً وأكثر تميزاً من طنين نحلة أو فراشة صيف في أذن رجل غاف وقت القيلولة في ظل خميلة.

«انظر أيها الملك» قال المنجم «هوذا البرهان على ان اعداءك في الميدان الآن. انهم يتقدمون في جبالك، عبر ممر «لوب» فهل ترغب في أن تثير الرعب والهلع في صفوفهم وتدفعهم للتراجع دون ان تزهق روحاً؟ إذن، اضرب هذه التماثيل بعقب

هذا الرمح المسحور، اما إن اردت ازهاق ارواح وإراقة دماء فاضرب برأسه». دهشة تامة طغت على محيا ابن حبوس، بعدئذ أمسك الرمح بيدٍ متشوقة راعشة، ثم مضى باتجاه الطاولة ولحيته البيضاء تهتز انتشاء وطرباً، بعدئذ هتف بنبرة ضاحكة «يا بن ابي ايوب، اظن انه لا بد من قليل من الدماء».

قال ذلك ثم طعن برمحه المسحور بعض التماثيل الخشبية وضرب بعقب الرمح بعضها الآخر، وللتو سقطت التماثيل الأولى جثثاً هامدة على الرقعة فيما استدار البقية بعضهم الى البعض الآخر وبنوع من الفوضى العجيبة شرعوا يقتتلون.

بصعوبةٍ شديدة، تمكن المنجم اخيراً من تثبيت يد الحاكم الذي كان أكثر الحكام ميلاً للسلام والهدوء حائلا بينه وبين إبادة خصومه إبادة تامة. بعد جهد جهيد، استطاع ان يقنعه بالخروج من البرج وارسال عناصر استطلاع الى الجبال عبر ممر «لوب».

حين عادوا كانت الأخبار سارة، فالجيش المسيحي، الذي كان قد تقدم الى قلب السلسلة الجبلية، حيث يمكن تقريباً رؤيته من غرناطة، نشب خلاف في صفوفه فوجه افراده اسلحتهم إلى نحور بعضهم بعضاً، وبعد أن ذبح الكثير منهم، عادوا وانسحبوا إلى ما وراء الحدود.

جن ابن حبوس فرحاً بذلك البرهان على فعالية التعويذة وقدراتها، فهتف «أخيراً، سأنعم بحياة هادئة وسيكون اعدائي كلهم في قبضة يدي. يا بن أبي أيوب الحكيم، ما عساي اقدم لك جزاء معروف كهذا؟» «ما يحتاجه فيلسوف عجوز ايها الملك، وحاجته ضئيلة بسيطة. هبني فقط ما اجهز به كهفي ليكون صومعة مناسبة لناسك، وأنا ارضى».

في قرارة نفسه، سر ابن حبوس كثيراً لذلك الطلب البسيط، داعياً للتو امين خزانته آمراً اياه بان يقدم لابراهيم كل مايطلب لتجهيز صومعته واستكمالها.

حينذاك اصدر المنجم أوامره بتجهيز حجرات عدة تحفر في قلب الصخر بحيث تشكل امتداداً للجناح المتصل بقاعة التنجيم، كما أصدر أوامره بأن تؤثث بفاخر المفارش والأرائك وان تغطى الجدران بأغلى الحرائر الدمشقية قائلاً «أنا رجل عجوز، لن تجد عظامي الراحة بعد الآن على الحجارة بل على الطنافس والمفارش. كما ينبغي ان تستر هذه الجدران الرطبة أنفس الستائر».

كذلك أمر بإقامة حمامات مزودة بكل انواع الطيوب والعطور قائلاً: لا بد من الحمام للوقوف في وجه الزمان وقسوة الشيخوخة، به يستعيد المرء طراوة الشباب وليونة الصبا التي ذهب بها العمر والكبر».

بعدئذ أمر بنصب قناديل لا تحصى من الفضة والبللور في الاجنحة كلها، كما أمر بإملائها بزيت عاطر يستحضره وفق وصفة اكتشفها في مدافن الفراعنة. ذلك الزيت دائم الاشتعال بطبيعته ينشر اشعاعاً لطيفاً كنور النهار اللطيف، «فضوء الشمس شديد وباهر لعيني عجوز مثلي، اما ضوء المصباح فأكثر راحة وملاءمة لدراسات فيلسوف. تذمر خازن بيت المال من المبالغ التي راح ابن أبي أيوب يطلبها يوماً بعد يوم لتجهيز صومعته، ثم نقل شكواه إلى الملك. لكن الملك كان قد قال كلمته فهز كتفيه قائلا « علينا بالصبر... فهذا العجوز استمد افكاره عن اعتزال الفلاسفة من داخل الهرم وآثار مصر العظيمة، لكن لكل شيء نهاية، ولسوف ينتهي من تأثيث كهفه ذات يوم».

والحقيقة، كان الملك على حق فالصومعة اكتملت اخيراً بعد أن غدت اشبه بقصر فخم تحت الأرض.

حينذاك ابدى المنجم رضاه تماماً ثم اغلق على نفسه الابواب ليمكث ثلاثة ايام بطولها مستغرقا في الدرس..

في نهاية الايام الثلاثة ظهر مرة أخرى أمام خازن بيت المال «ثمة شيء آخر أنا بحاجة اليه» قال ابن ابي أيوب.. « شيء سخيف تافه، لكنه قد يكون عزاء وراحة لي في فترات استراحتي من عملي الذهني ».

«اي ابراهيم الحكيم، أنا ملزم بأن أقدم لك كل ما تراه ضرورياً لمعتزلك فماذا تطلب؟»

«بضع نساء راقصات»

«نساء راقصات ! !» ردد الخازن باندهاش

«أجل نساء راقصات» أجاب الشيخ بكل حكمته ورصانته « وليكنّ صبايا غضات الإهاب، حسناوات الوجوه، فرؤية الوجه الحسن تنعش القلوب . قلة منهن تكفي، لأنني فيلسوف عاداته بسيطة ورضاه يسير».

وهكذا ، راح الفيلسوف ابراهيم بن ابي أيوب يقضي وقتـه في صومعتـه علـى ذلك النحو من الحصافة والحكمة فيما راح ابن حبوس الميال للهدوء والسلام يقـوم بحملات ساخطة على تماثيلـه الخشـبية في برجـه. وإنـه لأمـر رائـع بالنسـبة إلى عجوز مثله اعتاد الهدوء والسلام ان تغدو الحرب سهلة يسيرة وان يصبح بإمكانـه ان يتسلى في حجرته باكتساح الجيوش كلها وإبادتها وكأنها اسراب من ذباب.

حيناً من الزمن استغرق الملك في لعبته تلك فرحا مغتبطاً، بل انه كان يتفاخر على جيرانه ويوجه إليهم الاهانات عله يدفعهم لغزوه، لكنهم، شيئاً فشيئاً تعبّـوا وشيئا فشيئاً يئسوا مما لحق بهم من كوارث حتى غدوا وما من احد منهم يغامر في أن يغزو أراضيه. وهكذا، طوال اشهر عديدة، ظـل الفـارس الـبرونزي سـاكنا بـلا حراك ورمحه مسدداً نحو الأعلى فيما شرع الحاكم الشيخ يتذمر لافتقـاده رياضتـه التي اعتاد ممارستها ويبدي الضجر والملل من حياته الساكنة الرتيبة.

في النهاية ، دار الفارس ـ التعويذة ـ ذات يوم، وبشكل مفاجيء، على نفسه مسدداً رمحه نحو الاسفل، موجهاً إيـاه نحـو جبـال الـوادي الكبـير. أسـرع ابـن حبوس إلى برجه ، لكن الطاولة المسحورة في ذلك الاتجاه كانت ما تـزال سـاكنة لا حراك فيها لجندي أو فارس. ضرب من الحيرة أصابه، وللتو ارسل كوكبة مـن الفرسان لاستكشاف تلك الجبال، عادوا بعد ثلاثة أيام.

« بحثنا في كل ممر من ممرات الجبل» قـال لـه الفرسـان «لكننـا لم نـر أثـراً لخوذة او رمح يتحرك. كل ما رأيناه خلال استطلاعنا إنما هو فتاة مسيحية فائقـة الجمال نائمة وقت الظهيرة بجانب نبع ، فأتيناك بها أسيرة».

« فتاة فائقة الجمال !! » هتف ابن حبوس وعينـاه تشـعان نشـاطاً وحيويـة « ائتوني بها ».

بناء على الأمر، جيء بالفتاة الجميلة اليه فإذا بها ترفل بأفخر الحلـل تلـك التي كان يلبسها الاسبان في ذلك العصر الذي فتح فيـه العـرب تلـك البـلاد. لآليء بـاهرة الألـق كـانت تزيـن شـعرها لتشـكل نوعـاً مـن الطبـاق مـع جدائلهـا السوداء وجواهر تتدلى على جبينها، لايضاهيهـا بريقـاً إلا بريـق عينيهـا، وحـول عنقها كانت ثمة سلسلة من ذهب علق فيها غيتار يتدلى إلى جانبها.

لمعان عينيها السوداوين كان يشع كشرر النار المتطاير من قلب ابـن حبـوس الذي جففته الأيام واذبلته لكنه ظل قابلاً للاشتعال. ايحاءات المتعـة الـتي كـانت

تنداح من هيئتها جعلت حواسه كلها تصاب بـالدوار. «يـا أحسـن النسـاء» هتـف الملك منتشياً «من أنت وماذا أنت؟» «انا ابنة امير من امراء القوط كـان قبـل حـين من الزمن فقط يحكم هذه البلاد. جيوش ابي أبيدت بين هذه الجبـال وكـان ذلـك بفعل سحر، وقد أرسل إلى المنفى لتبقى ابنته بعده اسيرة».

«حـذار، أيهـا الملـك!!» همس ابراهيم بـن ابـي ايـوب. «قـد تكـون هـذه الفتاةواحدة مـن سـاحرات الشمال اللواتـي سمعنـا عنهـن واللواتـي يتخـذن اكـثر الهيئات اغواء ليوقعن في شباكهن الغافلين . صدقتي انـا أرى السحر في عينيهـا، والشعوذة في كل حركة من حركاتها. لا شك ان هذه هي العدو الذي اشـارت اليـه التعويذة».

«يا بن أبي أيوب» اجاب الملك «انت رجل حكيـم، وأعتقد انـك تعـرف مـا لست اعرف لكنك في شؤون النساء لا تعرف إلا القليل. وفي ذلـك الميـدان لا أسـلم قيادي لأحد، حتى لو كان سليمان الحكيم نفسه، رغم كل ما كان لديه من نسـاء ومحظيات. إنني لا أرى ضيراً من هذه الفتـاة، فهـي حسـناء تبهـج النـاظر وتسـر الخاطر وقد ارتاحت لها نفسي».

«اسمع ايها الملك» أجاب المنجم «قد حققت لك الكثير من الانتصارات بفضل تعويذتي، لكنني لم اشارك بأي من الغنائم التي غنمتها قط، فاعطني هذه الاسيرة الشريرة، علها تريحني في وحدتي وتخفف من وحشتي بغيتارها الفضـي ذاك،وان كانت ساحرة فعلاً ، كان لدي طلاسم مضادة أواجهها بها وأرد سحرها».

«ماذا؟ مزيد من النساء!!!» صاح ابن حبوس «ألم تأخذ من قبل مـا يكفيـك من النساء الراقصات كي يرحنك؟» «نساء راقصات أخذت، هـذا صحيـح، لكنـني لم آخذ مغنية واحدة. وبودي ان يكون لدي مغنيـة رخيمـة الصـوت تنعـش قلـبي وتريح ذهني بعد عناء الدرس وكده».

«لتنتهِ طلباتك أيها المتنسك» قال الملك نافد الصبر «هذه الفتاة لي، إنـي اجـد فيها راحتي، كما وجد داود، والد سليمان الحكيم ذاته، راحته في بتشـابع امـرأة أوريا، قائده».

حاول المنجم العجوز ان يدافع عن وجهة نظره لكن الملك لم يزدد إلا تمسـكاً بالفتاة، فافترقا على ضيق وانزعاج. ذهب الحكيم إلى معتزله ليحبس نفسه هنـاك وكله شعور بالمرارة والخيبة. مع ذلك، كان قبل ان يفارق الملك، قـد حـذره لآخـر

مرة من اسيرته الخطيرة. لكن انى للعجوز الذي وقع في الغرام ان يصغي للنصيحة؟. لقداسلم ابن حبوس نفسه لغرامه وهواه.

همه الوحيد: كيف يعد نفسه للمحبوبة وكيف يجعلها تقبل به وتحبه هي التي تجسد الجمال القوطي. صحيح انه لم يكن يملك الشباب الذي يقربه منها، لكنه كان يملك الثروة ، وحين يكون المحب كبيراً في السن يكون بالغ السخاء عادة. اسواق غرناطة فتشوها بحثاً عن أنفس بضائع الشرق: الحرير، الجواهر، الدرر، العطور النادرة وكل ما تنتجه افريقيا وآسيا من ثمين ونادر جيء به إلى الأميرة. المهرجانات بأنواعها، الاحتفالات كلها اقيمت لتسلية الاميرة: غناء، رقص، مبارزات، مباريات ـ فقد تحولت غرناطة حيناً من الزمن إلى حلبة للمرح واللهو الدائمين. كانت الاميرة تنظر إلى تلك الروائع كلها بعين المعتادة الأليفة، بل كانت تتقبل ذلك كله وكأنه بعض فروض الولاء والاعجاب التي يفرضها مركزها او بالأحرى جمالها، فالجمال إذا ما اكتمل اكثر رفعة من كل مركز او مرتبة. اجل..كانت الاميرة تبدو وكأنها تستمتع سراً بدفع الحاكم لأن ينفق ويجعل خزانته تنضب. ومن ثم تتعامل مع سخائه المفرط وكأنه امر مفروغ منه.

لقد حاول الرجل بكل ما لديه من حذق وبراعة ان يتقرب منها لكن عبثاً، فقد أخفق في ترك اي اثر في قلبها. لم تكن تعبس في وجهه، هذا صحيح ، لكنها لم تبتسم له قط، وحينما كان يبثها لواعج نفسه كانت تشرع في الحال بالعزف على غيتارها الفضي، وكأنما هناك سحر غامض في ذلك الصوت. كان الحاكم، وخلال لحظة واحدة، يبدأ بالنوسان نعاساً، ثم يغلب عليه النوم وشيئاً فشيئاً يغرق في سبات عميق يفيق منه نشيطاً مفعماً حيوية ، على نحو يثير العجب والحيرة، لكن هادئاً بارد العواطف حيناً من الزمن . وغالباً ما كان نومه يترافق بأحلام سارة تملأ صدر العاشق المتيم غبطة وراحة. وهكذا راح ابن حبوس يعيش على احلامه، فيما بدأت غرناطة كلها تتذمر من حالته تلك وتشكو من تبديده الاموال على المغنية والغناء.

أخيراً ، داهم الخطر ابن حبوس، ذلك الخطر الذي لم تستطع تعويذته تحذيره منه، فقد قامت ثورة في عاصمته نفسها: إذ أحاط بقصره جمع من الغوغاء المسلحين الذين هددوه بالموت هو ومعشوقته المسيحية. استيقظت في نفس الحاكم البقية الباقية من روح الحرب، وعلى رأس حفنة من رجاله اندفع خارج القصر جاعلاً الغوغاء يولون الادبار، قاضياً على الثورة في المهد. حين عاد الهدوء

إلى المدينة، بحث الملك عن المنجم الذي كان ما يزال حابساً نفسه في صومعته يجتر مرارة الندامة.

دنا منه ابن حبوس بسيما المصالحة قائلاً «يا بن أبي ايوب الحكيم لقد تنبأت فأحسنت التنبؤ بالاخطار التي ستجرها علي تلك الحسناء الأسيرة. اخبرني الآن، انت ايها البارع في التكهن بالأخطار، ما ينبغي ان أفعل كي أرد تلك الأخطار».

«اترك تلك الفتاة الكافرة وابتعد عنها، فهي سبب كل خطر» «إذن قل لي اترك مملكتك وابتعد عنها» صرخ ابن حبوس. «انك ستفقدهما: المملكة والفتاة كلتيهما» اجاب المنجم «لا تكن قاسياً ولا تغضب، يا اشد الحكماء حكمة. انظر إلى الكارثة المزدوجة التي تنتظرني كحاكم وعاشق، وهيء الوسائل لحمايتي من الشرور التي تهددني. أنا لا أبالي بالمجد، لا أبالي بالسلطان، كل ما انشده هو الراحة.فهل يتسنى لي ذلك في معتزل هادىء ابتعد فيه عن الدنيا وهمومها، مشاكلها ومنغصاتها، مكرسا بقية حياتي للهناءة والحب؟».

هنيهة من الزمن تفحصه المنجم بنظرات ثاقبة من عينين اشتد حاجباهما كثافة وابيضاضاً.

«وماذا تعطيني ان وفرت لك ملاذاً كهذا؟».

«قل انت ما تريد من أعطية. واياً كانت، طالما هي في حدود طاقتي وانا حي، ستكون لك».

«هل سمعت أيها الملك بحديقة إرم احدى عجائب البلاد العربية السعيدة؟».

«اجل، سمعت بها، فقد ذكرت في القرآن، بل ذكرت في سورة «الفجر» وأكثر من ذلك فقد سمعت عجائب عنها يرويها الحجاج الذين يزورون مكة، لكنني كنت احسبها نوعاً من الخرافات يحكيها الحجاج شأن كل الرحالة الذين يزورون بلداناً نائية».

« لا تستهن، ايها الملك، بحكايات الرحالة » عقب المنجم بنبرته الرصينة.

«ففيها نوادر ومعارف لا تقدر بثمن يأتون بها من اطراف الأرض، اما بالنسبة إلى قصر إرم وحديقتها فإن كل ما سمعته صحيح. لقد رأيتهما بأم عيني...اسمع مغامرتي فهي ذات علاقة بصميم طلبك.

في صباي، عندما كنت مجرد اعرابي في الصحراء، كنت أرعى ابل والدي. ذات يوم، ولدى عبوري صحراء عدن، ضل واحد من تلك الابل وضاع . أياماً عدة بحثت عنه، لكن عبثا، بحثت حتى كللت، فأسلمت نفسي لقيلولة نمت فيها نوما عميقا ، ناعماً بأنسام عليلة في فيء شجرة نخيل تنتصب قرب بئر من تلك الآبار النادرة. حين افقت وجدت نفسي على بوابة مدينة. دخلت فرأيت شوارع جميلة، ساحات واسواقاً، لكنها كلها صامتة ساكنة ما فيها صافر نار. هناك تجولت إلى ان وصلت إلى قصر باذخ تحيط به حديقة مزينة بالنوافير واحواض الاسماك، الورود والأزهار ، أيك الشجر والبساتين التي تتدلى منها أشهى الثمار ، مع ذلك لم يكن هناك صافر نار.ذلك الخواء افزعني والوحشة بعثت الرعب في قلبي، فأسرعت اغادر، لا ألتفت إلى شيء إلى ان بلغت البوابة، عند ذاك التفت ورائي فلم أر شيئاً من كل ما كان ، لا شيء، سوى الصحراء الساكنة الممتدة امام عيني.

في مكان قريب التقيت بدرويش عجوز خبير بأسرار ذلك المكان وتراثه. رويت له ما حدث لي فأجاب: «هذه هي حديقة إرم الذائعة الصيت، احدى اعاجيب الصحراء. إنها لا تظهر إلا بعض الاحايين لمتجول مثلك، تسره وتبهجه بمنظر الابراج والقصور واسوار الحديقة التي تتدلى من فوقها ثمار الاشجار الوافرة، ثم تختفي دون ان تترك وراءها شيئاً غير قفر الصحراء، وهذه قصتها: «في غابر الزمان، حين كان قوم عاد يسكنون تلك البلاد ، قام الملك شداد بن عاد،حفيد حفيد نوح، ببناء مدينة رائعة. حين انتهت ورأى شداد ما صارت عليه من روعة وعظمة، ملأ صدره الغرور والزهو، فقرر ان يبني قصراً ملكياً وينشىء حدائق تضاهي كل ما ذكره القرآن عن جنان السماء. لكن لعنة السماء نزلت عليه بسبب ذلك الغرور والزهو فمسح هو ورعيته عن وجه الأرض، اما مدينته الرائعة وقصره وحدائقه فقد بقيت مسحورة بطلسم ابدي يخفيها عن عيون البشر إلا من يراها من حين إلى حين ولغاية واحدة هي التذكير الدائم بإثم ذلك المغرور الصلف.

تلك القصة، ايها الملك، والاعاجيب التي رأيتها ظلت كامنة في ذهني...بعد سنين، وعندما كنت في مصر، وقد تملكني هاجس كتاب المعرفة، كتاب سليمان الحكيم، قررت ان أعود مرة ثانية فأزورحديقة إرم، ولقد فعلت ذلك، فوجدتها وقد تكشفت لعيني المفعمتين معرفة وخبرة. وضعت يدي على قصر شداد وقضيت أياماً عدة في كنف جنته. الجن الذين يقيمون على حراسة المكان كانوا طوع

بناني، فكشفوا لي الطلاسم التي تقع الحديقة كلها تحت سحرها ، وكيف يمكن، إن جاز القول، اظهارها إلى الوجود او إخفاؤها فلا تراها عين. مثل تلك الحديقة والقصر، ايها الملك، يمكنني أن اصنعهما، ان اعدهما لك على الجبل المطل على المدينة. ألست العارف بكل الطلاسم والأسرار؟ ثم ألست أنا من يملك كتاب المعرفة، كتاب سليمان الحكيم؟».

« يابن ابي ايوب الحكيم »، هتف ابن حبوس وهو يرتعش انفعالاً وشوقاً «أنت رحالة بالحقيقة وقد رأيت وعرفت عجائب وغرائب، اصنع لي مثل ذلك الفردوس واطلب اية مكافأة تريد حتى لو كانت نصف مملكتي». «واأسفاه» أجاب الآخر «أنت تعلم انني مجرد رجل عجوز، مجرد فيلسوف يرضى بالقليل. كل ما اطلبه من مكافأة هو أن يكون لي، أول دابة بحملها تدخل البوابة المسحورة لذلك القصر».

بسرور بالغ وافق الحاكم على ذلك الطلب البسيط، وفي الحال بدأ المنجم عمله. وهكذا على ذروة الرابية، مباشرة فوق صومعته الواقعة تحت الأرض، أمر بنصب بوابة عظيمة تنفتح وسط برج متين.

هناك شيّد بهو خارجي ذو قنطرة عالية تحتها بوابة ضخمة. على حجر العقد لتلك البوابة ، نقش المنجم بيده ، صورة لمفتاح ضخم، وعلى حجر العقد لقنطرة البهو الخارجي، الأعلى من حجر البوابة، نقش يداً ضخمة أيضاً. على تلك الطلاسم القوية قرأ الكثير من العبارات بلغة لا يعرفها احد. وحين اكتملت تلك البوابة، حبس نفسه في قاعته الخاصة بالتنجيم طوال يومين كاملين، مستغرقاً في تلاوة التعاويذ والرقى. في اليوم الثالث صعد الرابية، امضى النهار كله على ذورتها وفي ساعة متأخرة من الليل نزل السفح ماثلاً امام ابن حبوس قائلاً له : «أخيراً، أيها الملك، أكملت عملي. على ذروة الرابية، ينتصب قصر من اروع القصور التي صممها رأس انسان، او رغب فيها قلب انسان. انه يحتوي على صالات فاخرة وأبهاء باهرة، حدائق ماتعة ونوافير مياه باردة وحمامات معطرة. بعبارة موجزة ، لقد تحول الجبل كله إلى فردوس، وهو ، مثل جنة ارم، يحميه طلسم قوي يخفيه عن أبصار الناس الفانين، إلا من كان منهم يملك سر طلاسمه».

«حسبك» هتف ابن حبوس فرحا، «غداً ، مع أول اشعة الفجر، نصعد إليه ونستولي عليه». تلك الليلة لم ينم الحاكم السعيد إلا لماماً. وما ان بدأت اشعة الفجر الأولى بالتسلل إلى ذرى سلسلة السيرا المغطاة بالثلوج، حتى امتطى حصانه،

لا يرافقه إلا عدد مختار من حاشيته، صاعداً الطريق الضيق شديد الميل، نحو قمة الرابية . إلى جانبه، وعلى جواد صغير ابيض، كانت الاميرة القوطية يتلألأ ثوبها كله بالجواهر، بينما تتدلى من عنقها قيثارتها الفضية. إلى الجانب الآخر كان المنجم يمشي، تسند خطاه عكازه المزينة بالاحرف الهيروغليفية ، فهو لم يركب ظهر دابة من أي نوع كان.

حدق ابن حبوس بناظريه عله يرى ابراج القصر المتلألئة فوقه، ومصاطب حدائقه المخضرة الممتدة على طول الذروة لكنه لم ير شيئاً أياً كان . «ذلك هو سر القصر وضمانته» قال المنجم « إذ لا يمكنك رؤية شيء حتى تعبر البوابة المسحورة وتصبح داخل المكان ».

حين اقتربوا من البوابة، توقف المنجم، مشيراً إلى الملك دالاً على اليد والمفتاح الغامضين المنقوشين على قوس البوابة، قائلا ، هذه هي التعويذة التي تحرس مدخل هذا الفردوس، وإلى ان تصل تلك اليد هناك وتمسك بذلك المفتاح، ما من قوة بشرية ولا فن من فنون السحر يمكنه ان يغلب سيد هذا الجبل».

شرع ابن حبوس يحدق فاغر الفم جاحظ العينين إلى تلك التعويذة السحرية. في الوقت نفسه تابع جواد الاميرة الصغيرة سيره، داخلاً بها البوابة إلى قلب الحصن الامامي.

«انظر» صاح المنجم ملء صوته «هي ذي مكافأتي الموعودة. اول دابة بحملها تدخل البوابة المسحورة».لكن ابن حبوس ابتسم معتبراً الامر كله مجرد دعابة من الشيخ العجوز، ثم ما ان رأى انه جاد تماماً حتى راحت لحيته المبيضة ترتعش غيظاً وحنقاً.

«يا بن ابي ايوب» قال أخيراً عابساً « أية خدعة هذه؟ انك تعلم المغزى الحقيقي لما وعدتك به: أول دابة ذات حمل تدخل هذه البوابة مع حملها. خذ أقوى بغل من بغالي، حمّله أغلى ما لدي من كنوز نفيسة، وهو لك، لكن لا تتجرأ على التفكير بها ولا تتطاول على من هي ارفع منك، اميرتي وبهجة قلبي».

«وما حاجتي للمال!» رد المنجم باحتقار «اليس لدي كتاب سليمان الحكيم بكل ما فيه من معرفة؟ الست اتحكم من خلاله بكل ما في الأرض من كنوز خفية؟ الاميرة من حقي لا من حقك انت يا من قلت كلمتك الملكية. إنها لي أنا».

بترفع شديد نظرت الاميرة إلى الاسفل من فوق جوادها الصغير، وعلى شفتيها الورديتين ابتسامة ازدراء خفيفة لذلك النزاع بين الرجلين الاشيبين على امتلاك الشباب والجمال. حنق الحاكم وغيظه تفوقاً على حكمته وحنكته فصرخ ملء صوته «يا بن الصحراء الوضيع، ربما تكون السيد المسيطر على كثير من الفنون، لكن اعلم انني أنا سيدك ومليكك وعليك ان لا تتطاول على سيدك ومليكك».

«سيدي!! ؟ مليكي!!؟ » ردد المنجم كالببغاء «حاكم تلّة كتلّة ـ الخلد يزعم انه سيد من يملك طلاسم سليمان ومليكه!!؟ وداعاً، ابن حبوس!! احكم مملكتك الصغيرة واستمتع بفردوسك، فردوس الحمقى والأغبياء، اما انا فسأسخر منك وانا في معتزلي الفلسفي».

قال ذلك وهو يمسك بلجام الجواد الصغير، ثم ضرب الأرض بعكازه فغاص مع الاميرة في قلب الحصن الامامي. لقد انشقت الأرض وابتلعتهما ثم عادت فانغلقت عليهما دون ان يبقى لهما أثر.

حيناً من الزمن وقف ابن حبوس وقد عقد الذهول لسانه. لكن ما إن افاق من ذهوله حتى جاء بألف عامل آمراً إياهم ان يحفروا الأرض بالمعاول والرفوش، علهم يجدون المنجم الذي اختفى. حفر العمال وحفروا لكن عبثاً، فالطبقات الصوانية لأرض الرابية كانت تقاوم معاولهم، وإذا ما استطاعوا مرة ان يتغلغلوا قليلاً كانت الحفر تمتلىء بالتراب من جديد كلما ألقوه خارجاً. بحث ابن حبوس عن فوهة المغارة اسفل الجبل ، تلك التي تؤدي إلى قصر المنجم الذي اقامه تحت الأرض ، غير انه لم يجد شيئاً قط. فحيث كان المدخل ذات يوم، كانت صخرة هائلة ذات سطح املس تقوم هناك. مع اختفاء ابراهيم ابن ابي ايوب ، توقف الانتفاع بتعويذته ، إذ غدا الفارس البرونزي ساكناً لا حراك فيه، وجهه يتجه نحو الرابية ورمحه يشير إلى النقطة التي غاب فيها المنجم، كما لو أن هناك اشد اعداء ابن حبوس عداوة وفتكاً.

من حين إلى حين بات بإمكان الناس ان يسمعوا لحناً موسيقياً ونغمة صوت انثوي وهما يأتيان خافتين من قلب الرابية، بل إن احد الفلاحين جاء ذات يوم ليقول للملك انه في الليلة الفائتة رأى شقاً في الصخرة فانسل عبره إلى ان تمكن من رؤية القاعة المبنية تحت الأرض حيث كان المنجم يغفو على أريكة وثيرة ورأسه

ينوس على انغام القيثارة الفضية للأميرة التي بدت وكأنها قد سيطرت كل السيطرة على عقله وحواسه.

اسرع ابن حبوس يبحث عن شق الصخرة ذاك ، لكنه كانٍ قد انغلق من جديد، ومن جديد أمر بحفر الأرض والبحث عن غريمه لكن عبثاً. فتعويذة اليد والمفتاح كانت اقوى بكثير من ان تلغيها قوة بشرية. أما بالنسبة إلى ذروة الجبل، حيث يقع القصرٍ والحديقة الموعودان ، فقد بقيت جرداء مقفرة، إما لأن الفردوس الموعود كان خفياً يحجبه السحر عن النظر او انه كان مجرد وهم من اوهام المنجم. لحسن الحظ كان الناس يعتقدون بالاحتمال الاخير، وقد اعتاد بعضهم ان يدعو المكان باسم « وحماقة الملك » فيما دعاه آخرون «فردوس الأحمق»، ولكي يزيدوا من هم ابن حبوس وغمه، فإن الجيران الذين كان قد تحداهم وتبجح عليهم وفعل بهم الاعاجيب حين كانت تحميه الطلاسم والسحر، راحوا يغيرون عليهٍ ويغزون بلاده من كل جانب، لتغدو البقية الباقية من حياة اكثر الحكام ميلاً للسلام والهدوء، ملأى بالحروب والاضطرابات.

أخيراً، مات ابن حبوس ثم مرت عصور وشيد قصر الحمراء على ذلك الجبل المليء بالاحداث، وبشكل تتحقق معه المباهج الخرافية التي تعد بها جنة إرم، لكن البوابة التي نقش عليها الطلسم ما تزال قائمة بكاملها، تحميها ولا شك اليد والمفتاح السحريان، وتسمى الآن بوابة العدالة وهي المدخل الرئيسي للقلعة. تحت تلك البوابة ، كما يقال، ما يزال المنجم العجوز في قاعة تحت الأرض ينوس برأسه غافياً على انغام القيثارة الفضية وصوت الأميرة الرخيم.

وعلى ذمة الحراس المسنين غير الصالحين للخدمة العسكرية الذين يقومون بحراسة تلك البوابة، فإنهم يسمعون أحياناً تلك الانغام خاصة في ليالي الصيف، فيستسلمون لقوتها الساحرة ويغفون هادئين هانئين في مراكز حراستهم.

ليس هذا فحسب بل إن ذلك النعاس والاستسلام لسلطان النوم يطغى على المكان كله، إذ حتى اولئك الذين يحرسون في النهار يمكن ان تراهم وهم ينوسون برؤوسهم غافين على المقاعد الخشبية في الحصن الأمامي، أو نائمين تحت الاشجار المجاورة. انه بالحقيقة اكثر امكنة الحراسة في المملكة المسيحية كلها إغراء بالنوم. وهذا كله سيستمر، كما تقول الحكايات القديمة، من عصر إلى عصر. فالاميرة ستبقى أسيرة المنجم حتى يوم القيامة، ما لم تقبض اليد المسحورة على المفتاح المصيري وتفك السحر عن ذلك الجبل المسحور.

ملاحظة حول
المنجم العربي

يذكر المَقري في كتابـه: «تـاريخ السـلالات الاسـلامية في اسـبانيا» نقـلاً عـن كاتب عربي آخر، رواية عن تماثيل خشبية طلسمية مشابهة بشكل مـن الاشكال للرواية المذكورة هنا.

إذ يقول: « في الايام السابقة كان ينتصب في قادش برج مربع ارتفاعـه مائـة ذراع وقد بني من كتل ضخمة من الصخر تشدها إلى بعضها ملازم من النحاس. في أعلاه تمثال رجل يمسك عصا بيده اليمنى ويتجه نحـو المحيـط الاطلسـي مشيراً بسبابة يسراه إلى مضيق جبل طارق. ويقال انه أقيم في الايام الغابرة من قبل ملوك القوط الاندلسيين كفنار او مرشد للملاحين. أما مسلمو البربر والاندلس فقد اعتبروه تعويذة لها فعل السحر على البحار. بهدايتها، كـانت حشـود القراصنـة مـن أمـة

المجوس تظهر على الشاطىء بمراكب ضخمة ذات أشرعة مربعة عند قوس المركب واخرى عند الدفة ، وكانوا يأتون كل ست سنوات او سبع، ينهبون كـل مـا تقـع ايديهم عليه، ثم بهدايتها يعبرون المضائق إلى البحر الأبيض المتوسط، ينزلون على شواطىء الاندلس، ويعملون السيف والنار في كل شـيء هنـاك وفي بعـض الأحيـان يحملون نهبهم وسلبهم إلى الشواطىء المقابلة ، بعيداً حتى سوريا.

أخيراً، يقال انه في احدى الحروب الاهلية وضع قائد مسلم يده على قادش وحين سمع ان التمثال الموجود في أعلى البرج هو من الذهب الخالص، قام بإنزاله إلى الأرض وتحطيمه قطعة قطعة، وحينذاك فقط تـأكد انـه مـن النحاس المطلـي بالذهب لا غير.

لكن مع تحطم التمثال، انتهى فعل السحر على البحر، ومنذئذ، لم يرَ احـد اثراً لتلك الشعوب القرصانيـة الآتيـة مـن المحيـط مـا عـدا مركبـين تحطمـا علـى الشاطىء، الأول عند مرسى المجوس والآخر قرب قنة جبل الأغن».

وعلى الاغلب، فإن هـؤلاء الغـزاة البحريـين الذيـن يذكرهـم المقـري هـم مـن الشمال.

زوار
يأتون إلى الحمراء

حوالي ثلاثة اشهر ظللت استمتع دون إزعاج بحلم سيادتي على الحمراء وهي فترة من الهدوء اطول مما نعم به الكثير ممن سبقني من سادة وحكام. خلالها كان الزمن قد مر والفصل قد تغير.. فحين وصلت كان كل شيء عذباً طازجاً كما هي حال الطبيعة في الربيع، فأوراق الاشجار غضة طرية والرمان لم يكن قد طرح ازهار جلناره بعد وبساتين زينيل ودارة كانت في اوج ازهارها، كماكانت الصخور نفسها تتزين هنا وهناك بالأزاهير البرية وكانت غرناطة تبدو محاطة تماماً برقع مترامية الاطراف من الورود تنتقل فيما بينها عنادل لا عد لها ولا حصر وهي تشدو ، ليس الليل وحسب بل النهار بطوله ايضاً.

الآن ، كان الصيف قد جاء حاملاً الذبول إلى الورود، والصمت إلى العنادل، لتبدو الأمداء امام عينيك مسفوعة وقد حرقتها الشمس رغم الاشجار الدائمة

الخضرة التي كانت تنتشر حول المدينة وفي عمق الوديان الضيقة عند اسفل الجبال المكللة بالثلج.

ثمة سمة تتميز بها الحمراء هي تلك المعتزلات التي تتدرج طبقاً لحرارة الجو. والاكثر خصوصية بينها هو ذلك القسم الخاص بالحمامات الذي يقع تحت الأرض تقريباً. هذا القسم ما يزال يحتفظ حتى اليوم بسيماه الشرقية القديمة، رغم ما لحق به من آثار انهيار.

عند المدخل الذي ينفتح على فسحة صغيرة كانت تزدان في السابق بالزهور، ثمة قاعة متوسطة الحجم لكنها رفيعة الطراز. ساحرة المعمار، يطل عليها رواق صغير تدعمه اعمدة من رخام واقواس من زخرف. في وسط الأرض المرصوفة ما يزال هناك نافورة من مرمر تقذف مياهها عالياً فتبرد الجو. على كلا الجانبين، هناك اكهف عميقة الغور فيها مصاطب مرتفعة حيث كان المستحمون الذين ينتهون من استحمامهم، يتكئون على الأرائك مستريحين مسترخين اشد ماتكون الراحة والاسترخاء، يزيد في هذا وتلك رائحة العطر التي يعبق بها الجو باستمرار وانغام الموسيقى المنبعثة من الأروقة. وراء تلك القاعة، ثمة غرف داخلية اكثر انعزالاً، وهي الملاذ الصحي المنعزل لخاصة النساء، فهنا كانت تنعم بحماقاتهن اجمل نساء الحريم. ضوء سحري خافت يتخلل المكان داخلاً من فتحات صغيرة في قبة السقف، حيث لا يزال بإمكانك ان تشاهد آثار الروعة القديمة واحواض الاستحمام المرمرية التي كانت السلطانات ايام زمان تسترخي فيها وتستحم. الغموض والسكون المهيمنان يجعلان هذه الاماكن المقببة ملاذاً مفضلاً للخفافيش التي تعشش خلال النهار في الثنايا والزوايا المظلمة، لكن اذا ما ازعجها احد، طارت على نحو غامض في الحجرات الخافتة الضوء، زائدة إلى درجة لا توصف، من حالة البلى والهجران. في هذا المعتزل البارد الرائع المهجور الذي كان ما يزال فيه شيء من طزاجة الكهف وعزلته رحت اقضي اكثر ساعات النهار حراً مع تقدم الصيف ولا اخرج إلا مع الغروب، ثم استحم أو بالأحرى اسبح ليلاً في خزان الساحة الرئيسية الكبير. بهذه الطريقة، كان باستطاعتي ان اواجه إلى حد ما تأثير المناخ الذي يرخي الجسم ويثير الاعصاب.

لكن حلمي بالسيادة المطلقة بلغ أخيراً نهايته. فقد افقت ذات يوم على صوت اطلاق نار راح يتردد بين الابراج كما لو ان القلعة أخذت على حين غرة.

انطلقت خارجاً فوجدت خيالاً عجوزاً مع عدد من السكان المحليين يملؤون قاعة السفراء. إنه «كونت» قديم جاء من قصره في غرناطة ليقضي بعض الوقت في الحمراء عله ينتفع بهوائها الطلق العليل. ولأنه كان جندياً سابقاً ورياضياً مدرباً فقد كان يسعى لتحسين شهيته للافطار بإطلاق النار على السنونو فوق الشرفات. انها تسلية غير ضارة، اذ على الرغم من انه كان قادراً على متابعة اطلاق النار، بفضل يقظة اتباعه وسرعتهم في حشو مسدساته، فإنني لم استطع اتهامه بقتل سنونوة واحدة. ليس هذا فحسب، بل إن الطيور نفسها كانت على ما يبدو، تستمتع باللعبة وتسخر من فقدانه للبراعة فتطير في دوائر قريبة من الشرفات تزقزق وهي تمرق كالسهم هنا وهناك.

مجيء هذا النبيل العجوز قلب الاشياء كلها رأساً على عقب لكن دون ان يسبب عداوة أو صداماً.

ضمناً، رحنا نتقاسم تلك الامبراطورية بيننا تماماً كما كان يفعل آخر ملوك غرناطة، ما عدا أنه كانت تربطنا علاقات اكثر وداً وحميمية. فقد غدا ذلك الكونت الحاكم المطلق لقاعة الاسود وما يجاورها من صالات، في حين بقيت لي السيادة الكاملة، وبلا منازع، على مناطق الحمامات وحديقة لينداراكس الصغيرة. كنا نتناول وجباتنا معاً تحت اقواس القاعة حيث كانت نوافير المياه تبرد الجو، وخرير الماء ملء السمع وهو يجري في الاقنية المكسوة بالمرمر.

في الامسيات، كان يجتمع حشد من السكان المحليين ليتحلقوا حول الفارس العجوز كحلقة الدائرة. اما الكونتيسة، زوجته الثانية بعد زواج أول، فقد كانت تأتي من المدينة برفقة ابنته كارمن طفلته الوحيدة، وهي كائن صغير ساحر كانت ما تزال في سن المراهقة.

عند ذاك كان يتواجد دائماً بعض من اتباعه الرسميين:

قسيسه، محاميه، امين سره، وصيفه، وعدة موظفين آخرين ووكلاء على املاكه الواسعة، ممن يأتون له بأخبار المدينة واشاعاتها ويشكلون في المساء زمراً تلعب بالورق لعبة «التريسيلو» او «الأومبر».

بذلك، كان الكونت يقيم حوله نوعاً من البلاط المحلي، حيث كان كل منهم يقدم له فروض الولاء ويسعى للحصول على نصيبه من اللهو والمتعة، لكن دون أي شكل من أشكال الخدمة والتبعية، أو أي تنازل عن احترام الذات. والحقيقة، لا شيء من ذلك كان مطلوباً من حاشية الكونت إذ مهما يقال عن

الكبرياء لدى الاسباني، فإنها نادراً ما تمس بالأذى سياق الحياة الاجتماعية أو الوطنية.أو تحد منها وليس هناك شعب، العلاقات بين الأقرباء فيه اكثر حميمية وإلفة، وبين السيد وتابعه اكثر تحرراً من الترفع من جهة وأقل خنوعاً من الجهة الأخرى. ففي هذا المجال ما يزال في الحياة الاسبانية، خاصة في الأرياف ، الكثير من بساطة الايام القديمة الرائعة. بنظري، كان اكثر افراد هذه العائلة إثارة للاهتمام، انما هي ابنة الكونت، كارمن الصغيرة الجميلة، التي لم يكن عمرها يتجاوز السادسة عشرة والتي كانت تعامل وكأنها ما تزال طفلة صغيرة رغم انها معبودة العائلة ولقبها «لانينا». لم يكن جسمها قد بلغ مرحلة النضج واكتمال النمو لكنه كان قد اكتسب التناسق الرائع والسحر الفاتن الذي تتميز به الفتيات في تلك البلاد. عيناها الزرقاوان، بشرتها البيضاء، شعرها الاشقر الناعم،كل ذلك كان من النوع غير المألوف في الأندلس، وكان يضفي عليها نوعاً من الرقة والنبل بالمقارنة مع الجمال الاسباني الملتهب عادة، كما كان ينسجم كل الانسجام مع البراءة والبساطة اللتين تسمان سلوكها بكل ما فيهما من ايحاء بالثقة والطمأنينة. في الوقت نفسه، كانت لديها تلك القوة الفطرية وذلك التقلب الشديد اللذان تتميز بهما نساء بلادها الساحرات أي شيء تهم بصنعه تصنعه على نحو حسن ودونما جهد على ما يبدو. كانت تغني، تعزف الغيتار ، الآلات الموسيقية الأخرى، كما كانت ترقص أجمل رقصات بلادها وعلى نحو يثير الاعجاب لكن دون ان تبدو وكأنها تبحث عن إثارة الاعجاب، فكل شيء عفوي تلقائي يبدو وكأنه نابع من روحها المرحة ومزاجها الرائق السعيد.

وجود ذلك الكائن الصغير الساحر أشاع ضرباً من السحر الجديد في الحمراء كلها كما بدا منسجماً كل الانسجام معها. وهكذا ، بينما كان الكونت والكونتيسة، اضافة إلى القسيس وأمين السر يلعبون لعبة التريسيلو المفضلة لديهم في بهو قاعة الاسود، كانت هي ودلوريس التي تعمل كوصيفة شرف لها، تجلسان بجانب احدى النوافذ وعلى انغام غيتارها، تغنيان بعضاً من تلك الأغاني الرومانسية التي تعج بها اسبانيا، او واحدة من تلك الاناشيد التقليدية التي كانت ما تزال أقرب إلى ذوقي والتي تدور حول العرب وأيامهم.

أبداً، لن اتذكر الحمراء دون ان اتذكر ذلك الكائن الصغير الجميل وهو يلعب ببراءته الطفولية في قاعات الحمراء وأبهائها الرخامية، راقصاً على انغام الموسيقى العربية أو مازجاً انغام صوته الفضي بموسيقى النوافير وخرير المياه.

آثار

باقية وسلالات

لئن سرني الكونت وأفراد عائلته وأثاروا اهنمامي كثيراً ، باعتبارهم الصورة الحقيقية للحياة الاسبانية الاصيلة، إلا انني كنت اكثر سروراً واهتماماً بأداء غرناطة البطولي وامجادها. والحقيقة انني اكتشفت في ذلك الفارس النبيل العجوز الذي لم يكن له شأن بالحرب بتاتاً أو أن شأنه هذا لم يكن يتعدى محاربة السنونو والخطاف. أقول اكتشفت حفيداً حقيقياً وممثلاً فعلياً لسلالة غونسالفو القرطبي ، ذلك القائد العظيم الذي فاز ببعض اكاليل غاره الأكثر تألقا امام اسوار غرناطة وكان احد الفرسان الذين ارسلهم فرديناند وايزابيلا للتفاوض على شروط الاستسلام، ليس هذا وحسب بل ان هذا الكونت كان من حقه ، لو اراد ذلك، ان يدعي نوعاً من القرابة لبعض امراء العرب القدماء من خلال احد اسلافه، الدون بيروفينغاس الذي كان يلقب بالتورناديزو، كما كان بامكان ابنته، كارمن الساحرة الصغيرة، وعبر السلالة نفسها ان تزعم أنها السليلة الحقيقية للأميرة «الست

مريم» وبالتالي سليلة ليندا راكسا الجميلة (*) . بعد أن فهمت من الكونت ان لديه بعض آثار الفتح المثيرة التي ما تزال محفوظة لدى عائلته. رافقته في وقت مبكر من صباح ذات يوم إلى قصره في غرناطة لرؤيتها. اهم تلك الآثار إنما كان سيف «القائد الكبير» وهو سلاح خال من اية زينة او زخرف. مثلما هي أسلحة القادة العظام ، لكنه سيف قاطع ذو مقبض بسيط من العاج ونصل عريض دقيق الحد. ولعلها نوع من السخرية من الامجاد الموروثة ان ترى سيف قائد كبير يؤول بالوراثة إلى يد ضعيفة واهنة كيد هذا الكونت.

كذلك كانت هناك آثار أخرى للفتح هي عدد من البواريد ذات الحجم غير المعقول والوزن الثقيل التي تستحق ان تصنف مع تلك السيوف الضخمة ذات الحدين المحفوظة في دور الاسلحة القديمة والتي تبدو وكأنها تعود لعصر العمالقة.

بين الأمجاد المتوارثة الأخرى. وجدت ان الكونت العجوز هو رئيس بلدية الغريز، او حامل ـ العلم العظيم. وهو المنصب الذي كان يخوله ان يحمل علم فرديناند وايزابيلا القديم في بعض المناسبات الرفيعة الرصينة لكي يلوحوا به فوق ضريحيهما. كذلك اراني الكونت أغطية سروج من القطيفة المزخرفة بالفضة والذهب وعلى نحو باذخ لستة من الخيول التي خرج بها الكونت حين عين حاكم جديد لغرناطة واشبيلية فامتطى الكونت احد الخيول بينما قاد الخمسة الأخرى خدم ببزات انيقة فاخرة. لقد ذهبت مع الكونت والأمل يحدوني في ان أجد بين الآثار والمخلفات في قصر الكونت عينات من دروع عرب غرناطة واسلحتهم اذ سمعت انها كانت محفوظة كعلامات للنصر من قبل احفاد الفاتحين لكن خاب املي في هذا المجال، رغم أنه كان الامر الاكثر اثارة بالنسبة إلي. ذلك أن فكرة خاطئة كان تهيمن على الكثيرين بالنسبة لملابس العرب في اسبانيا وازيائهم، مفترضين انهم كانوا يلبسون ملابس من النمط الشرقي المألوف.

(*) : بالعودة إلى المخطوطات العربية والكتب التراثية القديمة لديهم يمكننا أن نرى أن زيجات كثيرة كانت تحصل بين العرب والاسبان نتيجة العلاقات التي كانت تقوم بينهم في السلم أو في الحرب فثمة الكثير من مصاهرات الجوار وعلاقات الحب وحالات الأسر التي نتج عنها تزاوج بين هذين الشعبين ومن هذا التزاوج هناك زواج الأمير نصر الموحدي من ليندراكسا ثم الأميرة الست مريم من الدون بيدرو فينغاس.

على العكس، فقد وجدنا، طبقاً لما كتبه كتابهم ، انهم تكيفوا في مجالات كثيرة مع البيئة الجديدة وتبنوا ازياء المنطقة نفسها.

فالعمامة ، بصورة خاصة، تلك التي لا تفارق صورة المسلم في اذهاننا، كانوا قد تخلوا عنها عموماً ما عدا المقاطعات العربية حيث استمر استخدامها بين أناس الطبقات العليا والموسرة وأصحاب المناصب الحكومية. البديل الذي كانوا يستخدمونه عوضاً عن العمامة انما هو قبعة صوفية خضراء أو حمراء ولعلها من ذلك النوع نفسه الذي كان يستخدمه البربر بالأصل ويعرف باسم القبعة ـ التونسية او الفاسية وما يزال الناس يلبسونها في الشرق حتى الوقت الحاضر، رغم انها قد تلبس بصورة عامة تحت العمامة، وكان قد فرض على اليهود أن يلبسوا قبعات ذات لون أصفر. في مرسيا، بلنسية، والمقاطعات الشرقية الأخرى ، كان بإمكانك ان تشاهد رجال الطبقات العليا وهم حاسرو الرؤوس، ومن المعروف ان الملك المحارب ابن هود لم يلبس عمامة قط، كذلك كان منافسه وعدوه ابن الأحمر، مؤسس الحمراء.

كذلك كان الناس من كافة الطبقات يلبسون عباءة قصيرة تدعى الطيلسان وتشبه ما كان شائعاً ارتداؤه في اسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وللطيلسان غطاء رأس او قبعة كان خاصة الناس يسحبونها احياناً فوق رؤوسهم اما العامة فلم يكونوا يفعلون ذلك قط. في القرن الثالث عشر، وطبقاً لما كتب ابن سعيد، كان الفارس المسلم يتجهز للحرب باسلوب قريب جداً من اسلوب الفارس المسيحي اذ كان يرتدي بذلة سفر كاملة فوقها سترة قرمزية قصيرة وعلى الرأس خوذة من الفولاذ المصقول ، ترسه معلق على ظهره، ورمحه الضخم ذو رأس عريض واحياناً ذو رأسين. اما سرجه فثقيل يبرز كثيراً في المقدمة والمؤخرة يركب عليه الفارس ورايته تخفق وراءه. في عصر لسان الدين بن الخطيب الذي عاش في القرن الرابع عشر وكتب عن تلك الايام ، استعاد مسلحو غرناطة الزي الشرقي ورجعوا مرة ثانية يلبسون ويتسلحون وفق النمط العربي: خوذة خفيفة ، درع رقيقة لكنها مقواة جيداً، رمح رفيع طويل، غالباً من القصب، سرج عربي وركاب جلدي مصنوع من طية مزدوجة من جلد الوعل. في ذلك العصر، كان البذخ العجيب هو المهيمن على أسلحة وملابس فرسان غرناطة. اذ كانت دروعهم تطعم بالفضة والذهب وسيوفهم من اكثر النصال الدمشقية حدة. أغمادها مزخرفة مفضضة ومقابضها مغطاة بصفائح الذهب ومرصعة بالجواهر. حتى خناجرهم

الفاسية كانت ذات مقابض مرصعة بالجواهر ورماحهم تعصب بشرائط زاهية مزينة بالكتابات كذلك كانت سروج خيولهم تغطى بأغطية من الطراز نفسه، اغطية من القطيفة المزخرفة. هذا الوصف الدقيق الذي تركه لنا ذلك الكاتب المتميز، يؤكد صحة تلك الصور الرائعة التي نراها في الاناشيد الاسبانية المغربية التي يحكم عليها احياناً بأنها مشكوك في صحتها، كما يقدم فكرة حية عن الهيئة المتألقة لفرسان غرناطة، حين كانوا ينطلقون قدماً بأنساقهم الحربية او حين كانوا يحتفلون بأعياد فيفارامبلا ومهرجاناتها الفروسية.

جنة الريف

عالياً فوق قصر الحمراء، وفي مقدمة الجبل، بين الحدائق الظليلة والمصاطب المهيمنة، تنتصب ابراج «جنة الريف» العالية واسوارها البيضاء. إنه قصر كقصور الجن مليء بالقصص والحكايات. هنا ما يزال بإمكانك ان ترى اشجار السرو ذات الحجوم الهائلة التي ازدهرت في عصر العرب والتي يرتبط تراثها بالقصة الخرافية لأبي عبد الله وسلطانته.

هنا ايضاً ما تزال محفوظة صور الكثيرين ممن شاركوا في الدراما الرومانسية للفتح: فرديناند وايزابيلا، بونس دي ليون، مركيز قادش وغارسيلا زودي لافيغا الذي ذبح بعد قتال ياءس «طرفة المغربي»ذلك البطل ذا القوى الهرقلية. هنا ايضاً، علقت الصورة التي ظلوا فترة طويلة من الزمن يظنون انها صورة ابي عبد الله العاثر الحظ، لكن يقال الآن انها صورة ابن هود الملك العربي الذي انحدر من سلالته أمراء المرية

من هؤلاء الامراء، امير انضوى تحت لـواء فرديـنـاند وإيزابيـلا، قبـل نهايـة الفتح بقليل، ثم تنصرن باسم الدون بيررودي فينغاس، الـذي ينحـدر مـن سلالته المالك الحالي للقصر، المركيز كامبوتيجار. غير ان هذا المالك يقيم في الخارج والقصر خاو من كل نبيل أو أمير.

مع ذلك ، هنا كل شيء ممتع لجنوبي شـهواني: الأزهـار، الـورود ، اريـج العطور، العرائش الخضراء، أسيجة الريحان، الهواء العليـل والميـاه المتدفقـة. هنـا ايضاً، اتيحت لي الفرصة لرؤية تلك المناظر التي اولـع الرسـامون بتصويرهـا حـول قصور الجنوب وحدائقه. لقدكان يوم القديس الخاص بابنة الكونت ، وقـد دعـت عدداً من رفاقها وأترابها من غرناطـة لقضـاء يـوم صيفـي طويـل في القاعـات ذات الانسام العليلة وعرائش القصور العربية. الزيارة إلى قصر «جنة الريف» هو التسـلية الصباحية. هنا ، كان بعض الشبان المرحـين يتوزعـون جماعـات جماعـات حـول الماشي الخضـراء، النوافـير الـلألاءة ، المـدارج ذات الرخـام الايطـالي، المصـاطب الرفيعة والحواجز الرخامية فيما كان آخرون، وانا منهم، قد اتخذوا مقاعد لهم في رواق مفتوح او ممر من الاعمدة ينفتح على المدى الواسع امامه حيث مدينة الحمراء والفيغا بعيداً في الاسفل والافق النائي ذاك الذي تشكله سلسلة الجبـال. انـه عـالم أحلام، كل ما فيه يتلألأ تحت اشعة شمس الصيـف. هكـذا كنـا نجلـس حـين جاءتنا رنة غيتار طاغية السحر وانغام صنوج تدق وقد انســابت إلينـا صـاعدة مـن وادي دارة...هناك وفي منتصف الطريـق النـازل علـى سـفح الجبـل رأينـا جماعـة تحتفل تحت الاشجار، لاهية مستمتعة وفق الطراز الاندلسي الحقيقي:

بعضهم يستلقي على العشب والبعض الآخر يرقص على انغام الموسيقى.
هذه المناظر والانغام، اضافة إلى العزلة المهيبة للقصر والهدوء الساحر الذي يهيمـن على كل شيء، وسكينة الجو اللذيذة، كل ذلك كان له فعـل السحـر. فـروي لنـا العديد من القصص والحكايـات الشـعبية المتوارثـة والمرتبطـة بهـذا القصـر العربـي القديم وكانت كلها مصنوعة من المادة التي تصنع منها الاحـلام . ومنهـا صنعـت الحكايـة التاليـة الـتي أرجـو ان يكـون لهـا حسـن الحـظ فتلقـى القبـول لـدى القارىء.

حكاية الامير احمد الكامل
او «سائح الحب»

كان يا ماكان في قديم الزمان، كان للملك غرناطة ولد وحيد سماه احمد ثم اضاف له اتباعه لقب الكامل، لما كان يتصف به من سمات الكمال. والتميز التي رأوها فيه منذ طفولته ذاتها. المنجمون انفسهم تنبؤوا بها، متكهنين سلفاً بأن كل شيء سيكون لصالحه بحيث يجعل منه اميراً تام الصفات وحاكماً مزدهر الحكم وافر السعادة. سحابة واحدة فقط بدت تشوب مصيره، لكن حتى تلك السحابة كانت ذات لون وردي فقال المنجمون انه سيكون ميالاً للعشق والغرام ويلقى مخاطر كثيرة بسبب عواطفه المشبوبة. لكن اذا ما ظل بعيداً عن غوايات الحب إلى ان يبلغ سن الرشد، زالت تلك المخاطر وكانت حياته كلها ملأى بالسعادة والهناءة. ولكي يمنع الملك اي خطر من اي نوع عنه، قرر بحكمته وحنكته أن يربي الامير في مكان منعزل حيث لا يرى فيه وجه انثى ولا يسمع حتى اسم الحب.

ولهذا الغرض ، أمر ببناء قصر جميل على سفح رابية تطل على الحمراء وسط الرياض الغناء والحدائق البهيجة لكن تحيط به اسوار، لأنه هو نفسه، بالحقيقة، القصر الذي يعرف اليوم باسم «جنة الريف». في هذا القصر، عاش الامير لا يخرج ولا يدخل يرعاه ويعتني به ويعلمه ابن ابي نابين احد اكثر الحكماء العرب حكمة ورصانة فقد قضى الشطر الأكبر من حياته في مصر، يدرس الهيروغليفية ويجري ابحاثه بين المدافن والاهرامات إلى درجة أنه كان يرى في المومياءات سحراً أشد مما تملكه اجمل الحسان على وجه الأرض.

الأوامر التي أعطيت للحكيم هي أن يعلم الامير صنوف المعرفة كلها ما عدا واحداً ـ الحب، اذ ينبغي ان يظل جاهلا بكل ما يتعلق به. « خذ كل الاحتياطات التي تراها مناسبة لهذا الهدف». قال الملك « ولكن تذكر يا بن ابي نابين، إذا عرف ابني ، وهو تحت رعايتك، اي شيء عن ذلك المجال الحرام كان رأسك الثمن » . ابتسامة صفراء ارتسمت على محيا الحكيم المتجلد لدى سماعه التهديد. « ليطمئن قلبك على ابنك اطمئنان قلبي على رأسي: ام تراني انا الرجل الذي يمكن ان يعطي دروساً في الهوى والغرام؟ ».

تحت عين الفيلسوف الساحرة ورعايته الشديدة، نما الامير وترعرع وحيداً منعزلاً في القصر وحدائقه. عبيد سود كانوا يوفرون له الخدمة وكلهم صامت كتوم لا يعرف شيئاً عن الحب وان عرفه لا يعرف الكلام الذي يعبر عنه. الملكات الذهنية للأمير مجال الرعاية الخاصة لابن أبي نابين، فسعى لتعليمه علوم مصر الغامضة وفنونها، غير أن الأمير لم يبد تجاوباً في هذا المضمار، بل بدا جلياً تاماً انه لا يملك اي ميل للفلسفة.

مع ذلك كان مطواعاً لين العريكة إلى حد مدهش بالنسبة إلى أمير شاب . على استعداد دائماً لأن يتبع اي نصيحة أو رأي يقدمه له آخر ناصح او مشير.

كان الفتى يكتسم تثاؤباته ويصغي بصبر شديد لأحاديث ابن ابي نابين الطويلة الملأى بالعلم والمعارف فيلتقط منها نثرات من مختلف صنوف المعرفة.

على هذا النحو، ترعرع الأمير إلى أن بلغ عامه العشرين فغدا معجزة من معجزات الحكمة بين الامراء ـ لكنه مطلق الجهل بالحب.

في تلك المرحلة ، على أية حال، طرأ تغير على سلوك الامير، فقد هجر دراساته كلية، وشرع يهيم في الحدائق لاهياً بجانب البرك والنوافير. قدراً ضئيلاً

من الموسيقى كان قد تعلم فيما تعلم، لكن الموسيقى باتت تشغل حيزاً كبيراً من وقته كما بدا لديه نزوع نحو الشعر، فكان ذلك بداية انذار لابن ابي نابين الذي شرع في الحال يعمل بكل جد ودأب للقضاء على ذلك النزوع بتكثيف دروس الجبر والهندسة، لكن الأمير عزف عنها مشمئز النفس. «ليس باستطاعتي ان اتحمل الجبر» قال الأمير «انه لشيء بغيض . أنا بحاجة لشيء أكثر قرباً للقلب...شيء يخاطب القلب».

لدى سماعه تلك الكلمات ، هز الحكيم ابن ابي نابين رأسه متفكراً « تلك هي نهاية الفلسفة فقد اكتشف الامير أن له قلباً » منذئذ شدد الحكيم المعلم رقابته على الأمير وقد رأى بأم عينه ان الرقة التي طغت على طبيعته مؤخراً كانت في حالة عالية من النشاط ولم يكن ينقصها إلا شخص يستقطبها . كان الامير يتجول في حدائق القصر منتشي المشاعر دون ان يعرف السبب. في بعض الأحيان، كان يجلس مستغرقاً في ما يشبه الحلم الماتع اللذيذ ، بعدئذ يمسك بقيثارته منطقاً اياها اعذب الانغام واشدها تأثيرا ، ثم يلقي بها جانباً مصعداً الزفرات والآهات.

شيئاً فشيئاً راحت نزعة الحب تمتد لتشمل اشياء جامدة لا حياة فيها فغدا لديه ازهاره المفضلة يسكب عليها اسمى آيات الرعاية . بعدئذ بات متعلقاً بالاشجار على مختلف انواعها، ثم بشجرة واحدة منها على الأخص، رائعة الشكل ، جميلة الهيئة باغصانها المتدلية واوراقها الكثيفة ، فغدا يسكب عليها كل مافي نفسه من مشاعر واحاسيس، ناقشاً اسمه على لحائها، معلقا الاكاليل على اغصانها ، منشداً الاشعار في التغزل بها، تصحبه في ذلك قيثارته. أحس ابن ابي نابين بالخطر الشديد وهو يرى تلميذه يزداد قلقاً وانفعالاً. انه على الحافة نفسها لتلك المعرفة المحرمة ـ فأدنى تلميح او اشارة يمكن ان تكشف له السر القاتل . أسرع الحكيم، وهو يرتعش خوفاً على سلامة الامير وسلامة رأسه هو ، لابعاده عن اغراءات الحديقة، مغلقاً عليه الابواب في برج من ابراج القصر، برج يضم اجمل الاجنحة ويطل على امداء واسعة تمتد بلا حدود لكنه يرتفع عالياً فوق ذلك الجو العابق بالأريج، والسحر الذي بات يشكل خطراً على مشاعر أحمد السريعة التأثر.

لكن ما الذي كان ينبغي فعله لجعله يتلاءم مع قيوده الجديدة ويقضي ساعاته المملة الطويلة ؟ كان الأمير قد استنفد كافة اصناف المعرفة المقبولة تقريباً، ولم يكن احد ليذكر له الجبر بالتأكيد. لحسن الحظ كان ابن ابي نابين قد تعلم،

وهو في مصر، لغة الطيور على يد كاهن يهودي انتقلت اليه أباً عن جد عبر سلسلة تصل إلى سليمان الحكيم الذي علمته اياها بلقيس ملكة سبأ. ما ان ورد ذكر تلك الدراسة حتى برقت عينا الأمير وامتلأت اشعاعاً وحيوية. وفي الحال انكب على دراستها بكل نشاط ودأب حتى غدا خبيراً عظيماً فيها شأنه شأن استاذه.

حينذاك لم يعد برج «جنة الريف» معتزلاً قط، اذ أصبح لدى الامير صحب يحادثهم ويحادثونه. اول ذلك الصحب انما هو البازي الذي كان قد بنى له عشاً في تجويف من تجاويف الاسوار العالية. ومن هناك كان يحلق بعيداً بحثاً له عن فرائس. لكن الامير لم يجد سوى القليل مما يستهويه في البازي. إذ كان مجرد قرصان من قراصنة الجو، متبجح متغطرس، حديثه كله عن السلب والنهب، المذابح والمجازر، المعارك والبطولات. ثاني معارفه كان البوم، ذلك الطائر القوي الحكيم برأسه الضخم وعينيه الثاقبتين وهو يجثم طارقاً بهما محملقاً طوال النهار من وكره في الجدار وفي الليل يخرج ليتجول هنا وهناك. لكن الامير وجده دعياً كبيراً من ادعياء الحكمة. يتحدث قليلاً، عن التنجيم والقمر ويلمح من حين إلى آخر إلى فنون السحر والشعوذة، واهباً نفسه كلية للميتافيزياء والغيبيات كما وجد الأمير احاديثه اكثر جفافاً وثقلاً على النفس من أحاديث ابن أبي نابين ذاتها.

ثالث معارفه كان الوطواط الذي كان يتدلى طوال النهار من عقبيه في زاوية من زوايا قبة البرج، لكن ما ان يحل الظلام حتى ينطلق مارقاً كالسهم. مع ذلك، لم يكن لديه سوى أفكار باهتة عن كل شيء، يسخر من الاشياء التي لا يعرفها إلا معرفة ناقصة ويبدو وكأنه لا يستمتع بشيء.

إضافة إلى معارفه هؤلاء، تعرف الامير إلى سنونوة خلبت لبه في البداية، فقد كانت محدثة بارعة إلا أنها شديدة القلق دائمة الاستعجال في حركة دائبة لا تستقر، ونادراً ما كانت تمكث بما يكفي لأي حديث يشفي الغل. أخيراً تكشفت عن انها مجرد ثرثارة تتناول السطحي من الاشياء وتزعم انها تعرف كل شيء لكن دون ان تعرف شيئاً على الاطلاق. أولئك هم الاصحاب الأول من ذوات الريش التي اتيحت للأمير الفرصة لأن يمارس معها لغته التي اكتسبها حديثاً. فالبرج كان أعلى من ان تستطيع الطيور الأخرى الوصول إليه. لكن سرعان ما مل الأمير صحبة معارفه الجدد، اولئك الذين كانوا يخاطبون العقل قليلاً. ولا يخاطبون القلب ابداً ومن جديد راح الامير يغرق في عزلته. انقضى الشتاء ثم جاء الربيع

بكل ريحانه وجماله، عبقه واريجه، فبدا وكأنه زمن الطيور السعيد، جاءها كي تتزاوج وتبني أعشاشها. وفجأة ، ان جاز القول، امتلأ الكون كله بالاغاريد والانغام منطلقة من الخمائل والرياض في قصر جنة الريف. فبلغت مسامع الأمير وهو في معتزله العالي. من كل حدب وصوب كان الأمير يسمع اللازمة الكونية نفسها تتردد ـ حب ـ حب ـ حب ـ حب والطيور تشدو بها في كل نغمة ولحن. بصمت راح الأمير يصغي وبحيرة واندهاش يستمع ثم يفكر «ماتراه ذلك الحب الذي يبدو وكأنه ملء العالم، ذلك الحب الذي لا أعرف عنه شيئاً»؟ وطلباً للمعرفة. مضى إلى صديقه البازي الذي أجاب بنبرة الازدراء «عليك ان تسأل طيور الأرض الضعيفة المسالمة، التي خلقت فرائس لنا، نحن امراء الجو. صنعتي هي الحرب، ومتعتي هي القتال .. انني محارب يجهل كل شيء عن ذلك الذي يدعى الحب باشمئزاز، استدار الأمير مبتعداً عنه ، ثم مضى إلى البوم في مأواه ، قائلا: «ذلك هو الطائر ذو العادات المسالمة ولعله يستطيع حل مشكلتي». وهكذا، طلب الأمير من البوم ان يحدثه عن ذلك الحب الذي تشدو الطيور به وتغرد في الرياض والخمائل.

عند ذلك، اتخذ البوم هيئة من لحقت به الإهانة ثم قال «انني اقضي ليالي في الدرس والبحث ونهاراتي في التفكير بكل ما بلغته من معرفة وعلم. اما ما تغرد به تلك الطيور وتشدو فلا اصغي اليه البتة ــ انني ازدريها هي وما تغرد به. والحمد لله ، انا لا استطيع التغريد. انني فيلسوف وليس لي علم بذاك الذي يدعى الحب».

حينذاك، مضى الأمير إلى القبو ، حيث كان صديقه الوطواط معلقاً من عقبيه ثم طرح عليه السؤال نفسه. وسرعان ما غضن الوطواط انفه وعلى محياه اشد التعابير استخفافاً ثم قال «لماذا تقلق راحتي الصباحية بسؤال فارغ كهذا؟ انا لا أطير إلاّ مع حلول الظلام، حين تهجع الطيور كلها ولا ازعج نفسي بكل ما يعنيها. بل إنني لست طيراً ولا دابة وانني لأشكر السماء على ذلك. لقد اكتشفت سخف تلك الكائنات كلها وانني اكرهها فرادى ومجتمعات. بالمختصر أنا كائن يبغض البشر ، يبغض الكائنات جمعاء ــ ولا اعلم شيئا عن ذلك الذي يدعى الحب».

عند ذاك، مضى الأمير، كملاذ أخير إلى السنونوة التي اوقفها وهي تحوم في دوائر دوائر، كما هي عادتها، حول ذروة البرج . وكالعادة ، كانت السنونوة في

عجلة من امرها ولم يكن لديها الوقت لكي تجيب. «بشرفي» قالت السنونوة «ثمة الكثير مما ينبغي ان اهتم به، والكثير مما ينبغي ان اتابعه إلى درجة لا املك معها الوقت للتفكير بأمر كهذا . في كل يوم لدي ألف زيارة اقوم بها والف قضية هامة اتفحصها فلا يبقى لدي لحظة واحدة من فراغ أفكر فيها بقضايا صغيرة كالتغريد والغناء.

باختصار، انا مواطنة عالمية. وطني العالم كله ــ ولا اعرف شيئا عن ذلك الذي يدعى الحب . قالت السنونوة ذلك ثم غاصت في بطن الوادي لتغيب بلحظة واحدة عن النظر .ظل الامير خائب الامل محتاراً لكن فضوله ازداد عن حده وهو يواجه صعوبة ارضائه. دخل حارسه القديم البرج، وهو في حالته تلك، فمضى اليه الامير بلهفة وشوق صائحاً «يابن ابي نابين لقد كشفت لي الحجب عن كثير من صنوف المعرفة في الدنيا، لكن ، ثمة شيء واحد ما زلت جاهلاً به كل الجهل وارغب في معرفته» .

«ما على اميري إلا أن يسأل ولسوف يجد أن كل ما يعرفه خادمه رهن اشارته».

«قل لي اذن، يا احكم الحكماء، ما هو ذلك الشيء الذي يدعى الحب؟».

للتو تسمر ابن ابي نابين وكأنما نزلت على رأسه صاعقة، مرتعش الاطراف، شاحب الوجه، يملؤه احساس بأن رأسه يترجرج على كتفيه «ما الذي اوحى لأميري بسؤال كهذا؟ من اين تراه التقط كلمة جوفاء كهذه؟».

في الحال قاده الامير إلى نافذة البرج «اسمع يا ابن ابي نابين» قال الأمير فأصاخ الحكيم سمعه. عنادل الخميلة اسفل البرج كانت تغرد لمعشوقاتها ، لينطلق من كل ايكة اشجار وحوض ورود نغمة ـ حب ـ حب حب...نغمة واحدة لا تتغير.

«ا لله اكبر، سبحان ا لله العظيم! !» هتف ابن ابي نابين الحكيم «من تراه يزعم انه قادر على اخفاء هذا السر عن الانسان، في الوقت الذي تجتمع فيه الطيور نفسها لإفشائه؟».

عند ذاك، التفت إلى احمد صائحاً «يا أميري ، صم اذنيك عن هذه الالحان المغوية ، أغلق ذهنك في وجه هذه المعرفة الخطرة، واعلم ان هذا الحب هو السبب في ما يلحق بنصف البشرية من أذى واضرار.

إنه هو نفسه الذي يثير الأحقاد والنزاعات بين الأخوة والاصدقاء، هو نفسه الذي يؤدي إلى جرائم القتل والخيانة وحروب الخراب والدمار. الهم والغم، عناء النهارات وسهر الليالي هذا هو ما يرافق الحب.

إنه يذبل ما كان زاهراً ويقضي على مسرات الشباب ويجر وراءه السقم والمرضٍ، الحزن والأسى والشيخوخة المبكرة، ليحمك الله منه يا أميري وليبقك جاهلاً كل الجهل بذلك الشيء الذي يدعى الحب».

بعد ذلك اسرع الحكيم ابن ابي نابين مبتعداً تاركاً الامير وهو اكثر حيرة وذهولاً. لقد حاول عبثاً أن ينسى الأمر، او يبعده عن ذهنه لكنه ظل المسيطر المهيمن على افكاره كلها، معذباً اياه ، مستنفداً قواه في التخمينات والظنون. بالتأكيد، قال الأمير لنفسه وهو يصغي لأنغام الطيور واغاريدها، ما من هم أو غم في هذه الانغام . بل إن كل شيء يبدو مفعماً رقة وعذوبة، فرحاً وبهجة وإذا كان الحب هو السبب في كل ذلك الشقاء والعناء ـ النزاع والصراع، اذن ـ لماذا لا تمضي هذه الطيور إلى المعتزلات فتعيش وحيدة او يمزق بعضها بعضاً إرباً إرباً. بدلاً من رفرفتها فرحة مرحة في الرياض والخمائل او لاهية معاً بين الورود والأزاهير؟

ذات صباح، كان الأمير يضطجع على أريكته مفكراً بالقضية التي لم يجد لها تفسيراً بعد. نافذة غرفته مفتوحة تدخل منها انسام الصباح العليلة. محملة بعبق ازهار البرتقال يرسله وادي دارة. صوت العندليب كان ما يزال يأتي خافتاً لكنه ما يزال يردد اللازمة نفسها. وبينما كان الامير يصغي ويتنهد، سمع فجأة صوت شيء مندفع في الجو. نظر فرأى حمامة جميلة يلحق بها باشق. مرقت كالسهم عبر النافذة ثم حطت لاهثة على الأرض. اما الباشق فقد رجع القهقرى. وقد يئس من طريدته محلقاً نحو الجبال.

امسك الأمير بين يديه بالطائر اللاهث، مسد ريشه مدخلاً اياه في عبه. هناك داعبه ملامساً اياه مهدئاً، وحين هدأ ـ وضعه في قفص مقدماً له بيديه

أنصع القمح بياضاً وأجوده نوعاً، ساقياً إياه أنقى المياه وأعذبها. لكن الطائر رفض الطعام بل جثم مطرقاً كئيباً هادلاً هديله البائس الحزين.

«ما الذي يزعجك؟» سأله أحمد ألا أوفر لك كل ما يشتهيه قلبك؟».

«كلا، واأسفاه ! !» أجاب طائر الحمام «أم تراني لم افارق مهجة روحي؟ ومتى؟ في فصل الربيع السعيد، فصل الحب ذاته».

«الحب! ؟» ردد احمد ترداد الصدى « ارجوك يا طائري الجميل ، هل باستطاعتك ان تقول لي ما هو الحب؟» .

«أجل باستطاعتي ، أيها الأمير. انه ضنى الفرد وهناء الاثنين وعداء الثلاثة وصراعهم، إنه السحر الذي يجمع كائنين معاً لتوحدهما المشاعر اللذيذة والعواطف الماتعة، فيبلغان السعادة إذا ما اجتمعا، ويلقيان البؤس إذا ما افترقا. ترى أليس هنالك كائن تربطك به مثل هذه الروابط من العاطفة والتعاطف » ؟

«إنني احب معلمي العجوز ابن ابي نابين اكثر من اي كائن آخر ، لكنه غالباً ما يكون مملاً باعثاً على الضجر إلى درجة اشعر احياناً انني اكثر سعادة بدونه». «ما هذا بالتعاطف الذي عنيت. انني اتكلم عن الحب، سر الحياة العظيم وأس الأسس فيها. نشوة الشباب المسكرة وبهجة الشيخوخة الرفيعة . انظر أمامك، ايها الأمير، وتأمل كم الطبيعة كلها في هذا الفصل المبارك مفعمة بالحب. كل مخلوق فيها له إلفه وعشيره، اضأل الطيور تغرد لمعشوقاتها، ذكر الخنفساء نفسه يتغزل بأنثاه على التراب وتلك الفراشات التي تشاهدها مرفرفة محلقة فوق البرج، لاهية لاعبة في الجو، انما هي سعيدة بحب بعضها بعضاً.

واأسفاه يا أميري ! ! أقضيت ايام شبابك الثمينة هذه دون ان تعرف شيئاً عن الحب!؟ اليس هناك كائن لطيف من الجنس الآخر، أميرة جميلة أو فتاة جميلة قد شبكت قلبك وملأت صدرك بذلك الفيض الدافق من الرغبات والأشواق؟» .

«الآن بدأت أفهم» قال الأمير متأوهاً« ذلك الفيض الدافق عرفته اكثر من مرة دون ان اعرف ما وراءه، فأين تراني اجد ذلك الكائن الذي تصف وأنا في معتزلي المخيف هذا» ؟ إثر ذلك جرى المزيد من الحديث، وكان الدرس الأول في الحب الذي تلقاه الأمير.

«أواه» قال الأمير « ان كان الحب بمثل هذه المتعة فعلاً والحرمان منه يشكل مثل هذا البؤس، فلا سمح الله ان احرم محباً من متعته».

بعدئذ فتح القفص ، أخرج طائر الحمام ، قبله بولع شديد وحمله إلى النافذة قائلاً «اذهب أيها الطائر السعيد. استمتع مع شريك حياتك وانعم بايام الشباب والربيع . ترى لماذا أجعل منك زميل سجن في هذا البرج المخيف حيث لا يمكن أن يدخل الحب؟»

رفرف الطائر بجناحيه منتشياً، صانعاً نوعاً من القوس في الهواء، ثم اندفع يصفق نزولاً نحو خمائل دارة المزهرة.

لاحقه الأمير بناظريه إلى ان غاب، بعدئذ تراجع مبتعداً حزيناً. فغناء الطيور الذي كان يسره من قبل بات يزيد من احزانه الآن: حب ! حب! حب! حسرتي عليك ايها الشاب المسكين، الآن بت تفهم النغم!» وحين رأى الحكيم ابن نابين، قدحت عيناه شرراً كشرر النار ثم صرخ به مؤنباً لماذا تركتني في هذا الجهل المطبق؟ لماذا منعت عني ذلك السر العظيم للحياة والمبدأ الاساسي من مبادئها ذاك الذي تعرفه حتى الحشرات الصغيرة؟ انظر، الطبيعة كلها في فرح وانتشاء، الكائنات والمخلوقات كلها تنعم بالحب وكل منها ينعم مع إلفه وعشيره؟! وهذا ـ هذا هو الحب الذي كنت اسعى لمعرفة شيء عنه. لماذا انا وحدي محروم مشوه المتعة؟ لماذا قضيت جل شبابي دون ان اعرف لذائذه ومتعه؟».

رأى الحكيم ابن أبي نابين ان كل تحفظ بعد ذاك نوع من العبث، فقد وصل الأمير إلى كل ما هو خطر ومحظر من المعرفة. لهذا كشف له تنبؤات المنجمين كلها والاحتياطات التي اتخذت في سياق تربيته كلها لتجنيبه الأخطار والشرور التي تهدده. «والآن يا أميري». اضاف اخيراً «حياتي رهن يديك، ان اكتشف الملك والدك انك عرفت عاطفة الحب وانت في عهدتي ، طار رأسي» كان الأمير منطقياً عقلانياً كمعظم الشبان في سنه، وبسهولة تامة اصغى لاعتراضات معلمه، إذ لم يكن هناك ما يقف في وجهها. اضافة إلى ذلك، فقد كان متعلقاً فعلاً بأبن ابي نابين ولم يكن قد تعرف إلى عاطفة الحب إلا نظرياً. لهذا كله، وافق على ان يكتم معرفته في قلبه بدلاً من تعريض رأس الفيلسوف للقطع.

لكن حكمته هذه كان مقدراً لها ان تخضع للمزيد من الاثباتات والبرهين.

فبعد بضعة ايام. وبينما كـان يفكر متـأملاً اسوار البرج وتحصيناتـه، رأى الحمامة التي أطلقها ذات يوم تحوم في الجو ثم تحـط دون وجـل او خـوف علـى كتفه.

سر الأمير كثيراً وراح يداعب الحمامة ضاماً اياها إلى قلبه قائلاً «ايها الطـائر السعيد الـذي يمكنـه ان يطيربأجنحـة الصبـاح إلى معظـم الانحـاء والجهـات في الأرض. اين كنت منذ ان افترقنا؟».

«في بلاد بعيدة ايها الأمير. حيث جئت لـك بأخبـار سـارة جـزاء لـك علـى اعطائي حريتي. في اثناء طيراني البعيد الذي يمتد فوق السهول والجبـال. وبينمـا كنت أحلق عالياً في الجو. رأيت تحتي حديقة بهيجةفيها اصناف الثمار والأزهار كلها. تقع في وسط مرج اخضر على ضفة جدول ماء. في وسط الحديقـة كـان ثمـة قصر مهيب. ولكي استريح من عناء طيراني حططت الرحال على احدى الاشجار هناك . على ضفة الجدول الخضراء. كانت اميرة في ريعان صباها وزهـوة شـبابها يحيط بها وصيفات في مثل عمرها. يزينها بأكاليل وباقات الأزهار. لكـن مـا مـن زهرة في الحقل او الحديقة كلها كانت تضـاهي الأمـيرة في جمالهـا غـير أنهـا . هناك كانت تترعرع بالسر . فالحديقة يحيط بها اسوار عالية وما من كائن بشـري يسمح له بالدخول. حين رأيت ذلك الجمال الساحر البريء. الغض الإهاب الـذي لا يعرفه احد في العالم. فكرت: ها هنا الكـائن الـذي أبدعتـه السـماء لكـي يلهـم اميري الحب».

كما تفعل الشرارة بالهشيم. كذلك فعل وصف الأمـيرة بقلـب احمـد السـريع الاشتعال وفي الحال وجد لما كان في قلبه من عواطف مشجباً يعلقه عليه. إنها تلك الأميرة في الحديقة التي بات يكن لها كل الحب.

للتو كتب رسالة بانمى وأرق لغـة. كلهـا عواطـف مشـبوبة ومشـاعر لاهبـة. اسى وحسرة على حظه التعيس لأنه لا يستطيع السـعي اليهـا والقـاء نفسه عنـد قدميها. مضيفاً بعد ذلـك بيتـين رائعـين مـن ارق الشـعر وأبلغـه. اذ كـان شـاعراً بالفطرة وكان ملهمه الحب. ثم عنون كتابه : « إلى الحسناء المجهولة مـن الأمـير السجين احمد». بعدئذ ضمخ الكتاب بالمسك والعنبر واعطاه لطـائر الحمـام قـائلاً: «بعيداً . يا أكثر الرسل ثقة...طر فوق الجبال والوديان. الأنهار والسهول .... لا

تغرنك أيكة بالراحة، ولا تجثمن على ارض قبل ان تعطي هذا الكتاب لأميرة قلبي».

حلق الطائر عالياً في الجو، محدداً وجهته، منطلقاً كالسهم في ذلك الاتجاه...بناظريه لاحقه الأمير إلى ان غدا مجرد ذرة صغيرة ثم غيبها احد الجبال.

عبثاً راح الأمير ينتظر عودة رسول الحب، يوماً بعد يوم راح ينتظره إلى ان بدأ يتهمه بالنسيان والنكران. لكن ذات يوم، ومع غروب الشمس، ظهر الطائر المخلص مرفرفاً بحناحيه، هاوياً عند قدميه جثة هامدة، وقد مزق صدره سهم فاجر لرامٍ لئيم . مع ذلك كان قد كافح كفاح المستميت باذلاً كل ما لديه من طاقة كي يوصل رسالته. انحنى الأمير حزيناً على شهيد الاخلاص والنبل ذاك، فرأى عقداً من اللؤلؤ حول عنقه وقد ربطت به تحت الجناح تماماً صورة مؤطرة صغيرة لأميرة جميلة في ريعان شبابها. انها هي ولا شك، حسناء الحديقة المجهولة، لكن من هي يا ترى واين هي؟ كيف تلقت رسالته وهل تلك الصورة رد عليها، دلالة على مباركة عاطفته! لسوء الحظ، مات الطائر الوفي وبموته ظل كل شيء طي الغموض والشك.

قلب الأمير الصورة، محدقاً محملقاً، ملء عينيه الدموع . قربها من شفتيه، ضمها إلى فؤاده ثم جلس ساعات وساعات يفكر بها وهو في أشد حالات الجوى والعناء .

« أيتها الصورة الجميلة » راح الأمير يخاطبها. «أواه ! ! شفتاك الورديتان تبدوان وكأنهما تخاطبانني حثاً وتشجيعاً: تخيلات حمقاء ! ألم تنظر النظرة نفسها إلى غريم اكثر سعادة مني ؟ لكن في اي مكان من الأرض ، آمل ان اجد الأصل ايتها الصورة ؟ من يعلم اية جبال، اية ممالك ودول تفصل بيننا؟ اية حواجز وعقبات تقوم بيننا؟ ربما الآن، وفي هذه اللحظة، يحتشد العشاق حولها وأنا اجلس هنا سجيناً في برج، اهدر وقتي في تعبد خيال مرسوم».

«سأفر من هذا القصر» قال الأمير وقد اتخذ قراره ، «القصر الذي اصبح سجناً بغيضاً، وكسائح من سياح الحب، سأبحث عن هذه الأميرة المجهولة في انحاء الدنيا كلها».

أن يفر من البرج في النهار والجميع مستيقظون، مسألة فيها صعوبة . لكن في الليل القصر خفيف الحراسة، إذ ما من أحد كان يخشى أية محاولة من أي نـوع من قبل الأمير الذي كان دائماً مستسلماً لقدره داخل أسواره.

لكن كيف سيهتدي إلى طريقه في قلب الظلمة هو الـذي يجهـل البـلاد ؟ في الحال خطر بباله البوم ذاك الذي ألف التجوال في الظلمة ولا بد من ان يعرف كل ممر سري وطريق جـانبي. بحـث غنـه الامـير في معتزلـه، ثـم سـأله عـن معرفتـه بالبلاد. عند ذاك، اتخذ البوم هيئة الجبار المعتد بذاتـه ثـم قـال «ينبغـي ان تعلـم ايها الأمير اننا، نحن معشر البوم، من سلالة بالغة القـدم عظيمـة الانتشـار، لهـا قصور خربة وقلاع متداعية في انحاء اسبانيا كلها، إذ نادراً ما ترى برجاً في جبـل او حصناً في سهل او قلعة في مدينة إلا ولي فيها أخ او عم، ابن خـال او ابـن عـم. وحين اذهب في جولاتي لزيارة هؤلاء الاقرباء، اختلس النظر إلى كل عـش ووكـر، كل منعطف وزاوية، كي اعرف كل سر من أسرار البلاد» .

سرور عظيم ملأ قلب الأمير وهو يـرى ان البـوم واسـع المعرفـة في طبوغرافيـا البلاد، وللتو همس في اذنه بما يعتلج في صدره من هوى مشبوب بائحاً له بنيته في الهرب، طالبا اليه أن يرافقه صاحباً ومشيراً «تباً لك!!» قال البوم بهيئـة المـنزعج «أنا الطائر الذي يكرس وقته كله للتأمل والتفكير يورط نفسه في قصة حب؟».

«لا عليك ، أيها البوم يا أعظم الحكماء » أجاب الأمير «أرح نفسك قليلاً من التأمل والتفكير. ساعدني في هروبي ولسوف أعطيك ما يشتهيه قلبك».

«لدي كل ما يشتهيه قلبي» قال البوم « بضعة فئران تكفيـني طعامـاً، وذلـك الوكر في الجدار واسع يكفي لدراساتي ، وما عسـاه يرغـب الفيلسـوف بـأكثر مـن ذلك» ؟

«فكر قليلاً أيها البوم الاعظم حكمة . فكر انك وانـت في وكـرك تسـتغرق في التفكير وتحدق إلى القمر، يخسـر العـالم مواهبك كلهـا. ذات يـوم سـأكون الامـير الحاكم ولسوف أسند اليك منصباً يعود عليك بالمجد والسؤدد . » وعلى الرغم مـن أن البوم كان فيلسوفاً يسمو فوق الـحاجـات العادية للحياة، إلا أنه لم يكن يسـمو فوق المطامح، لهذا استطاع الامـير ان يتغلـب عليـه ويقنعـه بـالهروب معـه دليـلا ومرشداً، في سياحته بحثاً عن الحب.

في الحال، وضعت مخططات العاشق قيد التنفيذ. إذ جمع الأمير جواهره كلها مخفياً اياها في طيات ثيابه مثلما يفعل الرحالة باموالهم، وفي تلك الليلة بالذات تدلى من شرفة البرج رابطاً نفسه بحبل نازلاً على حجارة السور الخارجي لجنة الريف، وبهدي البوم وارشاده كان قبل ان تشرق الشمس قد شق طريقه إلى الجبال. حينذاك، عقد جلسة استشارية مع دليله حول خط سيره المقبل.

«إن كان لي أن أنصحك» قال البوم « فإنني اوصيك بالتوجه إلى اشبيلية. إذ عليك ان تعلم انني قبل سنوات عديدة قمت بزيارة إلى احد اعمامي هناك وهو بوم ذو مركز ونفوذ عظيمين يعيش في جناح خرب من «القصر» في تلك الانحاء. وغالبا ما كنت الحظ وأنا اتجول ليلاً فوق المدينة، ضوءاً يشتعل في برج منفرد . في نهاية الامر، هبطت على السور هناك، فرأيته ينبعث من مصباح ساحر عربي : وقد أحاطت به كتب السحر من كل جانب ، فيما جثم على كتفه غراب قديم جاء معه من مصر. انني اعرف ذلك الغراب وانا مدين له بقدر كبير من المعرفة التي بحوزتي. لقد مات الساحر منذ زمن، لكن الغراب ما يزال يقيم في البرج ، فالغربان تعمر طويلاً. انني انصحك ايها الأمير ان تبحث عن ذلك الغراب، فهو قادر على التكهن، عالم بفنون التنبوء والسحر، تلك الفنون التي تعرفها الغربان كلها، خاصة تلك الآتية من مصر ».

أعجب الأمير كل الاعجاب بما في تلك النصيحة من حكمة، وطبقاً لها حرف مساره باتجاه اشبيلية، يسافر في الليل ويرتاح في النهار طبقاً لما يناسب رفيقه، مختاراً للراحة كهفا مظلماً او برج مراقبة مهجوراً، فالبوم يعرف كل مخبأ من هذا النوع، واكثر ما يستهويه الآثار والخرائب.

أخيراً، مع طلوع الشمس، وصلا إلى مدينة اشبيلية. هناك توقف البوم الذي يكره الضوء الساطع وزحام الشوارع، خارج البوابة ، متخذاً من إحدى الاشجار المجوفة مقراً له ومستراحاً.

دخل الأمير البوابة، وسرعان ما وجد البرج المسحور الذي كان ينتصب عالياً فوق بيوت المدينة، مثلما تنتصب شجرة النخيل فوق نباتات الصحراء، انه بالحقيقة البرج نفسه الذي ما يزال ينتصب إلى اليوم ويعرف باسم «الجيرالدا» البرج العربي الشهير في اشبيلية. على درج عظيم ملتف، صعد الامير إلى ذروة

البرج، حيث وجد هناك الغراب القبلاني(*) ، طائراً عجوزاً أشيب الرأس، غامضاً ، اشعث الريش، على احدى عينيه غشاء رجراج اشبه بالنظارة. كان الغراب يجثم على احدى قائمتيه، مائلاً برسه إلى احد جانبيه، متفحصاً بعينه الثانية مخططاً موضوعاً على الحجارة امامه.

بخوف وتهيب أملاهما مظهر الغراب بالطبع، بكل ما فيه من هيبة وحكمة فائقة، دنا الامير منه هاتفاً: «عفوك، يا اعتق الغربان واعظمهم حكمة. لحظة واحدة فقط سأقطع عليك تأملاتك ودراساتك، انت يا اعجوبة الدنيا ومعجزتها. انك ترى امامك صريعاً للحب يبحث عن مشورتك ويطلب رأيك ، ترى كيف يمكنه الوصول إلى محبوبته؟ » .

« بعبارة أخرى» قال الغراب بنظرة الجدو الرصانة « هدفك ان تختبر براعتي في قراءة الكف، تعال ـ ارني كفك ودعني أفك ما فيها من رموز غامضة للحظ » .

«المعذرة» ، قال الأمير : «أنا لم اجئك بحثاً عن التكهنات او قراءة الكف بل ولا عن معرفة الغيب، ذاك الذي يحجبه الله عن أعين البشر. بل أنا سائح من سياح الحب أبحث علّني أجد مفتاحاً للغاية من حبي . »

« وهل يمكن أن تضيع غاية حبك في أندلس الحب؟ ». قال الغراب العجوز رامقاً اياه شزراً بعين وحيدة بل كيف يمكن ان تفتقر لمن تحب في اشبيلية الماجنة الخليعة ، حيث الفتيات سوداوات العيون يرقصن رقصة الزامبرا في كل بيارة برتقال» ؟

أحمر وجه الامير خجلاً وهو يشعر بالصدمة لدى سماعه الطائر العجوز الجاثم على قائمة واحدة، صاحب الهيئة الرزينة الرصينة يتحدث بذلك الانفلاش والراحة «صدقني» قال الامير بكل رزانة وجد «أنا لا أسعى لعلاقة سريعة عابرة كما خطر ببالك. فتيات الاندلس ذوات العيون السوداء اللواتي يرقصن تحت اشجار البرتقال في الوادي الكبير لسن شيئاً بالنسبة إلي . انني ابحث عن حسناء مجهولة لا يمكن الوصول اليها، هي صاحبة هذه الصورة . وإني لأرجوك ، أيها الغراب العظيم القدرات، ان كانت ضمن إطار معرفتك او ضمن مدى سحرك، ان تقول لي اين عساي أجدها »؟ جد الأمير ورصانته صدما الغراب الاشيب الرأس

(*) القبلانية: مذهب سري عند بعض أحبار اليهود ونصارى العصر الوسيط تميل إلى الصوفية والسرية.

فأجاب بنبرة رزانة جافة، «وما تراني اعرف عن الشباب والجمال؟ زياراتي كلها للقديم البالي وليس للجميل النضر: نذير الشر أنا ، نعيبي ينذر بالموت اذا ما نعيت من أعلى مدخنة، ورفرف جانحاي قرب نافذة مريض. لا، يا بني عليك ان تبحث في مكان آخر عن اخبار حسنائك المجهولة».

« أين يمكنني ذلك ان لم يكن لدى ابناء الحكمة المستغرقين في قراءة كتاب الأقدار؟ اعلم انني امير ابن ملك، مصيره مرتبط بالنجوم ومرسل في مهمة غامضة ترتبط بها مصائر ممالك وامبراطوريات» .

حين سمع الغراب ذلك أيقن انها مسألة بالغة الخطورة، النجوم نفسها ذات علاقة بها، وللتو غير من نبرة صوته وسلوكه مصغياً باهتمام شديد لقصة الأمير، الذي ما إن انتهى حتى أجاب الغراب: «من أجل الاتصال بهذه الأميرة، ليس باستطاعتي ان اقدم لك اية معلومات بنفسي، فأنا لا أطير بين الحدائق والجنائن، أو رياض السيدات...لكن امض بنفسك إلى قرطبة، ابحث هناك عن نخلة عبد الرحمن الكبير التي تنتصب في فناء الجامع الرئيسي: عند أسفلها ستجد رحالة عظيماً زار كل بلد وكل بلاط ملكي وكانت له حظوة لدى الملكات والاميرات. هو سيعطيك ما تشاء من أخبار عن غايتك ومبتغاك» .

« كل الشكر لك على هذه المعلومات الثمينة قال الامير « وداعاً أيها الساحر المحترم المبجل.»

« وداعاً يا سائح الحب » رد الغراب بنبرة جافة ومن جديد عاد إلى تأمله للمخطط أمامه.

انطلق الأمير مبتعداً عن اشبيلية باحثاً عن زميل رحلته البوم، الذي كان ما يزال غافياً في الشجرة المجوفة، ثم اتجها إلى قرطبة.

حين اقتربا منها، كان الطريق تحفه الحدائق المعلقة وبيارات الليمون والبرتقال التي تملأ الوادي الكبير الجميل. وصلا إلى البوابة فطار البوم صاعداً إلى ركن معتم في الجدار، فيما مضى الأمير قدماً بحثاً عن شجرة النخيل التي زرعها في الماضي السحيق عبد الرحمن الكبير .

في فناء الجامع الواسع، وفي الوسط تماماً، كانت تنتصب الشجرة كالبرج العالي باسقة منيفة على أشجار البرتقال والسرو .... دراويش وفقراء كانوا

يتجمعون هناوهناك في اروقة الفناء وكثير من المؤمنين كانوا يتوضؤون بماء النوافير قبل أن يدخلوا الجامع.

عند أسفل النخلة كان ثمة جمع من الرجال يصغون إلى ما يقوله خطيب تبدو على كلامه طلاقة عجيبة. «هذا هو» قال الأمير لنفسه « لا بد انه هو نفسه الرحالة العظيم الذي ينبغي ان يعطيني اخبار الاميرة المجهولة» ، وفي الحال زج نفسه بين الجمع لكن لشد ما اصيب بالدهشة حيث رأى انهم جميعاً كانوا يصغون لببغاء ، بمعطفه الاخضر الزاهي وعينه الثاقبة وريش رأسه العالي. وهيئته ، هيئة الطائر الراضي كثيراً عن نفسه.

«كيف هذا» ؟ قال الامير لأحد المتفرجين «أيعقل أن يصيخ السمع أناس على هذا القدر من الجد والرزانة بل ويستمتعوا بثرثرة طائر كهذا الببغاء» ؟

«انت لا تعلم عمن تتكلم» رد المتفرج « هذا الببغاء هو سليل ببغاء فارس الشهير الذي تعرفه الأرض كلها بموهبته الفائقة في رواية القصص والحكايات. معارف الشرق كلها على اطراف لسانه وبإمكانه ان يروي الشعر باسرع مما يتكلم . لقد زار بلاط الكثير من الملوك الاجانب ، حيث كانوا ينظرون اليه على انه كاهن من كهان المعرفة ومهبط الوحي. هو ايضاً صاحب الحظوة في أرجاء الأرض كلها لدى الجنس اللطيف ، فالنساء يعجبن كل الاعجاب بببغاوات المعرفة التي يمكنها ان تروي الشعر» .

«حسبك» قال الأمير «لي حديث خاص معه ، هذا الرحالة المتميز ، لا بد من ان أحدثه».

في الحال سعى الأمير لإجراء لقاء خاص به ، شارحاً طبيعة مهمته ، لكن ما ان بدأ بالشرح حتى انفجر الببغاء مقهقهاً ضاحكاً إلى درجة انهمرت الدموع من عينيه . بعدئذ قال «اعذرني على ضحكي ومرحي ، لكن مجرد ذكر الحب يجعلني دائماً أضحك».

صدم الأمير أيما صدمة لهذا المرح سيء التوقيت ، ثم قال « أليس الحب هو سر الطبيعة العظيم ، مبدأ المبادىء في الحياة ، رباط التعاطف في الكون كله » ؟

«كلام أحمق ! !» قاطعه الببغاء صائحاً ، «بربك، من اين تعلمت هذا الهراء العاطفي؟ صدقني، الحب شيءقديم منسي، لا يسمع المرء بذكره بين ذوي العقول وأبناء الطبقة الراقية» .

صعد الأمير زفرة وهو يتذكر اللغة المختلفة لصديقه طائر الحمام، ثم فكر: لكن هذا الببغاء عاش في البلاط، انه يؤثر أصحاب العقول وابناء الطبقة الراقية وهو لا يعرف شيئاً عن ذلك الذي يدعى الحب.

وفي الحال وجه أسئلته، عازفاً عن كل رغبة في إثارة المزيد من السخرية تجاه العاطفة التي كانت تملأ قلبه، نحو الهدف المباشر من زيارته.

«قل لي» ، بدأ الأمير «يا أكثر الببغاوات معرفة وكمالاً انت يا من دخلت كل مكان وعرفت اكثر جنائن السيدات سرية واحتجاباً . هل صدف وقابلت في احدى جولاتك صاحبة هذه الصورة ؟ »

أمسك الببغاء الصورة بمخالبه، مقلباً النظر فيها، متفحصاً إياها بكل فضول وامعان ، بعدئذ قال:

«بشرفي انه لوجه في غاية الجمال، اجل في غاية الجمال لكن بالمحصلة ، المرء يرى الكثير من النساء الجميلات في رحلاته حتى انه بالكاد يستطيع ــ لكن لحظة..أجل ليباركني ا لله ـ دعني الق نظرة اخرى ــ بالتأكيد .... كفى.. إنها الأميرة ألديغوندا... وكيف تراني انسى من هي غالية على قلبي اثيرة كثيراً لدي!؟ »

« الاميرة الديغوندا» ! ردد الأمير «واين أجدها يا ترى؟ » «هوناً، هوناً» قال الببغاء «من السهل ان تجدها لكن ما أصعب ان تصل اليها ! ! إنها الابنة الوحيدة لملك طليطلة وقد أمر بعزلها عن العالم كله حتى تبلغ ربيعها السابع عشر وذلك بسبب نبوءة احد المنجمين. عينك لن تبصرها وما من كائن بشري يمكنه ان يراها لقد سمح لي بالدخول إلى حضرتها كي اسليها وأؤكد لك، بكل ما للببغاء الذي رأى العالم كله من شرف، ما رأيت في حياتي أميرة أكثر رصانة منها » .

« كلمة ثقة يا ببغائي العزيز»، قال الأمير «انا ولي عهد مملكة ولسوف أجلس ذات يوم على العرش. إني أرى انك طائر ذو خبرة يفهم الدنيا جيداً ساعدني للفوز بتلك الأميرة ولسوف أسند اليك منصباً هاماً في بلاطي». «بكل

سرور» قال الببغاء «لكن ليكن ذلك المنصب فكرياً ان أمكن، فنحن ، معشر أصحاب المواهب أكره ما نكره العمل اليدوي» .

في الحال اتخذت الترتيبات اللازمة ، وانطلق الامير من قرطبة عبر البوابة نفسها التي دخل منها . دعا البوم فنزل من ذلك الوكر في الجدار ، قدم نفسه لزميل الرحلة الجديد كأخ عالم، بعدئذ انطلقوا معاً راحلين . ببطء رحلوا ، بل أكثر بطئاً مما كان يتوافق مع نفاد صبر الأمير ، لكن الببغاء كان قد اعتاد الحياة الراقية ولم يكن يحب ان يزعجه أحد في الصباح الباكر.

من جهة أخرى، كان البوم يحب النوم وقت الظهيرة وكان يقضي الكثير من الوقت في قيلولاته الطويلة تلك.

كذلك كان حبه لكل ما هو قديم يعيقه في الطريق اذ كان يصر على التوقف عند كل اثر دارس وطلل خرب يتفحصه ويدقق فيه، كما كانت لديه حكايات خرافية طويلة يرويها عن كل برج قديم وقلعة أثرية في البلاد، كان الأمير يفترض أن البوم والببغاء ، لكونهما طائري علم ومعرفة ، سيبتهجان واحدهما بصحبة الآخر لكنه كان مخطئاً كثيراً. فقد كانا يتشاحنان باستمرار أحدهما ذو موهبة أدبية والآخر فيلسوف. الببغاء يروي الشعر، فينتقد القصائد الحديثة ويبرع في نقاط معينة من المعرفة، أما البوم فكان ينظر إلى أصناف المعرفةكافة على أنها سخيفة تافهة، وحدها الميتافيزياء كان يستمتع بها، كذلك كان بإمكان الببغاء أن يغني اغاني ويردد كلمات جميلة ويمزح منكتاً على جاره الرصين، ساخراً من ذكائه وموهبته، الأمر الذي كان البوم يعتبره إساءة محزنة لكرامته، فيتجهم وجهه أكثر وأكثر ويغرق في صمته بقية اليوم.

لم يكن الأمير يعطي بالاًلمشاحنات زميليه، فقد كان يستغرق في احلامه وخيالاته، وهو يتأمل صورة الأميرة الجميلة. على هذا النحو، اجتاز الركب ممرات «سيرامورينا» الوعرة ثم عبر سهول السانشا وقشتالة التي حرقتها الشمس وسار على طول ضفاف «التاغوس الذهبي» الذي يلتف ويتعرج عبر نصف اسبانيا والبرتغال.

أخيراً ، وصلوا ثلاثتهم إلى نقطة رأوا منها مدينة حصينة ذات اسوار وأبراج بنيت على نتوء جبلي شديد الوعورة كان نهر التاغوس يلتف حول الجزء الأسفل منه ويدور هادراً عنيفاً.

«انظر» هتف البوم «تلك هي مدينة طليطلة القديمة الشهيرة بآثارها. انظر تلك القباب الرائعة والأبراج العالية وقد كساها الزمن حلل الروعة والعظمة تلك التي اطال التفكير فيها الكثير من اسلافي.

«أف» صاح الببغاء مقاطعاً زميله الذي ينتشي بحب كل قديم «ما لنا وللآثار القديمة؟ ما لنا وللحكايات؟ لأساطيرك وأ سلافك؟ انظر إلى ما يقربنا أكثر من هدفنا ـ انظر إلى مواطن الشباب والجمال ـ اخيراً ، أيها الأمير، انظر إلى موطن اميرتك التي طال بحثك عنها .» نظر الأمير في الاتجاه الذي اشار إليه الببغاء فرأى وسط مرج أخضر بهيج، تماماً على ضفاف التاغوس، قصراً مهيباً تحيط به الرياض الغناء . إنه المكان نفسه الذي وصفه له صديقه، طائر الحمام، مقراً لصاحبة تلك الصورة. بقلب خافق نظر الأمير إلى القصر مفكراً «ربما وفي هذه اللحظة بالذات تمارس الأميرة الحسناء رياضتها تحت تلك الاشجار الوارفة والرياض الظليلة او تسير بخطا لطيفة ـ على تلك المصاطب الفاخرة أو تستريح تحت تلك السقوف العالية. لكن ما إن دقق النظر اكثر حتى رأى اسوار الحديقة بالغة الارتفاع إلى درجة يتعذر تسلقها. وقد انتشر فوقها عدد من الحراس المسلحين يمنعون كل وصول اليها.

التفت الامير إلى الببغاء ثم قال « يا أكثر الطيور حكمة وكمالاً، أنت يا من تملك موهبة النطق البشري، امض هناك إلى تلك الحديقة، ابحث عن معبودة روحي وقل لها: الأمير احمد، سائح الحب، الذي تتحكم بمصيره النجوم قد وصل بحثاً عنك إلى الضفاف المزهرة لنهر التاغوس».

بعيداً طار الببغاء المحور بما كلف به من مهمة، متجهاً إلى الحديقة التي كانت اشجارها الباسقة تسمو على اسوارها العالية. هنيهة من الزمن حلق الببغاء هناك محوماً فوق المروج الخضراء ورياض الاشجار. بعدئذ حط على شرفة الرواق الذي كان يطل على النهر. هناك ، حدق إلى الداخل فرأى الأميرة مستلقية على أريكة وثيرة، عيناها مسمرتان على ورقة امامها وهما تهميان الدموع التي راحت تنساب على وجنتيها الشاحبتين . لحظة من الزمن، ظل الببغاء يرتب ريش جناحيه، مسوياً حلته الخضراء الزاهية، رافعاً من قنزعته، بعدئذ طار إلى ان جثم إلى جانبها، بهيئته البهية، ثم قال متصنعاً أرق النبرات: «جففي دموعك ، يا أجمل الأميرات، فقد جئت حاملاً لقلبك السلوان» .

أجفلت الأميرة ، وهي تسمع ذلك الصوت، أيما إجفال. التفتت هنا وهناك لكن دون ان ترى سوى طائر صغير أخضر الريش يهز رأسه وينحني احتراماً لها، «وأسفاه ! !» قالت الأميرة «أي سلوان يمكنك ان تحمل لي، وما أنت سوى ببغاء»؟! ذلك السؤال أثار حنق الببغاء فأسرع إلى القول «حسناوات كثيرات حملت لهن في حياتي السلوان، لكن دعي ذلك جانباً فأنا الآن سفير إليك من أمير ابن أمير. ألا فاعلمي ان احمد أمير غرناطة، قد وصل بحثاً عنك وهو الآن مخيم قريباً في مكان ما من ضفاف التاغوس المزهرة».

لدى سماعها تلك الكلمات، برقت عينا الاميرة الحسناء، بريقاً اشد من ماسات إكليل رأسها ثم هتفت «يا أحلى الببغاوات، سارة أخبارك فعلاً، أنا التي نال منها الضعف والضنى ما نال، أنا السقيمة حتى الموت بعد ان شككت ببقاء أحمد على قيد الحياة. هيا ايها الببغاء عد أدراجك وقل له « إن كلمات رسالته منقوشة في قلبي وإن شعره غذاء روحي. لكن قل له إن عليه ان يستعد للبرهان على حبه بقوة السلاح، فغداً هو ميلادي السابع عشر ولسوف يقيم والدي الملك مبارزة عظيمة، يشترك فيها عدة أمراء، ويدي هي جائزة من ينتصر»؟

من جديد طار الببغاء، خافقاً بجانحيه ماراً فوق الأجمات والرياض عائداً إلى حيث كان الأمير ينتظر. فرحة احمد بإيجاد الأميرة ، معبودته، صاحبة الصورة، واكتشاف انها فتاة حقيقية من لحم ودم، امر لا يمكن ان يدركه إلا أولئك المحظوظون من البشر الذين يسعفهم حسن الحظ في ان يعيشوا احلام اليقظة وينتقلوا من الخيال إلى الحقيقة: لكن كان ما يزال هناك شيء واحد يقف حائلاً دون انتقاله ذاك ـ انه تلك المبارزة الملأى بالأخطار. والواقع، ان ضفاف التاغوس كانت تعكس بريق الاسلحة وتردد اصوات الابواق للعديد من الفرسان الذين كانوا بحواشيهم المزدهية المتفاخرة يغذون الخطا باتجاه طليطلة لحضور الاحتفال. كان النجم الذي يتحكم بمصير الامير هو نفسه يتحكم بمصير الاميرة، اذ حتى ربيعها السابع عشر كان عليها ان تعيش منعزلة عن العالم تحرسها العيون لإبعادها عن عواطف الحب والغرام.

مع ذلك ، كان ، اشتهرت به من سحر وفتون قد عززته عزلتها وأكدته بدلاً من إخفائه وتعتيمه، وكان عدد من الامراء الأقوياء قد بدؤوا التنافس طلباً ليدها. ولكي يتجنب ابوها، الملك البالغ البراعة العظيم الدهاء، خلق الاعداء

لنفسه إذا ما تحيز لأحد منهم، فقد قرر الاحتكام إلى السلاح. وكان بين المرشحين المتنافسين عدة أمراء اشتهروا بالبسالة والقوة.

فأي خبر تلقاه العاثر الحظ الأمير أحمد الذي لم يكن يحمل حتى سلاحاً ولم يكن ذلك البارع في فنون القتال والفروسية؟ ... «كم أنا أمير سيء الحظ!!» قال أحمد «أن انشأ في جو من العزلة على يد فيلسوف! أي جدوى من الجبر والهندسة الآن؟ ما نفع الفلسفة في شؤون الحب؟ أواه!! يا بن ابي نابين! لماذا لم تعلمني فنون الحرب والقتال؟» عند ذاك، مزق البوم الصمت، مقدماً لخطبته بديباجة ملأى بالورع والتقوى، فقد كان مسلما مؤمناً تقياً. «الله أكبر!! تعالى ربك ذو الجلال والإكرام!» بدأ البوم هاتفاً «بيده وحده سر الأشياء كلها ــ وبيده وحده مصير الامراء! اعلم ايها الأمير ان هذه الأرض ملأى بالاسرار التي لا يعرفها إلا أولئك الذين يمكنهم، مثلي، ان ينقبوا عن المعرفة في ثنايا الظلام، واعلم ايها الأمير، ان في الجبال المجاورة يوجد كهف، في داخله طاولة من حديد، وعلى طاولة الحديد تلك عدة فارس مسحورة وإلى جانب تلك الطاولة يقف حصان مسحور وقد حبس هناك منذ العديد من الأجيال.»

بدهشة وعجب راح الأمير يحدق إليه فيما تابع البوم، وهو يطرف بعينيه المستديرتين الضخمتين وينصب عالياً قرنيه: «منذ سنوات كثيرة، رافقت والدي إلى تلك الانحاء في رحلة كشفية لأراضيه ولقد أقمنا في ذلك الكهف، وبذلك عرفت السر. إنه تقليد من تقاليد عائلتنا سمعت عنه من جدي، عندما كنت مجرد بويم صغير أن عدة الفارس تلك تعود بالأصل لساحر عربي مغربي التجأ إلى هذا الكهف عندما وضع المسيحيون أيديهم على طليطلة ثم مات هناك تاركاً حصانه وسلاحه وعليهما طلسم من سحر لا يمكن ان يفكه. وبالتالي أن يستخدم الحصان والسلاح، إلا رجل مسلم على أن يتم ذلك بين مطلع الشمس والظهيرة. في هذه الفترة من النهار كل من يستخدمهما سوف يغلب من يواجهه أياً كان عددهم».

«كفى.. كفى.. ولنبحث عن هذا الكهف في الحال». هتف أحمد على عجل.

وهكذا، بإرشاد معلمه الاسطوري، وجد الأمير الكهف الذي كان يقع في اكثر تجاويف تلك الجروف الصخرية وعورة تلك التي ترتفع عالياً حول طليطلة. لكن ما من عين كان بإمكانها ان تكشف مدخله إلا عين البوم المدققة الفاحصة.

هناك كان مصباح من الحجر المنحوت دائم الزيت دائم الاشتعال يلقي ضوءاً خافتاً على المكان. وعلى طاولة من حديد وسط الكهف كان يتكوم الدرع المسحور، قد استند الرمح عليه وإلى جانبه يقف حصان عربي عليه عدة الحرب والقتال لكنه جامد ساكن كتمثال.

كان الدرع يبرق ويلمع دون ان يناله الصدأ ، مثلما كان ايام زمان وكان الحصان في حال جيدة كما لو أنه آت لتوه من المرعى، ما إن وضع أحمد يده على عنقه، حتى دق الأرض بقائمتيه مطلقاً صهيلاً فرحاً عاليا هز جدران الكهف. وهكذا، مزوداً بالحصان والدرع والسلاح قرر الأمير أن يدخل التحدي في ميدان المبارزة والخطر.

مع حلول الصباح الموعود، كانت قوائم المتبارزين قد أعدت، وكانت جموعهم قد احتشدت في السهل، تماماً تحت أسوار طليطلة القائمة كالجروف، حيث اقيمت منصات وأروقة للمشاهدين تغطي أرضها القطيفة الغالية والسجاد الثمين، ويحمي سقفها من اشعة الشمس الحرير والديباج. حسناوات البلاد كن قد تجمعن في تلك الأروقة. فيما كان الفرسان الذين يزين رؤوسهم الريش يتقافزون على ظهور خيولهم ويتواثبون يحيط بهم أتباعهم.

بينهم، بالطبع، الأمراء في أبهى حللهم اولئك الذين كانوا سيشتركون في المبارزات . مع ذلك ، كسفت جمال اولئك الحسناوات كلهن، الأميرة الديغوندا، حين ظهرت في السرادق الملكي، تحط عليها للمرة الأولى نظرات العالم المفعم بالاعجاب. همهمات الاعجاب انتقلت في الحشد من صف الى صف لجمالها السماوي الرائع، اما الامراء المرشحون لطلب يدها ، بدافع مما سمعوه فقط عن سحرها وفتونها، فقد شعروا في تلك اللحظة أنهم أكثر حماسة بعشر مرات للصراع من اجلها.

لكن الأميرة كانت مضطربة السيماء ، لون وجنتيها يذهب ويجيء وعيناها تطوفان باحثتين بين جموع الفرسان ذوي الريش بكل تعابير القلق والاضطراب. حين اوشكت الابواق ان تنفخ إيذاناً ببدء المبارزات، اعلن المنادي عن وصول فارس غريب. إثر ذلك ظهر احمد على ظهر حصانه وهو يدخل الميدان ــ خوذة من حديد مرصعة بالجواهر ثبتت فوق عمامته ودرعه مكسو بصفائح الذهب، بينما كان سيفه وخنجره من صنع فاس يشعان بالاحجار الكريمة. من كتفه كان يتدلى

ترس دائري وفي يده كان يحمل الرمح المسحور، أما عدة حصانه فقد كانت مزخرفة باذخة، شراشيبها تصل حتى الأرض، فيما كان الحصان الشديد الكبرياء يتواثب شاخراً ناخراً، مطلقاً صهيله العالي المفعم فرحاً وهو ينزل من جديد إلى ميدان القتال. سلوك الأمير الرفيع الرائع بهر كل عين وحين اعلن المنادي اسمه «سائح الحب» ساد هرج ومرج بين الحضور ولا سيما السيدات الجميلات في الأروقة. مع ذلك حين طلب احمد إدراج اسمه في قائمة المتبارزين وجد أنها مقفلة في وجهه فلا أحد سوى الامراء مسموح له ان يدخل المبارزة. حينذاك صرح باسمه ومرتبته فازداد الطين بلة ـ إنه مسلم ولا يمكن لمسلم الاشتراك في مبارزة جائزة المنتصر فيها يد أميرة مسيحية.

في الحال أحاط الامراء المتنافسون به ناظرين اليه نظرات التعالي والتهديد، بل إن احد الامراء من ذوي السلوك المهين والاجسام الهرقلية راح يسخر من شبابه الغض وجسمه الناحل ويهزأ من لقبه ، لقب الحب .

تلك السخرية والهزء أثارا حنق الامير وفي الحال تحدى غريمه ان يبارزه، ابتعدا واحدهما عن الآخر المسافة الكافية، ثم انطلقا في الهجوم. لكن من اللمسة الأولى للرمح المسحور، تجندل الفارس المتكبر الساخر من فوق سرجه. هنا، كان بود الأمير ان يتوقف لكن واأسفاه ، فقد كان عليه ان يتعامل مع حصان شيطاني وسلاح مسحور، ما إن يبدأ الحركة والعمل حتى يصعب التحكم به، لقد اندفع الحصان العربي في قلب الحشد، وبدأ الرمح يقلب كل من يلقاه في طريقه. وهكذا اختلط الحابل بالنابل في الميدان: الرعاع بالامراء، الفقراء بالاغنياء، والأمير يصول ويجول ملء قلبه الحزن على ما يجري بغير ارادته. رأى الملك ما حل برعاياه وضيوفه فثار في صدره الحنق والغيظ وللتو أمر حراسه جميعاً بأن يخرجوا للميدان ـ لكنهم كانوا بغير خيول وقد جاؤوا بأسرع ما يستطيعون.

خلع الملك رداءه الملكي وأمسك بترس ورمح ثم امتطى حصاناً وانطلق الى الميدان عله يخيف الغريب بحضور جلالته نفسه لكن واأسفاه!! فالجلالة لا تفعل بافضل مما يفعل الرعاع، والحصان والرمح ما كانا ليهابا أحداً. فقد اندفع الحصان بأحمد، يملأ قلبه الخوف، باتجاه الملك مباشرة، وبلحظة واحدة كان الكعبان الملكيان ينقلبان في الهواء والتاج يتدحرج على التراب .

في تلك اللحظة، كانت الشمس قد بلغت سمت الظهيرة وكان الطلسم السحري قد استعاد قوته فانطلق الحصان العربي مندفعاً عبر السهل، قافزاً الحواجز، غائصاً في التاغوس، سابحاً في تياره الهادر، حاملاً الأمير وقد انقطعت انفاسه عجباً ودهشة الى الكهف. هناك استعاد وقفته بجانب الطاولة الحديدية، جامداً دون حراك. بسرور بالغ ترجل الأمير عن ظهره، معيداً العدة إلى مكانها، ملتزماً بالمقدور بانتظار ما يأتي. بعدئذ جلس في الكهف ، وهو يفكر بالحالة البائسة التي اوصله إليها ذلك الحصان الشيطاني والعدة المسحورة. أبداً لا ينبغي عليه ان يريهم وجهه في طليطلة بعد ما أنزله بفرسانها من إهانة واثار في ملكها من حنق وغيظ، والأكثر من ذلك ما تراها ستفكر الاميرة بما ارتكب من إساءة وصفاقة؟ جياشاً بالقلق والاضطراب ، ارسل الأمير رسوليه الطائرين علهما يأتيان له بالأخبار. في البداية مضى الببغاء الى الاماكن العامة وساحات المدينة المزدحمة بالناس وعاد إلى الأمير في الحال محملاً أحمالاً من الاشاعات والاقاويل. طليطلة كلها كانت في حيرة واندهاش. فالأميرة نقلت إلى القصر وقد غابت عن الوعي والاحتفال انتهى في حال من الفوضى والاضطراب، وكل من في المدينة يتحدث عن ذلك الظهور المفاجيء للفارس المسلم، أعماله الباهرة واختفائه الغريب. بعضهم كان يجزم انه ساحر عربي مغربي، آخرون كانوا يحسبونه شيطاناً اتخذ هيئة بشر، في حين كان بعض ثالث يتحدث عن حكايات تحكي عن فرسان مسحورين يختبئون في كهوف الجبال ويظنون أن ذلك الفارس الذي ظهر فجأة وفعل ما فعل قد يكون واحداً منهم خرج لتوه من مخبئه، لكن الكل كانوا متفقين على أنه ما من كائن بشري عادي يمكن أن يفعل ما فعل ذلك الفارس من أعاجيب أو يلقي عن ظهور خيولهم ما ألقى من أمراء المسيحية وفرسانها الشجعان المحاربين.

لكن في الليل فقط مضى البوم إلى المدينة محلقاً فوق شوارعها وساحاتها المعتمة، متنقلاً من مدخنة إلى سطح، بعدئذ رفرف بجانحيه متوجهاً إلى قصر الملك ذاك الذي كان ينتصب على ذروة طليطلة الصخرية. ثم تابع تجواله بين مصاطبه وأسواره، مختلساً السمع لكل نأمة وصوت مسترقاً النظر بعينيه الجاحظتين الكبيرتين عبر كل كوة فيها ضوء، دافعاً وصيفتي شرف أو ثلاثاً إلى نوبات جنون. مع الفجر فقط وقد بدأت الغزالة تذر قرنها فوق الجبال، عاد البوم من جولته ليروي للأمير ماسمع وشاهد.

«بينما كنت أتجول فوق واحد من أعلى أبراج القصر» قال البوم «رأيت عبر الشباك الأميرة الحسناء وهي تستلقي على أريكة وثيرة تحيط بها الحاشية والاطباء لكن دون ان تنتفع بشيء من رعايتهم وطبهم، وحين انسحبوا رأيتها تخرج رسالة من عبها، تقرأها وتلثمها، ثم تبدأ النحيب والبكاء على نحو أثار فيّ، أنا الفيلسوف ، كل التأثر والانفعال». تلك الاخبار جعلت قلب أحمد الرقيق ينفطر حزناً «صحيح كل الصحة كلامك يا بن ابي نابين الحكيم» صاح الأمير وكأنه يخاطب مربيه أمامه «الهم والغم. الأرق وسهر الليالي من نصيب المحبين والعشاق. فليحم ا لله الأميرة من بلاء ذاك الذي يدعى الحب».

مزيد من الأخبار جاء من طليطلة وكلها تؤكد تقرير البوم.فالمدينة كلها فريسة الاضطراب والقلق وقد نقلت الأميرة إلى أعلى برج في القصر، تقوم على حراسة الممرات المؤدية إليه أقوى المفارز العسكرية. بعدئذ بدأت نوبة من الاكتئاب تمسك بخناق الأميرة دون أن يستطيع أحد معرفة سببها. فقد رفضت أن تأكل أو تشرب كما أدارت الأذن الصماء لكل سلوى أو عزاء. أمهر الاطباء وأبرعهم مارسوا فنهم معها لكن عبثاً حتى بدأ الكل يعتقدون ان سحراً وقع على الأميرة. الأمر الذي جعل الملك يبعث بالمنادي معلنا ان من يشفي الأميرة له أغلى جوهرة في خزينة الملك. حين سمع البوم- وهو شبه غاف في زاوية من الزوايا. ذلك الإعلان قلب عينيه الكبيرتين المرة تلو المرة وبدا أكثر غموضاً من أية مرة سابقة «ا لله أكبر» هتف البوم صائحاً «سعيد من يشفي الأميرة» «ماذا تعني. أيها البوم المحترم»؟ قال أحمد.

«اسمع ما سأقول لك أيها الأمير. نحن معشر البوم -كما ينبغي ان تعلم. كائنات معرفة تعطي الكثير من نفسها للدرس والبحث. ولا أخفيك أنني أثناء تجوالي الأخير ليلاً فوق قباب طليطلة وأبراجها الصغيرة. اكتشفت مجموعة من طيور البوم العتيقة تعقد اجتماعها في برج مقبب عظيم وضعت فيه خزينة الملك. هناك كانت تناقش أشكال الجواهر وتصاميم الدرر القديمة وكذلك الأواني الذهبية والفضية المكدسة في الخزينة والنماذج المأخوذة من كل بلد وعصر.

لكن أشد اهتمامها كان منصباً على بعض الآثار واللقى التي بقيت في خزينة الملك منذ عهد رودريك القوطي.ومنها بالتحديد صندوق من خشب الصندل موثق بشرائط فولاذية من صنع شرقي وقد نقشت عليه أحرف ورسوم غامضة لا يفك رموزها إلا القلة من العارفين.

هذا الصندوق، بما عليه من كتابات، شغل المجتمعين لجلسات عدة، وأثار الكثير من النزاع والجدال . في وقت زيارتي تلك، كان بوم طاعن في السن، وصل لتوه من مصر، يجثم على غطاء الصندوق متفحصاً النقوش عليه مبرهناً من تلك الكتابات على أن الصندوق يحوي سجادة الحرير التي كانت تفرش على عرش سليمان الحكيم والتي جاء بها إلى طليطلة ولا شك اليهود الذين لجؤوا إلى هناك بعد سقوط القدس».

حين اختتم البوم خطابه الأثري، ظل الأمير هنيهة من الزمن مستغرقاً في التفكير. بعدئذ قال « قد سمعت من الحكيم ابن ابي نابين عن الخصائص العجيبة لتلك السجادة السحرية التي اختفت بسقوط القدس وكان يظن أن البشرية قد أضاعتها. إنها ولا شك ما تزال لغزاً غامضاً بالنسبة إلى مسيحيي طليطلة وإذا ما استطعت الحصول على تلك السجادة، ضمنت حظي إلى الأبد».

في اليوم التالي، خلع الأمير ملابسه الفاخرة مرتدياً بدلاً من ذلك ثوباً بسيطاً من ذاك الذي يلبسه عرب الصحراء. كما صبغ بشرته حتى صارت سمراء داكنة ولم يعد باستطاعة أحد أن يتعرف فيه إلى ذلك المحارب الرائع الذي أثار كل ذلك الاعجاب والهلع في ساحة البراز . بعدئذ حمل عصا بيده وجعبة إلى جانبه وقصبة راع صغيرة ثم مضى إلى طليطلة فبوابة قصر الملك مقدماً نفسه كمرشح لنيل المكافأة التي عرضها الملك على من يشفي الأميرة. لكن الحراس هموا بطرده بعيداً ساخرين منه قائلين: «وماذا باستطاعة عربي شريد مثلك ان يفعل في الوقت الذي عجز فيه أكثر الناس علما ومعرفة في هذه البلاد عن فعل شيء»؟ غير أن الملك سمع الجلبة والأصوات فأمر بإحضار العربي إليه ـ «أيها الملك البالغ القوة» قال أحمد «انك ترى أمامك أعرابياً من البادية قضى الشطر الأعظم من حياته في قفار الصحراء. تلك القفار التي هي، كما هو معروف، مساكن للشياطين والأبالسة التي تحاصرنا نحن الرعاة البسطاء حتى في وحدتنا وعزلتنا، فتدخل في قطعاننا ومواشينا، وفي بعض الأحيان تجعل حتى الجمل الصبور الكثير التحمل يهيج ويثور. الموسيقى، ايها الملك، هي علاجنا لهذه الحالات وهي السحر المضاد الذي نستخدمه، كما أن لدينا ألحاناً خرافية تناقلناها جيلاً بعد جيل ـ نعزفها فنسحر بها تلك الأبالسة والشياطين. إنني من سلالة موهوبة، باستطاعتها استخدام ذلك السحر بأشد قواه. وإذا كانت ابنتك واقعة تحت أي نوع من أنواع ذلك السحر، فإنني اعاهدك، مقابل رأسي، أن أحررها منه».

نبرة الأمير الواثق من نفسه دغدغت بالأمل قلب الملك، هو الذي كان يفهم جيداً ويعرف تماماً ما يملكه العرب من اسرار عجيبة، فأخذه للتو إلى البرج العالي الذي تفصله عن كل ما حوله أبواب عدة، وفي اعلاه تقع حجرة الأميرة. كانت النوافذ تنفتح على مصطبة مزودة بدرابزين تشرف على طليطلة وعلى كل ما يحيط بها من بلاد لكنها كلها كانت محجوبة بالستائر، لأن الأميرة التي كانت مستلقية في الداخل، كانت فريسة لاكتئاب شديد وكانت ترفض كل شيء عدا الصمت والظلام، جلس الأمير على المصطبة وراح يعزف على قصبته الرعوية ألحانه العربية الغريبة، التي تعلمها من أتباعه في قصر «جنة الريف» في غرناطة. غير أن الأميرة ظلت ساهمة كئيبة لا تحس به ولا بألحانه، فهز الأطباء الذين جيء بهم إليها رؤوسهم ثم ابتسموا بسخرية واستهزاء. أخيراً ألقى الأمير بالقصبة جانبا، وبنغمة هادئة بسيطة، راح ينشد أبيات الحب نفسها تلك التي كانت تتضمنها رسالته وتصرح عن حبه لها. في الحال ميزت الأميرة النغمة ــ وفي الحال تسرب فرح غامر الى قلبها فرفعت رأسها مصيخة السمع، فيما اغرورقت عيناها بالدموع ثم راحت تنهمر على خديها، صدرها راح يعلو ويهبط بدفق من العواطف ثم همت بالسؤال عن ذلك الشاعر المغني وإحضاره اليها لولا حياء العذارى الذي حال بينها وبين الكلام.

من عينيها عرف الملك ما ترغب فيه، وبناء على أوامره جيء بأحمد إلى حجرة الأميرة، لكن العاشقين كانا حذرين، فلم يتبادلا إلا نظرات سريعة، لكنها كانت تنطق بما لا تنطق به كتب مجلدة. أجل، لم تحقق الموسيقى نصراً أكثركمالاً من ذلك النصر قط. فقد عاد لون الورد إلى وجنتي الأميرة الغضتين، كما عادت الطراوة الى شفتيها الذابلتين، ولمعان البريق إلى عينيها الذاويتين.

تبادل الاطباء الحاضرون النظرات وكلهم حيرة ودهشة فيما راح الملك يقلب نظر الاعجاب والإكبار في ذلك الشاعر العربي وقد خالط إعجابه شيء من خوف. بعدئذ هتف: «شاب عجيب!! لسوف تكون منذ اليوم طبيب البلاط الأول ولن آخذ بعد اليوم وصفة أخرى غير ألحانك، أما الآن فهاك مكافأتك: أغلى جوهرة في خزينتي».

لكن احمد اجاب «أيها الملك، أنا لست معنياً بالفضة أو الذهب، باللآلىء أو الاحجار الكريمة. فقط، ثمة أثر قديم في خزينتك انتقل اليكم من المسلمين الذين

كانوا يملكون طليطلة ذات يوم. إنه صندوق من خشب الصندل فيه سجادة حريرية. هبني ذلك الصندوق أكن راضياً».

دهش الحضور كلهم وقد فاجأهم تواضع طلب العربي، ثم دهشوا، اكثر حين جيء بالصندوق المصنوع من خشب الصندل وأخرجت السجادة منه، فقد كانت مصنوعة من الحرير الناعم الأخضر وعليها كتابات بأحرف عربية وكلدانية. نظر اطباء البلاد بعضهم إلى البعض الآخر، هازين أكتافهم ضاحكين من بساطة ذلك الطبيب الجديد الذي يمكن أن ترضيه مكافأة تافهة كهذه.

«هذه السجادة» قال الأمير «كانت ذات يوم تفرش على عرش سليمان الحكيم، وحري بها الآن أن تفرش تحت قدمي آية الجمال».

قال الأمير ذلك ثم مدها على المصطبة تحت الديوان الذي جيء به للأميرة. بعدئذ جلس هو نفسه عند قدميها قائلاً:

«من تراه يعارض ما هو مدون في كتاب القدر؟ انظروا، ها هي نبوءة المنجمين تتحقق. اعلم، أيها الملك، أنني أنا وابنتك عاشقان متيمان، احب واحدنا الآخر سراً... انظر إلي، انا سائح الحب».

وما ان نطق بتلك الكلمات حتى بدأت السجادة بالارتفاع في الجو، حاملة فوقها الأمير والأميرة، فيما راح الملك والأطباء يلاحقونهما بأنظارهم فاغري الأفواه جاحظي العيون إلى أن اصبحت مجرد نقطة على صدر سحابة بيضاء ثم غابت في قبة السماء الزرقاء.

ساخطاً ثائراً، دعا الملك خازنه إليه صارخاً به «كيف يحدث وتجعل كافراً يستحوذ على تعويذة كهذه؟».

«واأسفاه يا سيدي ! ! فما من احد كان يعلم شيئاً عنها اوكان باستطاعته فك الرموز والطلاسم المنقوشة على الصندوق. ان كانت حقاً هي سجادة عرش سليمان الحكيم، فإنها واقعة تحت قوة السحر، وبقوة السحر تلك يمكنها ان تنقل صاحبها إلى كل مكان في العالم، بساط ريح».

في الحال جمع الملك جيشاً كبيراً وانطلق إلى غرناطة في إثر الهاربين، لكن مسيرته كانت طويلة مضنية، وحين نصب مخيمه في سهل الفيغا أرسل رسولاً يطالب بإعادة ابنته، فجاء ملك غرناطة مع حاشيته كلها للقائه، وكان الملك هو

ذلك الشاعر المغني، إذ كان احمد قد خلف أباه على العرش بعد أن مات وكـانت ألديغوندا الحسناء قد أصبحت السلطانة. بيسر وسهولة هدأت ثائرة الملك المسيحي حين وجد أن ابنته ما زالت قائمة على دينها لا لأنه كان متعصباً لدينـه بـل لأن الدين كان رمزاً للكبرياء وشعاراً للأمراء. وهكذا، بدلاً من المعارك الدامية ، أقيمت سلسلة من المآدب والأفراح. عاد الملك اثرها سيداً مبتهجاً إلى طليطلـة، فيمـا ظـل الشابان يحكمان غرناطة مظللين بالسعادة والحكمة.

هنا، من المناسب أن نضيف أن البوم والببغاء، تبعا الأمـير علـى مراحـل إلى غرناطة، الأول يطير ليـلاً ويسـتريح نهـاراً ليتوقـف في ممتلكـات عائلتـه الموروثـة والثاني يطير نهاراً ويبيت ليلاً محلقاً فوق كل مدينـة وبلـدة صانعـاً دوائـر للفـرح ودوائر.

بكل امتنان وعرفان بالجميل رد احمد الخدمات التي كانا قد قدماهـا لـه في سياحته فعيّن البوم رئيساً لوزرائه وعين الببغاء رئيساً لمراسمه،وغني عن القول انه لم تكن هناك دولة، إدارتها أكثر حكمة ولا بلاط،مراسمه اكثر دقة من تلك الدولـة والبلاط.



تجوال بين التلال

كنت قد اعتدت أن أسلي نفسي مع غروب كل شمس، حينما تكون الحرارة قد خفت، بالقيام بتجوال طويل بين التـلال المجـاورة والوديـان الظليلـة العميقـة يصحبني مرافقي المؤرخ العظيم ماتيو الذي كنت أعطي حبـه للـثرثرة في مناسـبات كهذه إذناً بلا حدود. لهذا، نادراً . ما كانت صخرة أو أثر أوبركـة مهدمـة أو واد صغير منعزل إلا ولديه عنه أو عنها قصة عجيبة يرويها ، بـل والأكـثر مـن ذلـك أنها غالباً ما تكون قصة خرافية فيها ذهـب وكنـوز ، ذلـك أنـه مـا مـن شـيطان مسكين كان بسخاء شياطينه وتبديدهم للكنوز الخفية.

في إحدى تلك النزهات، كان ماتيو أكثر ثرثرة وهذراً مما هـو عـادة. وكـانت الشمس تغيب خلف الأفق حين انطلقنا مـن بوابـة العـدل الكبـيرة صـاعدين ممـراً تحفه الأشجار من كلا جانبيه إلى ان وصلنا الى اجمة من أشجار تـين ورمـان عنـد اسفل البرج المدعو «برج الطوابق السبعة» . إنه البرج نفسه الذي يقال إن أبـا عبـد الله الصغير انطلق منه حين سلم عاصمتـه». هنـا أشـار مـاتيو الى ممـر ذي قنـاطر منخفض القاعدة، ثم شرع يحدثني عن روح أوجني شرير يقـال إنـه يسـكن هـذا

البرج منذ أيام العرب، حارساً كنوز ملك المسلمين. كما يقال إنه يخرج أحياناً في عز الليل متجولاً في شوارع الحمراء طائفاً شوارع غرناطة بهيئة حصان بلا رأس تلحق به ستة كلاب بنباح وعواء مرعبين .

«لكن هل صدف وقابلته بنفسك ، ماتيو، في أية جولة من جولاتك؟» «لا يا سيدي، والحمد لله، لكن جدي الخياط كان يعرف عدة أشخاص شاهدوه، إذ كان ذلك يحدث أكثر بكثير مما يحدث هذه الأيام ، مرة بهذه الهيئة ومرة بهيئة أخرى، الناس جميعاً في غرناطة سمعوا ببيلودو، فالعجائز ومربيات الأطفال يخفن به أطفالهن عندما يبكون .البعض يقول انه روح ملك عربي قاس قتل ستة من أبنائه ودفنهم في هذه الأقبية وإنهم يطاردونه في الليل انتقاماً منه. إنني أمتنع عن الوقوف على التفاصيل العجيبة التي ذكرها ماتيو الساذج البسيط عن ذلك الشبح المريب الذي كانت ، بالحقيقة، ولفترة من الزمن الموضوع المفضل الذي تدور حوله حكايات العجائز، والقصص المتوارثة في غرناطة، والذي ذكره كثيرا وعلى نحو محترم، مؤرخ قديم واسع الاطلاع ودارس لطبوغرافية ذلك المكان.

بعد أن غادرنا ذلك الصرح المليء بالأحداث ، تابعنا سيرنا بحذاء البساتين المثمرة لقصر جنة الريف حيث كان عندليبان أو ثلاثة عنادل تطلق أغاريدها بأعذب الألحان. خلف تلك البساتين، مررنا بعدد من خزانات المياه التي تعود لأيام العرب وقد فتحت أبوابها في قلب التل الصخري لكنها الآن مغلقة. تلك الخزانات كما أخبرني ماتيو ، كانت الأماكن المفضلة للاستحمام لديه هو ورفاق صباه ، إلى أن اخافتهم قصة العربي المسحور الذي ينطلق عادة من الباب الصخري ليشبك في شراكه المستحمين الغافلين.

بعد تلك الخزانات المسكونة، تابعنا تجوالنا صاعدين ممراً منعزلاً لا تطرقه الا البغال يلتف ويتعرج حول التلال وسرعان ما وجدنا أنفسنا وسط جبال مقفرة تبعث على الاكتئاب ، جرداء بلا أشجار وان كانت تتناثر فيها هنا وهناك بقع ملونة بالخضرة.

كل شيء ضمن مدى البصر كان يتسم بالقسوة والقحل. ونادراً ما كان بإمكان المرء أن يفكر أنه، وعلى مسافة قصيرة خلفنا، كان قصر جنة الريف ينتصب شامخاً ببساتينه الزاهرة وحدائقه المنظمة مصاطب مصاطب. أو يمكنه ان يفكر انه ما يزال بجوار غرناطة البهيجة، مدينة الرياض والينابيع. لكن هكذا

هي الطبيعة في اسبانيا، برية وموحشة ، ما إن تبتعد عنها يد الانسان، صحارى وجنان جنباً إلى جنب.

الممر الذي كنا نصعده يدعى، طبقاً لما قاله ما تيو، برانكودي لا تيناجا أو وادي الجرة ، ذلك أن جرة ملأى بالذهب العربي وجدت هنا في العصور القديمة، فذهن ماتيو المسكين لم يكن يشغله سوى حكايات الذهب تلك.

«لكن ما معنى الصليب الذي أراه هناك على كومة الحجارة تلك في ذلك الجزء الضيق من الوادي؟».

«اوه، لا شيء . احد المكاريين قتل هناك قبل بضع سنوات».

«إذن ، ماتيو، لديكم قطاع طرق ولصوص يصلون حتى بوابات الحمراء؟».

«ليس الآن يا سيدي، بل في السابق، حين كان يوجد عادة، الكثير من الخارجين على القانون حول القلعة، لكنهم جميعاً أخرجوا. أما الآن فليس هناك سوى الغجر الذين يعيشون في الكهوف المنتشرة في سفوح التلال، تماماً خارج القلعة وكثيرون منهم قادرون ان يفعلوا أي شيء ، لكن حادث قتل واحد لم يحدث هنا منذ زمن طويل، والرجل الذي قتل المكاري اعدم شنقاً في القلعة نفسها» .

كان ممرنا يسير مع الوادي الضيق صعوداً، إلى اليسار ترتفع كتلة صخرية هائلة غير ملساء تدعى «سلاديل مورو» أو «كرسي المغربي» مأخوذة من القصة المتوارثة التي اشرنا اليها سابقاً والقائلة إن أبا عبد الله البائس الحظ قد فر إلى هنا أثناء تمرد قام به الشعب وظل طوال نهاره جالساً على القنة الصخرية ينظر بحزن وانكسار إلى مدينته وهي تضج شغباً.

أخيراً : بلغنا أعلى النتوء الصخري المطل على غرناطة والذي يدعى جبل الشمس. كان المساء يقترب، وكانت الشمس الغاربة تكسو أعلى الذرى بأشعتها الذهبية، كما كان باستطاعتك ان ترى هنا وهناك راعياً وحيداً يسوق قطيعه وهو ينحدر السفح كي يقضي الليل في الاسفل أو مكارياً يسوق بغاله المحملة وهي تسير رتلاً احادياً على هذا الممر او ذاك علها تصل بوابات المدينة قبل حلول الظلام.

في تلك اللحظة وصلت مسامعنا الأنغام العميقة لجرس الكاتدرائية وهي تعبر الوهاد والوديان معلنة ساعة «الصلاة» لتردد تلك الانغام أجراس الكنائس كلها بل واجراس الأديرة المنتشرة بين الجبال. عند ثنية التلة توقف الراعي والمكاري وسط الطريق، رافعاً كل منهما قبعته، ساكناً بلا حراك حيناً من الزمن متمتماً صلاته المسائية. فهناك دائماً شيء رصين وسار في هذه العادة التي يتحد فيها الناس جميعاً ، حيثما يكونون وفي اللحظة نفسها، لتقديم صلواتهم للرب ورفع شكرهم وامتنانهم على ما قدم لهم من نعم في ذلك النهار.

إنها تنشر نوعاً من البركة والقدسية فوق تلك الأرض كما أن منظر الشمس وهي تغوص خلف الأفق بكل مهابتها وجلالها، يزيد كثيراً من رصانة المشهد وتأثيره كما زاد من تأثير ذلك المشهد، ونحن نتأمله، وحشة المكان والوحدة والصمت . لقد كنا على الذروة الجرداء المهشمة لجبل الشمس المسكون، حيث بقايا الصهاريج والخزانات وحيث القواعد الصخرية الهائلة التي كانت تقوم عليها ابنية كبيرة تتحدث كلها عن ازدحامها بالسكان في الماضي إنما غدت اليوم كلها صامتة مهجورة. وصلنا ، ونحن نتجول بين آثار الماضي القديمة تلك، الى فتحة دائروية تتغلغل عميقاً في قلب الجبل فقال ماتيو إنها واحدة من اعاجيب ذلك المكان واسراره، حسبتها في البدء بئراً حفرها العرب الذين لم يكونوا يعرفون الكلل كي يحصلوا على عنصرهم المفضل، الماء، بأعذب اشكاله. لكن كان لدى ماتيو قصة مغايرة، قصة تلائم مزاجه اكثر بكثير، إذ طبقاً لقصص التراث الذي كان جده وأبوه يؤمنان به كل الإيمان، كانت هذه الفتحة الدائرية مدخلاً إلى مغارة الجبل الواقعة تحت الأرض، حيث مايزال أبو عبد الله ورجال بلاطه هناك مسحورين جامدين، لكن من حين إلى آخر يفك عنهم السحر فينطلقون ليلاً وفي أوقات معينة ليزوروا مساكنهم القديمة من جديد.

«آه يا سيدي، هذا الجبل مليء بالاعاجيب من كل صنف ولون. ففي مكان آخر، ثمة فتحة تشبه هذه ايضاً ، لكن عند مدخلها تماماً يتدلى إناء حديدي السلسلة، ولا أحد يعلم ماذا في ذلك الإناء فقد ظل دائماً وغطاؤه عليه، لكن الكل كانوا يظنون أنه ملآن بذهب المغاربة العرب ، وكثير من الناس حاولوا ان يسحبوه خارجاً ، إذ أنه كان يبدو وكأنه في متناول اليد ، لكن ما إن يلمس حتى يغوص بعيداً بعيداً في الاسفل ولا يظهر مرة ثانية إلا بعد حين من الزمان.

أخيراً ، مد احدهم ممن كان يعتقد أنـه مسـحور، ولا شـك، الصليـب إليـه ملامساً إياه عله يفك عنه السحر، فغاب الإناء عن النظر ولم يره أحد بعـد ذلـك قط.

تلك هي حقيقة يا سيدي، فقد كان جدي شاهد عيان . «ماذا يا ماتيو ؟ هل شاهد جدك ا لإناء؟» «لا يا سيدي، بل شاهد الفتحةالتي كان الإناء معلقاً فيهـا». «إنه الشيء ذاته. ماتيو».

حينذاك كانت عتمة الغسق تشتد شيئاً فشيئاً، والغسق في تلك الاقاليم يكـون قصيراً عادة.. دافعاً بنا لمغادرة تلـك الأرض المسـكونة، لكـن، ونحـن نهبـط سـفح الجبل، لم يكن قد ظل هنـاك راع نـراه ولا مكـاري يسـوق بغالـه او شـيء يُسـمع صوته سوى وقع خطانا وأصوات الجنادب الوحيدة . كـانت ظـلال الـوادي تغـدو أكثف وأقتم، إلى أن سيطر الظلام على كـل مـا حولنـا. وحدهـا ذروة سـيرانيفادا العالية كانت ما تزال تحتفظ بالأثر البـاقي لضـوء النهـار. فقمتهـا المغطـاة بـالثلج كانت تشع ألقاً على ما وراءها من سماء زرقاء مكمدة فتبدو لشدة نقاء الجو وكأنها في متناول أيدينا.

«كم تبدو ألسـيرا قريبـة هـذا المسـاء » ! قـال مـاتيو « لكـأن باسـتطاعتك ان تلمسها بيدك، مع أنها تبعد فراسخ كثيرة عنك ».

وهو يتكلم، كانت نجمة قد بدأت بالظهور فوق قمة الجبل المغطـاة بـالثلج، وكانت النجمة الوحيدة الـتي يمكـن رؤيتهـا في السـماء. جميلـة. كبـيرة. نقيـة. وضاءة إلى درجة جعلت ماتيو البسيط يعبر عن بهجته وغبطته.

« أية نجمة ساحرة !! كم هي واضحة لألاءة! !ـ مـا مـن نجمـة يمكنهـا أن تكون أكثر تألقا !! » .

والحقيقة غالباً ما كنت ألحظ هـذه الحساسـية المفرطـة لـدى عامـة الاسـبان تجاه سحر الطبيعة واشيائها، فتألق نجمة، جمال زهرة ، عبير وردة، صفاء نبـع وعذوبته الرقراقة، كل ذلك يوحي لهم بنوع من المتعة الشاعرية، بعدئـذ أي دفـق من الكلمات السعيدة يمكن أن توفر لهـم لغتهـم كـي يعـبروا عمـا في نفوسـهم مـن غبطة !

«لكن، ماتيو، ما تلك الاضواء التي أراها مشعشعة على طول السيرانيفادا تماماً تحت منطقة الثلوج، والتي تبدو وكأنها نجوم لولا انها أميل للاحمرار وفي السفح المظلم من الجبل؟»

«تلك نيران يا سيدي يشعلها الرجال الذين يجمعون الثلج والجليد لتمويل غرناطة بحاجتها منهما. إنهم يصعدون عصر كل يوم ببغالهم وحميرهم وبالتناوب، بعضهم يستريح ويتدفأ بجانب النار والبعض الآخر يعملون مالئين سلالهم بالجليد. بعدئذ يهبطون الجبل الى ان يصلوا الى بوابات غرناطة قبل ان تشرق الشمس. تلك هي السييرانيفادا، يا سيدي، كتلة من الجليد وسط الاندلس كي تحافظ على برودتها في الصيف» .

في تلك اللحظة، كان الظلام قد خيم ، وكنا نجتاز البرانكو تماماً حيث ينتصب صليب المكاري القتيل، حينذاك، رأيت عدداً من الأضواء تتحرك على مسافة منا ، بادية وكأنها تصعد الوادي باتجاهنا ثم ما إن اقتربت قليلاً حتى تأكدنا أنها مشاعل يحملها رتل من الاشخاص المسربلين بالسواد: انه موكب ربما كان يحمل الرعب في كل حين ، لكنه كان مرعباً على نحو خاص في تلك اللحظة من الزمان وذلك المكان.الموحش المنعزل في البرية.

دنا ماتيو مني ثم أخبرني بصوت منخفض ان ذلك الموكب هو جنازة حيث يحملونه إلى المقبرة الواقعة بين التلال. حين مر بنا الموكب، كانت أضواء المشاعل المتراقصة، وهي تسقط على الوجوه المقلوبة، وملابس الجنازة السوداء التي يلبسها حاملو المشاعل، ذات تأثير خيالي عجيب مخيف تماماً، وهي تكشف ملامح الجثة المحمولة طبقاً لعادة الاسبان، على لوح مكشوف لا يغطيها شيء. هنيهة من الزمن ظللت أحملق بالركب المخيف وهو يلتف صاعداً سفح الجبل المعتم، معيداً إلى ذهني القصة القديمة لموكب الشياطين وهو يحمل جثمان الخاطىء صاعداً به الى فوهة بركان «سترمبولي». «آه يا سيدي ! !» صاح ماتيو: «يمكنني ان أحكي لك قصة موكب شاهده الناس ذات مرة بين هذه الجبال، لكن لعلك حينذاك ستضحك مني وتقول إنها واحدة من مخلفات جدي الخياط».

«لا ، أبداً ، ماتيو، فما من شيء، يسرني أكثر من قصص العجائب».
«حسنا يا سيدي إنها تدور حول واحد من اولئك الرجال الذين كنا نتحدث عنهم ممن يجمعون الثلج من قمة السيرانيفادا إذ عليك ان تعلم انه قبل سنوات كثيرة، أي في عهد جدي، كان هنالك رجل عجوز يدعى «العم نيقولا» ملأ سلال بغله

بالثلج والجليد وعاد يهبط الجبل، ولأنــه كـان شـديد النعـاس ، فقـد ركـب مـتن البغل وسرعان ما غفا هناك ، يتمايل رأسه ذات اليمـين وذات الشمال، للأعلى وللأسفل، تبعاً لوقع حوافر بغلـه الهـرم الواثـق الخطـا علـى طـول الممـر المنحـدر بمحاذاة الجروف والمهاوي والوديان، لكن دون ان يشعر بما يهـدد أمنـه وسـلامته وكأنه يسير في أحد السهول. أخيراً، أفاق العم نيقولا، ثم فرك عينيـه وهـو ينظر حوله ـ وللحقيقة، فقد كان رجلا ذا عقل ومنطق.

كان البدر ساطعاً وكان كل شيء حوله كأنه نهار، فرأى المدينة تحته تماماً، منبسطة كراحة اليد، متألقة بمبانيها البيضاء كصفحة من فضة تحت ضوء القمر لكن يا الله! فهي لا تشبه في شيء ، يا سيدي ، المدينة التي كان قد غادرها قبل بضع ساعات اذ بدلاً من الكاتدرائية بقبتها الكبيرة وأبراجها الصغيرة، وبـدلاً مـن الكنائس بمسلاتها والأديرة بصواعدها المثلثية، تعلوهـا جميعـاً الصلبـان المباركـة. شاهد العم نيقولا مساجد عربية بمآذنها وقبابها وقد علاها جميعاً الهـلال، تمامـاً كذاك الذي تراه على أعلام المغرب، حسن! يا سيدي، لقد أصيب العم نيقولا كما يمكنك أن تفترض بدهشة شديدة مـن هـذا كلـه ، لكنـه راح يحملـق بالمدينـة. في الوقت ذاته كان ثمة جيش عرمرم يسير صاعداً الجبل ملتفاً مع الوديـان ، يظهـر أحياناً في ضوء القمر ويختفي أحياناً في الظلال. مـع دنـوه ، رأى العـم نيقـولا أن هناك خيالة ومشاة وكلهم بملابس حرب عربية. حاول الرجـل ان يخلـي الطريـق لهم، إلا أن بغله الهرم وقف جامداً كالتمثال رافضـاً الحـراك، مرتعشـاً في الوقـت نفسه كورقة في مهب ريح ـ فالبهائم العجماء، يا سـيدي ، يصيبهـا الهلـع ايضـاً مثلها مثل الكائنات البشرية. حسن يا سيدي، مرَّ بـه جيـش الاشباح ذاك وهـو واقف دون حراك، وكان في الجيش رجال بـدوا وكـأنهم ينفخـون ابواقـاً وآخـرون يقرعون طبولاً أو يدقون صنوجـاً . مـع ذلـك، لم يكـن باستطاعة العـم نيقـولا أن يسمع صوتاً واحداً، فالكل يسير دون أدنى صوت، تماماً كما نشاهد تلك الجيوش المرسومة وهي تتحرك على خشبة المسرح في مسرح غرناطـة وعلـى وجـوه الجميـع شحوب الموتى. أخيراً وفي مؤخرة الجيـش، بـين فارسـين عربيـين اسمريـن، كـان يركب مفتش غرناطة الأكبر، على بغل أبيض كالثلج. عجب العم نيقولا من رؤيـة ذلك المفتش بصحبة اولئك الفرسان العرب، فالمفتش مشهور بكراهيتـه للعـرب، أو بالأحرى لكل من ليس مسيحياً، يهوديا كان أم هرطوقيـاً. وكـان عـادة يتصيدهـم تصيداً ليرسلهم للسياط والنار. مع ذلك ، احس العم نيقولا بالأمان وهو يرى بقربه كاهناً على تلك الدرجة من الإيمان والقدسية، وللتو سأله ان يمنحـه البركـة! هـم

المفتش برسم علامة الصليب. حين ذاك، ويا للهول ! جاءت العم نيقولا ضربة قلبته عن ظهر بغله الهرم الى حافة المنحدر راح إثرها ينقلب رأساً على عقب وبطناً الى ظهر إلى ان وصل إلى القاع ثم لم يستعد وعيه إلا بعد وقت طويل من شروق الشمس. حينذاك وجد نفسه في أسفل واد عميق، بغله يرعى بجانبه والثلج في سلاله قد ذاب تماماً. بعدئذ زحف العم نيقولا إلى أن وصل إلى بغله، امتطى ظهره وعاد الى غرناطة، وكله كدمات زرقاء، خموش وجروح، لكن كان في غاية السرور إذ وجد مدينته نفسها بكنائسها المسيحية وصلبانها. حين روى قصة مغامرته تلك الليلة، ضحك الكل منه. بعضهم قال إنها كلها مجرد حلم حلم به وهو يغفو على ظهر بغله، آخرون ظنوا أنها قصة مخترعة من ألفها إلى يائها ــ لكن ما كان غريباً يا سيدي وما جعل الناس بعدئذ يفكرون بالمسألة على نحو أكثر جدية هو ان المفتش الأكبر مات خلال تلك السنة، وغالبا ما كنت اسمع جدي الخياط يقول إن المقصود اكثر من أي شيء آخر هو ان جيش الاشباح ذاك كان يحمل معه شبيه الكاهن اكثر مما كان اناس يجرؤون ان يظنوا».

«إذن، انت تلمح ، يا صديقي ماتيو، إلى أن هناك نوعاً من المطهر للعرب في أحشاء تلك الجبال، مطهر حملت إليه الاشباح المفتش. «لا سمح الله يا سيدي، انا لا أعرف شيئاً عن القضية، بل أروي فقط ما سمعت من جدي».

بانتهاء ماتيو من حكايته التي رويتها بأكبر قدر من الإيجاز والتي تخللها كثير من التعليقات وتسرب منها الكثير من التفاصيل الدقيقة، وصلنا إلى بوابة الحمراء.

غير أن القصص العجيبة الغريبة التي لمح اليها ماتيو، في الشطر الأول من تجوالنا والتي تدور حول برج الطوابق السبعة، جعلتني، كالعادة أباشر ابحاثي حول الجن والعفاريت، فاكتشفت أن الشبح المريب، شبح بيللودو، كان طوال فترة من الزمن، الموضوع المفضل في قصص الأطفال وحكايا العجائز في غرناطة وانه ذكره، بكثير من الاحترام، مؤرخ وطبوغرافي قديم عاش هنا. بعدئذ قمت بجمع وتركيب فتات تلك القصص وبقاياها المتناثرة بكثير من الجهد ثم حبكتها معاً فاتخذت شكل القصة التالية التي ربما لا تحتاج إلا لعدد من الحواشي و الاشارات المرجعية في الاسفل كي تصنف بين تلك النتاجات المحسوسة التي قدمت للعالم، وبكل رصانة، على أنها حقائق تاريخية.

قصة
ميراث عربي

داخل قلعة الحمراء وأمام القصر الملكي تماماً ، ثمة فناء واسع مفتوح يدعى فناء الصهاريج أو ساحة الجباب وقد دعي كذلك لأنه مليء بخزانات مياه لا تراها العين، موجودة من عهد العرب. في ركن من اركان تلك الساحة هناك بئر عربية حفرت في قلب الصحراء إلى عمق كبير ماؤها صاف كالبللور وبارد كالثلج، ومن الجدير بالذكر أن الآبار التي حفرها العرب هي دائماً ذات شهرة، فمن المعروف جيداً كم من الآلام عانى أولئك الناس كي يصلوا إلى أعذب الينابيع وأنقى المياه، اما البئر التي نتكلم عنها الآن فإنها مشهورة في غرناطة كلها إلى درجة ان السقائين كلهم يردونها، بعضهم يحمل جرار ماء كبيرة على اكتفاهم وآخرون يسوقون حميرهم أمامهم وقد حملوها بالجرار الفخارية، صاعدين هابطين شوارع الحمراء الشديدة الميل والمحفوفة بالأشجار بدءاً من طلوع الفجر وحتى ساعة متأخرة من الليل.

منذ العصور القديمة لاحظ المراقبون أن منابع المياه وآبارها هي اماكن لتناقل الاشاعات والقيل والقال في الأقاليم الحارة، وعند البئر المذكورة هذه ثمة نوع من النادي الدائم الذي تنعقد اجتماعاته طوال النهار ضامة فيمن تضم العاجزين من الرجال، عجائز النساء وكل من هب ودب من سكان القلعة ممن .لا عمل لهم ومن فضوليين يجلسون هناك على مقاعد الحجارة تحت المظلة الممتدة فوق البئر كي تقي المجتمعين أشعة الشمس وهم يضيعون وقتهم في القيل والقال وتناقل شائعات القلعة وأخبارها ، سائلين كل سقاء يرد الماء عن أخبار المدينة، معلقين على كل ما يسمعون ويرون. وهكذا، في كل ساعة من ساعات النهار يمكنك أن ترى هناك ربات البيوت المتسكعات والخادمات المتعطلات عن العمل، يمشين متمهلات، في يد واحدتهن أو على رأسها إبريق، تستمع لآخر ما هناك من اشاعات وأقاويل.بين السقائين الذين لجؤوا ذات يوم لتلك البئر، كان هناك سقاء صلب قوي الظهر قصير الساقين يدعى بيدرو جيل، واختصاراً يدعى بيرجيل. ولكونه سقاء، فقد كان «غاليغو» أو من أهل غاليسيا بالطبع، فالطبيعة وعلى ما يبدو تصوغ أعراق الناس مثلما تصوغ أعراق الحيوان، لأنواع مختلفة من الكد والجهد. ففي فرنسا، ماسحو الاحذية كلهم من سافوا والحمالون في الفنادق كلهم سويسريون، وفي انكلترا أيام الاطواق الموسعة للتنانير ومسحوق الشعر، ما من رجل، كان باستطاعته ان يوفر التأرجح النظامي لمحفة غير الإيرلنديين خواضي المستنقعات. وهكذا ، في إسبانيا، السقاؤون والعتالون كلهم من أبناء غاليسيا الصلبين ـ صغار الحجم. فلا أحد يقول «هات لي حمالاً بل نادِ لي غاليغو»! ولكي لا نستطرد كثيراً نقول أن بيرجيل الغاليسي بدأ شغله بجرة فخار كبيرة واحدة كان يحملها على كتفه ، ثم ارتفع شأنه شيئاً فشيئاً حتى أصبح بإمكانه أن يستأجر مساعداً له من صنف البهائم، فكان حماراً قوياً أشعث الشعر. على كلا جانبي ذلك المساعد ذي الأذنين الطويلتين وفي نوع من السلال، كانت تتدلى جرتان للماء مغطاتان بأوراق التين كي تحميهما من الشمس ، ولم يكن في غرناطة كلها سقاء أكثر نشاطاً ودأباً ولا أكثر مرحاً أيضاً من ذلك السقاء إذ كانت الشوارع تردد صدى صوته المبتهج وهو يكد خلف حماره، مطلقاً نغمة الصيف المألوفة التي ترددها المدن الاسبانية كلها: «كوايان كيرأغوا أغوا مازفرياكولانيف؟» من يريد ماء؟ ـ ماء أبرد من الثلج ـ من يريد ماء من بئر الحمراء، ماء بارد كالجليد، صاف كالبللور؟ »... وحين يقدم كأساً مشعشعة لأحد زبائنه، فإنه يقدمها دائماً مع

كلمة سارة تجعله يبتسم، وإذا كان ذلك الزبون سيدة جميلة أو فتاة حلوة فإنها تكون دائماً مداعبة ضاحكة وإطراء ذكياً لجمالها الذي لا يقاوم. وهكذا ، اشتهر بيرجيل الغاليسي في طول غرناطة وعرضها بأنه أكثر الناس تهذيباً وإمتاعاً وسعادة، مع ذلك لم يكن بيرجيل، الذي يغني بأعلى صوت ويلقي أكثر النكات إضحاكاً، بالرجل الخلي القلب. فتحت ذلك القناع من المرح والفرح، كان بيرجيل المسكين يعاني كل هم وغم، إذ كان لديه عائلة كبيرة. أطفاله ثيابهم رثة لا يستطيع شراء ثياب جديدة لهم، جائعون لا يستطيع إطعامهم، صخابون دائماً كفراخ سنونو في عش، يحاصرونه دائماً بصراخهم طلباً للطعام كلما أوى إلى البيت في المساء كذلك، كان لديه شريكة مساعدة تفعل كل شيء إلا مشاركته ومساعدته. إنها امرأته، وقد كانت أجمل فتيات القرية قبل الزواج. اشتهرت ببراعتها في رقص «البوليرو» وخشخشة الصنج. وقدظلت تحتفظ بمزاياها الأولى تلك، فتقضي أماسي بيرجيل الشريف القاسية في البهرجة الزائفة وكذلك في استخدام الحمار نفسه للترحال هنا وهناك، بحثاً عن الحفلات والولائم في الريف أيام الآحاد وأعياد القديسين، وفي كل يوم من أيام العطل التي لا تعد ولا تحصى في اسبانيا والتي تزيد احياناً عن أيام الأسبوع نفسها. فوق ذلك، كانت امرأة شبه مومس، كسولاً لا تكاد تتحرك من فراشها، كثيرة القيل والقال، مهملة لبيتها وأولادها، ولكل شيء آخر، من أجل شيء واحد هو أن تتسكع في الحي من بيت الى بيت تنقل الشائعات والقصص...وهكذا كان بيرجيل الذي يخفف الريح عن الحمل المجزوز الصوف ويكيف نير الامومة بما يلائم العنق المستسلم، بيرجيل نفسه هو الذي يحمل أعباء الزوجة والأولاد بروح الصبر والتحمل مثلما كان حماره يحمل جرار الماء . وعلى الرغم من أنه كان يهز أذنيه أحياناً بينه وبين نفسه، إلا أنه لم يغامر قط بسؤال امرأته شبه المومس عن فضائلها المنزلية.

كان بيرجيل يحب أطفاله أكثر مما يحب البوم فراخه، وكان يرى فيهم صورته الخالدة وهي تتجدد مرات ومرات فقد كانوا هم أيضاً صغار الأجسام، قصار الأرجل لكن ذوي ظهور طويلة صلبة. متعة بيرجيل الشريف الكبرى هي أن يأخذ ، كلما كان بإمكانه أن يعطل أو يوفر بضعة قروش، أولاده جميعاً معاً، بعضهم يحمله بين يديه والبعض الآخر يتعلق بأطراف ثوبه والبعض الثالث يمسك بكعبيه، كي ينزههم بين بساتين الفيغا، في حين تكون زوجته مع أصدقائها ترقص وتمرح في خمائل وادي الدارة.

كان الوقت متأخراً من أمسية صيفية، وكان معظم السقائين قد ركنوا إلى الراحة بعد عناء نهارهم، إذ كان النهار حاراً وجافاً على نحو غير عادي وكانت الأمسية واحدة من تلك الأماسي القمراء الممتعة التي تغري الناس في أقاليم الجنوب، كي يعوضوا حر النهار وخموله، بالتمشي في الهواء الطلق والتمتع بعذوبته ولطافته حتى ما بعد منتصف الليل. لهذا السبب كان الزبائن الذين يطلبون الماء ما زالوا خارج بيوتهم. فكر بيرجيل، ككل أب حنون رؤوف، بأطفاله الجياع، ثم قال لنفسه: «رحلة أخرى إلى البئر علني أوفر مصروف الأحد للاطفال الصغار». قال ذلك رافعاً صوته ضارباً حماره من حين إلى آخر ضربة خفيفة على هذه الخاصرة أو تلك، إما كنوع من الإيقاع لغنائه، أو إنعاشاً لبهيمته.

حين وصل بيرجيل إلى البئر، وجدها خالية لا أنس ولا أنيس سوى غريب وحيد بزي عربي يجلس على مقعد حجري تحت ضوء القمر. توقف بيرجيل في البداية محدقاً إليه باندهاش لا يخلو من خوف، لكن العربي أشار إليه اشارة واهنة أن يدنو منه ثم قال « أنا ضعيف مريض. ساعدني كي أعود إلى المدينة، ولسوف أدفع لك ضعف ما تكسبه من جرار الماء ». بأنامل الشفقة والرحمة لامس نداء الغريب ذاك شغاف السقاء الشريف فقال: لا سمح الله أن أطلب أجراً أو جزاء لقاء فعل الخير والمعروف».في الحال ساعد العربي فأركبه حماره،وعلى مهل انطلق عائداً به إلى غرناطة، ولأن ذلك المسلم المسكين كان ضعيفاً واهن القوى، فقد اضطر للإمساك به على ظهر الحمار كي لا يسقط على الأرض.

حين دخلا المدينة، سأل السقاء العربي إن كان عليه أن يوصله إلى مكان بعينه « وأأسفاه » أجاب العربي بصوت واهن. «فليس لي مسكن ولا بيت. إنني غريب في هذه البلاد. تحملني وآوني هذه الليلة فقط تحت سقفك ولسوف أجزيك أحسن جزاء». وهكذا، وجد بيرجيل الشريف نفسه، وعلى غير توقع، ملزماً بإيواء ضيف من غير دينه، لكنه كان أكثر إنسانية من أن يرفض أن يؤوي لليلة واحدة كائناً بشرياً غريباً وحيداً في البلاد كلها، فأخذ العربي معه إلى البيت.

كان الأطفال قد تجمعوا فاغري الأفواه، كعادتهم، كلما سمعوا وقع حوافر الحمار، لكن ما إن رأوا الغريب وعلى رأسه العمامة حتى ارتدوا إلى الوراء راكضين مذعورين، مختبئين خلف أمهم التي سرعان ما اندفعت إلى الأمام مستنفرة متحفزة مثل دجاجة نفشت ريشها دفاعاً عن فراخها في مواجهة كلب ضال.«أي كافر جئتني به؟» صاحت المرأة غاضبة «أبمثل هذا تأتيني في هذه

الساعة المتأخرة من الليل لتجعلنا موضع شك وريبة؟» «الهدوء الهدوء يا زوجة» أجاب الغاليسي «فما هذا إلا غريب مريض مسكين لا صديق له ولا مأوى ، أتتركينه يهلك في الطرقات؟».وكانت الزوجة ستستمر في التوبيخ والاحتجاج، إذ رغم أنها كانت تعيش فيما يشبه الكوخ إلا أنها كانت تثور دفاعاً عن شرف بيتها وكرامته ، إلا أن السقاء الصغير الحجم كان ، ولمرة واحدة ، عنيداً متصلباً فرفض أن يخضع رقبته للنير، مصراً على استضافة المسلم المسكين.

وهكذا ، ترجل الغريب عن ظهر الحمار، ليقعد على جلد خروف مده له السقاء فوق الحصير في أبرد ناحية من البيت، وذلك أقصى ما كان باستطاعة السقاء الفقير ان يفرشه للضيف.بعد فترة وجيزة من الزمن، أمسكت بالعربي تشنجات شديدة،تحدت كل ما لدى السقاء المسكين من براعة في العلاج ، لكنها جعلت المريض المسكين يعرف لطفه ورعايته وفي أخذ الفواصل التي كانت تفصل بين نوبات تشنجه دعاه العربي لأن يقترب منه ثم خاطبه بصوت واطىء قائلاً: «أخشى ان تكون نهايتي قد دنت، فإن مت أعطيك هذه العلبة جزاء معروفك» قال ذلك ثم فتح عباءته ، فبانت علبة من خشب الصندل، وقد لفت بأشرطة حول جسمه. أجاب الغاليسي الصغير الشريف «أرجو من الله يا صديقي، أن يمد في عمرك كي تستمتع بكنزك، أياً كانت محتوياته ، لكن العربي هز رأسه واضعاً يده على العلبة ولعله كان يريد أن يقول شيئاً أكثر عنها لكن تشنجاته عاودته بعنف أشد وأشد ثم لم تمض لحظات حتى أسلم الروح.

في تلك اللحظة غدت زوجة السقاء كالمجنونة ، «هذا ما ينوبنا من طيبتك وحماقتك » قالت المرأة «دائماً تقع في المصاعب كي تريح الآخرين، ترى ماذا سيحل بنا حين تكتشف هذه الجثة في بيتنا؟.

سيسوقوننا إلى السجن حتماً كما يساق القتلة المجرمون، وإن نجونا من حبل المشنقة فلسوف تقضي علينا سوء السمعة والأقاويل».

والحقيقة، كان بيرجيل نفسه في حال مماثلة من الخوف والاضطراب، نادماً تقريباً على قيامه بفعل الخير ذاك. أخيراً خطرت له فكرة، فقال لامرأته «الفجر لم يطلع بعد وبإمكاني ان أنقل الميت خارج المدينة ثم أدفنه في الرمال على ضفة نهر زينل. ولا أحد دري أو سمع». ثم ما إن قال ذلك حتى بدأ بالتنفيذ تساعده

امرأته في ذلك، دارجين حول الميت الحصيرة التي مات عليها، محمليها على ظهر الحمار. بعدئذ مضى بيرجيل بها إلى ضفة النهر.

لكن لسوء الحظ، كان يسكن قبالة بيت السقاء حلاق يدعى بدريللو بدريغو، هو أشد أبناء مهنته ثرثرة وحباً للتجسس والشر والأذى. وجهه أشبه بوجه ابن عرس، وغد زنيم كعنكبوت كثير الأرجل، فدساس متسلل، حلاق اشبيلية نفسه لا يفوقه معرفة بشؤون الآخرين وتدخلاً فيها، والغربال يقل عنه قدرة على تمرير الأشياء وإفشاء الأسرار بل يقال إنه كان ينام بعين واحدة ليترك الأخرى مفتوحة، يغطي أذناً ويكشف الأخرى، كي يستطيع حتى في نومه أن يرى ويسمع كل ما يجري. الأكيد، على كل حال، أنه كان أكثر سكان غرناطة حباً بالفضائح وميلاً لإثارتها، وكان لديه زبائن أكثر من أبناء مهنته جميعاً. هذا الحلاق العجيب سمع بيرجيل وهو يصل إلى بيته في ساعة غير مألوفة من الليل كما سمع صيحات زوجته وزعيق أطفاله. وللتو نبق رأسه من إحدى النوافذ التي كانت تخدمه ككوة للتجسس فرأى جاره يساعد رجلاً بزي عربي في دخول البيت.

ذلك بحد ذاته كان أمراً غريباً وحدثاً عجيباً إلى حد يكفي لجعل بدريللو بدريغو لا يرقد له جفن طوال الليل.وهكذا ، بات كل خمس دقائق يمضي إلى كوته يختلس النظر مراقباً الأضواء الآتية من خصاص باب جاره، ثم قبل أن يبزغ الفجر، رأى بيرجيل ينطلق بحماره وعلى ظهره حمل غير عادي.

قلق شديد أمسك بخناق الحلاق الفضولي، فأسرع يلبس ما يستره من ثياب وينسل بصمت وهدوء خلف السقاء إلى أن رآه يحفر حفرة في رمال ضفة النهر ثم يدفن شيئاً ما له هيئة رجل ميت.

بعدئذ تبعه الى البيت، وبقلق شديد راح يذرع دكانه جيئة وذهاباً قالباً كل شيء رأساً على عقب إلى أن أشرقت الشمس.حينذاك، أخذ جامه تحت ذراعه وانطلق الى بيت زبونه : القاضي.

كان القاضي قد أفاق لتوه فأجلسه الحلاق في كرسيه واضعاً حول رقبته منديل الحلاقة وجام الماء الساخن تحت ذقنه ثم شرع يملس لحيته بأصابعه.

«أفعال غريبة» بدأ بدريغو الذي كان يقوم بدور الحلاق وناقل الأخبار معاً «أعمال عجيبة : سرقة، قتل ، دفن وذلك كله في ليلة واحدة».«هـ .... ي .... هـ .... و.... ما هذا الذي تقوله؟ » صاح القاضي.

«أقول» أجاب الحلاق وهو يفرك بيده قطعة الصابون على أنف القاضي المبجل وفمه ، ذلك أن الحلاق الاسباني يأبى استخدام الفرشاة «أقول إن برجيل الغاليسي سرق عربياً مسلماً وقتله ثم دفنه في هذه الليلة المباركة ـ (مالديتاسي لافوش) ـ هذه الليلة التي يمكن أن تكون ملعونة في الوقت نفسه» .

«لكن كيف عرفت هذا كله؟» سأله القاضي. «صبراً يا سيدي، صبراً. ولسوف تسمع كل شيء» أجاب بدريللو وهو يمسكه من أنفه، زالقاً موس الحلاقة فوق خده. بعدئذ روى له كل ما شاهده، قائماً بكلتا العمليتين معاً: حلاقة اللحية مع ما يرافقها من غسل ذقن وتنشيف وجه بمنديل قذر فيما هو يسرق المسلم ويقتله ويدفنه.

وللمصادفة، فقد كان ذلك القاضي واحداً من أشد المتحاملين المتزمتين وفي الآن نفسه أبخل أهل غرناطة وأكثرهم شحاً وفساداً. إذ لم يكن أحد ينكر أنه لم يكن يرضى بالقليل مقابل أحكامه ، بل كان يبيع كل حكم بقدر معين من الذهب.

في الحال، افترض أن القضية قيد البحث هي قضية سرقة وقتل. ولا شك أن هناك غنيمة نفيسة، فكيف يمكن ليد القانون الشرعية ان تستعيدها؟ إن كان ينبغي إيقاع المجرم في الشرك فقط ـ فذلك معناه تقديمه طعاماً للمشنقة، أما وضع اليد على الغنيمة ـ فمعنى ذلك حصول القاضي على الثروة وذلك، طبقاً لمعتقده، هو الغاية العظمى للعدالة.

انطلاقاً من تفكيره ذاك دعا الى حضرته أكثر من يثق به من حراس القضاء ـ وهو رجل وغد زنيم بارز عظام الوجه يلبس، مثل أبناء مهنته، حلة اسبانية قديمة وقبعة سوداء واسعة تنقلب من جوانبها إلى الأعلى. حول رقبته طوق مكشكش من الريش وعباءة سوداء قصيرة معلقة بكتفيه، بينما يمسك بيده هراوة بيضاء غليظة، هي رمز مهنته المخيفة. هكذا كان الحراس القضائيون للشعب الاسباني القديم. وذلك هو كلب الصيد الذي بعث به القاضي لتعقب آثار ذلك السقاء التعيس، وعلى ذلك النحو كانت سرعته ويقينه من أنه سيتعقب بيرجيل المسكين ويكتشف ما فعل قبل أن يعود إلى مسكنه. ولقد فعل ذلك إذ سرعان ما ساقه هو وحماره ليمثل أمام العدالة. بتقطيبة هائلة من حاجبيه، انحنى القاضي على بيرجيل المسكين زائراً به زأرة جعلت ركبتي الغاليسي الضئيل الحجم

تصطكان «اسمع أنت مجرم! اسمع أنت مجـرم ـ ولا حاجـة لأن تنكـر جريمتـك فأنا أعرف كل شيء. المشنقة هي العقاب المناسب للجريمة التي ارتكبـت. لكنـني رحيم ومستعد للاحتكام للمنطق. الرجل الذي قتـل في بيتـك هـو عربـي مـن غـير ديننا، بل عدو ديننا، ولا شك أنك فعلت ما فعلت بدافع من حماستك الدينيـة لذلك سأكون متساهلاً. أعد لي ما سرقت منه. أطو ملف القضية كلها» .في الحال. راح السقاء المسكين يحلف بالقديسين كلهم داعيا إياهم كـي يشـهدوا أنـه بـريء. لكن واأسفاه مـا مـن أحـد منهـم ظهـر، لكـن حتـى لـو ظهـروا مـا كـان القـاضي ليصدقهم. روى السقاء القصة الكاملة لموت العربـي بكـل صراحـة وبسـاطة ومثلمـا وقعت تماماً، لكن عبثاً.

«هل تصر على أقوالك؟» سأله القاضي، «بأن ذلك المسلم لم يكن لديه ذهـب ولا ماس وأنهما لم يكونا غاية جريمتك كلها؟ .

«كما آمل بالخلاص، يا سيادة القاضي »، أجاب السقاء « لم يكن مـع ذلـك العربي سوى علبة صغيرة من خشـب الصنـدل ورثـني إياهـا جـزاء خدمـتي لـه». «علبة من خشب الصندل ! ! علبة من خشب الصندل ! ! هتـف القـاضي وعينـاه تبرقان طمعا بالجواهر الثمينة» وأيـن تلـك العلبـة؟ أيـن خبأتهـا؟ ». « أسعد الله سيادتك » أجاب السقاء « إنها في واحدة من سلال حماري . وهي تحت تصرفـك يا سيدي».

ما إن نطق السقاء بذلك حتى أسـرع الحـارس القضـائي البـارع إلى الخـارج. وفي الحال عاد بالعلبة الغامضة المصنوعة من خشب الصندل. فتح القـاضي العلبـة بتلهف ويداه ترتعشان شوقاً لرؤية الكنز الذي يتوقع أن يراه . لكن، لخيبة أمله. لم يكن ثمة شيء سوى لفيفة من رق الغزال كتبـت بـأحرف عربيـة ومعهـا عقـب شمعة. حين لا يكـون هنـاك مـا يمكـن الحصـول عليـه مـن اتهـام سـجين، فـإن العدالة، حتى في اسبانيا، تميل لأن تكون موضوعية غير متحيزة. وهكذا، استعاد القاضي توازنه إثر الصدمة وخيبة الأمل بعد أن اكتشف أنه لم يكن هناك اسـلاب أو غنائم فعلاً، ثم أصغى بغير تحيز للشروح التي قدمها السقاء والتي دعمتها كـل الدعم شهادة زوجته.

عند ذاك اقتنع ببراءته فأطلق سراحه، بل أكثر من ذلك، سمح له أن يأخذ ميراث العربي معه، علبة خشب الصندل ومحتوياتها، باعتبارها المكافأة العظيمة القدر لإنسانيته، لكنه احتفظ بحماره تعويضاً عن نفقات المحكمة ورسومها.

فانظر ما حل بذلك الغاليسي العاثر الحظ وقد عاد من جديد مضطراً لأن يحمل جراره على كتفه كادحاً طوال النهار صاعداً الطريق إلى بئر الحمراء نازلاً عليها. مع كده وكدحه ذاك، ظهيرة يوم من أيام الصيف الحارة، كان مزاجه الرائق المألوف قد تخلى عنه فصاح ملء صوته «يا له من قاض كلب!! أن يحرم رجلا فقيراً من وسيلة عيشه. من خير صديق له في الدنيا» بعدئذ. وعلى ذكر رفيق عمله المحبوب، تدفق كل ما في نفسه من رقة ولطف. «آه، أيها الحمار، يا حبة قلبي» راح يهتف، ساندا حمله على أقرب حجر، ماسحاً العرق عن جبينه «آه أيها الحمار يا مهجة روحي!! أتراك تفكر بصاحبك القديم؟ أتراك تحن لجرار الماء - أيها الحيوان المسكين؟».

ولكي يزداد طينه بلة. كانت امرأته تستقبله، كلما عاد إلى البيت، بالصراخ والزعيق. هي التي كانت مسيطرة عليه متحكمة به من قبل وهي التي كانت قد حذرته من عواقب الكرم وحسن الضيافة تلك التي جلبت على رأسه تلك المصائب كلها. وشأن كل امرأة تعرف شؤون الحياة. باتت لا تترك مناسبة إلا وتلقي عليه الدروس والمواعظ، هي الحكيمة الفصيحة . فإن كان أطفالها بحاجة للطعام أو ينقصهم ثوب جديد، كانت ترد ساخرة «اذهبوا إلى أبيكم - إنه وارث الملك تشيكو، ملك الحمراء. قولوا له أن يجعل علبة العربي تساعدكم». ترى هل حل بكائن بشري مسكين ما حل ببيرجيل من عقاب. جزاءً على ما فعل من خير؟ حزن شديد أصاب بيرجيل العاثر الحظ. حزن تغلغل حتى أعماق روحه لكنه مع ذلك ظل يتحمل سخرية زوجته واستهزاءها لكن ذات مساء. وبعد عناء النهار وتعبه. وبخته امرأته بالطريقة المعهودة فنفد كل ما لديه من صبر. لا. هو لم يغامر بالرد عليها، بل ذهب بناظريه إلى العلبة المصنوعة من خشب الصندل. الموضوعة على الرف وقد انفتح غطاؤها نصف انفتاحة كأنما هي تضحك ساخرة من انزعاجه. أمسك بها بيرجيل عالياً. وبكل حنق ألقى بها أرضاً صائحاً «تعيس ذلك اليوم الذي أبصرتك فيه عيناي أو آويت به صاحبك في بيتي».

حين اصطدمت العلبة بالأرض انفتح غطاؤها على اتساعه فتدحرجت لفيفة رق الغزال.

وهلة من الزمن، جلس بيرجيل محدقاً إلى اللفيفة صامتاً ـ أخيراً خطرت بذهنه فكرة «من يعلم ؟ لعل هذه الكتابة مهمة للغاية. فقد كان العربي يوليها كل عناية واهتمام ؟» وهكذا التقطها بيرجيل عن الأرض، ثم خبأها في عبه. في الصباح التالي، وحين كان ينقل الماء في الطرقات مناديا عليه، توقف عند دكان مغربي من طنجة يبيع العطور والحلى الصغيرة في السوق، طالباً إليه أن يشرح له محتويات اللفيفة.

قرأها المغربي بتمعن ثم داعب لحيته مبتسماً قائلاً «هذه المخطوطة هي نوع من التعويذة لاكتشاف كنز خبيء ، هو رهن طلسم سحري. إنها تعويذة شديدة الفعالية إلى درجة أن أقوى القضبان والأطر بل صخر الصوان نفسه ينشق عند النطق بها» . «آه» صاح الغاليسي الصغير وما يعني ذلك بالنسبة إلي؟ أنا لست ساحراً ولا علم لي بالكنوز الخبيئة». قال ذلك، حاملاً على كتفه جرة مائه، تاركاً اللفيفة بين يدي المغربي، شاقاً طريقه بجهد وعناء متابعاً جولاته اليومية.

لكن ، في ذلك المساء، حين أسلم نفسه للراحة مع الغسق قرب بئر الحمراء، وجد عدداً من العجائز يتجمعن في ذلك المكان، وكما هي العادة في تلك الساعة من حلول الظلام، كان حديثهن يتحول إلى الحكايات والقصص القديمة المتوارثة عن الجن والعفاريت ولكونهن جميعاً فقيرات فقر الجرذان، كن كلهن مولعات بالموضوع الشائع نفسه بين كل الناس .الكنوز المسحورة التي خلفها العرب وراءهم في مختلف أنحاء الحمراء ـ فقبل كل شيء، كان الجميع متفقين في اعتقادهم على أن هناك كنوزاً عظيمة مدفونة في أعماق الأرض تحت برج الطوابق السبعة.تلك القصص تركت انطباعاً غير عادي في ذهن بيرجيل الشريف، ثم غاصت أعمق وأعمق في تفكيره وهو يعود وحيداً هابطاً الشوارع المعتمة: ماذا إن كان ثمة كنز خفي تحت ذلك البرج فعلا؟ ماذا إن كانت تلك اللفيفة التي تركتها لدى المغربي تجعلني قادراً على الحصول عليه؟

فجأة خطرت بباله الفكرة ، ومع المفاجأة نسي معها الجرة على كتفه فسقطت أرضاً. تلك الليلة أمضاها بير جيل متقلباً مضطرباً لم يغمض له جفن، لكثرة ما توارد على ذهنه من أفكار محيرة. وهكذا، مع أول أشعة الشمس ، مضى إلى حانوت المغربي، مفصحاً له عن كل ما ورد في ذهنه من أفكار «أنت عربي ويمكنك أن تقرأ العربية» قال بيرجيل» لنفترض أننا يمكننا أن نذهب معاً إلى البرج ونحاول فك السحر. إن أخفقنا فإننا لن نكون أسوأ مما نحن عليه الآن،

لكن إن أفلحنا اقتسمنا مناصفة الكنز الذي سنكتشفه ».« مهلاً » أجاب المغربي المسلم « هذه الكتابة ليست كافية بحد ذاتها. فلا بد من أن تقرأ عند منتصف الليل وعلى ضوء شمعة مستدقة الطرف، تصنع بذاتها من عناصر ليست في متناول يدي. بغير شمعة كهذه لا يمكن للفيفة أن تكون ذات نفع ».«لا تقل المزيد» صاح الغاليسي الصغير «مثل تلك الشمعة موجودة لدي، ولسوف آتيك بها في لحظة من الزمن» قال ذلك ثم أسرع الى المنزل، وفي الحال عاد بعقب الشمعة المستدقة الصفراء التي كانت في العلبة المصنوعة من خشب الصندل.

هنيهة من الزمن راح المغربي يتلمسها متشمماً رائحتها ثم قال«ها هنا عطور غالية ونادرة مزجت بهذا الشمع الأصفر. ذلك هو الشمع الذي ذكرت صفاته في هذه اللفيفة. وإذا ما احترق، فإن أقسى الجدران وأشد المغاور سحرية تنفتح. لكن الويل له من يبقى لحظة واحدة بعد أن تنطفىء الشمعة، إذ سيشمله سحر الكنز».

اتفق الرجلان على أن يحاولا فك السحر تلك الليلة ذاتها. لهذا ، وفي ساعة متأخرة، حين سكنت المدينة وتوقفت الحركة فيها ما عدا حركة الخفافيش والبوم، صعد الرجلان رابية الحمراء المليئة بأشجار الغابات، ثم اقتربا من ذلك البرج المخيف الذي تحيط به الاشجار من كل جانب ويزيد من رهبته كل ما توارثته الأجيال من قصص وحكايات عنه. على ضوء مصباح، شقا طريقهما عبر الشجيرات وفوق الحجارة المتساقطة على الطريق إلى أن وصلا إلى باب القبو تحت البرج، ثم ، بكثير من الخوف والرجفة، هبطا الدرجات المحفورة في الصخر، فقادتهما إلى حجرة فارغة رطبة مخيفة انتهت بدورها إلى مجموعة أخرى من الدرجات تؤدي إلى قبو أعمق.

بهذه الطريقة هبط الرجلان أربع مجموعات من الدرج مجتازين أربعة أقبية واحدها تحت الآخر، لكن أرض الرابع كانت صلدة مصمتة، وعلى الرغم من أنه كان لابد، طبقاً لما تحكيه القصص المتوارثة، من وجود ثلاثة اقبية أخرى في الأسفل، إلا أنه كان يقال ان من المستحيل النفاذ إلى ما هو أبعد من ذلك، فالبقية مغلقة بفعل طلسم سحري شديد. كان هواء ذلك القبو رطباً وبارداً يحمل رائحة التراب ولم يكن ضوء المصباح يطلق أياً من الأشعة. توقف الرجلان هنيهة من الزمن، لاهثين منقطعي الأنفاس، إلى أن سمعا الصوت الخافت لساعة البرج وهي تدق منتصف الليل. عند ذاك أشعلا الشمعة المستدقة الطرف وفي الحال انتشر عبق اللَبان والمر والبخور. شرع المغربي يقرأ بصوت متعجل، وما إن انتهى حتى سمعا

صوتاً في الأسفل كهدير الرعد، اهتزت له الأرض ، ثم انفتحت عن سلم من الدرج كما ينفتح الفم المتثائب. بارتجاف وخوف هبطا درجات السلم وعلى ضوء المصباح وجدا نفسيهما في قبو آخر مغطى بنقوش وكتابات عربية. وسط القبو، كان ثمة صندوق كبير مؤطر بسبع شرائط من الفولاذ ، وعند كل جانب من جانبيه يجلس فارس عربي مسحور وهو بكامل سلاحه لكنه كالتمثال بلا حراك، وقد جمده سحر ساحر. أمام الصندوق كانت هناك عدة جرار ملأى بالذهب والفضة والحجارة الكريمة. داخل أكبر جرة منها مدا يديهما حتى المرافق وراحا يغرفان حفنات من قطع صفراء كبيرة من الذهب العربي والأساور والحلي المصنوعة من الذهب الأصفر نفسه ليخرج معهما من حين إلى حين عقد من اللؤلؤ الشرقي وقد علق بين أصابعهما. وهكذا ، راحا، وهما مرتعشان مقطوعا الأنفاس، يحشوان جيوبهما بالغنيمة، ملقين الكثير من النظرات الخائفة على الفارسين العربيين المسحورين اللذين كانا يجلسان صامتين بلا حراك محملقين فيهما بأعين لا يطرف لها جفن.

أخيراً، اندفعا كلاهما صاعدين الدرج، وقد ملأ قلبيهما على حين غرة، رعب مفاجيء إذ طرق مسامعهما صوت لا يعرفان مصدره. في اندفاعهما ذاك تعثر واحدهما بالآخر في القبو الأعلى منقلبين أرضاً، قالبين معهما الشمعة التي انطفأت للتو، ومع انطفائها عادت الأرض التي انشقت فاقفلت من جديد بهدير كهدير الرعد.وهكذا، ملء قلبيهما الرعب، لم يتوقفا حتى شقا طريقهما خارج البرج وأبصرا النجوم وهي تتلألأ في السماء. هناك جلسا على العشب. قسما الغنيمة، مصممين أن يقنعا في لحظتهما الراهنة بمجرد إيجادهما الجرار لكن على نية أن يعودا ذات ليلة في المستقبل ويغرفا ما في تلك الجرار تماماً. ولكي يتأكد كل منهما من اخلاص الآخر، قسما التعويذة بينهما فاحتفظ أحدهما باللفيفة والآخر بالشمعة، ثم انطلقا وقد ملأ قلبيهما الفرح وجيوبهما الذهب إلى غرناطة. لكن بينما كانا يلتفان مع الطريق نازلين الرابية ، همس المغربي الداهية بكلمة نصح في إذن السقاء الضئيل الحجم ، الطيب النية، قائلاً: «صديقي برجيل، هذه القضية برمتها يجب أن تبقى سراً عميقاً إلى أن نحصل على الكنز بكامله وننقله إلى مكان أمين. إذا ما بلغت كلمة واحدة عنه مسامع القاضي، انتهينا».«بالتأكيد» أجاب الغاليسي «كلامك صحيح بل ليس هناك أصح منه».

فتابع المغربي «صديقي بسيرجيل، أنت رجل حصيف، وأنا لأشك بأنك تستطيع حفظ السر: لكن لديك زوجة».«لن تعرف زوجتي شيئاً عنه» أجاب السقاء الضئيل الحجم، الطيب النية بنبرة الوعد والعهد.«كفى» قال المغربي «إنني أعتمد على حصافتك ووعدك». والحقيقة، لم يسمع الليل وعداً أكثر حرارة وإخلاصاً قط، لكن وأسفاه!! أي رجل يستطيع ان يخفي سره عن امرأته؟ بالتأكيد، ليس رجلاً كبرجيل السقاء، وهو أكثر الأزواج حباً ورقة قلب. إذ ما إن عاد إلى البيت حتى وجد زوجته متكومة على نفسها في إحدى الزوايا.«حسناً. حسناً» صرخت المرأة بوجهه ، ما إن دخل «تأتي متأخراً !! تتجول حتى هذه الساعة من الليل!! إني لأتساءل: ألم تعد معك بمغربي آخر ينام في بيتك» ثم بدأت، وقد انهمرت دموعها، تعصر يديها وتدق صدرها هاتفة «إمرأة تعيسة أنا، ماذا سيحل بي؟ بيتي نهبه المحامون ، سلب حراس القضاء كل ما فيه، زوجي لا يحسن فعل شيء، لم يعد يأتي إلى بيته حتى بالخبز. بل يتجول الليل والنهار مع المغاربة أعداء ديننا! آه يا لأطفالي المساكين!! يا لأطفالي!! ماذا سيحل بكم؟ هل سنتسول كلنا في الشوراع؟ هل سنتحول كلنا إلى شحاذين؟».هذا الندب أثار بيرجيل الشريف، إلى درجة لم يستطع منع نفسه من البكاء هو الآخر فقد كان قلبه ممتلئاً كجيبه ولم يكن ينبغي كتمهما كليهما. وهكذا، مد يده إلى جيبه مخرجاً ثلاثاً أو أربعاً من القطع الذهبية الكبيرة حاشراً إياها في عبها. بدهشة وعجب، حدقت المرأة المسكينة دون أن تفهم معنى تلك الزخة من الذهب. ثم قبل أن تسترد أنفاسها من وقع المفاجأة، أخرج الغاليسي الضئيل الحجم سلسلة من الذهب ولوح بها أمام عينيها، واثباً بجذل شديد وقد انفتح فمه من الأذن إلى الأذن. «أيتها العذراء المقدسة، احمينا» هتفت الزوجة ماذا كنت تفعل يا بيرجيل؟ بالتأكيد ، أنت لم تقتل ولم تسرق!!؟» ثم ما إن خطرت تلك الفكرة في ذهن المرأة المسكينة حتى أصبحت لديها نوعاً من اليقين. وعلى مقربة رأت السجن والمشنقة، والغاليسي الضئيل الحجم معلق من عنقه. رعب شديد سيطر عليها ومخاوف هائلة طغت نتيجة تصوراتها تلك، وللتو أصابتها نوبة شديدة من الهستيريا.فما عساه يفعل الرجل المسكين؟ لم يكن لديه وسيلة أخرى لتهدئة زوجته وإزاحة أشباح الخوف والتصورات غير أن يروي لها قصة الحظ الذي ابتسم له أخيراً بكاملها لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن أخذ منها أشد الوعود والعهود بأن تحفظ

سره فلا تبوح به لابن أنثى. أن نصف فرحها هنا أمر مستحيل. فقد ألقت بذراعيها حول عنق زوجها لاثمة مقبلة حتى كادت تخنقه.

«والآن أيتها الزوجة» هتف الرجل الضئيل بجذل خالص «ما عساك تقولين بميراث العربي؟ من الآن فصاعداً ، لا تزدريني إن ساعدت ابن آدم في مصاب. بعدئذ، استلقى الغاليسي الشريف على جلد الخروف ثم استغرق في سبات عميق وكأنه نائم على فراش من ريش. لكن امرأته لم تنم قط. بل أسرعت تفرغ جيوبه كلها مما فيها على الحصير وراحت تعد القطع الذهبية والنقود العربية، مجربة العقود والأقراط، متخيلة الهيئة التي يمكن أن تظهر بها حين يسمح لها بالاستمتاع بثروتها تلك. في الصباح التالي، أخذ الغاليسي الشريف قطعة كبيرة من النقود الذهبية ومضى بها إلى صائغ في السوق كي يبيعها هناك، مدعيا أنه لقيها بين آثار الحمراء. قلبها الصائغ بين يديه فوجد أن كتابتها عربية وأنها من الذهب الخالص. مع ذلك لم يعرض عليه سوى ثلث قيمتها ومع ذلك كان السقاء الصغير في غاية الرضى والسرور. عندئذ ابتاع بيرجيل ملابس جديدة لقطيعه الصغير كما اشترى كل أنواع اللعب. إضافة إلى مواد غذائية تكفي لتقديم وجبة رائعة، ثم عاد إلى بيته فاندفع أطفاله كلهم يتواثبون حوله فرحين راقصين وهو نفسه يتواثب راقصاً فرحاً، كأسعد الآباء.

حافظت زوجة السقاء على وعدها بصرامة مدهشة فلم تبح بالسر وطوال يوم ونصف اليوم، راحت تذهب هنا وهناك بسيما الغموض وبقلب مترع حتى الحافتين. مع ذلك ظلت صامتة لا تتكلم رغم كل من يحيط بها من الثرثارين والثرثارات.. صحيح أنها لم تستطع منع نفسها من تسريب بعض التلميحات، والاعتذار عن ملابسها الرثة والإشارة إلى أنها طلبت ثوباً جديداً ستكون حواشيه كلها من مخرمات الذهب والخرز وكذلك طرحة الدانتيلا والمخرمات، وصحيح أيضاً أنها راحت تلمح بين الحين والحين إلى نية زوجها في ترك عمله كسقاء باعتبار أنه لم يعد يلائم صحته، بل الواقع أنها تفكر أنهم قد يرجعون إلى الريف لقضاء الصيف هناك، علَّ الأطفال ينعمون بهواء الجبال، فالحياة في المدينة الحارة الجافة باتت مستحيلة، لكن الصحيح أيضاً أنها لم تفش السر قط. مع ذلك، وعند سماعهم ذلك الكلام، راح الجيران يحملقون بعضهم بالبعض الآخر، وكل ظنهم أن المسكينة فقدت عقلها، ثم غدت تلميحاتها وإشاراتها وادعاءاتها موضع تندر الجيران كلهم وسخريتهم ما إن أدارت ظهرها مبتعدة.

مع ذلك، لو أنها أبقت نفسها ضمن حدود بيتها، واضعة عقد اللؤلؤ الشرقي في عنقها، الأساور العربية في ساعديها وطوق الماس على رأسها ذارعة الغرفة جيئة وذهاباً وهي بملابسها الرثة، واقفة من حين إلى آخر أمام المرآة المكسرة تنظر إلى نفسها بكل دهشة وإعجاب، أقول لو فعلت ذلك وحسب لهان الأمر. لكنها، وبدافع شديد من غرورها وسخفها، لم تستطع أن تقاوم. فوقفت ذات مرة أمام النافذة تعرض نفسها كي تستمتع بما تترك حليها على المارة من تأثير.

ولأن الأقدار تشاء ذلك، فقد صدف أن بدريللو بدروغو، الحلاق الثرثار، كان في تلك اللحظة يجلس عاطلاً عن العمل في دكانه في الجهة المقابلة من الشارع، حين لفت ناظريه بريق ماسة. في لحظة واحدة، صار وراء كوته وراح يرقب منها زوجة السقاء شبه المومس وقد تزينت وتبرجت فغدت أروع من عروس شرقية. ثم ما إن أخذ فكرة دقيقة عن حليها وزينتها، حتى انطلق كالطير إلى القاضي. وبلمحة عين أيضاً، كان الحارس الجائع يتشمم الأثر من جديد ثم لم تغب شمس ذلك النهار، حتى كان بيرجيل المسكين يساق مرة ثانية إلى حضرة القاضي.

« كيف هذا أيها الأحمق ؟» بصوت غاضب صرخ القاضي به. «لقد قلت لي إن المغربي الذي مات في بيتك لم يترك سوى علبة فارغة والآن أسمع أن امرأتك تتزين باللؤلؤ والماس فوق ملابسها الرثة. يا لك من وغد سافل! ! هيا، أعد الأسلاب التي أخذتها من ضحيتك العربي البائس واستعد للمشنقة التي تعبت من انتظارك».في الحال ـ خر السقاء المذعور على ركبتيه، راوياً بدقة وأمانة الطريقة ـــ العجيبة التي حصل بها على ثروته، فيما كان القاضي ، الحارس، الحلاق الفضولي يصغون، وكلهم آذان لتلك الحكاية العربية عن الكنز المسحور.

للتو، أرسل القاضي حارسه القضائي كي يأتي بالمغربي الذي ساعد في فك السحر. دخل المسلم يكاد قلبه يسقط بين جنبيه وقد وجد نفسه بين أيدي حراس القانون. لكن ما إن رأى السقاء يقف وعلى وجهه سيماء الذعر والانهيار حتى أدرك المسألة كلها.«حيوان بائس» قال وهو يعبر بقربه «ألم أحذرك من إفشاء السر لزوجتك؟» تطابقت قصة المغربي كل التطابق مع قصة صاحبه، لكن القاضي كان حريصاً على أن يظهر بمظهر غير المصدق قاذفاً إياهما بالتهديدات متوعداً إياهما بشر العقوبات. «هوناً هوناً، يا سيدي القاضي الطيب»، قال المسلم الذي كان في تلك اللحظة قد استرد أنفاسه واسترد معها حنكته ودهاءه «لا تدعونا نشوه أفضال الحظ بالتزاحم عليها. لا أحد يعلم شيئاً عن هذا الأمر سوانا نحن. فدعونا نحفظ

السر، وتأكدوا أن في المغارة ثروة تكفينا كلنا كي نصبح أغنيـاء. عـدوا أن نقتسـمها قسمة عادلة وكل شيء يهون، لكن ارفضوا ذلك تبقَ المغارة منغلقة إلى الأبد» .

تشاور القاضي هنيهة من الزمن مع حارسه ذاك الـذي كـان أشبه بـالثعلب العجوز في مهنته « عده بأي شيء.». قال الحـارس القضـائي « إلى أن تضـع يـدك على الكنز. عندئـذ يمكنـك أن تسـتحوذ علـى كـل شـيء، وإذا مـا تجـرأ هـو أو صاحبه على أن يتلفظا بكلمة واحدة هددهما بالجلد والخازوق ككافرين وسـاحرين مشعوذين».سر القاضي بالمشورة أيما سـرور، بعدئـذ مسـد حاجبيـه ثـم التفـت إلى المغربي قائلاً «هذه قصة غريبة ولعلها صحيحة، لكن لا بـد لي مـن برهـان عيـاني عليها. هذه الليلة بالذات يجب أن تكرر عملية فك السحر أمامي. إن كان فعلاً ما يزال هناك بقية الكنز، اقتسمناها بيننا بالعدل ولففنا المسألة برمتهـا، أما إن كنتما تخدعانني، فلا ترجوا رحمة مني. لكن في غضون ذلك لا بـد مـن أن تبقيـا رهـن الاعتقال».بفرح واغتباط، وافق المغربي والسقاء على تلك الشروط، موقنين ان الواقع سوف يثبت صحة كلامهما.

قرب منتصف الليل، انطلق القاضي سراً، يصحبه حارسه القضائي والحـلاق الثرثار، وكلهم شاكي السلاح، آخذين معهـم المغربـي والسـقاء كسـجينين وكذلـك حمار السقاء المتين كي يحمل الكنز المرجو. دون ان يلحظهـم أحـد، سـاروا إلى أن وصلوا إلى البرج . ربطوا الحمار إلى شجرة تين ثم نزلوا الـدرج حتـى القبـو الرابـع للبرج . هناك فتحوا لفيفة رق الغزال وأشعلوا الشـمعة المستدقة الصفـراء ثـم شـرع المغربي يقرأ التعويذة . فجأة بدأت الأرض بالاهتزاز كما كان شأنـها من قبـل، ثـم انفتحت الأرض المرصوفة بصوت كدوي الرعـد كاشـفة عـن سلم الـدرج الضيـق . القاضي ، الحارس ، الحلاق كلهم وقفوا مذهولين مذعورين، لا يسـتطيعون نـزول الدرج وقد خذلتهم شجاعتهم فيما دخل المغربي والسقاء نازلين حتى القبو الأسـفل ليجدا الفارسين العربيين جالسين كما كانا من قبل، صامتين بلا حـراك. زحزحـا من مكانهما الجرتين الكبيرتين المليئتـين بـالنقود الذهبيـة والحجـارة الكريمـة ثـم حملهما السقاء الواحدة تلو الأخرى على كتفه، ورغم أنه كان متين الظهـر معتـادا على حمل الأثقال، إلا أنه راح يترنح تحت ذلك الحمل ثم وجد حين ربطهما إلى جانبي الحمار أنهما أثقل من أن يستطيع ذلك الحيوان حملهما.«دعونا نقنع بذلك الآن» قال المغربي لأصحابه. «فهنا من الكنوز أكثر مما نسـتطيع أن ننقلـه دون أن يلحظنا أحد، وما يكفي لأن يجعلنا كلنا أغنياء قدر ما تشتهيه قلوبنا». «أما يـزال

هناك قسم من الكنز ؟ » سأل القاضي فقال المغربي «بل ما يزال القسم الأكبر منـه. صندوق ضخم محزم بشرائط من فولاذ، ملآن باللؤلؤ والحجر الكريم».

«لنخـرج ذلـك الصنـدوق بـأي شـكل مـن الاشـكال » صـرخ القـاضي شـاهقاً دهشة.. فرد المغربي بكثير من الخوف، أنا لن أنـزل مـرة أخـرى . يكفـي يعـني يكفي بالنسبة إلى رجل عاقل ـ أما أكثر من ذلك فهـو زيـادة وتجـاوز».«أنـا مثلـه أيضاً» قال السقاء «لن أجلب المزيد فيكسر ثقل الحمل ظهر حماري المسكين».

بعد أن وجد القاضي كل تهديد ووعيد ورجاء غير ذي جدوى ، التفت إلى صاحبيه الحميمين قـائلاً. «سـاعداني كـي أجلـب الصنـدوق، ولسـوف نقتسـم محتوياته بيننا». قال ذلك ثم نزل الدرج يتبعه صاحباه وهما يرتجفـان خوفـاً مـن تلك المهمة. حالما رآهم المغربي يغيبون في الاسفل أطفأ الشمعة الصفراء وللتوأطبقـت الأرض بدويها المعهود عليهم دافنة إيـاهم في جوفهـا.عندئـذ أسـرع صـاعداً الـدرج الآخر دون أن يتوقف إلى ان وصل إلى الهواء الطلق، في إثره السـقاء الضئيـل وهـو يقفز الدرج، بأقصى ما تسمح له رجلاه من سرعة.

«ماذا فعلـت؟» صـاح بـيرجيل بـه لحظـة اسـتطاع أن يسـترد أنفاسـه «هـل حبست القاضي والرجلين الآخرين في القبو!؟ » سأل الغاليسـي، فأجـاب المغربـي وهو يمسد لحيته « قد كتب في كتاب القدر أن يبقوا مسحورين إلى أن يأتي مغـامر آخر في المستقبل يفك عنهم السحر. ولقد تمت إرادة الله » ؟؟ قال ذلك ثـم قـذف بعقب الشمعة المستدقة بين أشجار الوادي الكثيفة الظليلة فلم يعد ثمة علاج. بعـد ذاك ، مضى المغربي والسقاء بحمارهما المحمل ذهباً إلى المدينة، دون أن يستطيع السقاء الشريف منع نفسه من احتضان مسـاعده في العمـل ذي الأذنـين الطويلتـين وتقبيله من حين إلى حين وقد استعاده من قبضة القانون، دون أن يستطيع أحـد بالواقع ان يبت فيما إذا كان فرح السقاء الشـديد في تلـك اللحظـة لحصولـه علـى الكنز أم لاستعادته الحمار.

بأطيب نية وأحسن تفاهم، اقتسم الشريكان غنيمتهما قسمة العدل والإنصاف ما عدا أن المغربي الذي كان مولعاً قليلاً بالحلي الصغـيرة عمـل علـى أن يضـع في كومته أكبر قدر من اللؤلؤ والحجارة الكريمة والحلى الرخيصة معطياً السقاء بـدلاً منها الجواهر الرائعة والحلي الذهبية الضخمة التي تزيد قيمتها عن تلك بأربع أو خمس مرات والتي كانت ترضـي السـقاء كـل الرضـى. غـير أنهمـا كليهمـا أوليـا

اهتمامهما كله إلى أن لا يقعا في المزيد من الورطات أو يعرضا نفسيهما للمزيد من الأخطار فقررا أن يستمتعا بثروتهما دون انزعاج في بلدان أخرى. وهكذا. عاد المغربي إلى مدينته طنجة مسقط رأسه. فيما مضى الغاليسي مع زوجته وأطفاله وحماره إلى البرتغال. هناك وبإشراف زوجته وتعاليمها. أصبح بيرجيل شخصية مرموقة. فقد جعلت ذلك الرجل الضئيل الكفوء يكسو جذعه الطويل وساقيه القصيرتين بالصدرية الضيقة والبنطال الضيق. كما جعلته يضع في قبعته ريشة وإلى جانبه السيف. طارحاً اسمه المألوف جانباً ليغدو بدلاً من بيرجيل صاحب اللقب الرنان: «الدون بدروجيل». الذي تنامت ذريته وعاشت حياة مزدهرة الحال سعيدة القلوب رغم أنها قصيرة السيقان متقوسة. في حين غدت السيدة جيل. بملابسها الدانتيل المكشكشة المزينة بالحلي من رأسها حتى قدميها. وبخواتمها اللامعة في كل اصبع من أصابعها نموذجاً للتبرج والبهرجة.

أما القاضي وصاحباه فإنهم ما يزالون حتى اليوم مسحورين محتجزين تحت برج الطوابق السبعة العظيم.

وإذا احتاج الناس في اسبانيا ذات يوم إلى الحلاقين الثرثارين أو الحراس القضائيين الشرسين أو القضاة الفاسدين. حينذاك قد يبحثون عنهم. لكن إذا ما كان على هؤلاء أن ينتظروا خلاصهم حتى ذلك الحين. فثمة خطر في أن يدوم سحرهم حتى يوم القيامة.

برج الطفلات

ـ ذات مساء كنت أتمشى صاعداً الوادي الصغير الضيق المظلل بأشجار التين والرمان والريحان الذي يفصل أرض القلعة عن ارض «جنة الريف»، فأدهشني ظهور رومانسي لبرج عربي في سور الحمراء الخارجي وهو ينتصب عالياً فوق قمم الأشجار ملتقطاً الأشعة الحمراء لشمس الغروب . كانت ثمة نافذة عالية تطل من ارتفاعها ذاك على منظر الوادي. فرحت أنظر إليها. في تلك اللحظة أطلت صبية جميلة، رأسها مزين بالأزهار. بدا جلياً أنها أرفع مرتبة من طبقة الناس المألوفة التي تسكن أبراج القلعة القديمة. نظراتها المفاجئة والمثيرة تلك ذكرتني بأوصاف الحسناوات الأميرات في الحكايات القديمة. ثم زاد من ذلك ما أخبرني به صاحبي ماتيو وهو أن ذلك البرج هو برج الأميرات وطبقاً لما تناقلته الأجيال فقد دعي كذلك، لأنه المسكن الذي كانت تقيم فيه بنات الملوك العرب. بعد أيام زرت البرج فاكتشفت أنه لا يسمح للغرباء عادة بزيارته رغم أنه برج مثير للاهتمام.

فالداخل يوازي، بجمال عمارته، ودقة زخرفته أي جزء آخر من أجزاء القصر. بيد أن روعة القاعة المركزية ، بنافورتها الرخامية وأقواسها العالية وقبتها الوافرة الزخرفة ثم الحجرات ذات المنمنمات العربية والزجاج المعشق، رغم ما ترك عليه مرور الزمان والإهمال من آثار، كل ذلك يؤكد أنه كان قديماً قصر الأميرات الحسناوات. والحقيقة أن ملكة الجن الضئيلة العجوز التي تقطن تحت سلم درج الحمراء وغالباً ما تتردد في المساء على أبهاء «قبة انطونيا» كان لديها بعض الحكايات الخيالية التي تروى عن ثلاث أميرات عربيات كن ذات يوم حبيسات هذا البرج، وقد أمر بذلك والدهن، ملك غرناطة المستبد، ولم يكن يسمح لهن بالخروج إلا في الليل إذ كن يركبن ظهور خيولهن ويتجولن بين التلال، حيث لا يسمح لأحد بالسير على طريقهن تحت طائلة الموت. وطبقاً لقصتها، فإنه ما يزال بالإمكان رؤيتهن، أحياناً في الليالي القمراء وهن راكبات ظهور خيولهن الصغيرة المزينة السروج وقد رصعت بالجواهر المتلألئة، يجبن الأماكن الخالية في سفوح الجبال، بيد أنهن سرعان ما يختفين إذا ما كلمهن أحد.

لكن قبل أن أقص المزيد عن هؤلاء الأميرات ربما يكون القارىء متلهفاً لمعرفة شيء عن ساكنة البرج الحسناء برأسها المزين بالأزهار، تلك التي أطلت من النافذة العالية. فقد تبين لي أنها المرأة الحديثة الزواج من قيم العاجزين عن الخدمة الرائع ، ذاك الذي ظلت لديه الشجاعة، رغم ما أصابته السنون لأن يضم إلى صدره إحدى الفتيات الأندلسيات وهي في ميعة الصبا والجمال. لعل ذلك الفارس العجوز الطيب سعيد في اختياره ولعله أيضاً يجد برج الأميرات هذا المقر الأكثر أماناً لحسنائه الجميلة مما كان على مايبدو أيام العرب المسلمين، إذا ما صدقنا الحكاية التالية:

حكاية الأميرات الحسناوات الثلاث:

في قديم الزمان، كان يحكم غرناطة ملك عربي يدعى محمد وقد أضاف رعاياه إلى اسمه لقب الأعسر. البعض يقول إنه دعي كذلك لبراعته في استخدام يده اليسرى أكثر من اليمنى، آخرون يعزون السبب إلى أنه كان ميالاً لتناول كل شيء من الجهة الخطأ ، أو بعبارة أخرى تشويه كل ما تمتد يده إليه. لكن سواء كان ذلك بسبب سوء الحظ أو سوء التدبير، فالأكيد أنه كان يواجه المصاعب

والمشاكل باستمرار: لقد عزل عن عرشه ثلاث مرات، وفي إحداها لم ينج بحياته إلا بشق النفس بعد أن تنكر بزي صياد. مع ذلك كان الرجل شجاعاً مقداماً بقدر ماكان أحمق متخبطاً، وعلى الرغم من أنه كان أعسر إلا أن ضربة سيفه لم تكن تخطىء الهدف، وإلى درجة كان يفلح معها كل مرة في استعادة عرشه بشجاعته وشدة مراسه في ميادين الحروب. لكن، بدلاً من أن يتعظ ويستفيد من التجربة، كان يشتد عناداً وتصلباً في رغباته ، والشرور الكثيرة التي جرها على شعبه تذكرها كتب التاريخ العربية التي تسجل أحداث غرناطة. أما هذه الحكاية فلا تتحدث إلا عن سياسته في بيته ومع أهله أنفسهم. ذات يوم، وكان محمد هذا يتقدم ركباً من حاشيته عند أسفل جبال إلفيرا، التقى بعصبة من الفرسان العائدين من القتال من أرض المسيحيين. في إثرهم رتل طويل من البغال المحملة بالغنائم والكثير من الأسرى، رجالاً ونساء. من بينهم فتاة حسناء ما إن رآها الحاكم حتى أصيب بالدهشة، فقد كانت في أبهى الحلل تركب حصاناً صغيراً وهي تنشج وتبكي غير آبهة بكلمات المواساة التي كانت تواسيها بها وصيفتها الراكبة الى جانبها.

بهر الحاكم بجمالها الأخاذ ولدى سؤاله قائد الجند، عرف أنها ابنة قائد القلعة الأمامية التي هوجمت على حين غرة ثم سلب ونهب كل ما فيها. في الحال طلب محمد أن تكون الفتاة حصته من الغنيمة وفي الحال أيضاً تم نقلها إلى جناح حريمه في قصر الحمراء. هناك، كان كل شيء معداً للتخفيف عنها وتهدئة أحزانها، خاصة أن الحاكم، وقد ازداد شغفاً بها أكثر وأكثر ، أراد ان يتخذها زوجة له ويجعل منها ملكة. في البداية، رفضت الفتاة الاسبانية كل محاولاته للتقرب، فهو من غير دينها وهو العدو الصريح لبلادها ـ لكن أسوأ ما في الأمر أنه كان طاعناً في السن.

قرر الملك، وقد وجد أن محاولاته كلها ضاعت سدى، أن يجند لصالحه الوصيفة التي أسرت مع السيدة. والوصيفة أندلسية المولد لكن لم يذكر أحد اسمها المسيحي فالحكايات العربية لم تذكر لها اسماً آخر غير خديجة الحصيفة ــ وقد كانت حصيفة بالحقيقة كما يبين ذلك تاريخها كله، إذ ما إن أجرى الملك العربي بعض الحديث الخاص معها، حتى رأت للتو قوة الحجة والاقناع في ما قاله ووقفت الى جانبه في قضيته مع الآنسة الشابة.

«هيا ، الآن» صاحت الوصيفة ، ما الذي يستحق منك أن تبكي وتولولي عليه ؟ أليس خيراً لك أن تكوني سيدة هذا القصر الجميل بكل ما فيه من حدائق ونوافير من أن تكوني حبيسة برج والدك الأمامي العتيق؟ أما كون محمد هذا من غير دينك فما الذي يضيره وما علاقتك بهذا؟ إنك تتزوجينه ولا تتزوجين دينه. وإذا ما كان متقدماً في السن بعض الشيء فإنه سرعان ما يتركك أرملة، سيدة نفسك، وعلى أي حال أنت في قبضته وعليك ان تختاري : إما ملكة أو عبدة. لكن حين يكون المرء بين يدي قاطع طريق فإن الأفضل له ان يبيع بضاعته بسعر حسن من أن يأخذها قاطع الطريق بالقوة».

حجج خديجة الحصيفة أجدت أخيراً. فقد جففت السيدة الاسبانية دموعها وأصبحت زوجة محمد الأعسر بل إنها اعتنقت ظاهرياً دين زوجها، الملك. كما أصبحت وصيفتها الحكيمة مباشرة مؤمنة بعقيدة الاسلام متحمسة لها. وحينذاك أخذت اسمها العربي خديجة وسمح لها أن تظل أمينة سر سيدتها. خلال فترة من الزمن أصبح الملك العربي أباً فخوراً وسعيداً لثلاث بنات جميلات وضعتهن له الأم في بطن واحد.

صحيح أنه كان يتمنى لو جاؤوا صبياناً لكنه كان يعزّي نفسه بأن ثلاث بنات توائم هو فأل حسن لرجل أعسر طاعن في السن!

دعا الحاكم، مثلما هي عادة الحكام المسلمين كافة، عدداً من المنجمين للنظر في هذا الحدث السعيد. ألقى المنجمون بطالع الأميرات الثلاث ثم هزوا رؤوسهم قائلين «البنات، أيها الملك ، ملكية محفوفة بالمخاطر دائماً، لكن هؤلاء بالتحديد سيكن بحاجة أكثر لعينك الساهرة عندما يبلغن سن الزواج، في ذلك الوقت ضمهن تحت جناحك ولا تعهد بهن لأحد يحرسهن أو يرعاهن».كان أفراد الحاشية ينظرون إلى محمد الأعسر باعتباره ملكاً حكيماً، وهكذا بالتأكيد كان ينظر إلى نفسه. تلك النبوءة جعلته يقلق قليلاً، ولا يثق إلا بعبقريته وحدها كي تحرس بناته وتتحدى الأقدار.

كان بطن التوائم الثلاث ذاك آخر الانتصارات التي سجلها الحاكم على الأم - إذ لم تحمل له أولاداً بعد ذلك، ثم قضت نحبها بعد بضع سنوات، تاركة بناتها الصغيرات لحب أبيهم وإخلاص خديجة الحصيفة.

ورغم أنه كان لا بد من مرور سنوات عدة قبل أن تبلغ الأميرات مرحلة الخطر ـ سن الزواج، إلا أن الحاكم الفهيم قال: مع ذلك، من الحكمة أن يكون المرء حريصاً مسبقا . ثم اتخذ قرارا بأن تتم تربيتهن في حصن سالبرينا الملكي، وهو قصر فاخر تحتضنه . إن جاز القول، قلعة عربية حصينة تقع على ذروة إحدى الروابي المطلة على البحر الأبيض المتوسط. لقد كانت ملاذاً ملكياً يرسل الحكام المسلمون إليه من يريدون احتجازه من أقاربهم الذين يرون فيهم خطراً على سلامتهم وأمنهم، حيث يسمح لهم بكل أنواع البذخ والترف والتسلية، ليقضوا حياتهم غارقين في اللذائذ والشهوات. هناك، عاشت الأميرات معزولات عن العالم لكن محاطات بكل ما يمتع ويبهج، تشرف على خدمتهن إماء يلبين كل رغبة من رغباتهن قبل ان يعبرن عنها. هناك أيضاً كان لديهن حدائق غناء لإراحتهن وإنعاشهن، فيها كل ما لذ وطاب من الثمار والأزهار، والأشجار الطيبة الرائحة والحمامات المعطرة . من الجهات الثلاث كان الحصن يطل على واد خصيب فيه أصناف المزروعات كلها وتحده من الجانب الآخر جبال ألبوكسارا العالية، أما من الجهة الرابعة فيطل على البحر المشمس العريض.

في هذا المسكن الرائع، وفي ذلك المناخ الملائم، حيث السماء الزرقاء الصافية ترعرعت الأميرات الثلاث ليصبحن أجمل النساء، لكن، وعلى الرغم من أنهن جميعاً نشأن النشأة ذاتها فقد أبدين منذ وقت مبكر علائم التباين في الشخصية. أسماؤهن هي زايدة، زريدة . زرهيدة وذلك حسب تسلسل ولادتهن، فحين ولدن، لم يكن يفصل واحدتهن عن الأخرى سوى ثلاث دقائق بالضبط.

كانت زايدة، كبراهن، جريئة مقدامة . لها القيادة على أختيها في أمور الدنيا كلها. فضولية كانت أيضاً، محبة للاستطلاع والمعرفة، مولعة بالوصول إلى قاع الاشياء فلا تفوتها شاردة ولا واردة.

أما زريدة فكانت شديدة الاحساس تجاه الجمال، الأمر الذي جعلها، ولا شك، تستمتع كل الاستمتاع بتأمل صورتها في المرآة أو ماء البركة، كما جعلها تولع بالأزهار، بالجواهر والحلي وأشياء الزينة الأخرى، فيما كانت زرهيدة، صغراهن، ناعمة رقيقة، مفرطة الحساسية ذات قدر كبير من الرهافة والشفافية، يدل على ذلك كثرة ما لديها من أزهار وحيوانات وطيور مدللة ترعاها جميعاً بكل ما في الكون من عناية واهتمام. تساليها أيضاً كانت ذات طبيعة راقية تتصل كلها بالتأمل وأحلام اليقظة فهي قد تجلس ساعات في شرفة من الشرفات تحدق إلى

النجوم اللامعة في ليلة صيف أوالبحر المتلألىء تحت ضوء القمر وفي أوقات كهذه كانت أغنية صياد تصل خافتة إلى مسامعها من شاطىء البحر أو أنغام ناي عربي آتية من مركب صيد ينزلق على سطح الماء، تكفي لتأجيج مشاعرها حتى درجة النشوة. مع ذلك، كان أدنى هبوب للرياح يملأ قلبها رعباً وقصف الرعد يكفي لأن يلقي بها أرضاً وقد أغمي عليها.

بهدوء ورتابة راحت السنون تمر، وخديجة الحصيفة التي عهدت إليها تربية الأميرات مخلصة لما عهد إليها ترعاهن بكل عناية واهتمام.

كان حصن سالبرينا قد بني، كما قلنا، على رابية مطلة على شاطئ البحر وكان أحد أسواره الخارجية ينحدر مع سفح الرابية إلى أن يصل إلى صخرة بارزة معلقة فوق البحر تماماً، في أسفلها شاطىء رملي ضيق تغسله باستمرار أمواج البحر المزبدة البيضاء ـ على تلك الصخرة، كان قد أقيم برج مراقبة صغير أشبه بسرادق مجهز بنوافذ مشبكة تسمح فتحاتها بدخول النسيم البحري العليل. هنا، كانت الأميرات قد اعتدن أن يقضين ساعات الظهيرة الحارة.

ذات يوم، كانت زايدة المحبة للاستطلاع تجلس بجوار النافذة، شأنها شأن أخواتها المستلقيات على الأرائك في قيلولة الظهيرة. شيء ما لفت انتباهها. إنه قارب يسير بمحاذاة الشاطىء ، ضربات مجذافه محسوبة بدقة. مع اقترابه، لاحظت زايدة أنه مليء بالرجال المسلحين. عند أسفل البرج ، توقف القارب: عدد من الجنود العرب نزلوا على الشاطىء الضيق يسوقون أمامهم عدداً من الأسرى المسيحيين. أيقظت زايدة الفضولية أختيها ورحن ثلاثتهن يسترقن النظر خلسة عبر مشبكات النوافذ التي كانت تحجبهن عن النظر. بين الأسرى كان هناك ثلاثة فرسان أسبان فاخري الملابس، في ريعان الشباب عليهم سيماء النبل وتوحي تصرفاتهم كلها برفعة محتدهم وسمو مكانتهم رغم كل ما كانوا يحملونه من أصفاد وكل ما يحيط بهم من أعداء. باهتمام شديد وانكتام أنفاس تام، لاحقتهم الأميرات بأنظارهن، هن اللواتي كن قد احتجزن في ذلك الحصن ، بين خدم من الإماء دون أن يرين من الجنس الآخر إلا العبيد السود أو صيادي البحر الغلاظ، فلا عجب إن أثار ظهور ثلاثة فرسان في ميعة الصبا وعز الشباب وروعة الرجولة مثل ذلك الجيشان في صدورهن.

«هل عرفت الأرض فارساً أكثر نبلاً من ذلك الفارس ذي الثوب القرمزي؟» صاحت زايدة كبرى الأخوات. « انظرا ، كم هو عظيم الكبرياء لكأن كل من حوله عبيد وأتباع». «لكن لاحظا ذلك الفارس أخضر الملابس » هتفت زريدة «أي سحر! ! أية روعة! ! أية همة ونشاط»؟

غير أن زرهيدة الرقيقة لم تقل شيئاً بل كتمت في نفسها تفضيلها للفارس ذي الحلة الزرقاء.

ظلت الأميرات يتابعن النظر إلى الأسرى إلى أن غابوا عن البصر، بعدئذ صعدن الآهات الطويلة ملتفات الواحدة إلى الأخرى لحظة من الزمن ثم جلسن على أرائكهن ساهمات متفكرات. على تلك الحالة وجدتهن خديجة الحصيفة. روين لها ما شاهدن حين سألتهن عن السبب، فامتلأ حتى قلب خديجة المتيبس بدفء المشاعر.. « يا للصبايا المسكينات » ! ! هتفت خديجة «إني لأراهن أن أسرهم يجعل كثيراً من قلوب الحسان تنفطر عليهم في بلادهم! آه ، يا بناتي! ! إنكن لا تعرفن إلا القليل عن الحياة التي كان يعيشها هؤلاء الفرسان في أوطانهم. كم هم متألقون في مبارزاتهم! ! كم تراهم يعبدون النساء! ! كم يغازلونهن ويعزفون لهن الموسيقى! ! ».

وللتو، أثير فضول زايدة، هي التي لم يكن يشبع فضولها شيء ولا يروي حب استطلاعها شيء، فراحت تستجر وصيفتها لتأخذ منها أقصى ما تستطيع من معلومات وأخبار، صور ومشاهد عن أيام شبابها ووطنها الأم. زريدة الجميلة شمخت بأنفها عالياً وبكثير من المكر نظرت إلى نفسها في المرآة حين تحول الحديث إلى ذكر مفاتن السيدات الاسبانيات وسحرهن، في حين كتمت زرهيدة آهة حرى لدى ذكر أغاني العشاق وعزفهم الأنغام تحت ضوء القمر. يوماً بعد يوم، راحت زايدة الشديدة الفضول تجدد أسئلتها واستفساراتها ويوماً بعد يوم راحت الوصيفة الحكيمة تعيد قصصها لتصغي الأميرات بكل عناية واهتمام تقطعها الزفرات والآهات. أخيراً تنبهت العجوز الحصيفة للأذى الذي قد تسببه لهن. لقد اعتادت أن تفكر بالبنات وكأنهن ما يزلن طفلات صغيرات ، لكنهن، ودون أن تلحظ ذلك، كن قد كبرن ونضجن، وها هن أمام عينيها ثلاث فتيات جميلات في سن الزواج. لقد حان الوقت، فكرت الوصيفة، لأن تلفت نظر الملك.

ذات صباح، كان محمد الأعسر يجلس على مقعد من مقاعد صالة الحمراء الباردة، حين دخل عبد من عبيد حصن سالبرينا حاملاً رسالة من خديجة الحصيفة، تهنئه فيها بذكرى ميلاد بناته الثلاث، في الوقت نفسه قدم له العبد سلة صغيرة دقيقة الصنع مزخرفة بالأزهار في داخلها، وعلى مفرش من أوراق التين والعنب، ثلاث ثمرات:

خوخة، مشمشة، دراقة ما يزال الزغب وقطر الندى عليها وهي جميعاً في المرحلة الأولى من النضج المغري. كان الحاكم بارعاً في لغة الثمار والأزهار الشرقية وسرعان ما أدرك المغزى من ذلك العرض المفعم رموزاً ودلالات.

«هكذا إذن» قال الحاكم «قد بلغن المرحلة الحرجة التي أشار إليها المنجمون: بناتي بلغن سن الزواج ما الذي ينبغي فعله؟ لقد أبعدتهن عن أعين الرجال لينشأن تحت سمع خديجة الحصيفة وبصرها، لكن الآن ، وكما حدد لنا المنجمون: يجب أن أضمهن تحت جناحي ولا أعهد برعايتهن لأحد سواي».

قال ذلك ثم أمر بإعداد برج الحمراء لاستقبالهن، متوجهاً على رأس حراسه إلى حصن سالبرينا كي يعود بهن بنفسه. كانت قد مضت ثلاث سنوات على آخر مرة رأى فيها محمد الأعسر بناته ولم يكن يصدق عينيه للتغير العجيب الذي تركته تلك الفترة الوجيزة من الزمن على هيئتهن وشكلهن. فخلالها، كن قد عبرن ذلك الخط الفاصل في حياة الأنثى بين الفتاة الفجة غير المتبلورة عديمة التفكير وبين المرأة المفكرة المتفتحة المزدهرة أنوثة ونضجاً. إنه أشبه بالانتقال من سهول لامانش المنبسطة الخاوية غير المثيرة للاهتمام إلى وديان الاندلس وروابيها الخصبة الزاهرة.

كانت زايدة طويلة القامة حسنة البنية ، بصرها ثاقب وسلوكها رفيع راق: بخطوة واثقة ومهابة وتجلة دخلت إلى محمد تقدم فروض الولاء والطاعة معاملة إياه كملك حاكم أكثر منه أباً.

أما زريدة فكانت متوسطة الطول ذات نظرة إغراء وهيئة ساهمة وجمال متألق زادت منه الزينة والتبرج. دنت من أبيها متبسمة قبلت يده ثم رحبت به بعدد من أبيات الشعر العربي الشهيرة التي سر لها الحاكم وابتهج. فيما كانت زرهيدة حيية خجولاً أصغر من أختيها حجماً ، جمالها من ذلك النوع الرقيق المتضرع الذي يبحث عن الولع والحماية. هيئتها لم تكن تناسب أن تكون آمرة ،

كأختها الكبرى، أو أن تبهر العين كأختها الثانية، بل هي تكونت بحيث تتسلل الى قلب الرجل، تعشش فيه وتمتلك عواطفه وترضى . وهكذا ، دنت من أبيها ، بخطوة مرتعشة مترددة تقريباً. ثم أخذت يده كي تقبلها ، لكن ما إن نظرت إلى وجهه ورأته يشع بابتسامة أبوية حتى انبجس للتو كل ما في قلبها من رقة ولطف ، فألقت بنفسها على صدره وذراعاها حول عنقه.

راح محمد الأعسر يتأمل بناته البالغات أوج النضج بمزيج من الكبرياء والحيرة، وعلى الرغم من أنه كان مغتبطاً لما هن عليه من سحر وفتنة، إلا أنه كان ما يزال يفكر بنبوءة المنجمين.«ثلاث بنات! ثلاث بنات!» راح الملك يكرر مهمهماً لنفسه «وكلهن في سن الزواج . ها هنا تفاحة الجنة المغرية ولا بد لها من تنين يحرسها».

بعدئذ بدأ استعداداته للعودة إلى غرناطة فأرسل الرسل أمامه آمراً أن تخلى الطرقات التي سيمر بها وأن تقفل النوافذ والأبواب كلها لدى اقتراب الأميرات. ثم ما إن تم هذا حتى انطلق ترافقه ثلة من الفرسان السود بدورعهم اللامعة وهيئتهم المخيفة.

بجانب الملك، سارت الأميرات محجبات الوجوه على خيول صغيرة جميلة بيضاء، غطيت ظهورها بالقطيف والمخمل وزينت بالذهب. شراشيبها تصل حتى الأرض. الشكائم والركابات من الذهب واللجم حريرية مزينة باللؤلؤ والحجارة الكريمة. كذلك كانت الخيول الصغيرة مزينة بأجراس فضية صغيرة تطلق أعذب الرنين وأحلى الأنغام وهي تهتز مع حركة الخيول. لكن الويل الويل للغافل التعيس الذي يظل على الطريق حين يسمع رنين تلك الأجراس — فقد صدرت الأوامر الى الحراس بأن يقطعوا رأسه دونما رحمة.

راح الموكب يقترب من غرناطة. وحين بلغ ضفة نهر زنيل التقى بثلة صغيرة من الجنود العرب وهم يسوقون أمامهم رتلاً من الأسرى. كان الأوان قد فات لأن يخلي الجنود الطريق ، لذلك انكبوا بوجوههم على الأرض آمرين أسراهم أن يفعلوا مثلهم. بين الأسرى كان الفرسان المتشابهون الثلاثة الذين شاهدتهم الأميرات من سرادقهن في الحصن. ولأنهم لم يفهموا الأمر أو كانوا أكثر ترفعاً وإباء من أن يطيعوه فقد ظلوا واقفين يحدقون إلى الموكب وهو يعبر بهم.

اشتعل الحاكم غضباً لذلك التحدي الوقح لأوامره، فشهر سيفه واندفع قدماً بل كاد يسدد ضربة منه بيسراه لأحد أولئك الثلاثة، ضربة ربما تكون قاتلة، حين أسرعت الأميرات وتجمعن حوله، طالبات الرحمة للأسرى. بل حتى زرهيدة الحيية الخجول نسيت خجلها وغدت في غاية الفصاحة دفاعاً عنهم. توقف محمد وسيفه مشهر عالياً، فيما أسرع قائد الجند لإلقاء نفسه عند قدميه قائلاً: «يا جلالة الملك، أتوسل إليك لا تقم بعمل ربما يثير فضيحة كبرى في أرجاء المملكة كلها. هؤلاء هم الفرسان الاسبان الثلاثة النبلاء الشجعان الذين أسرناهم في المعركة، بعد أن قاتلوا كالأسود. إنهم من محتد كريم وربما يعودون علينا بفدية عظيمة». «حسبك» قال الملك «سأعفو عنهم فلا أقتلهم، لكن عاقبهم على وقاحتهم - خذهم إلى الأبراج القرمزية وافرض عليهم الاشغال الشاقة». بذلك، كان محمد قد ارتكب واحدة من حماقاته الفظيعة المعهودة. ففي قلب الجلبة والاضطراب الذي أحدثه ذلك المشهد كانت حجب الأميرات الثلاث قد سقطت عن وجوههن كاشفة ألق جمالهن، ولكي يزداد الطين بلة، فقد أتاح الحديث الذي جرى بين الملك والقائد، الفرصة لذلك الجمال لأن يترك تأثيره الكامل عليهم. ومن الجدير بالذكر أن الناس في تلك الأيام كانوا يقعون في الغرام على نحو متأجج وأسرع بكثير من الأيام الراهنة .

كما تبين ذلك القصص القديمة كلها: لهذا لا عجب أن قلوب الفرسان الثلاثة قد وقعت أسيرة الحب والغرام، خاصة وأنه خالط الاعجاب لديهم العرفان والامتنان: لكن الغريب الفريد قليلاً، رغم أنه أكيد إلى حد كبير، أن كلاً منهم وقع أسير حب واحدة من الأميرات. أما هؤلاء فقد كن أكثر اندهاشاً أيضاً بسلوك الأسرى النبيل فحملن في قلوبهن كل ما سمعنه عن شجاعة ونبل أولئك الفرسان.

استأنف الموكب سيره، الأميرات الثلاث على ظهور خيولهن الصغيرة يسرن مطرقات متفكرات ومن حين إلى آخر يختلسن نظرة إلى الوراء بحثاً عن الأسرى الاسبان فيما كان هؤلاء يساقون الى سجنهم في الأبراج القرمزية.

وصلت الأميرات إلى المقر المخصص لهن وهو واحد من أروع القصور التي يمكن للخيال أن يتصورها . إنه في برج منفصل نوعاًما عن قصر الحمراء الرئيسي. على الرغم من أنه يتصل به من خلال السور الذي يحيط بذروة الرابية كلها. من إحدى الجهات كان يطل على داخل القلعة، وفي الأسفل منه، كانت ثمة حديقة صغيرة ملأى بأندر الزهور. من الجانب الآخر، كان يطل على واد عميق كثيف

الأشجار يفصل أرض الحمراء عن أرض «جنة الريف». أما داخل البرج فكان مقسماً إلى أجنحة صغيرة خرافية الجمال والزينة وقد زخرفت وفق الطراز العربي، تحيط بقاعة عالية ذات سقف مقبب يكاد يصل إلى قمة البرج. جدران القاعة وسقفها كلها مزينة بالأرابيسك والنقوش الشبكية، مزخرفة بخيوط الذهب والفضة. في منتصف الأرض المبلطة بالرخام كانت هناك بركة من مرمر محاطة بشجيرات الأريج والأزهار، تندفع منها نافورة ماء تبرد الصرح كله ويحمل صوتها السكينة والهدوء للنفوس. حول القاعة نصبَت أقفاص من أسلاك الذهب والفضة، في داخلها طيور غريدة تزهو بأجمل الريش وتشدو أعذب الألحان.

هنا أيضاً، وكما كان الأمر في حصن سالبرينا، أعد للأميرات كل ما يسرهن ويبهجهن. توقع الملك أن يراهن وقد أخذ قصر الحمراء بألبابهن . لكن ، لدهشته، بدأت الأميرات بالشكوى والتذمر كما أصبحن أميل للاكتئاب لا يرضيهن شيء مما حولهن، فالزهور لم تعد تحمل لهن العبق وتغريد العنادل بات يقض مضاجعهن، كما برمن بنوافير الرخام والمرمر وهي ترسل ماءها ورذاذها الرتيب الممل من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح.

في البداية أثار هذا حنق الملك، هو النزق السريع الغضب الأميل للبطش والطغيان، لكن بعدئذ فكر أن بناته بلغن السن التي يتسع فيها عقل الأنثى وتزداد رغباتها.«لم يعدن صغيرات» قال لنفسه «إنهن فتيات ناضجات ولا بد لهن من أشياء مناسبة تثير اهتمامهن».

لهذا أرسل في طلب أمهر الخياطين وأبرع الجواهريين والصاغة في أسواق غرناطة لتبهر الأميرات بعد ذلك بأثواب الحرير والخز والديباج، بشالات الكشمير وعقود اللؤلؤ والماس، الخواتم والأساور والخلاخل وكل ما هناك من حلي وأشياء ثمينة. لكن ذلك كله ذهب سدى، فقد ظلت الأميرات شاحبات الوجوه، خاملات وسط حليهن وزينتهن أشبه بثلاثة براعم ورد ذابلات، متدليات من ساق نبتة واحدة. كاد الملك يفقد صوابه، هو الذي كان يثق ثقة عمياء بأحكامه ولم يكن يأخذ نصيحة أحد فقال مخاطباً نفسه «نزوات ثلاث فتيات في سن الزواج ورغباتهن تكفي لأن تحير أدهى الرجال». وهكذا، وللمرة الأولى في حياته، طلب العون والنصح من أحد، ولم يكن ذلك الأحد سوى الوصيفة الخبيرة المجربة.

«خديجة » قال الملك «أنا أعلم أنك واحدة من أحصف النساء في الدنيا وأكثرهن حكمة وجدارة. لهذه الأسباب أبقيتك دائماً موضع ثقتي وامينة سر بناتي فالآباء لا يمكن أن يكونوا موضع سر بناتهم، والآن أرغب كثيراً أن تعرفي لي ذلك المرض الخفي الذي ينهش جوف الأميرات وأن تجدي لي وسيلة، لاستعادة صحتهن وعافيتهن».. وعدته خديجة بالطاعة. والحقيقة كانت خديجة ضمناً تعرف مرض الأميرات أكثر مما يعرفنه هن أنفسهن. مع ذلك. أغلقت على نفسها الأبواب معهن، باذلة جهدها لأن تتغلغل داخل نفوسهن. فيبحن لها بالسر. «ياطفلاتي العزيزات، ما سر شحوبكن وذبولكن في مكان جميل كهذا. فيه كل ما تشتهي النفس؟»؟

بنظرات خاوية تطلعت الأميرات حولهن ثم صعدن الآهات «ماذا تردن بعد؟ هل آتي لكن بالببغاء العجيب الذي يتكلم كل اللغات، متعة غرناطة وبهجتها كلها».

«طائر كريه ! !» هتفت الأميرة زايدة «فظيع !! مرعب !! يهذر بالكلام دون أفكار: ولا بد ان يكون المرء بلا دماغ البتة كي يتحمل لغة كهذه! !».

«هل آتي لكن بسعدان من جبل طارق يسليكن بألاعيبه» «سعدان !! تباً !! تباً » صاحت زريدة «ذاك المقلد البشع للإنسان!! أنا أكره ذلك الحيوان الذي يدعو للغثيان! !» «ما رأيكن بقاسم، المغني الأسود الشهير في جناح الحريم في مراكش؟ يقولون إن صوته أرق من صوت المرأة».

- «لا، منظر أولئك الخصيان السود يرعبني» قالت زرهيدة الرقيقة«علاوة على ذلك فقدت كل لذة واستمتاع بالموسيقى» «آه، يا طفلتي! ! ما كنت لتقولي ذلك» أجابت المرأة العجوز بكثير من المكر والدهاء«لو سمعت الموسيقى التي سمعتها ليلة البارحة من الفرسان الاسبان الثلاثة الذين التقينا بهم في طريقنا إلى هنا، لكن با لله عليكن يا طفلاتي. ما الأمر الذي يشغلكن هكذا ويجعلكن في مثل هذا الحال من الهم والغم؟».

«لا شيء، لا شيء، أيتها الأم الطيبة، الرجاء تابعي». «حسناً، بينما كنت مارة بقرب الأبراج القرمزية ليلة البارحة رأيت الفرسان الثلاثة يرتاحون بعد عناء نهارهم كله. أحدهم كان يعزف على الغيتار عزفاً رائعاًوالآخران كانا يغنيان بالتناوب وكانا يفعلان ذلك على نحو جعل حتى الحراس يجمدون كالتماثيل و

الرجال المسحورين. ليسامحني ا لله. فأنا نفسي لم أستطع إلا أن أتأثر وأنا أسمع أغاني وطني، وأرى ثلاثة شبان بذلك الجمال والنبل وهم يرسفون بالقيود والأغلال». هنا، لم تستطع العجوز الرقيقة القلب أن تحبس دموعها فانهمرت، «لعلك يا أم ، تستطيعين ان تتدبري الأمر فنرى أولئك الفرسان» قالت زايدة فعقبت زريدة «أظن أن بعض الموسيقى قد يكون علاجاً ناجعاً»؟

أما زرهيدة الخجول فلم تنبس ببنت شفة لكنها القت بذراعيها حول عنق خديجة.

«رحمتك يارب!!» هتفت العجوز الحصيفة «عم تتكلمن يا طفلاتي؟ سيميتنا كلنا أبوكن إذا ما سمع بشيء كهذا. صحيح ان هؤلاء الفرسان كريمو المحتد، حسنو التربية، رفيعو التفكير، لكن ماشأننا وذلك! إنهم أعداء الدين وعليكن ألا تفكرن بهم إلا بالكراهية والبغضاء». لكن من المعروف أن الأنثى حين ترغب بشيء، تغدو جريئة مقدامة إلى حد يثير الإعجاب، خاصة حين تكون في سن الزواج، فلا تعود تخشى الأخطار والأهوال. وهكذا، تعلقت الأميرات بوصيفتهن العجوز، داعبنها ، توسلن إليها ثم أعلن أن رفضها لطلبهن سيحطم قلوبهن، فما عساها تفعل؟ هي بالتأكيد كانت أحكم النساء في الدنيا كلها وأكثر الخدم اخلاصاً وطاعة للملك، لكن هل بوسعها أن ترى الأميرات الجميلات الثلاث وقلوبهن تتحطم من أجل أنة غيتار لا غير؟

علاوة على ذلك، وعلى الرغم من أنها كانت قد قضت سنين طويلة بين العرب، وغيرت دينها حاذية حذو أميرتها، ككل تابعة مخلصة، إلا أنها كانت اسبانية المولد وكانت آثار المسيحية ما تزال راسخة في قلبها، وهكذا، انطلقت تفكر كيف يمكنها أن تتدبر الأمر فتحقق رغبة الأميرات.

كان الأسرى الاسبان، المحتجزون في الأبراج القرمزية بعهدة آمر عريض المنكبين طويل الشاربين يدعى حسين. بابا يشتهر بأنه صاحب أكثر الأيدي حكاً، فذهبت إليه سراً زالقة قطعة كبيرة من الذهب في يده قائلة «حسين بابا، سيداتي الأميرات الثلاث اللواتي يعشن منعزلات في البرج، وبأمس الحاجة للتسلية، سمعن عن المواهب الموسيقية لفرسانك الاسبان الثلاثة ويرغبن كل الرغبة بسماع عينة من مهارتهن، إنني واثقة أنك طيب القلب ولا يمكنك أن ترفض تلبية رغبة بريئة كهذه».

«ماذا؟ أعرض رأسي لأن يعلق فوق بوابة برجي!! إن ذلك وحده ما ينتظرني إذا ما اكتشف الملك الأمر».

«لا تخف، فليس هنالك خطر من أي نوع. بإمكاننا أن نتدبر الأمر بحيث نلبي رغبة الأميرات دون أن يدري والدهن بشيء. أنت تعرف الوادي العميق بجانب السور الذي يمر مباشرة تحت البرج. دع الاسبان الثلاثة يعملون هناك وفي الاستراحات الفاصلة بين فترات عملهم، دعهم يعزفون ويغنون، كما لو أن الأمر كله من أجل راحتهم. بهذه الطريقة، تكون الأميرات قادرات على سماعهم من نوافذ البرج وتكون أنت على ثقة من أنهن سيدفعن لك جيداً لقاء طاعتك».

حين انهت العجوز الطيبة خطابها، كبست بكل لطف يد الآمر الخشنة بقطعة أخرى من الذهب. حينذاك تبين ان فصاحتها لا تقاوم ففي اليوم التالي بالذات، سيق الفرسان الثلاثة إلى العمل في الوادي. عند الظهيرة، والحر على أشده، أوى زملاؤهم السجناء للراحة في الظل وغدا الحارس ينوس برأسه غافيا. حينذاك جلسوا ثلاثتهم بين الشجيرات عند أسفل البرج وراحوا يغنون أغنية اسبانية تصحبها أنغام الغيتار. كان الوادي ضيقاً عميقاً والبرج عالياً، مع ذلك كانت أصواتهم تعلو فريدة متميزة في سكينة الظهيرة الصيفية وهدأتها. من شرفتهن، راحت الأميرات اللواتي علمتهن وصيفتهن اللغة الاسبانية، يصخن السمع ولشد ما أثارتهن رقة الكلمات وروعة الغناء. لكن على العكس، فقد صدمت خديجة الحصيفة شر صدمة. «ليحمنا الله!!» هتفت خديجة«إنهم يغنون أغنية حب موجهة لكن انتن. فهل سمع أحد من البشر بمثل هذه الوقاحة! سأمضي إلى آمرهم فأجعله يرفعهم فلقة».

«ماذا؟ فلقة لفرسان نبلاء كهؤلاء يغنون مثل هذا الغناء!!» هتفت الأميرات الجميلات الثلاث وقد ملأ الهلع قلوبهن. ورغم كل ما أثارته فضيلتها من سخط، إلا أن العجوز الطيبة كانت ذات طبيعة متسامحة، فهدأتها الأميرات بسهولة، إضافة إلى ذلك فقد بدا وكأن للموسيقى أثراً سحرياً على سيداتها الشابات إذ تسلل شيء من لون الورد ونضارته إلى وجناتهن كما بدأت أعينهن باللمعان، لذلك، لم تبد المزيد من الاعتراض على أغاني الحب التي راح يغنيها الفرسان. حين انتهت تلك الأغاني لبثت الأميرات صامتات حيناً من الزمن. أخيراً، أمسكت زريدة العود، وبصوت عذب رخيم، رغم أنه خافت مرتعش، راحت

تدندن مقطوعة صغيرة من الشعر العربي مغزاها «الوردة تحجبها الأوراق ، لكنها تصغي بابتهاج لتغريد العندليب».

منذئذ فصاعداً، راح الفرسان يعملون كل يوم تقريباً في الوادي. كما غدا حسين بابا الرؤوف أكثر وأكثر رأفة ويوماً بعد يوم أكثر ميلاً للنوم أثناء حراسته. وهكذا استمر فترة من الزمن، ذلك التواصل الغامض عبر الأغاني الشعبية والقصص التي تغنى، وكأن كلاً منها رد على الأخرى، حاملة مشاعر الطرفين. شيئاً فشيئاً بدأت الأميرات يظهرن على الشرفة، حين يكون باستطاعتهن ذلك ودون أن يراهن الحراس. كذلك، رحن يتحادثن مع الفرسان بواسطة الأزهار، تلك اللغة الرمزية التي تعرفن إليها بصورة مشتركة لكن صعوبات التواصل ذاك زادت من سحره وألهبت المشاعر التي أحس بها كل من الأميرات والفرسان، فأعظم لذائذ الحب هي أن يصارع المحب العقبات ويتغلب على الصعاب. ولشد ما ادهش الملك الأعسر وسره ذلك التغير الذي ظهر على هيئة الأميرات وأرواحهن نتيجة ذلك التواصل السري، لكن لا أحد كان أكثر بهجة من خديجة الحصيفة التي اعتبرت الأمر كله نتيجة حنكتها وحسن تدبيرها.

بعد حين من الزمن، حدث انقطاع في ذلك التواصل التلغرافي: إذ كف الفرسان الثلاثة أياماً عدة عن الظهور في الوادي. وأياماً عدة ظلت الأميرات يطللن من برجهن ناظرات إلى الوادي عبثاً.

وعبثاً كن يمددن أعناقهن الشبيهة باعناق البجع من الشرفة، كذلك عبثاً كن يغنين كالعنادل في أقفاصها فلا أثر لفرسانهن العشاق ولا نغمة تسمع من أجمات الأشجار. في الحال، انطلقت خديجة الحصيفة بحثاً عن الخبر اليقين، ثم عادت سريعاً وعلى محياها سيماء الانزعاج.

«آه ، يا طفلاتي ! !» هتفت خديجة «كنت أرى ما يمكن ان ينتهي إليه هذا كله، لكن أنتن سرتن على هذا الطريق، والآن يمكنكن ان تعلقن عيدانكن على أشجار الصفصاف.

فقد أرسل الاسبان لأبيكن الملك فدية فرسانهم، وهم الآن في غرناطة يستعدون للعودة إلى وطنهم».

تلك الأخبار دفعت بالأميرات الحسناوات الثلاث إلى هاوية اليأس. زايدة أحست بالحنق للاستهتار الذي عاملهن به فرسانهن وقد هجروهن دون كلمة

وداع، أما زريدة فراحت تعصر كفيها ناشجة باكية، ثم تنظر إلى المرآة لتمسح دموعها وتبكي من جديد. في حين اتكأت زرهيدة الرقيقة على حاجز الشرفة تبكي بصمت فتنزل دموعها قطرة قطرة على أزهار الضفة حيث كان الفرسان الغادرون غالباً ما يجلسون.

عملت خديجة كل ما في وسعها للتخفيف من أحزانهن «أرحن أنفسكن يا طفلاتي!!» قالت خديجة «فهذا لا شيء حين تعتدن عليه. هكذا الحياة وهكذا سنة الكون.

آه!! حين تصبحن في سني ستعرفن كيف تقدرن هؤلاء الرجال. إنني أعتقد أن لهؤلاء الفرسان محبوباتهم بين حسان قرطبة واشبيلية الاسبانيات وسرعان ما يذهبون غداً فيعزفون لهن ويغنون تحت شرفاتهن ودون ان يفكروا لحظة واحدة بالحسناوات العربيات في الحمراء. لذلك، اهدأن، يا طفلاتي واطردنهم من قلوبكن».

غير أن كلمات التهدئة التي نطقت بها خديجة الحصيفة لم تفعل سوى أنها زادت من حزن الأميرات الثلاث واكتئابهن وطوال يومين كاملين ظللن صامتات حزينات لا يجدن سلواناً أو عزاء. صباح اليوم الثالث، دخلت العجوز الطيبة جناحهن، تتميز حنقاً وغيظاً.

« من تراه يثق برجل من الرجال متغطرس مهيمن إلى هذا الحد!!! » هتفت خديجة حالما وجدت الكلمات التي تعبر عما في نفسها «لكنني أستحق ذلك، أنا التي ساهمت في خداع والدكن الكريم. لا تكلمنني بعد الآن كلمة واحدة عن فرسانكن الاسبان».

«لماذا؟ ما الذي حدث يا خديجة الطيبة»؟ هتفت الأميرات قلقات مقطوعات الأنفاس.

«ما الذي حدث؟ خيانة عظمى حدثت بل ما هو أسوأ من الخيانة العظمى بالنسبة إلي، أنا أكثر الرعية اخلاصاً!!! أكثر الوصيفات ولاء!!. أجل يا طفلاتي!! لقد تجرأ الفرسان الاسبان على التآمر معي كي أقنعكن بالهروب معهم إلى قرطبة وتصبحن زوجاتهم!».

هنا، غطت العجوز الحصيفة وجهها بيديها، مسلمة نفسها لنوبة شديدة من الحزن والحنق في حين شحبت وجوه الأميرات الحسناوات الثلاث ثم راح لونهن يتغير، من شاحب إلى أحمر ومن أحمر إلى شاحب كما بدأن يرتعشن مطرقات إلى الأرض مسترقات نظرات خجلى واحدتهن إلى الأخرى لكن دون ان ينبسن بحرف واحد. في غضون ذلك، كانت العجوز الطيبة جالسة تتأرجح إلى الأمام والخلف باضطراب شديد لتنفجر من حين إلى آخر هاتفة متعجبة «ماكنت اتصور أبداً أن أعيش إلى أن توجه لي مثل تلك الإساءة ـ أنا أكثر الاتباع إخلاصاً ووفاء!!»

أخيراً، اقتربت منها زايدة، كبرى الأميرات ـ التي كانت دائماً أعلاهن همة وأجدرهن بالقيادة، وضعت يدها على كتفها مربتة قائلة: «حسناً يا أم، لنفترض أننا نرغب بالهروب مع هؤلاء الفرسان الاسبان ـ أهو أمر ممكن؟»ـ.

فجأة توقفت العجوز الطيبة عن النشيج والبكاء متطلعة إلى الأعلى «ممكن!» رددت المرأة كالصدى «تأكدي أنه ممكن. ألم يسبق للفرسان أن رشوا حسين بابا، آمر الحرس، ورتبوا الخطة كلها؟ لكن قبل ذاك. لنفكر كيف لي أن أخدع والدكن!! هو الذي وضع بي مثل هذه الثقة!!» هنا، أسلمت المرأة الرائعة نفسها مرة ثانية لنوبة من النشيج والبكاء، ومرة ثانية بدأت تهتز إلى الأمام والخلف، فاركة كفيها عاصرة إياهما عصراً. «لكن والدنا لم يمنحنا أية ثقة» قالت الأميرة الكبرى «بل منح ثقته للقضبان والأقفال، معاملاً إيانا كأننا أسيرات».

«بالحقيقة، هذا صحيح تماماً» أجابت العجوز وقد كفت من جديد عن النحيب والبكاء «لقد عاملكن أسوأ معاملة حابساً إياكن هنا لتبددن زهرة عمركن في برج عتيق بال، كما تترك الوردات للذبول في مزهرية. لكن... أن تهربن من وطنكن!!».

«أليست البلاد التي سنهرب إليها هي موطن امنا حيث يمكننا ان نعيش في حرية؟ ألن يكون لكل منا زوج شاب بدلاً من أب عجوز قاس؟».

«أجل ... ذلك صحيح كل الصحة أيضاً».. إذ لا بد من الاعتراف ان أباكن طاغ مستبد: وماذا إذن» استأنفت وهي تعود من جديد الى نحيبها «يجعلني أبقى بعدكن كي أتحمل هول انتقامه؟».

«أبداً يا خديجة الطيبة، لا حاجة بك لذلك.. ترى ألا يمكنك الهروب معنا».

«صحيح.. تماماً صحيح يا طفلتي، ولكي أقول لك الصدق، فقد وعدني حسين بابا حين حدثته بالأمر، أن يوليني كل رعاية، إذا ما رافقتكن في هربكن. لكن ، مع ذلك، فكرن يا طفلاتي، أترغبن حقاً في الارتداد عن دين ابيكن؟»

«المسيحية هي دين أمنا الأصلي» قالت الأميرة الكبرى «وإني على استعداد لاعتناقها من جديد، كذلك أختاي، أنا واثقة كل الثقة».

«حسن أيضاً» هتفت العجوز وقد تألق وجهها «إنه دين أمكما الأصلي ولشد ما بكت، وهي على فراش الموت، أنها تخلت عن دينها، ولقد وعدتها حينذاك أن أهتم برعاية ارواحكن، وإنه ليسرني كثيراً أن أرى الآن أننا في الطريق الصحيح للنجاة، أجل يا طفلاتي، أنا أيضاً نشأت على الدين المسيحي وظللت كذلك في قلبي، وإني الآن مصممة على العودة إليه، لقد كلمت في ذلك الأمر حسين بابا، هو الاسباني المنشأ الذي ينحدر من عائلة لا تسكن بعيداً عن مسقط رأسي. إنه تواق أيضاً لأن يرى موطنه وأن يعود إلى دينه، ولقد وعد الفرسان ، إن كنا نرغب في أن نكون زوجاً وزوجة، ان يوفروا لنا كل إمكانات الزواج حين نعود الى الوطن».

بوجيز العبارة، تبين ان تلك العجوز البالغة الحصافة ، العظيمة الحكمة كانت قد عقدت مشاورات مع الفرسان الاسبان وآمر الحرس، ورتبت خطة الهروب بكاملها. في الحال وافقت الأميرة الكبرى على الخطة ثم حذت حذوها، كما هي العادة، أختاها الاثنتان. صحيح ان الصغرى ترددت قليلاً، لأنها ضعيفة القلب جبانة وكان ثمة صراع في داخلها بين مشاعرها البنوية وعواطفها الشابة: لكن في النهاية كان النصر للعواطف والشباب. وهكذا، بدموع صامتة وآهات مكتومة، شرعت تعد نفسها للهروب.

في تلك الأيام، كان تخترق الرابية الوعرة التي بنيت عليها الحمراء ، ممرات تحت الأرض ، حفرت في قلب الصخر، تفضي من القلعة إلى مختلف أنحاء المدينة وكذلك إلى مرافىء بعيدة على ضفاف الدارة والزنيل، فالملوك العرب المغاربة كانوا قد أقاموها في أزمنة مختلفة كوسيلة للفرار إن قامت ثورة مفاجئة أو عصيان مباغت أو كان لدى أحدهم مشروع خاص يريد الانطلاق إليه سراً. كثير من تلك الممرات ضاع الآن تماماً، في حين ما يزال بعضها باقياً حتى اليوم يملؤه الركام هنا و هناك او تسده الجدران هنا و هناك، بقايا الاحتياطات النابعة من

الحسد والغيرة والخطط الحربية التي خلفتها الحكومات آنذاك. عبر واحد من تلك الممرات، قرر حسين بابا ان ينقل الأميرات إلى المرفأ النهري خلف أسوار المدينة، حيث كان على الفرسان ان يأتوا بخيول تسابق الريح كي يعبروا بها الحدود. جاءت الليلة المحددة: برج الأميرات كان قد أقفل بالقفل والمفتاح كالعادة، وقصر الحمراء كان مستغرقاً في سبات عميق. قرب منتصف الليل، خرجت خديجة الحصيفة إلى شرفة النافذة المطلة على الحديقة لتصيخ السمع. في الأسفل، كان حسين بابا، آمر الحرس، قد وصل من قبل، فأعطاها الاشارة المحددة.

حينذاك ثبتت الوصيفة طرف السلم المصنوع من الحبال إلى الشرفة ثم أنزلته إلى الحديقة ونزلت عليه. وللتو، تبعتها الأميرتان الكبريان بقلبين يخفقان، لكن حين جاء دور الأميرة الصغرى، زرهيدة، ترددت وارتعشت. عدة مرات غامرت في وضع قدمها الصغيرة الرقيقة على السلم وفي كل مرة كانت تسحبها من جديد، في حين كان قلبها الصغير المسكين يرتعش أكثر ويخفق أكثر كلما تأخرت أكثر. حينذاك ألقت نظرة إلى الوراء، حيث حجرتها المكسوة بالحرير، تلك التي عاشت فيها، بالتأكيد، مثل طائر في قفص، لكن في أمان . ترى من يستطيع القول أية أخطار ستحيق بها إن ألقت بنفسها إلى خضم الحياة؟ في تلك اللحظة عادت تفكر بحبيبها الرائع، وفي الحال أصبحت قدمها الصغيرة على السلم، لكن ما إن فكرت بأبيها من جديد حتى انكمشت راجعة إلى الوراء. صراع شديد شب في داخلها، من المحال ان نصفه هنا، صراع بين الحب والشباب من جهة والخوف والجهل بأمور الدنيا من جهة ثانية.

عبثاً راحت أختاها تتوسلان والوصيفة توبخ والآمر يجدف تحت الشرفة، فالعذراء العربية الصغيرة الرقيقة كانت تقف هناك، متشككة متأرجحة على حافة الهروب تغريها حلاوة الإثم وتخيفها مخاطره.

كل لحظة كانت تزيد من خطر الانفضاح، إذ جاء من بعيد صوت بوق ينفخ فهتف الآمر «الدوريات تبدأ جولاتها وإذا ما تأخرنا هلكنا. أيتها الأميرة انزلي فوراً أو تركناك».

لحظة من الزمن عاشت زرهيدة في حال شديدة من الاضطراب ، بعدئذ حلت سلم الحبال وبتصميم اليائس ألقت به من الشرفة صائحة: قد اتخذت

القرار: ليس باستطاعتي الهروب الآن !! ليهدكما الله وليبارككما يا أختي العزيزتين!» صدمة شديدة أصابت الأميرتين الكبريين، لمجرد التفكير بتركها وراءهما ولعلهما كانتا ستتريثان أكثر لولا أن دورية الجند كانت تقترب، وآمر الحرس يشتد غضباً، دافعاً بهما إلى الممر تحت الأرض . هناك راحوا يتلمسون طريقهم عبر متاهة محفورة في قلب الجبل، لكنهم أفلحوا في الوصول دون أن يكتشفهم احد، إلى بوابة حديدية خارج الأسوار. هناك، كان الفرسان الاسبان بالانتظار، وقد تنكروا بزي جند عرب من جنود الحرس، بإمرة حسين بابا.

حين علم حبيب زرهيدة برفضها ترك البرج، أصيب بما يشبه الجنون، لكن لم يكن ثمة وقت يمكن تبديده في النحيب والعويل. وهكذا، أردف كل من الفارسين أميرته وراءه، كما فعل حسين بابا، الآمر ذاته ، بخديجة الحصيفة وانطلق الجميع بسرعة هائلة في اتجاه ممر «لوب» ذاك الذي يخترق الجبال مؤدياً إلى قرطبة. لكنهم لم يمضوا بعيداً حتى سمعوا قرع الطبول ونفخ الأبواق منطلقة من أسوار الحمراء، فقال الآمر «قد انكشف أمرنا». «خيولنا سريعة والظلام شديد، وبإمكاننا أن نبتعد عن كل مطارد» أجاب الفرسان.

وللتو، أعملوا المهاميز في خيولهم مندفعين عبر الفيغا ، ثم بالغين أسفل جبل إلفيرا ذاك الذي يمتد كنتوء في السهل. حينذاك توقف الآمر مصيخاً السمع ثم قال «بما أنه لا أحد في إثرنا بعد، من الأحسن أن نفر باتجاه الجبال». لكن خلال كلامه، بدأ لهب نار يرتفع مرسلاً ضياءه من قمة برج المراقبة في الحمراء «يا للعنة!!» صاح الآمر «تلك النار اللعينة ستضع حراس الممرات كلهم على أهبة الاستعداد. ابتعدوا!! ابتعدوا!! اهمزوا خيولكم كالمجانين ــ فليس ثمة وقت نضيعه». وهكذا، بعيداً ، انطلقوا ــ وقع حوافر خيولهم يتردد كالصدى من صخرة إلى صخرة، فيما هم يسرعون على الطريق الملتف مع جبل الفيرا الصخري. خيولهم تعدو مسرعة، لكن خلال ذلك راحت الأجوبة تأتي من كل اتجاه على النار التي أشعلتها الحمراء. ضوء بعد آخر راح ينبعث من الحصون والقلاع وأبراج المراقبة في الجبال.

«إلى الأمام!! إلى الأمام!!» صاح الآمر مع كثير من التجديفات واللعنات «إلى الجسر!! إلى الجسر!! قبل أن يصل الإنذار إلى هناك!».

عندما اجتازوا النتوء الجبلي بات ضمن مدى البصر جسر بينوس الشهير الذي يصل بين ضفتي نهر هادر، غالباً ما كان يصطبغ بدماء المسيحيين والمسلمين، ولكي يزداد ارتباكهم أكثر، فقد كان برج الجسر مشعشعاً بالأضواء، مزروعاً بالرجال المسلحين . شد الآمر لجام حصانه ثم انتصب في ركابه متطلعاً حوله لحظة من الزمن. بعدئذ أومأ بيده إلى الفرسان ، مبتعداً بهم عن الطريق، سائراً بمحاذاة النهر مسافة من الطريق، ثم خاض في مياهه. طلب الفرسان من الأميرتين أن تتمسكا بهما جيداً وفعلا هما الشيء ذاته. مسافة بعيدة حملهم التيار السريع مندفعاً هادراً تحتهم، لكن الأميرتين الحسناوين تمسكتا بفارسيهما دون أن تنطقا بحرف واحد. وصل الفرسان إلى الضفة الأخرى بسلام. بعدئذ قادهم الآمر، عبر ممرات وعرة غير مطروقة ووديان قفراء موحشة إلى قلب الجبال بغية الابتعاد عن الممرات المطروقة كلها. الخلاصة، أفلح الهاربون في الوصول إلى مدينة قرطبة، حيث جرت الاحتفالات والأفراح ابتهاجاً بعودتهم إلى الوطن والأهل فقد كانوا من أنبل العائلات. أما الأميرتان الجميلتان فقد قبلتهما الكنيسة وأقيمت لهما الأعراس . لكن في عجالتنا ونحن نروي قصة هروب الأميرتين عبر النهر ثم الجبال، نسينا ان نذكر المصير الذي آلت إليه خديجة الحصيفة. لقد كانت متشبثة كقطة بحسين بابا، خلال عدوه عبر الفيغا، صارخة عند كل وثبة، جاعلة الآمر ذا الشاربين الكبيرين يجدف ويسب ، لكن ما إن تأهب لأن يخوض بحصانه النهر حتى غدا خوفها بلا حدود «لا تشدي علي هكذا» صاح بها حسين بابا «امسكي بحزامي جيداً ، لا تخافي شيئاً»أمسكت المرأة بكلتا يديها الحزام الجلدي الذي كان يزنر الآمر ذا الظهر العريض، لكن حين توقف مع الفرسان لالتقاط أنفاسهم في أعلى الجبل، لم يكن باستطاعتهم أن يروا أثراً للوصيفة. «ماذا حل بخديجة ؟» صاحت الأميرتان وقد تملكهما الرعب «ا لله وحده يعلم»أجاب الآمر «لقد انحل حزامي حين بلغت منتصف النهر وجرف خديجة التيار . هذه إرادة ا لله ! رغم أنه كان حزاماً مزخرفاً غالي الثمن».

لم يكن ثمة وقت يمكن هدره بالأسف والندامة ، مع ذلك بكت الأميرتان على فقد مربيتهما الحكيمة بكاء مريراً . لكن العجوز المتازة لم تفقد أكثر من نصف حيواتها التسع في الماء: فعلى مسافة قريبة كان ثمة صياد سمك ألقى شباكه في النهر. علقت بها خديجة فأخرجها الصياد إلى البر فاغر الفم مندهشاً لصيده العجيب. لكن ما حدث بعد ذلك لخديجة الحصيفة، لا تذكره الحكاية.

لا شك أن حصافتها منعتها من أن تغامر بعد ذلك فتكون في متناول محمد الأعسر.

كذلك لا تذكر الحكاية إلا القليل عما فعل ذلك الحاكم الحكيم حين اكتشف فرار ابنتيه وخيانة أخلص أتباعه له. لقد كانت الحالة الوحيدة التي طلب فيها مشورة أحد، ولم يعرف أحد بعد ذاك أنه ارتكب مثل ذلك الإثم. مع ذلك، أولى عنايته كلها لحراسة ابنته الباقية التي لم يكن لديها ميل للهروب أو يعتقد، بالحقيقة ، أنها ندمت سراً على عدم هروبها: إذ كانت ترى بين الفينة والفينة وهي تستند على حاجز البرج، ناظرة نظرات الحزن نحو الجبال في الاتجاه نفسه الذي تقع فيه قرطبة، كما كانت تسمع أحياناً أنغام عودها تصاحبها أغاني حب شاكية، يقال إنها كانت تندب فيها فقدان أختيها وحبيبها كما تندب فيها حياتها الوحيدة الموحشة. بعدئذ قضت نحبها وهي في ميعة الصبا حيث دفنت كما تقول الحكايات التي يتناقلها الناس، في قبو تحت البرج، وكان موتها في غير أوانه مصدراً لأكثر من حكاية من حكايات التراث.

الحكاية التالية التي تبدو وكأنها تنبثق، بشكل من الأشكال من القصة السابقة، والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً جداً بأسماء تاريخية رفيعة هي موضع شك تماماً. لكن ابنة الكونت وبعض أصحابها الشبان ممن رويت لهم هذه الحكاية في إحدى الأمسيات كانوا يعتقدون أن في بعض أجزائها الكثير من الصحة والحقيقة، أما دلوريس التي كانت أكثر تعمقاً وغوصاً في حقائق الحمراء التي لا تصدق فقد كانت تعتقد بصحة كل كلمة منها.

حكاية
وردة الحمراء

بعد تسليم العرب لغرناطة، ظل ملوك الاسبان فترة من الزمن يتخذون من تلك المدينة البهيجة المقر المفضل وشبه الدائم لهم إلى أن أبعدتهم عنها صدمات متتالية من الزلازل التي هدمت معظم المنازل.

بعدئذ، مرت سنون كثيرة نادراً ما كان ينزل في غرناطة خلالها ضيف ملكي فلبثت قصور النبلاء فيها صامتة مغلقة، كما بقي قصر الحمراء، مثل أي جمال مهمل. غارقاً في الوحشة والحزن بين حدائقه المهملة. كذلك برج (الطفلات)، الذي كان ذات يوم مقر الأميرات العربيات الحسناوات الثلاث، فقد ناله نصيب كبير أيضاً من تلك الوحشة والحزن. لقد نسجت العناكب أغشاشها في طول القبو المذهب وعرضه، كما عششت الوطاويط والبوم في تلك الحجرات التي كانت تتألق روعة بحضور زايدة وزريدة وزرهيدة. إهمال ذلك البرج ربما يعود جزئياً لبعض الأفكار الأسطورية لتي يحملها الجيران عنه. فقد أشيع أن شبح الحسناء الشابة

زرهيدة ، التي عاشت وهلكت في ذلك البرج، غالباً ما يمكن رؤيته في الليالي القمراء ، وهي جالسة بجانب نافورة القاعة أو تئن وتنوح عند الحواجز، وأن أنغام عودها الفضي يمكن أن يسمعها عند منتصف الليل عابرو السبيل الذين يمرون في الوادي الضيق الصغير.

بعد طول زمن، أصبحت مدينة الحمراء أكثر ارتياداً من قبل الملوك والأمراء، فالعالم كله يعرف أن فيليب الخامس كان أول ملك من آل بوربون يستلم الصولجان الاسباني، والعالم كله يعرف أنه تزوج، كزواج ثان، اليزابيتا أو إيزابيلا (وهما اسمان للمرأة نفسها)، أميرة بارما الجميلة، كما أن العالم كله يعرف أنه من خلال هذه الرابطة الزوجية تسلم العرش الاسباني أمير فرنسي وأميرة ايطالية معاً. ولكي يقوم هذا الزوج الملكي الرائع بزيارة للحمراء، فقد كان لابد من إعداده وتجهيزه بكل الوسائل الممكنة. وبذلك غيَّر وصول البلاط الملكي منظر القصر المهجور كله.

قرع الطبول ونفخ الأبواق، وقع حوافر الخيل في الطرق المؤدية إليه وإلى الفناء الخارجي، بريق السلاح وخفق الرايات في البرج الأمامي وعلى الأسوار، كل ذلك أعاد للذاكرة أمجاد القلعة القديمة، أيام الحرب والقتال. مع ذلك، كان ثمة شبح ناعم لطيف يهيمن على القصر الملكي كما راح يهيمن عليه حفيف الملابس، دوس الأقدام الحذرة، غمغمة أمراء الحاشية الملكية في الحجرات الأمامية والمشية البطيئة المتأنية للخدم ووصيفات الشرف في الحدائق وكذلك أنغام الموسيقى وهي تنساب عبر الشبابيك المفتوحة.

بين أفراد الحاشية الملكية كان ثمة وصيف ذو حظوة لدى الملكة اسمه رويزدي ألاركون ولكي نقول إنه ذو حظوة لدى الملكة لابد لنا أولاً من أن نتحدث عما يستحقه من ثناء، ذلك أن كل من كان في حاشية الملكة اليزابيتا إنما كان يتم اختياره لفضل فيه أو جمال أو مهارة من المهارات. كان الفتى قد أكمل الثامنة عشر لتوه، رشيق القوام، ناحل الهيئة، أنيقاً رائعاً كأنطونيو أيام صباه. بالنسبة إلى الملكة كان الفتى يبدي كل التقدير والاحترام، لكنه في داخله كان وغداً زنيماً، مدللاً أفسدته سيدات البلاط وقد تمرس بشؤون النساء أكثر بكثير مما يوحي به سنه.

ذات صباح، كان ذلك الوصيف المتبطل يتجول في رياض جنة الريف، المطلة على أراضي الحمراء، وكان قد أخذ معه للتسلية بازي الملكة. خلال تجواله، رأى طائراً ينهض من أجمة وللتو رفع الغطاء عن عيني البازي ليطير عالياً. حلق البازي في الجو، صانعاً نوعاً من الدائرة حول صاحبه، فيما كان هذا يلاحقه بناظريه وهو يطير طيرانه المتقلب إلى أن حط على إطار برج وحيد بعيد في السور الخارجي للحمراء، مشيد على حافة الوادي الذي يفصل القلعة الملكية عن أراضي «جنة الريف». إنه بالحقيقة برج «الأميرات الطفلات».

نزل الوصيف إلى الوادي ثم اقترب من البرج، لكن لم يكن له من الوادي أي مدخل كما أن ارتفاعه الشديد جعل كل محاولة لتسلقه غير ذات جدوى. لهذا بحث عن باب من ابواب القلعة ثم قام بدورة كاملة كي يصل إلى ذلك الجانب من البرج المواجه للسور. حديقة صغيرة يحيط بها من كل جانب القصب المتشابك مع الريحان كانت تنبسط أمام البرج. وهكذا شق الوصيف طريقه عبر القصب، ماراً بين أحواض الأزهار وأجمات الورود إلى أن وصل إلى الباب، لكن الباب كان مغلقاً ومرتجاً برتاج. شق في الباب أتاح له أن يختلس نظرة إلى الداخل. هناك كانت قاعة عربية صغيرة ذات جدران مزخرفة بالنقوش الشبكية وأعمدة رخامية صقيلة ونافورة من مرمر تحيط بها الأزهار. في المنتصف كان ثمة قفص مطلي بالذهب يتدلى من الأعلى، في داخله طائر غريد. تحته، وعلى كرسي، كانت ثمة قطة ملونة بألوان السلحفاة بين بكرات من الحرير واشياء أخرى من عدة شغل أنثوي: كما كان هنالك غيتار مزين بالأشرطة وقد أسند إلى جدار البركة.

دهش رويز دي ألاركن لما رآه من آثار الذوق الأنثوي ذكرته بقصص القاعات المسحورة التي تحكى في الحمراء، وربما تكون القطة ذات الألوان السلحفائية أميرة من الأميرات وقد جمدها السحر.

بلطف شديد قرع الوصيف الباب، فظهر وجه جميل من نافذة صغيرة في الأعلى سرعان ما انسحب. انتظر الوصيف متوقعاً أن يفتح الباب لكن انتظاره ضاع سدى ـ إذ لم يكن بالإمكان سماع أي وقع خطا في الداخل ـ وكل شيء ساكن. أتراها حواسه خدعته أم أن ذلك الوجه الجميل الذي ظهر هو وجه جنية البرج؟ مرة ثانية قرع الباب إنما بصوت أعلى. بعد حين، وفي الوقت الذي ظهر فيه الوجه المتألق مرة أخرى يختلس النظر، بدا له أنه وجه صبية حسناء في الخامسة عشرة من العمر. في الحال، رفع الوصيف قبعة الريش عن رأسه، راجياً،

بكل لطف أهل البلاد وتهذيبهم، أن يسمح له بصعود البرج للامساك ببازيه. «أنا لا أجرؤ أن أفتح الباب يا سيدي». أجابت الفتاة الصغيرة وقد صبغت الحيرة وجنتيها «عمتي تمنع ذلك». «أرجوك، أتوسل إليك، أيتها الفتاة الحسناء ــ إنه الطائر المفضل لدى الملكة. ولا أجرؤ على العودة إلى القصر إن لم يكن معي». «أنت إذن أحد فرسان البلاط؟».

«أجل، أيتها الفتاة الحسناء، لكنني سأخسر حظوة الملكة ومركزي إن أنا فقدت ذلك البازي».

«أيتها القديسة ماريا !!! إنكم أنتم بالذات يا فرسان البلاط من أمرتني عمتي خصيصاً بإقفال الباب في وجوهكم». «في وجوه الفرسان الفاسدين، وهو أمر حسن ولاشك، لكن ما أنا من أولئك، بل أنا مجرد وصيف بسيط لا يؤذي ولسوف تدمر حياتي إن رفضت لي هذا الطلب الصغير».

لامس كلام الوصيف شغاف الفتاة الصغيرة، فألف حرام أن تحطم حياة ذلك الفتى من أجل أعطية صغيرة كهذه!! كذلك من المؤكد أنه ليس واحداً من تلك الكائنات الخطرة التي كانت عمتها قد وصفتها لها كجنس آكل للحوم البشر، على استعداد دائم لأن يفترس الفتيات الغافلات. إنه لطيف متواضع يقف متوسلاً متضرعاً، القبعة في يده وفاتن للغاية على ما يبدو.

رأى الوصيف الماكر أن الحامية بدأت بالتردد، فضاعف توسلاته بعبارات مثيرة إلى درجة لم يكن باستطاعة فتاة في الدنيا أن ترفض له تلك التوسلات. وهكذا نزلت حارسة البرج الصغيرة الحيية إلى الباب ثم فتحته بيد مرتعشة، وإذا كانت مجرد نظرة رأى فيها محياها من الشباك قد سحرت الوصيف، فإن رؤيته لها كاملة جعلته ينذهل تماماً.

صدارتها الاندلسية المزركشة الضيقة كانت تشد على صدرها مظهرة تناسق جسدها الذي كان على حافة التفتح الأنثوي. شعرها اللامع كانت قد فرقته فوق جبينها بدقة بالغة، مزينة إياه بوردة قطفت حديثاً، طبقاً للعادة الشائعة في البلاد. صحيح أن بشرتها كانت قد لوحتها شمس الجنوب، لكن الصحيح أن ذلك أضفى على وجنتيها المزيد من النضارة والتفتح وعلى بريق عينيها المزيد من التألق والاشراق.

بلمحة واحدة رأى رويزدي ألاركون هذا كله، إذ لم يكن يليق به أن يتباطأ، ثم ما إن غمغم باعترافه بالجميل حتى قفز بكل خفة صاعداً البرج الحلزوني بحثاً عن بازيه.

في الحال، عاد وطائره المتهرب على قبضة يده. في غضون ذلك، كانت الفتاة قد جلست بجانب البركة وسط القاعة تلف الحرير، ولشدة اضطرابها، تركت البكرة تسقط على البلاط. وثب الوصيف فالتقطها ثم ركع على ركبة واحدة ركعة ساحرة مقدماً إياها لها، لكن ما إن مدت يدها كي تأخذها حتى أمسك بها طابعاً عليها قبلة أكثر حرارة واخلاصاً من أية قبلة طبعها على يد ملكته الحسناء.

« السلام لك يا مريم! ! » هتفت الفتاة وقد ازدادت حمرة خديها ارتباكاً ودهشة، إذ لم يسبق لها أن تلقت مثل تلك التحية. ألف اعتذار قدم لها الوصيف المتواضع مؤكداً لها أن تلك هي الطريقة المتبعة في البلاط للتعبير عن أشد أشكال الطاعة والاحترام.

بسهولة ويسر هدأ غضبها، إن كانت قد أحست بأي غضب ، لكن ارتباكها وضيقها استمرا وهي تجلس، حمرة خديها تشتد أكثر وأكثر، وعيناها تتسمران أكثر وأكثر على الحرير الذي كانت تحاول أن تلفه فيزداد تشابكاً.

رأى الوصيف الماكر الحيرة والارتباك في المعسكر الآخر كما رأى أنه يمكن الانتفاع به جيداً، لكن الكلمات الجميلة التي يمكن أن يتلفظ بها للوصول إلى ذلك ماتت على شفتيه، فجاءت محاولاته في التغزل بها فجة بلا تأثير، لكن ما زاد في دهشته، هو الوصيف البارع الذي كان يتصرف ألبق التصرفات وأكثرها كياسة مع سيدات البلاط الأوسع اطلاعاً والأكثر خبرة، انه وجد نفسه خائفاً مرتبكاً في حضرة تلك الصبية البسيطة ابنة الخامسة عشرة والحقيقة أنه كان للصبية البسيطة تلك من تواضعها وبراءتها حراس أكثر فعالية من الأقفال والقضبان التي أقامتها عليها عمتها الحذرة. لكن اين تراه قلب الأنثى الذي يمتنع على همسات الحب الأولى؟ فالفتاة الصغيرة، بكل بساطتها وجهلها بفنون الحب، أدركت بالغريزة كل ما أخفق لسان الوصيف المرتعش في التعبير عنه إذ خفق قلبها خفق راية في الريح وهي تتأمل للمرة الأولى عاشقاً يركع عند قدميها ــ وأي عاشق !؟ وعلى الرغم من أن حياء الوصيف كان صادقاً خالصاً إلا أنه لم يدم طويلاً، إذ

سرعان ما استعاد رباطة جأشه وثقته بنفسه في اللحظة نفسها التي جاء بها صوت حاد من بعيد.

« ها هي ذي عمتي عادت من القداس! ! » صاحت الفتاة خائفة «أرجوك يا سيدي ارحل ».

« ليس قبل أن تمنحيني تلك الوردة في شعرك ذكرى منك » . بسرعة، أخذت الفتاة الوردة من جدائلها الفاحمة صائحة، وقد ازدادت اضطراباً واحمراراً، «خذها، لكن اذهب أرجوك ».

أخذ الوصيف الوردة، لاثماً في الوقت نفسه اليد الجميلة التي أعطته إياها مغطياً إياها بالقبلات. وضع الوردة في قبعته ثم أخذ البازي على قبضته وقفز مبتعداً عبر الحديقة حاملاً معه قلب جاسنتا النبيلة.

حين وصلت العمة الحذرة إلى البرج، لاحظت اضطراب ابنة أخيها وحالة الفوضى في القاعة لكن عبارة تفسيرية واحدة كانت كافية: «بازي طارد فريسته إلى داخل القاعة». «لنا الرحمة ! ! أن يفكر المرء ببازي يطير داخل البرج! ! هل سمع أحد ببازي في مثل هذه الوقاحة ! ! إذن، الطائر نفسه داخل القفص ليس في أمان ! !».

كانت فريدغوندا المتيقظة من أكثر العجائز العوانس تنبهاً وحذراً. قلبها يملؤه الرعب الشديد والشك الهائل تجاه كل ما كانت تدعوه بـ«الجنس المضاد». ذلك الرعب والشك اللذان ازدادا بالتدريج مع حياة العنوسة الطويلة رغم أن تلك السيدة الطيبة لم تعان من حيل الرجال وخداعهم، بل إن الطبيعة نصبت عليها حارساً يحميها. إنه وجهها الذي كان يمنع كل تجاوز أو تعدٍ على حماها. غير أن السيدات اللواتي لديهن أسباب أقل للخوف على أنفسهن يكن أكثر جاهزية لابقاء عين الرقابة على جيرانهن الأكثر اغراء.

كانت ابنة الأخ هي ابنة يتيمة لضابط سقط في ساحات القتال. تعلمت في دير وانتقلت قبل وقت قريب من معتزلها المقدس إلى حراسة عمتها المباشرة التي كان ظل رعايتها يمتد عليها وعلى نحو غامض وكأنها وردة تتفتح بين ورود وأشواك برية. والحقيقة، ليس هذا التشبيه وليد المصادفة تماماً، فجمالها المتفتح الطري، إن أردنا الحقيقة، كان قد لفت أنظار الجميع، حتى في معتزلها داخل

الدير، ونظراً لشيوع تلك اللمسة الشاعرية بين سكان الاندلس، فقد أطلق عليها الناس هناك لقب «وردة الحمراء».

تابعت العمة الحذرة رقابتها اليقظة لفتاتها الصغيرة الساحرة طوال وجود البلاط الملكي في غرناطة ولكم سرت وابتهجت حين وجدت أن تيقظها قد أفلح. صحيح أن السيدة الطيبة يشوشها من حين إلى آخر رنة غيتار وأغاني حب تأتي في الليالي القمراء من أيكة الأشجار تحت البرج، إلا أنها كانت تفرض على ابنة أخيها أن تصم أذنيها عن مثل ذلك الغناء الفارغ مؤكدة لها أنه أحد الفنون التي يمارسها الجنس المضاد والتي غالباً ما تقع في شراكه العذارى الساذجات ويلقين به نهايتهن. أواه! أي حظ أن تضطر الفتاة المسكينة للإصغاء إلى محاضرة جافة في وقت يعزف لها الحبيب فيه غيتاره ويغني أغاني الحب؟.

أخيراً ، قطع الملك فيليب إقامته في غرناطة راحلاً فجأة مع حاشيته كلها. بأم عينها رأت فريدغوندا المتيقظة الحاشية الملكية وهي تنطلق من بوابة العدالة منحدرة الشارع الكبير الذي يفضي إلى المدينة. حين غابت آخر دابة عن ناظريها عادت جذلى إلى برجها فقد زالت همومها كلها. لكن لدهشتها، رأت حصاناً عربياً فاتح اللون يدق الأرض بحافره عند بوابة الحديقة. ولشدة رعبها أيضاً رأت عبر أحواض الورد الكثيفة شاباً بحلة زاهية مزخرفة يركع عند قدمي ابنة أخيها. سمع الشاب وقع خطاها فودع الفتاة وداعاً رقيقاً عاجلا وبكل خفة قفز فوق سياج القصب والريحان واثباً على ظهر حصانه غائباً عن النظر بلمحة عين.

أما جاسنتا الرقيقة، فإنها لشدة حزنها وألمها، نسيت كل شيء عن انزعاجها وضيقها منفجرة في نوبة من النشيج والبكاء ملقية بنفسها بين ذراعي عمتها.

« آه ! ، يا الله !!» صاحت الفتاة «لقد ذهب !! لقد ذهب !! ولن أراه أبداً بعد اليوم».

« ذهب !؟ من هو الذي ذهب ؟ أي شاب ذاك الذي رأيته عند قدميك؟!».

« وصيف الملكة يا عمتي، وقد جاء لوداعي ».

« وصيف الملكة يا طفلتي!! » رددت فريدغوندا المتيقظة بصوت خافت « ومتى تعرفت إلى وصيف الملكة ؟ ».

« صباح ذلك اليوم الذي دخل فيه البازي البرج. لقد كان بازي الملكة وكان هو يلاحقه ».

« آه!! يا لك من فتاة سخيفة، سخيفة، !! اعلمي أنه ليس هناك من بازي بنصف شراسة وصيفك الشاب المتواثب ذاك، والطيور الضعيفة البسيطة مثلك بالضبط هي التي تقع فريسة لبراثنه ».

بادىء ذي بدء، أحست العمة بحنق شديد حين علمت أنه بالرغم من يقظتها وحذرها كله، فقد استطاع العاشقان الشابان أن يلتقيا، تحت سمعها وبصرها تقريباً. لكن حين اكتشفت أن ابنة أخيها الطيبة القلب خرجت سليمة دون أذى، رغم أنه لم يكن هناك قضبان أو أقفال ورغم انكشافها التام لمخالب الجنس المضاد، فإنها عزت نفسها بإقناعها أن ذلك يعود إلى فضيلة العفة والشرف ومثلها العليا التي غرستها في ابنة أخيها عميقاً، إن جاز القول، حتى نخاع العظم. في الوقت الذي كانت فيه العمة تطلي بذلك المرهم المهدىء كبرياءها، كانت ابنة الأخ تختزن في ذاكرتها عهود الاخلاص والوفاء التي قطعها لها الوصيف وكررها كثيراً. لكن ما تراه يكون حب رجل جواب غير مستقر؟ جدول شريد يروي، فترة من الزمن، كل زهرة على ضفته ثم يمضي مخلفاً إياها كلها ذللحزن والدموع.

أيام، أسابيع، شهور مرت دون أن تسمع الصبية شيئاً عن الوصيف. الرمان نضج، العنب حان قطافه وأمطار الخريف بدأت بالتساقط جداول دافقة من الجبال. ثم تكللت ذرى السيرانيفادا بالثلج وهدرت عواصف الشتاء وزأرت عبر روابي الحمراء ـ مع ذلك لم يأتِ الوصيف. بعدئذ انقضى الشتاء وجاء الربيع بأغاريد الطيور وأريج الأزهار وعليل الأنسام، وذوبان الثلوج على الجبال إلى درجة لم يبق منها شيء سوى تلك القلنسوة على رأس النيفادا العالية متلألئة تحت أشعة الصيف الحارقة ـ مع ذلك لم يأت شيء من الوصيف الناسي ولم يسمع شيء.

في أثناء ذلك راحت جاسنتا الصغيرة المسكينة تزداد شحوباً وهماً فهجرت تسلياتها وانشغالاتها القديمة ليبقى حريرها مشتبكاً بعضه بالبعض الآخر، غيتارها لا يعزف عليه أحد، أزهارها مهملة، أغاريد طيرها لا يبالي بها أحد، عيناها، بعد ذلك الألق، كامدتان يعشيهما البكاء وهي وحيدة لا يراها أحد. ولو

كان هناك من يخطط لمعتزل مناسب لتلك الفتاة المتيمة حباً، إذن لما وجد خيراً من الحمراء ، حيث يبدو وكأن كل شيء مصمم كي يزيد الانسان رقة أحاسيس وأحلامٍ يقظة وورمانسية. إنها جنة العشاق عينها: فكم هو صعب إذن أن تكون وحيداً بغير حبيبك في جنة كهذه!! ليس فقط وحيداً بل مهجوراً!!

« واأسفاه، يا طفلتي السخيفة! » كانت فريدغوندا الصلبة الحصينة تقول إذا ما وجدت ابنة أخيها في احدى حالات حزنها ويأسها « ألم أحذرك من أحابيل أولئك الرجال وخداعهم؟ إذن، ما تراك تتوقعين من رجل ينحدر من عائلة متعالية متكبرة وأنت مجرد يتيمة سليلة الفقر والضعة؟ كوني على ثقة، إن كان الفتى صادقاً، فإن أباه، الذي هو ولاشك واحد من أكثر نبلاء البلاط فخاراً وكبراً، سيمنع زواجه من فتاة مثلك وضيعة فقيرة لا تملك شيئاً. لهذا، صممي واطردي تلك الأفكار الفارغة من رأسك».

غير أن كلمات فريدغوندا لم تكن تعمل إلا لزيادة اكتئاب ابنة الأخ. رغم أنها كانت تسعى جاهدة لكتمانه في قلبها فلا يظهر له أثر. في ساعة متأخرة من ليلة منتصف صيف، وبعد أن مضت عمتها إلى غرفتها تستريح، ظلت الفتاة وحيدة في قاعة البرج جالسة بجانب البركة المصنوعة من مرمر، حيث ركع الوصيف الغادر أول مرة، مقبلاً يدها، وحيث غالباً ما كان يقسم الأيمان على إخلاصه الأبدي لها. كان قلب الفتاة الصغيرة المسكينة مثقلاً بالحزن والذكريات المضنية، فبدأت دموعها تنساب، وعلى مهل راحت تتساقط قطرة تلو قطرة في بركة الماء شيئاً فشيئاً بدأ الماء الرقراق كالبلور يضطرب ويجيش ثم يبقبق - يبقبق، فائراً متناثراً رذاذاً إلى أن ظهرت فتاة بملابس عربية فاخرة إلى العيان.

رعب شديد سيطر على جاستنا إلى درجة فرت معها من القاعة ولم تغامر بأن تعود. في الصباح التالي روت لعمتها ما رأته لكن السيدة الطيبة اعتبرت ذلك مجرد تهيؤات يصورها لها عقلها المضطرب، أو ربما هي استغرقت كثيراً في النوم هناك، وراحت تحلم « قد كنت تفكرين بقصة الأميرات العربيات الثلاث اللواتي سكن في هذا البرج ذات يوم »، تابعت العمة « ثم نمت فرأيت أحلامك هذه ».

« أية قصة يا عمة ؟ أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك ».

« أنت ولاشك سمعت عن الأميرات الثلاث: زايدة وزريدة وزرهيدة اللواتي عشن حبيسات في هذا البرج بأمر أبيهن الملك ثم وافقن على الفرار مع ثلاثة

فرسان اسبان. الاثنتنان الأوليان أنجزتا فرارهما لكن الثالثة أخفقت في اتخاذ القرار ويقال إنها ماتت في هذا البرج».

« الآن تذكرت أنني سمعت هذه القصة » قالت جاسنتا ،

« وأنني بكيت مصير تلك الفتاة النبيلة زرهيدة ».

« ولعلك ستبكين مصيرها أكثر وأكثر » تابعت العمة «إذا ما علمت أن حبيب زرهيدة هو جدك الأكبر، إذ ظل طويلاً ينوح على حبيبته العربية، لكن الزمن يداوي الأحزان، ويشفي الجروح وقد شفي جدك ذاك ثم تزوج سيدة اسبانية، أنت سليلتها».

طويلاً فكرت جاسنتا بكل الكلمات «إذن؟ ما رأيته لم يكن تخيلات وتهيؤات» قالت لنفسها أخيراً «إني واثقة، وإذا كان شبح زرهيدة النبيلة هو فعلاً ما أسمعه وهو يتمشى هنا وهناك في هذا البرج، فلماذا أخشاه ؟ سأراقب المكان الليلة بجانب النافورة ـ عسى أن تتكرر الزيارة».

حوالي منتصف الليل، وكل شيء ساكن هادىء، مضت جاسنتا فاتخذت مقعداً لها بجانب النافورة وسط القاعة. وحين دق الجرس في برج المراقبة البعيد في الحمراء معلناً منتصف الليل، بدأت مياه البركة العذبة الرقراقة تضطرب وتجيش ثم تبقبق ـ تبقبق ـ ناثرة المياه هنا وهناك إلى أن ظهرت الفتاة العربية من جديد للعيان. ويا لها من فتاة ! ! جميلة، غضة، بضة، ملابسها تبرق بالجواهر وفي يدها عود فضي. رعشة شديدة أصابت جاسنتا إلى حد فقدت معه وعيها، لكنها استردت ذلك الوعي على الصوت الرقيق الناعم لتلك الفتاة ـ الشبح والسيماء العذبة التي كست محياها الشاحب الكئيب.

«يابنة الفناء» قالت الفتاة ـ الشبح «مم تشكين؟ لماذا تقلق دموعك مياه بركتي وتقض آهاتك مضجعي في سكينة هذا الليل؟»

«إنني أبكي غدر الرجال وأندب عزلتي ووحشتي في هذا المكان المهجور».

«اهدئي.. ارتاحي، فلأحزانك كما لكل شيء نهاية. لكن ها أنذي أمامك أميرة عربية كانت مثلك في حبها سيئة الحظ. فارس مسيحي هو جدك الأكبر ملك علي فؤادي، وكان سيحملني إلى موطنه وإلى صدر كنيسته وقد كنت مهتدية القلب لكنني كنت افتقر للشجاعة الموازية لإيماني فتباطأت إلى أن فات الأوان.

لهذا، سمح للجني الشرير ان يسيطر علي. وها انذي مسحورة في هذا البرج ولسوف أظل كذلك إلى أن يأتي مسيحي طاهر يفك السحر عني ويزيل الطلسم، فهل تقومين بتلك المهمة ؟».

«أجل» أجابت الفتاة وهي ترتعش.

«إذن، تعالي هنا، ولا تخافي. غطسي يدك في البركة ثم رشي الماء علي.. عمديني وفق تعاليم دينك. بذلك ينفك السحر عني وتستريح روحي بعد قلق».

بخطوات مرتجفة تقدمت الفتاة . غطست يدها في البركة ، آخذة حفنة من الماء بيدها ، ثم رشتها على وجه الشبح الشاحب. بكثير من الطمأنينة والراحة ابتسمت الأميرة العربية المسحورة، ثم أسقطت عودها عند قدمي جاسنتا.بعدئذ صلبت ذراعيها البيضاوين على صدرها ثم غابت عن النظر وكأنها مجرد زخة من قطرات ندى سقطت على ماء البركة.

انسحبت جاسنتا من القاعة يملؤها الهلع والدهشة دون أن يغمض لها جفن طوال تلك الليلة، إلا غفوة مضطربة عند الفجر افاقت منها ـ فخيل إليها أن ذلك كله أضغاث أحلام، لكن ما إن نزلت الى القاعة حتى تأكدت أن الرؤيا حقيقة واقعة، فهناك إلى جانب البركة كان ما يزال العود الفضي على الأرض، يتلألأ تحت أشعة شمس الصباح. أسرعت الفتاة إلى عمتها تروي لها ما حدث وتدعوها لمشاهدة العود كشاهد على صحة قصتها، ولئن كانت قد بقيت بعض الشكوك لدى السيدة الطيبة، فإنها كلها زالت حين لامست جاسنتا الآلة الموسيقية، مطلقة منها نغمات عذبة إلى درجة كان بإمكانها ان تذيب أقسى القلوب، تذيب حتى قلب فريد غوندا الحصين المنيع. ذلك الصقيع الأبدي. فتحيله إلى دفق للفرح والسرور وما من شيء سوى النغمة الربانية يمكنها أن تحدث مثل ذلك التأثير.

يوماً بعد يوم غدا التأثير الخارق لأنغام العود أكثر وأكثر وضوحاً، فعابر السبيل الذي يمر بجانب البرج كان يتوقف متسمراً في مكانه، إن جاز لي القول، كالمسحور، منتشياً طرباً منقطع الأنفاس. الطيور نفسها راحت تتجمع اسراباً أسراباً لتحط على الأشجار المجاورة، متوقفة عن تغريدها، مصغية بهدوء وكأنها مسحورة.

في الحال انطلقت الشائعات تنقل النبأ إلى البعيد، فاحتشد سكان غرناطة مندفعين إلى الحمراء كي يلتقطوا بعض أنغام تلك الموسيقى الإلهية التي تملأ أجواء برج «الطفلات».

في النهاية ، خرجت الموسيقية الصغيرة الجميلة من عزلتها: إذ راح اغنياء البلاد وأقوياؤها يتنافسون على خطب ودها، أو بالأحرى ضمان سحر عودها وهو يجتذب الحشود إلى صالوناتهم. حيثما ذهبت، كانت عمتها المتيقظة تذهب حارسة لا تغفل لها عين، باثة الرعب والهلع في كل من تسول له نفسه الاقتراب من فتاتها من معجبين يذوبون طرباً وانتشاء بأنغامها. من مدينة إلى مدينة راحت تنتشر الأخبار عن قواها العجيبة: ملقا، اشبيلية، قرطبة كلها أصبحت بالتتالي مهووسة بالأمر، بل لم يعد أحد في طول الأندلس وعرضها يتكلم إلا عن موسيقية الحمراء الجميلة.

وكيف تراه يكون غير ذلك بين أناس رائعين مولعين بالموسيقى كأهل الأندلس، خاصة إذا كان العود ساحر التأثير والعازفة يلهمها الحب!؟

على الرغم من أن الأندلس كلها كانت مغرمة بالموسيقى إلا أن حالة مختلفة كانت تسود البلاط الاسباني. فالملك فيليب الخامس كما هو معروف عنه كان تعيساً مصاباً بوسواس المرض، عرضة لكل أنواع التخيلات. أحياناً كان يلزم فراشه عدة أسابيع لا يفارقه البتة وهو ينتحب ويندب شاكياً متذمراً. في أحيان أخرى كان يصر على اعتزال عرشه، الأمر الذي كان يقض مضجع زوجته الملكة، هي التي كانت تستمتع أكثر ماتستمتع بأمجاد الملك وروعة التاج، فتمسك صولجان ملكها الأحمق بيد خبيرة ثابتة.

أخيراً ، وجدوا أنه ما من شيء يمكنه أن يكون فعالاً في طرد وساوس الملك كالموسيقى وتأثير الموسيقى. لهذا، أولت الملكة جل عنايتها لأن تأتي بأفضل الموسيقيين الذين تصل إليهم يدها، كما احتفظت في بلاطها بالمغني الايطالي الشهير فارينيللي، كطبيباً يداوي الملك.

لكن، في الفترة التي نتحدث عنها، طغى نوع من الوسواس على ذهن ذلك الملك البربوني فاق كل وسواس سابق، فبعد فترة طويلة من مرض التوهم الذي تحدى أنغام فارينيللي كلها والحان الجوقات الموسيقية كلها، سيطرت على الحاكم فكرة، نسي معها الشبح واعتبر نفسه ميتاً تماماً. ولعل هذا كان سيبدو

أمراً لا ضير فيه بل مريحاً تماماً لكل من الملكة ورجال الحاشية لو أنه رضي بالبقاء في حالة من السكينة تناسب رجلاً ميتاً. لكنه ، ولكي يزعجهم، أصر على إقامة مراسم الموت عليه ولكي يربكهم أكثر مما يمكن التعبير عنه. بدأ صبره ينفد كما شرع يقرعهم بمرارة شديدة على إهمالهم وعدم احترامهم له . هم الذين تركوه دون جنازة ودفن. ترى ما عساهم يفعلون؟ أن يعصوا أوامر الملك المباشرة أمر فظيع لرجال مطيعين وفي بلاط تسوده الدقة والطاعة ـ لكن أن يطيعوه ويدفنوه حياً فإنه نوع من القتل المباشر للملك؟

وسط هذه الحيرة المخيفة، وصلت إشاعة إلى البلاط تتحدث عن فتاة موسيقية استطاعت أن تخلب ألباب أهل الأندلس كلهم. في الحال أرسلت الملكة الرسل كي يأتوا بها إلى إلديغونسو، قصر البلاط حينذاك.

خلال بضعة أيام، وبينما كانت الملكة ووصيفاتها يتمشين في تلك الحدائق الرائعة المصممة بطرقها ومصاطبها ونوافيرها كي تكسف روعة فرساي وتفوقها جمالاً، جيء بالموسيقية الذائعة الصيت إلى حضرتها. حدقت الامبراطورة اليزابيتا بكثير من الدهشة إلى الفتاة الصغيرة البسيطة ـ المتواضعة التي أصابت العالم بالجنون. كانت ثيابها ما تزال تلك الثياب الأندلسية المزركشة، وعودها الفضي في يدها وهي تقف مطرقة الرأس بكل بساطة الجمال وعذوبته، ذاك الذي كان ما يزال يقول إنها وردة الحمراء.

وكالعادة، كانت تصحبها عمتها المتيقظة دائماً الحذرة دائماً، فريد غوندا. وإذا كانت الملكة المهيبة إليزابيتا قد أبدت كل الاهتمام لظهور جاسنتا. فإنها كانت أكثر سروراً حين علمت أنها سليلة عائلة محترمة وإن كان قد حل بها الفقر الآن، وأن والدها كان قد سقط في ساحة الوغى دفاعاً عن التاج كما يسقط الفرسان الشجعان.

. « إن كانت قدراتك توازي شهرتك » قالت الملكة « وكان باستطاعتك ان تطردي تلك الروح الشريرة التي سيطرت على ملكك فإن رعايتك من الآن فصاعداً ستكون موضع اهتمامي الشخصي ولسوف تنالين كل شرف وثروة ». وفي الحال، قادت الفتاة إلى جناح الحاكم البائس، وكلها شوق لتجريب براعتها.

بعينين مسمرتين على الأرض، تبعتها جاسنتا عبر صفوف الحراس وحشود الحاشية. أخيراً وصلتا إلى غرفة واسعة مجللة بالسواد. نوافذها مغلقة لحجب

النور: فيما كانت عدة شمعات مستدقة صفراء في شمعدانات فضية ترسل ضوءا خافتاً لا تبين معه الشخوص إلا بالكاد: رجال حاشية ونبلاء كبار يخيم عليهم جميعاً الصمت والحزن، فيما كان يتمدد على فراش كالتابوت، الحاكم الذي سيدفن وقد صالب ذراعيه على صدره، لا يبدو منه سوى أرنبة أنفه.

صامتة ، دخلت الملكة الغرفة ثم أومأت إلى جاسنتا مشيرة إلى كرسي بلا ظهر في ركن الغرفة المعتم كي تجلس عليه وتبدأ المهمة.

في البداية لامست جاسنتا عودها بيد راجفة، لكن شيئاً فشيئاً راحت تستعيد ثقتها بنفسها وحيويتها وهي تمضي قدماً ، عازفة أكثر أنغام الدنيا تناغماً وإمتاعاً إلى درجة أن الحضور كلهم كادوا لا يصدقون أنه عزف بشري. أما الحاكم، الذي كان قد اعتبر نفسه في عالم الأرواح فقد خيل إليه أنه لحن من ألحا ن الملائكة أو نغمة من أنغام السماء، شيئاً فشيئاً بدأت الأنغام تتغير وبدأ صوت المغنية يصاحب الألحان، مترنمة بأنشودة من تلك الأناشيد الخرافية التي تتحدث عن أمجاد الحمراء القديمة وإنجازات العرب الرائعة. هناك روحها كلها كانت تمتزج بالأنشودة، ذلك أنه مع ذكريات الحمراء كانت تتداخل قصة حبها، فرددت الغرفة الجنائزية الألحان المنعشة متغلغلة إلى صميم قلب الحاكم الكئيب. في البداية رفع رأسه وحدق حوله: بعدئذ جلس على أريكته وقد بدأت عيناه باللمعان - أخيراً وثب على الأرض طالباً سيفه وترسه.

كاملاً كان انتصار الموسيقى ، أو بالأحرى انتصار العود المسحور، فقد طرد شيطان الاكتئاب وإن جاز القول، عاد الميت إلى الحياة. على مصاريعها فتحت نوافذ الجناح وبكل قوتها وسطوعها دخلت اشعة الشمس الاسبانية الرائعة منيرة الحجرة التي لم تكن تعرف الضياء فيما كانت الأعين كلها تبحث عن الساحرة الجميلة التي سقط العود من يدها، وخرت على الأرض وفي اللحظة التالية كان يضمها إلى صدره رويزدي ألاركون.

بعد ذلك ، اقيمت احتفالات عظيمة وعرس رائع للعروسين السعيدين غدت بعده «وردة الحمراء» حلية البلاط وبهجته كله. «لكن توقف - ليس بهذه السرعة» أسمع القارىء يهتف «فهذه قفزة سريعة إلى نهاية القصة! دعنا أولاً نعلم كيف استطاع رويز دي ألاركون يتدبر أمره ويبرر إهماله الطويل لجاسنتا؟ » لا شيء

أسهل من ذلك. إنه العذر المبجل المكرم على مدى الزمان: أي معارضة والده العجوز المتكبر الذرائعي لرغباته».

علاوة على ذلك فإن الشبان الذين يحبون بعضهم فعلاً، سرعان مايصلون إلى التفاهم ويدفنون أحزانهم كلها حالما يلتقون.

لكن كيف تراه وافق الوالد العجوز المتكبر الذرائعي على الزواج؟ أوه ! ! بالنسبة إلى ذلك فقد تم التغلب على اعتراضاته وشكوكه بكلمة أو اثنتين من الملكة، خاصة، أن ألقاب الشرف والجوائز راحت تنهمر كزخات المطر على صاحبة الحظوة الباهرة في القصر الملكي. إضافة إلى ذلك، فقد كان لعود جاسنتا قوة سحرية وبإمكانه السيطرة على أكثر الرؤوس عناداً وأشد القلوب قسوة. وماذا حل بالعود المسحور؟

أوه! ! ذلك أكثر ما في المسألة من إثارة، وهو يبرهن بكل سهولة على صحة القصة برمتها. لقد ظل ذلك العود لدى العائلة فترة من الزمن، لكن اختلسه بعد ذلك، كما يظن، المغني الإيطالي العظيم فارينيللي، غيرة وحسداً وعاد به إلى بلاده. بعد وفاته، انتقل إلى أيد أخرى في إيطاليا واناس يجهلون قدراته الغامضة، فأذابوا ما فيه من فضة ثم نقلوا الأوتار الى قيثارة كريمونا العتيقة، تلك الأوتار التي ما تزال تحتفظ حتى اليوم بشيء من قدراتها السحرية.

كلمة أخيرة أهمسها في أذن القارىء، لكن لا تدعها أيها القارىء تذهب أبعد - ثمة قيثارة تسحر العالم كله الآن - إنها قيثارة باغانيني!



المحارب القديم

بين المعارف المثيرين للفضول الذين تعرفت إليهم في جولاتي في القلعة، كان ثمة محارب قديم عاجز، وهو عقيد شجاع معطوب يعشش مثل بازي في برج من أبراج العرب. تاريخه ، ذاك الذي كان مولعاً بالحديث عنه، نسيج فريد، لحمته وسداه مغامرات ومخاطرات ، عثرات وتقلبات تجعل حياة كل اسباني مرموق تقريباً متنوعة، متقلبة كصفحات تاريخ «جيل بلاس».

في الثانية عشرة من العمر كان في أمريكا. هناك رأى جورج واشنطن ذلك الحدث الذي يعده من أهم الحوادث وأسعدها في حياته. منذئذ، شارك في حروب بلاده كلها، وباستطاعته أن يتكلم كلام الخبير المتمرس عن معظم سجون شبه الجزيرة وزنزاناتها. بعدئذ فقد ساقاً من ساقيه ثم أصابه الشلل في يديه، وهكذا بترت أعضاء منه وقطعت إلى أن أصبح نوعاً من النصب الذي يسير مجسداً مشاكل اسبانيا كلها، ففي كل مكان من جسمه ندبة من معركة أو أثر من شجار، تماماً كلحاء تلك الشجرة التي كان روبنسون كروزو يحفر خطاً عليها كل سنة من سنوات الأسر. لكن أسوأ مصاب حل بالفارس القديم الشجاع هو على ما يبدو

استلامه القيادة في «ملقا» خلال فترة من الاضطرابات والشغب نصبه فيها السكان قائداً لهم كي يحميهم من غزو الفرنسيين. فقد جر عليه ذلك عدداً من الدعاوى والقضايا الحكومية إلى حد أخشى معه أنه سيموت قبل أن ينتهي من كتابة الالتماسات والمذكرات وطبعها وما يجر ذلك من الهم والبلبال واستنزاف الجيوب والعقوبات التي يفرضها على أصدقائه، إذ ما من صديق يزوره دون أن يضطر للاصغاء إلى وثيقة مهلكة طوال نصف ساعة وأن يحمل معه نصف دزينة من الكراسات في جعبته. لكن تلك هي الحال في اسبانيا كلها. ففي كل مكان منها تلتقي بمخلوق جدير بالاهتمام متكوم في ركن من الأركان يجتر آلامه وأحزانه. علاوة على ذلك فإن الاسباني الذي يرفع قضية أو دعوى على الحكومة يعتبر أنه صار لديه عمل يشغله بقية حياته.

لقد زرت ذلك المحارب القديم في مقره في الجزء الأعلى من «برج الخمرة»، فوجدت غرفته صغيرة لكنها مرتبة تطل على منظر جميل من مناظر الفيغا. لقد كانت مرتبة بدقة تامة لايعرفها غير الجندي. ثلاث بنادق وحزمة من المسدسات، كلها تلمع براقة. كانت قد علقت على الجدار وجنباً إلى جنب كان قد علق أيضاً سيف وعصا فوقهما قبضتان مردودتا الحافة، واحدة للاستعراضات وأخرى للاستخدام العادي. كما كان هناك رف صغير عليه ما يقارب نصف دزينة من الكتب تشكل مكتبته كلها. أحد تلك الكتب هو مجلد مهترىء عتيق صغير عن المبادىء الفلسفية، وهو كتابه المفضل. إذ كان في كل يوم يتصفحه ويقلبه. مطبقاً كل مبدأ من مبادىء الفلسفة على حالته الخاصة، شريطة أن تكون فيه لمسة ضئيلة من المرارة الشاملة ويتحدث عن ظلم الدنيا. لكن رغم ذلك، كان الرجل اجتماعياً طيب القلب. وإذا ما استطعت ابعاده عن مشاكله وهمومه وكذلك عن فلسفته فإنه يغدو رفيقاً مسلياً.

إنني أحب أبناء الحظ العاثر القدامى هؤلاء وأستمتع كل الاستمتاع بقصص حملاتهم العسكرية الفجة. ولقد علمت خلال زياراتي لذلك المحارب القديم بعض الحقائق المثيرة عن قائد عسكري قديم للقلعة كان على ما يبدو يشبهه في كثير من المجالات وكان له الحظ نفسه في الحروب.

هذه الخصوصيات زادتها أكثر وأكثر الاستفسارات التي أجريتها بين بعض سكان الحمراء القدامى، لاسيما والدماتيوزيمنيس الذي يعتبر أن بطله المفضل من بين أبطال القصص المتوارثة كلها هو ذلك الشخص الذي أهم بتقديمه للقارىء.

الحاكم
والكاتب العدل

في الأيام الماضية، كان يحكم الحمراء حاكم عرف عنه أنه فارسٍ عتيق شجاع، ولأنه فقد احدى ذراعيه في ساحات القتال فقد كان يُعرف، عموماً، باسم «الحاكم وحيد الذراع». والحقيقة، كان الرجل يفتخر بأنه جندي قديم وكان شارباه ينفتلان عاليا حتى عينيه، حذاؤه من أحذية الحملات العسكرية وعلى جانبه سيف طليطلي طويل كالسفود ومن جيب صدره يبرز منديله الجيبي.

علاوة على ذلك، فقد كان شديد الكبرياء، شديد الحرص على الشكليات متمسكاً بكل ماله من امتيازات وحقوق منصب وتحت إشرافه، تمت المحافظة بدقة على حرمة الحمراء وعصمتها باعتبارها مقراً للملك ومنطقة للسيادة الملكية، فلا يسمح لأحد بدخول القلعة بسلاحه، حتى ولو كان ذلك السلاح سيفاً أو عصا، إلا إذا كان من مرتبة معينة. كما كان على كل فارس أن يترجل عند البوابة ويقود حصانه من لجامه. وبما ان رابية الحمراء ترتفع كالزائدة، بالنسبة

إلى العاصمة، فلابد من أن يكون أمراً مثيراً، إلى حد ما، لغضب القائد العام، هو الذي يأمر ولاية بكاملها أن يكون لديه موقع مستقل كالحمراء وسط منطقة نفوذه ذاتها. وقد صار الأمر أكثر إثارة للغضب عند حدوث قصتنا هذه، نظراً لغيرة الحاكم العجوز الشديدة وقابليته السريعة للغضب، هو الذي كان يشتعل ناراً لدى أقل سؤال عن سلطاته وصلاحياته، ونظراً أيضاً لحالة التشرد والانحلال التي كان يتصف بها الناس الذين راحوا يعششون شيئاً فشيئاً في القلعة وكأنهم في ملجأ أو مصح، عائشين نوعاً من حياة التشرد والرعاعية، قائمين بالكثير من أعمال السلب والنهب على حساب سكان المدينة الشرفاء.

إذن، كان ثمة نوع من العداء ووجع القلب الدائم بين القائد العام والحاكم، لعل أقسى ما فيه بالنسبة إلى هذا الأخير، باعتباره أصغر الجارين المتنفذين هو أن يكون صعب الإرضاء متشدداً فيما يتعلق بالشرف والكرامة.

فالقصر المهيب للقائد العام ينتصب في ساحة «نوفا»، عند أسفل رابية الحمراء مباشرة، حيث هناك دائماً زحام حرس وجند، إضافة إلى زحام السكان المحليين والموظفين. لكن، ثمة جزء ناتئ من حصن الحمراء يطل على القصر وعلى الساحة العامة أمامه، وهنا، كثيراً ما ترى الحاكم العجوز يتبختر في مشيته ذهاباً وإياباً، سيفه الطويل إلى جانبه وعينه اليقظة تتطلع نزولاً إلى منافسه، وكأنه صقر يتفحص طريدته من عشه في أعلى شجرة يابسة.

حين ينزل إلى المدينة يتم ذلك بنوع من الاستعراض المهيب، إذ يمتطي حصانه ليسير في ركابه حراسه، أو يركب عربته الرسمية. وهي مركبة اسبانية قديمة غير عملية مصنوعة من الخشب المنقوش والجلد المذهب تجرها ثمانية بغال ويحف بها مشاة ومرافقون وخدم ببزاتهم الموحدة. وفي المناسبات التي يعتني فيها بجمال موكبه ومهابته أكثر فأكثر فإنه يترك لدى كل ناظر إليه انطباع الرهبة والإعجاب وكأنه نائب الملك. لكن الأذكياء في غرناطة، خاصة أولئك الذين يتسكعون دائماً حول قصر القائد العام، فإنك تجدهم أميل للسخرية من استعراضه الصغير ذاك ومن حالة التشرد التي تتصف بها رعيته، فيحيونه مطلقين عليه لقباً مضحكاً هو: «ملك الشحاذين».

أحد مصادر النزاع الأشد حدة بين هذين المتنافسين القويين ادعاء الحاكم الحق في أن تمر كل الأشياء المخصصة لاستخدامه أو استخدام حاميته عبر المدينة

دون ضريبة. شيئاً فشيئاً أدى هذا الامتياز إلى نشوء تجارة واسعة النطاق هي التهريب.

إذ عششت مجموعات من المهربين في أوكار القلعة والكهوف العديدة في جوارها متخذة منها مقرات مطورة صناعة ناجحة لها تحت أبصار جنود الحامية وأسماعهم.

أخيراً، تنبه القائد العام للأمر. فاستشار مستشاره القانوني، وهو موظف يؤدي مختلف المهام وكاتب عدل فضولي ماكر يستمتع كل الاستمتاع بإيقاع حاكم الحمراء العجوز في شباك الحيرة والارتباك. وتوريطه في شراك القانون والمشاكل القانونية. أشار كاتب العدل على القائد العام بأن يصر على حقه في تفتيش كل قافلة تمر عبر بوابات مدينته وفي الحال خط رسالة طويلة له إثباتاً لذلك الحق. لكن الحاكم مانكو جندي قديم مستقيم حازم يكره كتاب العدل أكثر مما يكره الشياطين ويكره كاتب العدل ذاك خاصة أكثر من كل كاتب عدل في الدنيا.

«ماذا؟» قال وهو يفتل شاربيه للأعلى ساخطاً «هل يطلق الحاكم رجال دواوينه كي يمارسوا علي أحابيلهم ويوقعوني في إرباكاتهم؟ قسماً لأرينه أن جندياً قديماً مثلي لا يخدعه ابن مدارس».

ثم أمسك بقلمه وخربش رسالة قصيرة بخط سيء، أصر فيها ودون أن يتنازل فيدخل في نقاش أو مجادلة، على حقه في نقل الأشياء التي تخصه دون أن تخضع للتفتيش، مهدداً بالانتقام من أي ضابط جمارك يمد يده إلى أية قافلة تسير تحت علم الحمراء. كانت القضية ما تزال موضع أخذ ورد بين الحاكمين الذرائعيين، حين وصل ذات يوم بغل محمل بمواد تموينية للقلعة، إلى بوابة زنيل حيث كان عليه أن يعبرها ليجتاز أطراف المدينة وهو في طريقه إلى الحمراء، وكان برفقة البغل عريف قديم، مجرب، خدم طويلاً بإمرة الحاكم، وعرف بأنه شجاع قاس صلب كنصل سيف طليطلي قديم.

حين وصل بوابة المدينة، رفع العريف راية الحمراء على قبة سرج البغل، منتصباً بقامته انتصاب العمود رافعاً رأسه، مندفعاً إلى الأمام لكن وهو يرمق الطرف الآخر بعين حذرة مجانبة ككلب يعبر أرض أعداء جاهزاً للزمجرة والعض.

«من هناك؟»، صاح حارس البوابة فرد العريف دون التفاتة من رأسه:

«جندي من الحمراء»

«ماذا معك؟»

«مؤونة للحامية»

«تقدم»

تقدم العريف مباشرة إلى الأمام يتبعه البغل والبغال، لكنه لم يسر بضع خطوات حتى اندفعت نجوه من مركز الجمارك الصغير زمرة من الرجال.

«أنت! هناك!» صاح القائد، أيها البغال، توقف وافتح تلك الرزم.

استدار العريف دورة كاملة متخذاً وضعية المعركة قائلاً «احترم علم الحمراء... هذه الأشياء للحاكم».

« طز في الحاكم وفي علمه. توقف أيها البغال، قلت لك ».

« أوقف البغل تخاطر بحياتك »، صرخ العريف صالياً بندقيته « أيها البغال، تقدم» .

نخس البغال دابته نخسة قوية. في اللحظة نفسها قفز ضابط الجمارك إلى الأمام ممسكاً بالرسن وفي الحال سدد العريف بندقيته عليه وأطلق النار فأرداه قتيلاً.

وعلى الفور ساد هرج ومرج في الشارع.

ألقي القبض على العريف، وبعد رفسه ولكمه وانهمار البصاق والسخرية عليه وهو الأمر العادي الذي يقوم به الجمهور في اسبانيا كمقدمة للعقوبة القانونية التي ستأتي فيما بعد، نقل إلى سجن المدينة، في حين سمح للبغال أن يمضي بالحمولة إلى الحمراء بعد أن أجروا عليها التفتيش اللازم.

بثورة من المشاعر والأحاسيس تلقى الحاكم العجوز نبأ تلك الإهانة التي لحقت به وبعلمه اثر إلقاء القبض على عريفه ولحين من الزمن راح يرغي ويزبد في القاعات العربية متنقلاً بين حصون الحمراء مزمجراً هنا وهناك محملقاً بقصر القائد العام وعيناه تقدحان شرراً. ولكي ينفس عن غضبه وحنقه، أرسل رسالة يطلب فيها تسليم العريف، نظراً لأنه هو وحده من يملك الحق في محاكمة المسيئين ممن هم في إمرته. لكن القائد العام، وبمساعدة قلم كاتبه العدل المبتهج،

أجاب، بعد لأي، محتجاً بأن الاساءة ارتكبت ضمن أسوار مدينته ولحقت بواحد من ضباطه لهذا فإن محاكمة المرتكب من صلاحيته وحده. غير أن الحاكم لم يقنع بذلك بل أرسل كتاباً يكرر فيه طلبه من جديد، فرد القائد العام بعد فترة أطول من الزمن مدعماً رده بحجة قانونية أكثر إفحاماً أيضاً.

وهكذا، غدا الحاكم أكثر حرارة وإلحاحاً في طلباته بينما غدا القائد العام أكثر بروداً وغزارةً في أجوبته إلى أن صار الحاكم العجوز، قلب الأسد، يزأر زئير الأسد ضيقاً وغيظاً وقد رأى نفسه يقع في شرك الجدال القانوني.

على ذلك النحو راح كاتب العدل الحاذق يتسلى على حساب الحاكم، وفي الوقت نفسه يجري محاكمة العريف الذي وجد نفسه محشوراً في زنزانة ضيقة في السجن، ليس لها سوى كوة صغيرة مشبكة بقضبان الحديد يمكن أن يظهر منها وجهه ليتلقى المواساة من أصدقائه. أكداس من الوثائق والمستندات راحت تتكوم على مهل طبقاً للصيغة الاسبانية المعمول بها في المحاكمات القضائية يقف وراءها كلها كاتب العدل إلى درجة طغت على العريف وطمرته تماماً فأدين بتهمة القتل العمد وحكم بالاعدام شنقاً.

مذكرة احتجاج بعد مذكرة احتجاج راح الحاكم يرسل. تهديداً بعد تهديد راح يبعث من الحمراء لكن عبثاً، فيوم التنفيذ بات قريباً والعريف وضع في كنيسة السجن الصغيرة المخصصة للمحكومين بالاعدام الذين ينقلون إليها عادة قبل يوم التنفيذ مباشرة، بحيث يمكنهم أن يفكروا بما فعلوا وهم على وشك لقاء وجه ربهم فيندمون ويطلبون التوبة والغفران.

صمم الحاكم، وقد رأى الأمور تقترب من النهاية، أن يعالج المسألة بنفسه. ولهذا الغرض أمر باخراج مركبته الرسمية التي راحت، ومن حولها حراسة، تقعقع نازلةً شارع الحمراء إلى داخل المدينة. اتجه إلى بيت كاتب العدل ثم طلب إليه أن يخرج إلى البوابة. مثل جمرة متوهجة كانت عين الحاكم العجوز حين رأى رجل القانون المتكلف الابتسام وهو يتقدم نحوه بهيئة المنتصر المنتشي.

«ماهذا الذي سمعته؟» صاح الحاكم «يقولون انك ستعدم واحداً من جنودي».

«وفقاً للقانون ـ كل ذلك طبقاً لمقتضيات العدالة». قال الكاتب العدل الواثق من نفسه وهو يكتم ضحكته ويفرك يديه واحدتهما بالأخرى ثم استأنف «بإمكاني أن أري سيادتك كل الوثائق الخطية المتعلقة بالقضية».

«هاتها هنا» قال الحاكم فأسرع الكاتب إلى مكتبه مبتهجاً بانه ستتاح له فرصة أخرى لاستعراض عضلاته الذكية أمام المحارب القديم ذي الرأس اليابس.

بحقيبة ملأى بالأوراق عاد الكاتب وشرع يقرأ ما فيها من حجج وحيثيات قانونية. في غضون ذلك، كان حشد من الناس قد تجمع مصيخاً السمع وقد مد كل منهم عنقه وفغر فاه.

«أرجوك يا رجل، اصعد إلى العربة، بعيداً عن هذا الحشد اللعين علني أسمعك على نحو أفضل» قال الحاكم.

صعد الكاتب إلى العربة، وبلمحة عين أغلق الباب ثم فرقع سوط الحوذي وفي لحظة واحدة كانت البغال، العربة، الحراس يندفعون جميعاً بسرعة هادرة كالرعد مخلفين الحشد في الخلف جاحظ الأعين دهشة وذهولاً. ثم لم يتوقف الحاكم إلى أن أودع فريسته واحدة من أمنع الزنزانات في الحمراء .بعد ذاك أرسل راية هدنة وفق الطريقة العسكرية مقترحاً تبادل أسرى ـــ العريف مقابل الكاتب العدل. ولشعوره بأن كرامته قد أهينت. أرسل القائد العام رد ازدراء ورفض. في الوقت نفسه أمر بنصب المشنقة عالياً في منتصف ساحة نوفا لإعدام العريف.

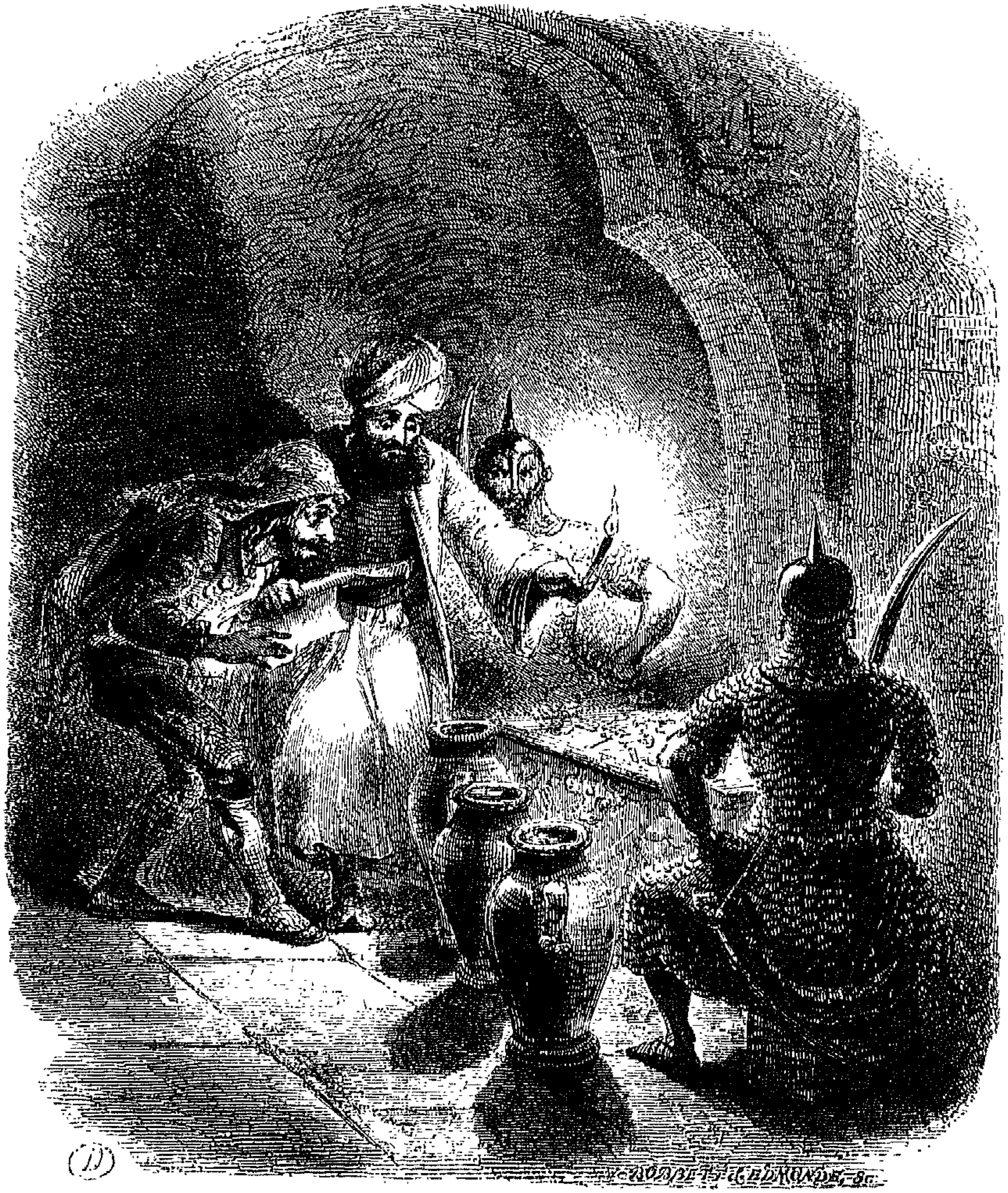
«أوه! ! أتلك هي اللعبة» قال الحاكم مانكو ثم أمر مباشرة باعداد مشنقة مماثلة على حافة الحصن الناتئ الكبير الذي يطل على الساحة.

«الآن» قال الحاكم في رسالة بعث بها إلى القائد العام.

«اشنق جنديي متى شئت. لكن حين تراه معلقاً في الساحة انظر إلى الأعلى ولسوف ترى كاتبك معلقاً في الهواء».

لكن القائد العام كان متصلباً. فاصطف الجند في الساحة وقرعت الطبول ودقت الأجراس. كما تجمع حشد ضخم من المتفرجين والفضوليين ليشهدوا التنفيذ. من جهته. صف الحاكم جنده أيضا في الحصن كما دقت الأجراس تنعي الكاتب العدل من برج الأجراس. دفعت زوجة الكاتب بنفسها شاقة طريقها وسط الزحام يمسك بأذيالها ويلحق بها دزينة كاملة من كتاب عدل صغار وحين وصلت إلى القائد العام ألقت بنفسها عند قدميه راجية متضرعة ألا يضحي بحياة زوجها من أجلها ومن أجل عيالها الصغار «إنك تعرف الحاكم العجوز جيداً» تابعت المرأة «فلاشك أنه سينفذ تهديده ويشنق زوجي إن شنقت ذلك الجندي».

دموعها، ولولاتها وكذلك تضرعات ذريتها الكبيرة من بنات وصبيان فتت في عضد القائد العام فأعيد العريف إلى الحمراء تحت الحراسة وهو في ثياب الاعدام، كأنه مبشر على رأسه قبعة لكنه منتصب القامة مرفوع الهامة، وجهه كصفيحة من حديد، على أن يرسل الكاتب العدل عوضاً عنه حسب عرض تبادل الأسرى. في الحال، جيء بالكاتب العدل الواثق من نفسه الكثير الانشغال عادة من زنزانته وهو أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء. لقد تبخرت غطرسته وعنجهيته كلها. بل يقال إن شعره شاب خوفاً، كما كانت سيماه كلها تنطق بالخوف والذعر، لا يرفع رأسه عن الأرض وكأنه ما يزال يشعر برسن حول عنقه. وضع الحاكم العجوز يده على خاصرته وللحظة من الزمن راح يمسح الكاتب من فوق إلى تحت مبتسماً ساخراً ثم قال «من الآن فصاعداً يا صديقي، خفف من حماستك في دفع الآخرين إلى مشانقهم ولا تكن واثقاً كثيراً من سلامتك: حتى ولو كان القانون إلى جانبك. لكن قبل كل شيء، انتبه في المرة الثانية كيف تطبق ما تعلمته في المدارس على جندي قديم».



الحاكم
« مانكو والجندي»

على الرغم من أن الحاكم مانكو أو «وحيد الذراع» كان قد حافظ على المظهر العسكري للحمراء. إلا أن ما بات يضايقه كثيراً إنما هو اللوم الذي كان يلقى عليه باستمرار لأن الحمراء باتت وكراً للأوغاد ورجال العصابات. فجأة قرر الحاكم العجوز القيام بالاصلاح ثم انطلق إلى العمل مزيلاً أوكار أولئك المشردين من القلعة منظفاً، من الغجر، الكهوف والمغاور التي كانت تملأ التلال المجاورة كثقوب قرص الشهد. كذلك أرسل الجند للقيام بدوريات في الطرق والممرات، مزودين بالأوامر التي تقضي بأن يلقوا القبض على كل من يرتابون في أمره.

ذات صباح صيفي مشرق. كانت هناك دورية مؤلفة من العريف العجوز المتمرس الذي ذاع صيته بعد قضية ضابط الجمارك والكاتب العدل، ومن نافخ بوق ونفرين، وكانت الدورية تجلس تحت سور «جنة الريف»، بجانب الطريق الذي

ينزل من جبل الشمس، حين سمع افرادها وقع حوافر وصوت رجل يغني بنغمة فجة، إنما موسيقية، أغنية من أغاني الحملات العسكرية القشتالية.

وعلى الفور ظهر أمامهم شخص صلب البنية لوحته أشعة الشمس يلبس بزة بالية لجندي مشاة، وهو يقود حصاناً عربياً قوياً كسي ظهره وفق الطراز العربي المغربي القديم.

مندهشاً من منظر جندي غريب ينحدر من سفح الجبل المنعزل وهو يقود حصانه بيده، خطا العريف إلى الأمام معترضاً طريقه.

« من هناك ؟ »

« صديق »

« من أنت وماذا تريد ؟ »

«جندي مسكين آتٍ لتوه من الحرب، برأس محطم وجيب فارغ مكافأة له».

في غضون ذلك، كان قد بات بإمكانهم أن يروه عن كثب أكثر، فرأوا في جبهته لطخة سوداء أضفت مع لحيته التي خالط سوادها البياض، نوعاً من ملامح الشيطان على سيمائه، بينما كانت نظرته الشزراء تحمل نوعاً من بريق المزاج الطيب المائل للدعابة والنذالة..

أجاب الجندي على أسئلة الدورية ثم بدا وكأنه يعتبر نفسه مخولاً بالمقابل بالحصول على أجوبة . فقال «هل يمكنني أن أسأل؟ أية مدينة تلك التي أراها، عند أسفل الرابية؟ » «أية مدينة ! !» صرخ نافخ البوق «هلم ! ! الأمر في غاية السوء، ها هنا شخص ينزل من جبل الثلج ويسأل عن اسم المدينة العظيمة غرناطة !» .

«غرناطة ! ! يا لله ! ! أهذا ممكن؟»،

«ربما لا ..» عقب نافخ البوق «وربما ليس لديك فكرة أن تلك الأبراج هناك هي أبراج الحمراء».

«يا صاحب البوق ! !» رد الغريب «بربك لا تسخر مني إن كانت هذه هي الحمراء حقاً. فإن لدي بعض الأمور الغريبة التي ينبغي ان أكشفها للحاكم».

«ستتاح لك الفرصة»، قال العريف «فنحن ننوي أن نأخذك اليه». في هذه اللحظة، كان البواق قد أمسك بلجام الحصان، فيما أمسك كل من النفرين بذراع الجندي، أما العريف فسار في المقدمة معطيا الإيعاز «أمام ـ سر» ثم ساروا إلى الحمراء.

رؤية جندي مشاة ممزق الثياب وحصان عربي جميل وقد اسرتهما الدورية جذبت انتباه المتعطلين المتبطلين جميعاً في القلعة. كما جذبت أنظار جماعات القيل والقال التي تتجمع عادة حول الآبار والينابيع مع أشعة الفجر الأولى.

دولاب الصهريج توقف عن دورانه. كما توقفت الخادمة التي تدوره فاغرة فاها والابريق في يدها حين مر العريف بجائزته بجوارها . ثم شيئاً فشيئاً تشكلت قافلة أشكال ألوان في إثر الدورية.

إيماءات رأس وغمزات ولمزات تشي كلها بأنها عالمة بكل شيء راحت تنتقل من واحد إلى آخر «إنه صحراوي» قال أحدهم «رجل عصابة». قال ثان «قاطع طريق» قال ثالث إلى أن ثبتوا أن الرجل هو قائد عصابة باشسة من قطاع الطرق وضع يده عليها العريف الباسل ودوريته الشجاعة.

«حسناً، حسناً» قالت العجائز الشمطاوات واحدتهن للأخرى «قائد أو غير قائد، دعه يخلص من قبضة الحاكم مانكو إن كان يستطيع، رغم أنه بذراع واحدة» . في ذلك الحين، كان الحاكم مانكو يجلس في إحدى قاعات الحمراء وهو يشرب قدح الشوكولا الصباحي ، بصحبته كاهنه الذي يتلقى اعترافه، وهو من الأخوة الفرنسيسكان في الدير المجاور. كذلك المشرفة على خدمته وهي فتاة من ملقا سوداء العينين بادية الرزانة، ابنة مدبرة بيته التي كان العالم كله يلمح إلى أنها رغم كل تظاهرها بالرزانة ، ما هي إلا الفتاة العبلة الربلة الماكرة التي اكتشفت نقطة الضعف في قلب الحاكم الحديدي العجوز وتسللت عبرها فارضة سيطرتها الكاملة عليه. لكن لندع ذلك جانباً، فالشؤون الداخلية لحكام الأرض الأقوياء اولئك، يجب عدم التدقيق كثيراً فيها.

حين مُرِّرت كلمة تقول إن غريباً مشكوكاً في أمره وجد يتسلل قرب القلعة، وهو موجود بالفعل ، في الساحة الخارجية في قبضة العريف بانتظار أوامر سيادته، انتفخ صدر الحاكم كبراً وزهواً. في الحال أعاد كأس الشوكولا إلى يدي الفتاة بادية الرزانة، طالباً سيفه ذا المقبض الأشبه بالسلة متحزماً به مدلياً إياه إلى

جانبه، فاتلاً شاربيه عالياً ثم جلس على كرسي واسع عالي الظهر متخذا هيئة الصرامة والشدة، آمراً باحضار السجين اليه. جيء بالسجين للتو وهو ما يزال محشوراً بين النفرين الآسرين، يتقدمهم العريف في الأمام، مع ذلك، كان لا يزال يحتفظ بهيئة الرجل العتيد الواثق من نفسه، رادا نظرة الحاكم الحادة المتفحصة بنظرة شزراء متهاونة لم تسر البتة الحاكم العجوز الحريص على الشكليات كل الحرص «حسناً 'أيها المرتكب» قال الحاكم بعد أن نظر إليه لحظة من الزمن صامتاً دون كلام .«ماذا تقول دفاعاً عن نفسك؟ من أنت؟».

«جندي آتٍ لتوه من ساحات حرب وقتال لم ينل منها سوى الندوب والجروح».

«جندي ـ أف ـ جندي مشاة كما تبدو من بزتك، كما أرى أن لديك حصاناً عربياً جميلاً. أظن انك جئت به أيضاً من ساحات الحر ب والقتال إضافة إلى ندوبك وجروحك». «أسعد ا لله سيادتك. لدي شيء غريب أحكيه لك عن ذلك الحصان. والحقيقة، لدي أكثر ما في الدنيا إثارة لأرويه لك. إنه شيء يخص أمن هذه القلعة وسلامتها، أو بالأحرى أمن غرناطة كلها وسلامتها لكنني لا أستطيع ان أتحدث إلا لك وحدك أو بحضور من تثق بهم فقط». أطرق الحاكم متفكراً لحظة من الزمن، ثم أصدر توجيهاته للعريف ورجاله بالانسحاب، إنما فقط إلى خارج الباب على أن يكونوا على أهبة الاستعداد لتلبية النداء إذا ما ناداهم «هذا الأخ الرهباني المقدس» قال الحاكم «هو موضع سري ومن يتلقى اعترافي بإمكانك أن تقول أي شيء في حضرته ـ وهذه الفتاة» قال وهو يومىء براسه باتجاه الوصيفة التي تريثت في مكانها بهيئة الفضول الشديد «هي بالغة الحصافة والمؤتمنة على أسراري يمكنك أيضاً أن تحدثني أمامها عن أي شيء». رمق الحندي الفتاة بنظرة هي بين الشزراء والخبيثة ثم قال «اني لأرغب كل الرغبة في أن تبقى هذه الفتاة». حين انسحب البقية، بدأ الجندي قصته بلسان ذرب طليق. ولغة مطواعة أكثر مما يتصف به ابناء طبقته عادة.

«عسى ا لله ان يسعدك يا سيدي الحاكم. إنني ، كما ذكرت من قبل' جندي سبق له وخاض تجارب مريرة قاسية،لكن قبل أيام سرحت من الخدمة لانتهاء فترة تجنيدي وقد كنت أخدم في فالادوليد. انطلقت سيرا على الأقدام الى قريتي ومسقط رأسي في الأندلس، مساء البارحة، غابت الشمس وأنا اعبر السهل الكبير الجاف، سهل قشتالة القديمة.

«توقف»، صاح الحاكم «ما هذا الذي تقوله؟ قشتالة القديمة على بعد مائتين أو ثلاثمائة ميل من هنا».

«وهو كذلك» أجاب الجندي ببرود «لقد قلت لسيادتك إن لدي أغرب قصة تروى، لكنها ليست اغرب من أن تكون صحيحة كما ستكتشف سيادتك إذا ما أعطيتني أذناً صاغية وبعضاً من صبرك».

«هيا.. تابع.. أيها المرتكب » قال الحاكم وهو يبرم شاربيه عالياً فتابع الجندي« حين غربت الشمس نظرت هنا وهناك بحثاً عن مكان أقضي فيه ليلتي. لكن ضمن مدى بصري لم يكن ثمة أثر لإنسان أو سكان، فادركت ان علي أن أفترش أرض السهل الجرداء، وأجعل من كيسي العسكري مخدة لي. إنك جندي قديم يا سيدي خاض ساحات الوغى وإنك لتعلم ان قضاء ليلة كهذه في العراء ليس بالأمر العسير ».

أومأ الحاكم برأسه علامة الإيجاب، فيما اخرج منديله الجيبي من المقبض الأشبه بالسلة ليبعد ذبابة راحت تطير وتئز حول أنفه.

«حسناً ، كي أختصر القصة يا سيدي» استأنف الجندي «تابعت السير منهك القوى أميالاً عدة أخرى إلى ان وصلت إلى جسر فوق واد ضيق عميق يجري فيه نهير صغير، يكاد يجففه حر الصيف. عند نهاية الجسر كان ثمة برج عربي، قسمه العلوي كله غدا حطاماً لكن القبو في قاعدته السفلى ما يزال سليماً تماماً. حينذاك فكرت. ها هنا مكان جيد آوي إليه وهكذا ، نزلت إلى الجدول، شربت حتى الارتواء ، إذ كان الماء عذباً رقراقاً وكنت ظامئاً حتى درجة التلف. بعدئذ فتحت جعبتي، اخرجت بصلة وكسرة من الخبز اليابس هي كل زادي. جلست على حجر قرب حافة الجدول ثم بدأت عشائي ، وفي نيتي أن أمضي الليل في قبو البرج، وإنه لمأوى عظيم بالنسبة إلى جندي عائد لتوه من الحرب كما يمكن، وأنت الجندي القديم، أن تفترض ياسيدي».

« لقد عرفت في حياتي ما هو أسوأ من ذلك بكثير» قال الحاكم وهو يعيد منديله الجيبي إلى مقبض سيفه، فتابع الجندي بهدوء رحت أمضغ كسرتي فيصدر عنها صوت ساحق. حينذاك سمعت شيئاً يتحرك داخل القبو، أصخت السمع ـ إنه وقع حوافر. بعدئذ ظهر رجل من باب البرج القريب من حافة الماء وهو يقود حصاناً قوياً من لجامه، لم يكن باستطاعتي ان أتبين هيئته تماماً على

ضوء النجوم . لكن ربما كانت له هيئة مريبة لرجل يختبيء بين آثار البرج في ذلك المكان المنعزل الموحش. ربما كان مجرد عابر سبيل، مثلي، وربما كان مهرباً، بل ربما كان قاطع طريق ! من يعلم؟ لكن ، شكراً للسماء ولفقري فلم يكن لدي ما أخشى عليه، لذلك ظللت جالسا دون حراك أقضم كسرات خبزي بهدوء.

«جاء الرجل بحصانه إلى الماء قرب المكان الذي كنت أجلس فيه فأتيحت لي فرصة افضل لاستكشاف هيئته. ولشدة دهشتي رأيته يرتدي حلة عربية، عليها درع من فولاذ وعلى رأسه خوذة لامعة ينعكس عليها ضوء النجوم. كذلك، كان حصانه مسرجاً وفق الطريقة العربية، ركاباه كبيران كالرفوش. قاده الرجل، كما قلت، إلى الجدول، حيث غطس الحيوان خطمه في الماء حتى العينين ثم راح يشرب إلى أن ظننت أن بطنه سينفجر.

«يا رفيق» بادرته مخاطباً «حصانك يشر ب جيداً، وإنها لعلامة حسنة أن يغطس الحصان خطمه هكذا في الماء».

«أجل هو يشرب جيداً» قال الغريب متحدثاً بنبرة عربية «لقد مرت عليه سنة كاملة مذ شرب آخر مرة».

«يا للقديسين جميعاً ! !» اجبته «ذلك يقضي حتى على الجمال التي رأيتها في إفريقيا. لكن هلم، إنك لتبدو لي أشبه بجندي فهلا جلست وشاركت جندياً زاده». والحقيقة، كنت أشعر بالحاجة لرفيق في ذلك المكان الموحش كما كنت أرغب في الأخذ والعطاء مع رجل من غير ديني. إضافة إلى ذلك، وكما تعرف سيادتك، فإن الجندي لا يقيم كبير وزن لدين رفيقه، فالجنود في كل الأقطار هم رفاق على أرض السلم ». ومن جديد هز الحاكم رأسه بالإيجاب.

«حسناً، كما سبق وقلت، دعوت الرجل لمشاركتي عشائي ، على عجره بره، إذ لم يكن باستطاعتي أن أفعل ما هو دون ذلك كرماً وحسن ضيافة، قال «ليس لدي وقت أهدره في طعام أو شراب، فأمامي طريق طويل أقطعه أن يطلع الصباح».

«في أي اتجاه ؟ » سألته، فأجاب:

الأندلس »

« ذلك طريقي أيضاً» قلت له: « لذلك ، وبما أنك لن تتوقف وتشاركني الطعام، ربما ستسمح لي أن أمتطي الحصان وراءك وأرحل معك ـ إنني ارى حصانك قوي البنية، وأعتقدأنه قادر على حمل اثنين».

«موافق»، قال الجندي ولعله لم يكن حرياً به كجندي ومهذب أيضاً أن يرفض، خاصة وقد عرضت عليه أن يشاركني طعامي. وهكذا امتطى الحصان ، فامتطيته خلفه: «أمسك جيداً»، قال الرجل « فحصاني يجري بسرعة الريح ».

«لا تخف علي» قلت ثم انطلقنا في الحال.

من المشي اندفع الحصان إلى الخبب ومن الخبب إلى الجري ثم من الجري إلى العدو المجنون فقد بدا وكأن الصخور، الأشجار ، البيوت كل شيء يطير بسرعة مجنونة خلفنا.

«أية بلدة هذه؟» سألته فأجابني:

«سيغوفيا» لكن ما ان خرجت الكلمة من فمه حتى كانت أبراجها قد غابت عن ناظري. بعدئذ عبرنا جبال وادي الرام ثم نزلنا إلى الإسكوريال، حاذينا أسوار مدريد ثم اجتزنا سهول لامانشا.

بهذه الطريقة كنا نصعد تلة وننزل وهدة، نمرُّ بالأبراج والمدن وكلها غارقة في سبات عميق ثم نعبر الجبال والسهول والأنهار وهي تلمع تماماً تحت ضوء النجوم.

«ولكي أختصر القصة ولا أرهق سيادتك، فجأة وجدت الجندي يتوقف بجانب جبل قائلاً: ها قد وصلنا الى نهاية رحلتنا ». تطلعت حولي لكنني لم أر أثراً لعمران، لا شيء سوى فوهة مغارة لكن حين كنت أتطلع رأيت حشوداً من الناس بثياب عربية مغربية، بعضهم على ظهور الخيل والبعض الآخر على الأقدام، يصلون وكأنما الريح تحملهم من جهات الأرض الأربع ليدخلوا مسرعين في فوهة المغارة كما يدخل النحل في الخلية. وقبل أن أتمكن من توجيه سؤال واحد، نخس الجندي مهمازيه في خاصرتي حصانه فاندفع إلى خضم الحشد ليسير على طول طريق منحدر ملتف يغوص إلى أعماق الجبل ذاتها. مع اندفاعنا قدماً ، بدأ ضوء يلمع في الأمام ، ثم راح ينتشر شيئاً فشيئاً كضياء الفجر ، لكن ما مبعث ذلك الضوء أمر لم أستطع رؤيته أو تحديده. فقد غدا يشتد ويشتد حتى

صار باستطاعتي ان أرى كل شيء حولي وللتو لاحظت، ونحن نسير على طول الطريق، مغارات عظيمة تنفتح على اليمين والشمال أشبه بقاعات في دار صناعة. في بعضها تروس، خوذات، دروع، رماح، سيوف وكلها معلقة على الجدران. في بعضها الآخر أكداس من ذخائر حربية ومعدات خيام تتكوم على الأرض.

ولكم يريح قلب سيادتك، وأنت الجندي القديم، أن ترى معدات حرب هائلة كهذه ! ! في مغاور أخرى، كان ثمة صفوف طويلة من الفرسان شاكي السلاح، رماحهم مسددة وراياتهم مرفوعة والكل جاهز للقتال. لكن الفرسان جميعا كانوا يجلسون في أسرجتهم دون حراك لكأنهم التماثيل. في قاعات أخرى كان ثمة محاربون ينامون على الأرض بجانب خيولهم ومشاة على شكل زمر مستعدة لاتخاذ نسق القتال، وكلهم في الثياب والعدة العربية المغربية القديمة الطراز».

«حسناً، لكي أختصر القصة يا سيدي، دخلنا أخيراً إلى مغارة ضخمة، او يمكنني القول، إلى قصر منحوت باليد، جدرانه كأنها مغطاة برقائق الذهب والفضة ، مطعمة بالماس والزمرد وأصناف الأحجار الكريمة كلها.

في طرفه البعيد ، كان يجلس ملك عربي على عرش من ذهب وقد اصطف امراؤه على جانبيه كما وقف حرس من عبيد افريقيا السود مشرعين سيوفهم.

الحشد كله، ذاك الذي استمر بالتدفق، ألوفاً ألوفا، كان يعبر واحداً واحداً بالعرش، مقدمين له فروض الولاء والطاعة. بعض أفراد الحشد كانوا يرتدون أفخر الملابس المتلألئة بالجواهر والماس ولا لطخة فيها أو عيب ، بعضهم الآخر كانوا بعدة الحرب والقتال، فيما كان آخرون يلبسون حللاً معفرة بالتراب متعفنة ويحملون أسلحةمهشمة مثلمة يعلوها الصدأ.

حتى تلك اللحظة، كنت يا سيدي قد لذت بالصمت لا أنبس ببنت شفة، فأنت تعلم أنه لا يليق بجندي أن يطرح الكثير من الأسئلة عندمايكون في مهمة، لكنني لم أعد أستطيع الصمت.

«أرجوك يا رفيق ، ما معنى هذا كله؟» قلت، فأجابني الجندي «هذا هو السر العظيم والرهيب، ألا فاعلم أيها المسيحي أنك تشهد بأم عينيك بلاط أبي عبدا لله، آخر ملوك غرناطة، وكذلك جيشه».

«ما الذي تقوله؟ صحت هاتفاً» أبو عبد الله طرد من البلاد قبل مئات السنين وكذلك بلاطه وجيشه وقد قضوا نحبهم جميعاً في أفريقيا».

«هذا ما هو مسجل في تواريخكم الكاذبة» أجاب العربي «ولكن اعلم أن أبا عبد الله والمحاربين الذين خاضوا معركة الكفاح الأخيرة دفاعاً عن غرناطة ما يزالون جميعاً حبيسي هذا الجبل بفعل تعويذة قوية من السحر، أما الجيش والملك اللذان غادرا غرناطة، وقت التسليم فلم يكونا إلا أشباحاً من جن وشياطين سمح لها ان تتخذ تلك الأشكال كي تخدع المسيحيين، بل دعني أخبرك أكثر من ذلك، ايها الصديق، أن اسبانيا كلها بلاد مسحورة تخضع لقوة السحر فليس هناك كهف في جبل ولا برج مراقبة وحيد في سهل ولا حصن دارس على رابية إلا وفيه محاربون مسحورون ينامون بفعل تعويذة سحرية من عصر إلى عصر ضمن أقبيتهم إلى ان تنتهي ذنوبهم تلك التي سمح الله بسببها أن تنتقل الهيمنة على هذه البلاد من أيديهم إلى ايدي الآخرين حقبة من الزمن. في ليلة القديس يو حنا من كل سنة، ولمرة واحدة فقط يفك عنهم السحر، من غروب الشمس إلى شروقها ويسمح لهم بالحضور إلى هناكي يقدموا فروض الولاء والطاعة إلى مليكهم، وما الحشود التي تراها، وهي تتزاحم بالمناكب في هذه المنارة، إلا محاربون مسلحون جاؤوا من أماكنهم المسكونة في أرجاء اسبانيا كلها، أما بالنسبة إلي، فقد رأيت بأم عينك البرج الدارس قرب ذلك الجسر في قشتالة القديمة حيث أقضي الشتاء والصيف منذ مئات كثيرة من السنين وحيث ينبغي ان أعود ثانية مع انبلاج الفجر. فيما يتعلق بكتائب الخيالة والمشاة الذين رأيتهم منتظمين في صفوف في المغاور المجاورة، فما هم إلا محاربو غرناطة وقد جمدوا بفعل السحر. لقد كتب في كتاب القدر أنه حين ينفك السحر، سوف يهبط أبو عبد الله من الجبل على رأس هذا الجيش ليستعيد عرشه في الحمراء وسيطرته على غرناطة، وبحشده معاً المحاربين المسحورين من كافة أنحاء اسبانيا سيعود فيغزو الجزيرة معيداً إياها إلى حكم المسلمين».

« ومتى يحدث هذا؟ » سألته فأجاب:

« الله وحده أعلم: لقد كنا نأمل أن يوم الخلاص أصبح وشيكاً ، لكن في الوقت الراهن ثمة حاكم يقظ يحكم الحمراء، إنه جندي قديم صلب يعرف باسم الحاكم مانكو، وطالما هناك محارب مثله بإمرته هذا الموقع ويقف على أهبة

الاستعداد لصد التدفقات الأولى من الجبل، فإنني أخشى أن يظل أبو عبد الله وجيشه قانعين بالبقاء دون حراك».

هنا، نصب الحاكم قامته أكثر ورفع هامته أكثر، معدلاً وضع سيفه فاتلاً شاربيه.

ولكي أختصر القصة ولا أرهقك يا سيدي، فإن الجندي، بعد أن قدم لي هذا الوصف، ترجل عن ظهر حصانه قائلا: «امكث هنا واحرس حصاني ريثما أذهب فأقدم فروض الولاء والطاعة لسيدي أبي عبد الله». قال ذلك ثم مشى بخطى واسعة الى الامام عبر الزحام الذي كان يضغط باتجاه العرش.

« ماذا علي أن أفعل؟ » فكرت وقد تركني وحدي انتظر هنا إلى أن يعود هذا المسلم فينقلني على ظهر حصانه الجني إلى حيث لا يعلم إلا الله، أو أنتهز فرصتي وأخلص من جماعة الجن تلك؟

وكما تعرف سيادتك سرعان ما يعمل عقل الجندي، خاصة وأن الحصان ملك عدو مشهور من أعداء الدين والدولةولسوف يكون غنيمة حسنة طبقاً لقواعد الحرب. وهكذا، زحفت من مكاني في الخلف إلى متن السرج ثم شددت اللجام مغيراً اتجاه الحصان، وبالركابين العربيين نخست جانبيه موجهاً إياه بحيث يشق طريقه عبر المر الذي دخلنا منه. حينما مررت بجانب القاعات التي كان الفرسان المسلمون يجلسون فيها صفوفاً صفوفاً دون حراك. خيل إلي أنني سمعت صليل سلاح وهمهمة أصوات لم أفهم لها معنى. نخسة شديدة أخرى من ركابي للحصان فضاعف سرعته. حينذاك سمعت صوتاً خلفي كعاصفة مندفعة ثم سمعت قعقعة ألف من الحوافر وحشد لا يعد يندفع قدماً ثم وجدت نفسي أخرج خارج فوهة المغارة، في حين كانت آلاف من تلك الأشكال الأشباح تندفع بقوة في كل اتجاه وكأنما تحملها الرياح إلى الجهات الأربع.

في ذلك الاضطراب الشديد والارتباك، الذي حل بالحشد وجدتني القى على الأرض فاقد الوعي. حين استعدت وعيي وجدت نفسي ممدداً عند حافة رابية والحصان العربي يقف إلى جانبي، ذلك أن ذراعي انزلقت اثناء السقوط، داخل اللجام، الأمر الذي منعه، على ما أظن، من الانطلاق الى قشتالة القديمة. بسهولة يمكن لسيادتك ان تتصور مقدار دهشتي وأنا أتطلع حولي فأرى أسيجة

الصبار والتين الهندي والنباتات الأخرى التي تثبت كلها أنني في الاقليم الجنوبي، ثم أرى تحتي تماماً مدينة كبيرة فيها أبراج وقصور وكاتدرائية عظيمة.

بحذر انحدرت نازلاً الرابية، وأنا أقود حصاني بيدي ، إذ كنت أخشى ان أركبه من جديد ، خشية أن يمارس علي إحدى خدعه وينزلق بي بعيداً، اثناء نزولي التقيت بدوريتكم التي جعلتني أعرف أنها مدينة غرناطة وأنني فعلاً تحت أسوار الحمراء، قلعة الحاكم مانكو الشهير، مصدر رعب المسلمين المسحورين جميعاً.

حين سمعت ذلك ، صممت في الحال أن اسعى لرؤية سيادتك كي أعلمك بكل ما رأيت وأحذرك من الأخطار التي تحيق بك وتهددك عسى أن تتخذ الإجراءات المناسبة لحماية قلعتك، بل المملكة كلها من ذلك الجيش الخفي الذي يكمن في أحشاء الأرض ذاتها:

« من فضلك، أيها الصديق، أنت المحارب الذي خاض الحملات العسكرية وخشي الكثير من ساحات الوغى » قال الحاكم « ماذا تشير علي أن أفعل كي أمنع هذا الشر؟ »..

« لا ،، ليس لنفر متواضع بلا رتبة.. » قال الجندي بكل تواضع «أن يدعي القدرة على ان يعلم قائداً بحكمة سيادرتك وحنكته، لكن يبدو لي أن على سيادتك أن تجعلهم يسدون فوهات الكهوف ومداخل المغاور الموجودة في الجبال بمواد البناء الصلبة، بحيث يحجز أبو عبد الله وجيشه ويختم عليهم تماماً في مقراتهم تحت الأرض». هنا صمت لحظة ثم أضاف وهو ينحني بكل احترام للراهب راسما الصليب بكل ورع على نفسه: « وإذا كان بإمكا ن الأب المحترم الطيب ان يمنح بركاته لتلك الحواجز والسدادات،رافعاً عليها « فإنني أظن أنها ستقاوم سحر الكفار وتعاويذهم كلها». «لا شك أنها ستكون ذات فائدة » قال الراهب. حينذاك وضع الحاكم يده على خصره ويده الأخرى علىمقبض سيفه الطليطلي محدقاً إلى الجندي هازا رأسه هزاً خفيفاً من جانب إلى آخر ثم قال: «هكذا إذن أيها الصديق ؟ أنت تظن أن بالأمكان خداعي بقصة الديك والثور هذه حول جبال مسحورة وعرب مسحورين؟ اسمع أيها المرتكب !! ولا كلمة أخرى. جندياً قديماً ربما تكون، لكنك ستجد أنك أمام جندي أقدم عليك أن تتعامل معه، بل جندي ليس من السهل قهره. هـ .ي.. أنتم أيها الحرس هناك! كبلوا هذا الرجل بالحديد.»

همت الفتاة بادية الرزانة بقول كلمة لصالح السجين، لكن الحاكم منعها بنظرة صارمة.

أحس أحد الحراس، وهو يشد وثاق الجندي بشيء كالكتلة في جيبه، سحبه فوجده كيساً جلدياً طويلاً بدا ممتلئاً تماماً. عندئذ أمسكه من إحدى زواياه ثم قلبه مفرغاً محتوياته على الطاولة أمام الحاكم وللتو انسكب منه ما لم ينسكب من كيس قاطع طريق قط. إذ تدحرجت خواتم، جواهر، أطواق لؤلؤ، آثار أيقونات، قطع نقدية، بعضها سقط وهو يرن على الأرض ثم تدحرج بعيداً إلى الانحاء البعيدة من الحجرة.

حيناً من الزمن، توقفت إجراءات العدالة، فقد بدأ الكل يزحفون وراء الذهب اللامع والقطع الهاربة. الحاكم وحده، المشبع بالكبرياء الاسبانية الحقيقية، لبث في مكانه محافظاً على هيبته، رغم أن عينه كانت تفضحه ببريق القلق الذي كان يلمع منها إلى ان استعيدت آخر جوهرة وقطعة نقدية إلى الكيس. غير أن الراهب لم يكن سادئاً بل وجهه كله أحمر كالفرن وقد لمعت عيناه لمنظر الذهب والماس ثم هتف:

«وغد زنيم أنت!! من أية كنيسة أو دير نهبت هذه الآثار المقدسة!!»

«لا من هذا ولا من تلك، أيها الأب المقدس، وإذا كانت منهوبات مقدسة فلا بد انها أخذت قبل زمن طويل من قبل ذلك الجندي المسلم الذي ذكرته، فقد كنت على وشك أن أخبر سيادته، حين قاطعني، أنني حين وضعت يدي على حصان ذلك الجندي، وجدت كيساً جلدياً معلقاً على قوس السرج فأخذته من مكانه وأعتقد أنه يحتوي الغنائم التي غنمها في حملاته العسكرية في الماضي حين فتح العرب هذه البلاد: «رائع تماما!! لكن في الوقت الراهن رتب نفسك على أن مقرك سيكون حجرة من حجرات .. ذاك البرج القرمزي الذي سيبقيك رغم أنه لا يخضع لأية قوة سحرية، في أمان تام مثله مثل أي كهف من كهوف عربك المسحورين».

«بإمكان سيادتك أن تفعل ما تراه مناسباً» قال السجين «ولسوف أكون شاكراً لسيادتك إيوائي بشكل من الأشكال في هذه القلعة، فالجندي العائد لتوه من ساحات الحرب، كما تعرف سيادتك، ، لا يأبه كثيراً لمكان نومه: شريطة أن

تكون لي زنزانة مرتبة وتعيين نظامي من الطعام، ولسوف أكون في كامل راحتي. رجائي الوحيد فقط هو أن تولي عنايتك الشديدة لقلعتك بقدر ما توليها لي الآن وأن تفكر بالإشارة التي نقلتها لك بسد المغاور والكهوف في الجبال».

هنا انتهى المشهد، فقد نقل السجين إلى زنزانة حصينة في البرج القرمزي فيما سيق الحصان العربي إلى الاسطبل وأودع كيس الجندي في صندوق سيادته الحديدي. صحيح أنه فيما يتعلق بهذا الأخير، وجه الراهب بعض الإشارات والتلميحات ، سائلاً فيما إذا كان لا ينبغي اعادة المنهوبات المقدسة مباشرة إلى حمى الكنيسة لكن بما أن الحاكم كان مهتماً كثيرا بالأمر وكان حاكماً مطلقاً على الحمراء فإن الراهب تخلى بكل حنكة ودهاء عن النقاش لكنه صمم على نقل الخبر برمته إلى رجالات الكنيسة في غرناطة.

ولكي نشرح هذه الاجراءات العاجلة والقاسية على الحاكم العجوز مانكو، من المناسب أن نلحظ أنه في ذلك الحين، كانت جبال البوكسارا القريبة من غرناطة تعج باللصوص، وكانت إحدى عصاباتهم وهي بإمرة زعيم مقدام يدعى مانويل بوراسكو قد استطاعت أن تبث الرعب في القلوب. إذ كانت تلك العصابة تجوب البلاد، بل تدخل المدينة أحياناً متنكرة بأزياء مختلفة لالتقاط خبر عن رحيل قافلة تجار او مسافرين ، أكياسهم ممتلئة جيدا فيحرصون على أن يكمنوا لهم في الأماكن البعيدة المنعزلة من طريقهم. تلك الأعمال الجريئة المتكررة لفتت انتباه الحكومة وأمار مختلف المراكز الذين تلقوا تعليمات بأن يأخذوا حذرهم وأن يلقوا القبض على كل من يرتابون فيه.

ولقد كان الحاكم مانكو متحمساً على نحو خاص عقب وصمات العار العديدة التي لحقت به وبقلعته، لذلك لم يشك قط في أنه أوقع في الشرك أحد افراد تلك العصابة الأساسيين.

في أثناء ذلك، بدأت القصة تنتشر وأصبحت حديث الناس ليس في القلعة وحسب بل في مدينة غرناطة كلها، فقد قيل أن اللص الشهير مانويل بوراسكو، مروّع جبال البوكسارا نفسه سقط في قبضة الحاكم العجوز مانكو، لهذا تجمع كل من سبق وتعرضوا للسرقة على يده، علهم يتعرفون إلى المجرم، وكما هو معروف، تنتصب الأبراج القرمزية بعيداً عن الحمراء ، على رابية توأم يفصلها عن رابية القلعة الرئيسية الوادي الذي يمر فيه الشارع الرئيسي. وحولها لا توجد

أسوار خارجية، بل ثمة حارس يذهب ويجيء أمامها، أما الحجرة التي حبس فيها الجندي فقد كان فيها نافذة عليها شبك من قضبان حديدية، تطل على فسحة صغيرة. إلى هنا بدأ أناس غرناطة الطيبون يجيئون كي يتفرجوا عليه كما يمكن أن يتفرجوا على ضبع مضحكة وهي تكشر مزمجرة داخل القفص، مع ذلك لا أحد منهم عرف فيه ما نويل بوراسكو، فذلك اللص المخيف كان مشهوراً بهيئته الشرسة وملامحه المرعبة ولم يكن له قط ملامح الطيبة التي بدا عليها ذلك السجين، والحقيقة أن الزوار لم يأتوا من المدينة وحسب بل من انحاء البلاد كلها، لكن ما من أحد عرفه. حينذاك بدأت بعض الشكوك تتسرب إلى أذهان العامة فيما إذا لم يكن هناك شيء من الحقيقة في قصته: أبو عبد الله وجيشه حبيسا الجبل: إنها قصة قديمة تناقلتها الأجيال وسمعها الكثير من الناس أباً عن جد لهذا راحت أعداد غفيرة من الناس تتجه إلى جبل الشمس، أو بالأحرى جبل القديسة ايلينا بحثاً عن الكهف الذي ذكره الجندي. رأوه وبصبصوا بأعينهم في ذلك التجويف العميق المظلم الذي يغوص في أعماق الجبل إلى حيث لا يعلم أحد والذي ما يزال باقياً حتى يومنا هذا ـــ إنه المدخل الخرافي للكهف تحت الأرضي لأبي عبد الله.

شيئاً فشيئاً أصبح الجندي محبوباً من عامة الناس، فقاطع الطريق ليس بالشخصية المحتقرة في اسبانيا مثلما هي حال اللص في أي بلد آخر، بل على العكس، ينظر أبناء الطبقات الدنيا إليه على أنه نوع من الفرسان، كذلك ثمة نزوع دائماً للتسامح تجاه من يأمر وينهى، لهذا بدأ الكثيرون يتناولون بالهمهمة إجراءات الحاكم العجوز مانكو القاسية، بل بدؤوا ينظرون إلى السجين نظرتهم إلى ضحية شهيد. إضافة إلى ذلك، فقد كان الجندي شخصاً مرحاً مزوحاً يجد لكل من يقترب من نافذته الدعابة المناسبة ولكل انثى الحديث المناسب. كذلك، حصل على غيتار قديم فراح يجلس بجوار نافذته، يعزف على غيتاره ويغني الأناشيد وأغاني الحب فيمتع نساء الجوار، اللواتي رحن يتجمعن في الساحة الصغيرة في المساء ويرقصن رقصة « البوليروز » على أنغام غيتاره . كذلك فقد لاقى وجهه الذي لوحته الشمس بعد أن شذب ذقنه الخشنة استحساناً في أعين الجنس اللطيف ، بل إن وصيفة الحاكم البادية الرزانة أثبتت ان نظراته الشزراء لا تقاوم ابداً والحقيقة ان تلك الفتاة الطيبة القلب كانت منذ البداية قد أبدت تعاطفاً شديداً معه ، بل حاولت عبثاً تليين الحاكم تجاهه والعمل خفية للتخفيف من

حدة شكوكه كما كانت تأتي له كل يوم ببعض فتات من الخبز المتبقي على مائدة الحاكم أو أي شيء من اللحم المحفوظ اضافة إلى زجاجة من خمر «فال دي بنياس» أو «ملقا» الفاخر من حين إلى حين.

على ذلك النحو نشبت الخلافات واحتدمت فأرغى الحاكم وأزبد مقسماً أغلظ الأيمان أنه يفضل ان يشنق السجين داخل الحمراء، كجاسوس القي القبض عليه وهو يتجسس في حرم الحمراء، من أن يسلمه لأحد.أما القائد العام فقد راح يهدد بإرسال قوة عسكرية لنقل السجين من البرج القرمزي إلى المدينة، في حين بدا المفتش الاعلى مصمماً على إرسال عدد من عناصر المكتب المقدس، وقد جاء في وقت متأخر من الليل من يحمل تلك التهديدات إلى الحاكم فقال «ليأتوا، إذن سيجدونني في مواجهتهم، ولا بد من أن يلقى حتفه كل من يدخل في عراك مع جندي قديم». طبقاً لذلك، فقد أصدر أوامره بنقل السجين، عند الفجر، إلى البرج المحصن داخل أسوار الحمراء، ثم قال لوصيفته الرزينة، « أتسمعين يا طفلتي ؟ إقرعي بابي وأيقظيني قبل صياح الديك كي أشرف على التنفيذ بنفسي » . صاح الديك وبزغ الفجر لكن لا أحد قرع باب الحاكم، بعدئذ ارتفعت الشمس فوق ذرى الجبال، مرسلة أشعتها المتلألئة عبر شباك الحاكم، قبل أن يقطع عليه أحلامه الصباحية العريف المتمرس الخبير الذي وقف منتصباً أمامه والرعب يطبع محياه الحديدي، « لقد هب!! لقد فر !! » راح العريف يصرخ شاهقاً من أجل نفس، وقد أيقظ سيده الحاكم.«من الذي ذهب؟ من الذي فر ؟ » . « الجندي » اللص، الشيطان، أيهم ؟ لا أدري ؟ زنزانته فارغة رغم أن الباب مقفل ولا أحد يعلم كيف فر منها».«من رآه آخر مرة؟»«وصيفتك لقد أخذت له عشاءه».«ادعها لي حالاً؟» هنا حدثت مسألة مربكة أيضاً، فحجرة الوصيفة الرزينة كانت خاوية وفراشها لم يمس، اذن لا شك أنها فرت مع المجرم، خاصة وقد تبين أنها بدأت منذ بضعة أيام تكثر من التردد عليه والتحدث معه.أحس الحاكم العجوز بجرح في الصميم، مع ذلك لم يكن لديه وقت كي يوليه اهتمامه فقد بدأت مصائب أخرى تتكشف أمام عينيه. إذ ما إن ذهب إلى حجرته الخاصة حتى وجد صندوقه المنيع مفتوحاً والكيس الجلدي مفقوداً إضافة إلى كيسين آخرين مليئين بالعملة الاسبانية القديمة.لكن كيف وأي طريق سلكه الفاران ؟ فلاح عجوز يسكن في كوخ بجانب الطريق المؤدي إلى «السيرا»، صرح أنه سمع وقع حوافر مع طلوع الفجر تماماً، نظر عبر شباكه فرأى حصاناً قوي البنية يعدو باتجاه الجبال، على ظهره خيال

وأمامه امرأة.« فتشوا الاسطبلات » صاح الحاكم مانكو.فتشت الاسطبلات في الحال وكانت الخيول كلها في مواضعها ماعدا الحصان العربي، فقد انتصبت فوق المعلف بدلاً منه هراوة غليظة عليها لوحة تحمل هذه الكلمات: «هدية إلى الحاكم مانكو: من جندي قديم».

عيد
في الحمراء

أثناء إقامته في الحمراء ، حلت مناسبة هامة هي عيد القديس شفيع الكونت جاري ومنافسي القوي، وكانت مناسبة كي يقيم احتفالاً محلياً: إذ جمع حوله أفراد الأسرة، وحاشية بيته، في حين جاء الأتباع والخدم القدامى من ممتلكاته البعيدة لتقديم فروض الاحترام وللمشاركة في الأفراح التي ستقام. بالتأكيد، إنه نموذج، رغم أنه باهت ولا شك ، للنبلاء الاسبان في العهود القديمة.

فالاسبان يحبون دائماً الفخامة والعظمة في أفكارهم المتعلقة بالاسلوب: قصور ضخمة ، حاشية كبيرة العدد من المرافقين والخدم ذوي البزات الموحدة، بطانة ووصفاء كثر وأتباع من كل الأصناف لا فائدة منهم، ذلك أن كرامة النبيل وشرفه يرتبطان على ما يبدو بعدد الأتباع والحواشي الذين يتسكعون في قاعاته ويطعمون على حسابه ويبدون جاهزين لالتهامه حياً. هذا، ولا شك، يعود بالأصل إلى الضرورة التي كانت تقضي بالاحتفاظ بجموع كبيرة من الرجال المسلحين خلال

الحروب مع العرب، حروب الغارات والغزوات، حين كان من المحتمل ان يشن جيش معادٍ غارة على النبيل وهو في حصنه، أو يدعوه ملكه فجأة إلى ساحة القتال.

بعد أن انتهت تلك الحروب ظلت العادة كما هي، وما نشأ عن الضرورة ظل بحكم التفاخر والمباهاة ، فالثروات التي تدفقت على البلاد من الفتوحات والاكتشافات غذت ذلك التعلق بالمؤسسات الفخمة، وطبقاً للأعراف الاسبانية القديمة الرائعة التي يتساوى فيها الكبرياء والكرم ويتناظران، فإن الخادم الذي يكبر سنه ويتقاعد لم يكن ليطرد بل يصبح من مسؤولية العائلة بقية حياته. ليس هذا وحسب بل إن أولاده وأولاد أولاده ، وربما أقرباؤهم من اليمين والشمال يصبحون تدريجياً عالة على العائلة. لهذا السبب، فإن قصور نبلاء الاسبان الضخمة التي تتصف بسمات الفخفخة الجوفاء لكبر حجمها مقارنة بتواضع أثاثها وضآلته، كانت مطلوبة تماماً في أيامٍ اسبانيا الذهبية نظراً لعادات مالكيها الأبوية البطريركية . لقد كانت أفضل قليلاً من مهاجع واسعة تؤوي أجيالاً من الأتباع الذين يعيشون على حساب النبيل الاسباني. هذه العادات البطريركية لطبقة النبلاء الاسبانية انهارت بانهيار مواردها الاقتصادية، رغم أن الروح التي كانت تقف وراءها ما تزال باقية لكنها تصارع يائسة حظوظها التي تبدلت، فأفقر النبلاء ما يزال حولهم أتباع ومتعلقون بالوراثة يعيشون على حسابهم ويفقرونهم أكثر فأكثرا بعضهم، كجاري الكونت مثلاً، ما يزال يحتفظ بشيء من ممتلكاته الأميرية القديمة، كما يحافظ على شيء من النظام القديم فيما تزدحم ضياعه بالسكان وتستهلك إنتاجها أجيال من المتبطلين العاطلين عن العمل.

لقد كان للكونت أرض في مختلف أنحاء المملكة، بعضها يتضمن قرى بكاملها. مع ذلك فإن الموارد التي تأتي منها ضئيلة نسبياً، بل إن بعضها، كما أكد هو نفسه لي، لم يكن يكفي إلا بالكاد لإطعام جموع الأتباع التي تعيش فيها والتي تعتبر نفسها، على مايبدو، مخوّلة بالعيش دون أن تدفع أجراً وأن يتم الحفاظ عليها ضمن الصفقة فأسلافها كانت تعيش على ذلك النحو منذ الأزمان الغابرة.

لقد أتاح لي عيد قديس الكونت العجوز هذا ان ألقي نظرة على الداخل الاسباني . كانت الاستعدادات قبل يومين أو ثلاثة تتخذ من أجل الاحتفال. الخمور من كافة الاصناف يؤتى بها من البلدة مدغدغة حواس الشم لدى الحراس

العجز المسنين وهي تمر بهم عبر بوابة العدالة. الخدم يسرعون هنا وهناك في القاعات، مطبخ القصر القديم عادت إليه الحياة مرة ثانية وقد وطئته أقدام الطهاة وغاسلي الأطباق وتوهجت مواقده بالنيران هي التي لم تتوهج منذ زمن طويل.

حين حل يوم العيد، رأيت الكونت العجوز بهيئته البطريركية وأفراد اسرته وأهل بيته جميعاً يتحلقون حوله، كذلك كان هناك الموظفون العاملون في أراضيه البعيدة الذين يستغلونه ويستهلكون كل ما تدر عليه تلك الأراضي من واردات . بينما كان هنالك أعداد كبيرة من الخدم الطاعنين في السن والمتقاعدين يتسكعون هنا وهناك في الساحات ويتلبثون ضمن الدائرة التي تنتشر فيها رائحة الطبخ.

لقد كان يوماً بهيجاً في الحمراء، وقد توزع الضيوف في القصر قبل موعد العشاء يتمتعون بمظاهر البذخ والترف في قاعاته ونوافيره وحدائقه الغناء فيما راح يتردد صوت الموسيقى وقهقهات الضحك في رحابه كلها تلك التي كانت حتى فترة قريبة ساكنة سكون القبور.

في القاعة العربية الجميلة التي تدعى «قاعة القهرمانة» أقيمت المأدبة، وكل عشاء تحضره مجموعة من الناس يدعى في اسبانيا مأدبة. على الطاولة صف كل ما ينتجه الموسم من ثمار وخضار: سلسلة لانهاية لها تقريبا من الأطباق تبين كيف تجسد المأدبة التي أقيمت في عرس كاماشو في رواية دون كيشوت الولائم الاسبانية الحقيقية. جو بهيج من القصف والمرح كان يسود المكان، إذ رغم أن الاسبان يتسمون بصورة عامة بالاعتدال إلا أنهم يقصفون ويمرحون تماما في مناسبات كهذه، خصوصاً منهم أهل الأندلس. من جهتي، كان ثمة شيء مثير على نحو خاص في حضور مأدبة كهذه في قاعة من قاعات الحمراء الملكية يقيمها رجل ربما يعود بنسب القربى البعيدة الى ملوكها العرب وهو في الوقت نفسه سليل غونسالفو القرطبي، أحد أهم الفاتحين المسيحيين. حين انتهت الوليمة، اتجه الحضور جميعاً إلى قاعة السفراء . تلك الأداة هنا، سعى الجميع للإسهام في التسلية العامة، غناء، ارتجال شعر، رواية حكايات عجيبة أو أداء رقصات شعبية على انغام تلك الأداة الاسبانية الساحرة: الغيتار.

وكالعادة ، كانت ابنة الكونت الصغيرة الموهوبة مصدر الحيوية والبهجة لذلك التجمع كله، ولقد دهشت أكثر من ذي قبل لما تكشفت عنه من قدرات عجيبة متنوعة إذ شاركت في مشهدين أو ثلاثة من الكوميديا الرائعة التي قدمتها

بعض صواحبها مؤدية إياها بقدر كبيرٍ من الكمال والروعة. كما قامت بتقليد عدد من المغنين الايطاليين المشهورين تقليداً بعضه جدي وبعضه الآخر هزلي وكل ذلك بصوت نادر النوعية. كما تأكد لي، وعلى نحو لا يقبل الجدل، أنها قادرة على محاكاة اللهجات، الرقصات، الأناشيد ، حركات الغجر، وتصرفاتهم وكذلك فلاحي الفيغا بقدر عال من الفرح والسعادة، وبكثير من الروعة والسحر وبحركات أشبه بحركاتً السيدات. غير ان فتنة الفتون في كل شيء كانت تعمله، إنما هي عفويتها وتلقائيتها وبعدها عن كل تكلف أو ادعاء، فكل شيء من وحي اللحظة ذاتها أو تلبية مباشرة لطلب بل بدت وكأنها تجهل ما لديها من مواهب نادرة واسعة النطاق، كما كانت أشبه بطفل في فرح منزلي بكل ما أبدته من طيبة وبساطة وبراءة. والحقيقة ان أحدهم قال لي إنه لم يسبق لها أن جربت مواهبها أمام الناس بل في الحلقات المنزلية فقط كما هو شأنها في تلك المناسبة.

مقدرتها على ملاحظة كل شخص وفهم كل شخصية كانت بارزة ولا شك، ملحوظة تماماً. إذ كان حسبها أن تنظر نظرات عرضية وعابرة إلى مشهد أو تصرف أو سلوك حتى تعود فتحاكيه بقدر كبير من الصحة والحيوية. «بالحقيقة ذلك مصدر عجب دائم لنا» قالت الكونتيسة «ترى من أين ا لتقطت الطفلة (لانينا) تلك الأشياء وقد أمضت حياتها كلها تقريباً في البيت بين أحضان أسرتها».

اقترب المساء وبدأ الغسق بالقاء ظلاله على التلال، والخفافيش بالانسلال من مكانها والطيران هنا وهناك. في تلك اللحظة خطرت فكرة في ذهن الفتاة وبعض أصحابها الشبان هي أن ينطلقوا، دليلتهم دلوريس لاستكشاف نواحي القصر الأقل ارتياداً بحثاً عن الألغاز والأسرار السحرية.

في الحال بدؤوا التنفيذ. ذهبوا إلى الجامع القديم المعتم، اختلسوا إليه نظرات سريعة خائفة ثم سرعان ما ارتدوا حين قال أحدهم إن ملكاً عربياً قتل هناك. بعدئذ غامروا بدخول المناطق الغامضة من الحمام مخيفين بعضهم بعضاً بأصوات أقنية الماء المخيفة وسقسقاتها، طائرة قلوبهم فرقاً ودعابة وكأنما جاءهم إنذار من أشباح العرب. بعد ذاك غامروا فمضوا إلى بوابة الحديد، ذلك المكان المشؤوم في الحمراء. إنها بوابة خلفية، تنفتح على واد معتم، يفضي إليها طريق ضيق مسقوف كان عادة مصدر رعب لدلوريس ورفيقات طفولتها، وقد سمعن أن يداً بغير جسد كانت تمتد أحياناً من الجدار لتمسك بالعابرين.

غامرت الزمرة الصغيرة من صيادي الألغاز والأسرار السحرية بالذهاب حتى مدخل ذلك الطريق المسقوف، لكن ما من شيء كان يغريهم بالمضي أبعد من ذلك في تلك الساعة من المساء، هم الخائفون من قبضة ذلك الشبح ـ الذراع. أخيراً عادوا جرياً إلى قاعة السفراء وهم بين الرعب والدعابة إذ رأوا فعلاً شبحين غارقين بالبياض. صحيح أنهم لم يتوقفوا كي يتفحصوهما، إلا أنه كان من المستحيل أن يخطئوا فالشبحان كانا يسطعان على نحو جلي في الغبشة المحيطة. حينذاك وصلت دلوريس وشرحت اللغز مثبتة أن الشبحين هما تمثالان لحوريتين من الرخام الأبيض أقيما عند مدخل الممر ذي القناطر. على هذا ثنى رجل عجوز رزين إنما ، كما ظننت، ماكر نوعاً ما كان حاضراً وأظنه محامي الكونت أو مستشاره القانوني مؤكداً أن لذينك التمثالين صلة بواحد من اعظم ألغاز الحمراء وإن هناك تاريخاً مثيراً لهما، بل اكثر من ذلك أنهما كانا يقفان تجسيداً حياً من الرخام لسرية المرأة وحكمتها، فرجاه الحضور جميعاً أن يروي قصة التمثالين. بعد لأي، استطاع الرجل ان يتذكر التفاصيل ثم روى مايشكل الجوهر الأساسي للحكاية التالية.



حكاية
التمثالين الحكيمين

ذات مرة كان يعيش في جناح مهجور من الحمراء شخص صغير الحجم مـرح النفس يدعى لوب سانشز وكان لوب يعمل في الحدائق فرحاً، سعيداً ، مغنياً طول النهار، مثل جندب.

لقد كان روح القلعة وحياتها. حين ينتهي عمله يجلس على مقعد من المقاعد الحجرية في الساحة يعزف على غيتاره ويغني أغاني طويلة عن «السـيد» برنـاردو ديل كاربيو وفرناندو ديل بولفار وأبطال الاسبان الآخرين ، ذلك أن تسلية جنـود القلعة القدامـى هـي ان يعزفـوا الألحـان الأشـد مرحـاً ويجعلـوا الفتيـات يرقصـن البوليروس والفاندانغوس.

وشأنه شأن معظم الرجال الصغـار، كـان لـدى لـوب سانشـوز سـيدة سمينـة ضخمة الهامة هي زوجته التي كان بإمكانها أن تضعـه في جيبهـا تقريبـاً ــ لكنـه

كان يفتقر لحظ الفقراء العاديين المعروف ـ إذ بدلاً من عشرة أولاد لم يكن لديه سوى ولد واحد. وكان هذا الواحد فتاة صغيرة سوداء العينين في الثانية عشرة من العمر تدعى سانشيكا مرحة مثله وتجسد المتعة والبهجة لقلبه. فهي تلعب حوله وهو يعمل في الجنائن وترقص على أنغام غيتاره وهو يجلس في الظل وتركض مثل مهرة برية بين أيك الأشجار وممرات الحمراء وقاعاتها الأثرية.

مساء عيد القديس يوحنا المبارك، كان كل من في الحمراء من محبي عطل ومروجي إشاعات من رجال ونساء وأطفال قد صعدوا. إلى جبل الشمس الذي ينتصب فوق «جنة الريف» كي يسهروا ليلة منتصف صيفهم تلك على ذروته المسطحة . لقد كانت ليلة قمراء وضاءة، وكانت الجبال كلها تشع ضياء كالفضة كما كانت المدينة بقبابها ومسلات كنائسها تستلقي غارقة في الظلال هناك في الأسفل فيما كان الفيغا أشبه بأرض للجن بجداوله المسكونة وهي تتلألأ تحت ضوء القمر عبر أدغاله المعتمة.

في أعلى ذروة من الجبل، أشعلوا نار العيد، طبقاً لعادة قديمة من عادات البلاد تعود لأيام العرب. كان سكان المنطقة المجاورة هم الآخرون ساهرين وكانوا أيضاً قد أشعلوا نيران العيد هنا وهناك في الفيغا وعلى طول ثنيات الجبال وكانت كلها تتوهج توهجاً يضعفه ضوء القمر.

مضت تلك الأمسية بكل حبور ومرح وهم يرقصون على غيتار لوب سانشز الذي لم يكن في يوم من الأيام أكثر مرحاً مما كان عليه في تلك العطلة.

كان الرقص على قدم وساق، وكانت سانشيكا الصغيرة مع بعض لداتها يلعبن لاهيات بين آثار قلعة عربية قديمة تتوج ذلك الجبل، حينذاك وجدت، وهي تجمع الحصى في الخندق يداً صغيرة من الكهرمان الأسود عليها نقوش غريبة، أصابعها مضمومة والإبهام مطبق عليها بشدة. ركضت الفتاة، تكاد تطير فرحاً للقياها الرائعة الى أمها حاملة ما لقيته، وفي الحال أصبح ذلك موضوع تخمينات وتقديرات فيما نظر البعض إلى الأمر نظرة الشك والريبة. «ارموها بعيداً» قال احدهم «إنها من آثار العرب وبناء على ذلك لابد من أن يكون منها أذى وفيها شر وسحر». «لا ، مطلقاً» قال آخر «بإمكانكم أن تبيعوها بثمن لا بأس به في سوق الصاغة». في خضم ذلك النقاش ، اقترب جندي معروق عجوز كان قد خدم في افريقيا وكان داكن البشرة مثل أي عجوز مغربي. تفحص اليد تفحص العارف

الخبير ثم قال «لقد رأيت أشياء من هذا النوع عند المغاربة البربر. إنها ذات قدرة عظيمة على الحماية من العين الشريرة ومن الطلاسم والتعاويذ السحرية بأنواعها كلها. أهنئك يا صديقي لوب، فهذه تحمل الحظ الحسن لطفلتك».

عند سماعها هذا ، ربطت زوجة لوب سانشيز اليد الصغيرة المصنوعة من الكهرمان الأسود بشريط ثم ربطته بدوره حول عنق ابنتها.

لكن منظر تلك التعويذة ذكّر الحضور بكل ما سمعوا من أساطير تدور حول العرب فأهمل الناس الرقص وجلسوا جماعات جماعات على الأرض يردون القصص والحكايات القديمة التي انتقلت إليهم جيلاً بعد جيل. بعض تلك القصص كانت تدور حول عجائب ذلك الجبل نفسه الذي كانوا يجلسون عليه والذي اشتهر بأنه منطقة للجن. إحدى العجائز الهرمات قدمت وصفاً طويلاً للقصر تحت الأرضي الواقع في احشاء ذلك الجبل حيث يقال إن أبا عبد الله ومسلميه جميعهم ظلوا هناك مسحورين. «بين تلك الآثار هناك» قالت العجوز الشمطاء مشيرة إلى ركام من التراب والحجارة في ناحية بعيدة من الجبل، «ثمة حفرة عميقة مظلمة تنحدر نزولاً حتى قلب الجبل ذاته، حفرة لو تعطونني مال غرناطة كله لا انظر داخلها نظرة واحدة. في قديم الزمان، كان هناك رجل فقير من الحمراء يرعى الماعز فوق هذا الجبل، زحف متسلقاً إلى تلك الحفرة، متتبعاً جدياً، فسقط فيها ثم خرج ثانية جاحظ العينين فاغر الفم ليروي أشياء عجيبة مما رأى إلى درجة أن كل من سمعه ظن أنه فقد صوابه، فقد ظل يهذي طوال يوم أو يومين عن العرب الأشباح الذين راحوا يتعقبونه في المغارة، بعدئذ لم يقتنع إلا بصعوبة بالغة بأن يرعى ماعزه في الجبل من جديد. لقد اقتنع أخيراً، لكن يا للمسكين!! فقد ذهب ولم يعد قط . لقد اكتشف الجيران ما عزه يرعى هنا وهناك بين الآثار العربية كما وجدوا قبعته ورداءه قرب فوهة الحفرة، لكن ما من أحد سمع عنه أو رآه بعد ذلك قط».

بأنفاس مكتومة وانتباه شديد، كانت سانشيكا الصغيرة تصغي لتلك القصة، ونظراً لأنها ذات فضول عجيب فقد أحست في الحال بتوق شديد لأن تنظر داخل تلك الحفرة الخطرة. وهكذا، انسلت من بين صحبها وأسرعت تبحث بين الآثار البعيدة، متلمسة طريقها هنا وهناك، إلى أن وصلت إلى تجويف أو حوض صغير قرب حافة الجبل حيث كان السفح، ينحدر بعدها انحداراً حاداً نحو وادي الدارة. وسط ذلك الحوض كانت تلك الحفرة تفتح فاها، غامرت سانشيكا

بالذهاب الى الحافة ناظرة بسرعة إلى داخلها، لكن كل شيء كان معتماً أسود مما يدل على شدة عمقها وعلى نحو لا يقاس. تجمد الدم في عروقها فانسحبت الى الوراء ثم عادت تنظر من جديد وفي نيتها أن تفر بعد ذلك بعيداً. لكنها اختلست نظرة أخرى ـ وكأنما ذلك الرعب متعة بالنسبة إليها. أخيراً، دحرجت حجراً كبيراً دافعة اياه فوق الحافة، فهوى حيناً من الزمن دون صوت ثم سمعته يصطدم ببروز صخري مصدراً صوتاً قوياً راح بعدها يرتد من جانب إلى جانب مقعقعاً مجلجلاً كجلجلة الرعد. بعدئذ سمعت صوت ترشاش وقد سقط أخيراً في الماء بعيداً بعيداً في الأسفل ـ ثم ساد سكون من جديد.

غير أن السكون لم يستمر طويلاً. إذ بدا وكأن شيئاً ما قد اوقظ من غفلته في تلك الهاوية المخيفة، إذ راح يرتفع من الحفرة بالتدريج صوت همهمة أشبه بطنين خلية نحل. الهمهمة صارت أعلى وأعلى حتى غدا هناك اختلاط أصوات وكأنها آتية من حشد بعيد من الناس، رافق تلك الأصوات صليل أسلحة خافت، دق صنوج ونفخ أبواق، كما لو أن جيشاً كان يتجمع في أحشاء الجبل ذاته استعداداً لمعركة.

برعب صامت، انسحبت الفتاة الصغيرة مبتعدة ثم اسرعت عائدة إلى حيث تركت أبويها وصحبها، لكنم جميعاً كانوا قد ذهبوا. النار ـ هي الأخرى ـ كانت قد انطفأت، فيما كان آخر ما بعثت من دخان يلتف متصاعداً في ضوء القمر. النيران الأخرى التي كانت قد توهجت فوق الجبال وفي الفيغا كلها كانت قد انطفأت فيما بدا وكأن كل شيء يغوص غارقاً في أحضان السكينة والراحة. نادت سانشيكا أبويها وبعض أصحابها بالاسم لكن دون جواب.

انحدرت سفح الجبل تجري ثم مرت بحدائق جنة الريف إلى أن بلغت وادي الأشجار المؤدي إلى الحمراء حين وجدت نفسها على وشك الانهيار تعباً فجلست على مقعد من تجويف خشبي علها تسترد أنفاسها. في تلك اللحظة كان جرس برج المراقبة في الحمراء يدق منتصف الليل. وكانت السكينة في كل مكان عميقة شاملة كما لو أن الطبيعة كلها قد استغرقت في سبات عميق، باستثناء صوت خرير منخفض من جدول غير مرئي يجري تحت غطاء من الشجيرات. عذوبة الهواء وبرودته راحتا تهدهدانها مغريتين إياها بالنوم . حينذاك وقع بصرها على شيء بعيد يلمع، ولشدة دهشتها رأت على ذاك البعد ركباً طويلاً من المحاربين العرب يتدفق هابطاً سفح الجبل وعلى طول الطرق المظللة بأغصان

الاشجار . بعضهم مسلح بالرماح والتروس، آخرون مسلحون بالسيوف والبلطات والكل بدروع صقيلة تلمع تحت ضوء القمر. خيولهم تتواثب تياهة رافعة رأسها لاثكة شكائمها، لكن حوافرها لم تكن تصدر صوتاً أعلى من ذلك الصوت الذي تصدره وهي مكسوة باللباد. فيما بدا الفرسان جميعهم شاحبين شحوب الموتى. بينهم كانت تمتطي فرسها سيدة جميلة، على رأسها تاج وخصلات شعرها الذهبية الطويلة مزينة بالدر واللؤلؤ فيما سرج حصانها كله من القطيفة القرمزية المزخرفة بخيوط الذهب، وأذياله تنجر على الأرض. لكن الفم كان بادياً على محياها وكانت عيناها مسمرتين على الأرض، بعدئذ جاء ركب الحاشية بملابسه الزاهية وعمائمه المختلفة الألوان. في المنتصف تماماً وعلى حصان حليبي اللون، كان الملك أبو عبد ا لله التشيكو بردائه الملكي المغطى بالجواهر وتاجه المشعشع بالماس. لقد عرفته سانشيكا الصغيرة من لحيته الصفراء وشبهه بصورته التي غالباً ما كانت تراها في بهو الصور في جنة الريف. بدهشة وإعجاب حملقت بذلك الموكب الملكي وهو يعبر الأشجار لامعاً متألقاً، لكن على الرغم من أنها كانت تعرف أولئك الحكام ورجال البلاط والمحاربين إلا أنهم كانوا شاحبين ساكنين إلى درجة بدوا معه خارج سياق الطبيعة ، أشبه بكائنات السحر والطلاسم . مع ذلك كانت الفتاة تتطلع بقلب شجاع ، ربما استمد شجاعته من طلسم اليد الغامضة التي كانت تتدلى من عنقها.

حين عبر الموكب وانتهى، نهضت سانشيكا تتبعه وهو يمضي قدماً إلى بوابة العدالة الكبيرة التي انفتحت أمامه على مصراعيها، فالحراس المسنون العاجزون الذين يقومون بمهمة الحراسة، كانوا يستلقون على مقاعد الحصن الأمامية الحجرية غارقين في سبات عميق بفعل السحر على ما يبدو، فيما كان موكب الأشباح يجتازهم دون صوت بأعلامه الخافقة وهيئته المنتصرة. ولعل سانشيكا كانت ستتابع، لكن لشدة دهشتها رأت فتحة في الأرض داخل الحصن الأمامي تهبط إلى أساس البرج. دخلتها لبعض المسافة ثم شجعها على المضي قدماً أنها وجدت درجات محفورة بغير حذق في الصخر ودهليزاً مضاء هنا وهناك بمصابيح فضية كانت تنبعث منها، إضافة إلى الضوء، روائح كروائح العطر. أخيراً، وقد استمرت في مغامرتها ماضية قدماً، وصلت إلى قاعة كبيرة محفورة في قلب الجبل ومؤثثة أثاثاً رائعاً وفق الطراز العربي المغربي ، تنيرها من كافة اركانها وزواياها مصابيح من فضة وبللور. هنا، وعلى أريكة وثيرة كان يجلس رجل عجوز بزيه

العربي، لحيته بيضاء طويلة، وهو ينوس برأسه غافياً. في يده عصا بدت وكأنها على وشك الانزلاق من قبضته فيما كانت تجلس على بعد ما سيدة جميلة بملابس اسبانية قديمة، وعلى رأسها إكليل صغير يشع كله بالماس أما شعرها فمزين كله بالدر واللؤلؤ. بكل رقة كانت تعزف على غيتارها الفضي. في تلك اللحظة تذكرت سانشيكا الصغيرة قصة سمعتها من سكان الحمراء القدامى، عن الأميرة القوطية التي حبسها وسط الجبل ساحر عربي قديم، فجعلته يغرق في سباته كالمسحور بفضل الموسيقى. بدهشة بالغة توقفت السيدة حين رأت الفتاة الصغيرة في تلك القاعة المسحورة ثم قالت «أهي أمسية القديس يوحنا المبارك ؟».

«أجل ، إنها هي» أجابت سانشيكا.

«إذن اعلمي، أنه لليلة واحدة فقط يتوقف فعل السحر. تعالي هنا يا طفلتي ولا تخافي. أنا مسيحية مثلك رغم أنني مقيدة هنا بفعل السحر. المسي قيودي بالتعويذة المعلقة حول عنقك، ولسوف أكون حرة طوال هذه الليلة». قالت ذلك ثم فتحت ثوبها كاشفة عن حزام ذهبي عريض يزنر خصرها وسلسلة من ذهب تثبتها إلى الأرض. دون تردد، مضت الفتاة تلمس باليد الصغيرة المصنوعة، من الكهرمان الأسود الحزام الذهبي وللتو سقطت السلسلة أرضاً. على صوتها استيقظ الرجل العجوز، شرع يفرك عينيه، لكن السيدة أسرعت إلى أوتار القيثارة تداعبها بأناملها ليعود من جديد إلى إغفائته. رأسه ينوس وعصاه ترتعش في يده. «الآن» قالت السيدة «المسي عصاه بتعويذتك، يد الكهرمان» . فعلت الصغيرة ذلك، فأفلتت العصا من قبضته وفي الحال، استغرق العجوز على أريكة في سبات عميق. على مهل، وضعت السيدة القيثارة الفضية على الاريكة ساندة إياها على رأس الساحر النائم. بعدئذ راحت تلامس الأوتار قرب أذنه قائلة «استمري هكذا أيتها القيثارة مخدِّرة حواسه إلى أن تبزغ الشمس. والآن اتبعيني يا طفلتي.» تابعت السيدة «ولسوف ترين الحمراء كما كانت أيام مجدها، فلديك تعويذة سحرية تبطلين بها مفعول كل سحر». بصمت تبعت سانشيكا السيدة . اجتازتا مدخل المغارة ثم عبرتا إلى الحصن الأمامي لبوابة العدالة، ومن هناك إلى ساحة الجباب أو فناء القلعة. هذا كله كان مليئاً بالجنود العرب، خيالة ومشاة متجمعين على شكل كواكب كواكب خفاقة الرايات. كذلك كان هنالك حراس ملكيون على البوابة وصفوف من العبيد السود وقد اشرعوا سيوفهم .لم يكن أحد ينبس ببنت شفة فعبرت بهم سانشيكا دون خوف في أعقاب دليلتها غير أن دهشتها بلغت

أقصى درجاتها حين دخلت القصر الملكي التي كانت قد نشأت فيه. كان ضوء القمر الساطع يضيء القاعات والساحات والحدائق كلها وكأنها في ضوء النهار لكنه كان يكشف مناظر تختلف كثيراً عما اعتادت رؤيته.

فجدران الأجنحة لم تعد مبقعة متقشرة بفعل الزمن. وبدلاً من بيوت العناكب، كانت تتدلى هناك الحرائر الدمشقية الباذخة، كما عادت تغطي الجدران صفائح الذهب ورسوم الأرابيسك بلمعانها الأصلي وجدتها. كذلك لم تعد القاعات عارية جرداء. بل تتوزع فيها الأرائك والطنافس من أنفس الأقمشة. يزينها كلها الدر واللؤلؤ وتزخرفها الحجارة الكريمة فيما كانت نوافير القاعات والحدائق قد عادت كلها ينطلق منها الماء عالياً.

كذلك، عادت الحياة الى المطابخ من جديد. الطباخون مشغولون بإعداد الأطباق الفاخرة، يشوون ويسلقون الطيور والدواجن. الخدم يسرعون ذهاباً وإياباً وقد ملئت أطباقهم الفضية بالمأكولات، وهم يعدون لمأدبة عامرة. قاعة الأسود مزدحمة بالحراس ورجال الحاشية والفقهاء، كما كانت الحال أيام العرب، وفي الطرف البعيد، في قاعة الحكم، كان أبو عبد الله يجلس على عرشه يحيط به رجال بلاطه ويهز في يده صولجانه. لكن رغم كل ذلك الاحتشاد وزحام الناس الذين كانوا يبدون في عجلة من أمرهم لم يكن يسمع صوت ولا وقع خطا. لا شيء يعكر صفو الليل وسكينته سوى صوت رشاش الماء وهو يتساقط من النوافير. بذهول واندهاش تامين تبعت سانشيكا الصغيرة دليلتها في ارجاء القصر إلى أن وصلت إلى البوابة التي تنفتح على الدهاليز، تلك التي تقع تحت برج الأقمار الكبير. على كلا جانبي البوابة كان ينتصب تمثال حورية من مرمر. رأساهما كلاهما يلتفتان جانباً والنظرات مثبتة على النقطة نفسها داخل القبو. هنا توقفت السيدة مشيرة إلى الطفلة باتجاه تلك النقطة قائلة «هنا السر العظيم الذي سأكشفه لك جزاء إيمانك وشجاعتك. هذان التمثالان الحكيمان يحرسان كنزاً أخفاه ملك عربي

في العهود القديمة. قولي لأبيك أن يفتش في تلك النقطة حيث يقع بصر التمثالين ولسوف يلقى ما يجعله أغنى رجل في غرناطة. لكن يديك البريئتين وحدهما، وبتعويذتك هذه، يمكنهما أن تخرجا ذلك الكنز. قولي لوالدك أن يستخدمه بحكمة وعقل وأن يكرس جزءاً منه لإقامة القداسات اليومية علني أخلص من هذا السحر اللعين».

بعد أن نطقت السيدة بتلك الكلمات، مضت بالفتاة الصغيرة قدماً إلى حديقة لنداراكسا الصغيرة حيث كان القمر يرتعش على مياه البركة المنعزلة وسط الحديقة ملقياً ضياءه الساحر على أشجار البرتقال والليمون. قطفت السيدة حزمة من الريحان وضفرتها إكليلاً على رأس الصغيرة قائلة: «ليكن هذا علامة على ماكشفته لك وشاهداً على صحته. لقد دنت ساعتي وعلي ان أعود إلى القاعة المسحورة. لا تتبعيني خشية أن يلحق بك أذى. وداعاً. تذكري ما قلته لك وأقيمي القداسات لخلاصي». وما إن قالت السيدة ذلك حتى دخلت دهليزاً مظلماً يمر تحت برج الأقمار وغابت هناك.

في تلك اللحظة. جاء صوت ديك يصيح من بعيد حيث البيوت الريفية بعد الحمراء في وادي الدارة. كما بدأ خيط من نور بالتسلل من فوق الجبال الشرقية. كذلك هبت ريح خفيفة، وسمع صوت كأنه حفيف أوراق يابسة عبر الساحات والممرات ثم راحت الأبواب تنغلق واحداً إثر الآخر. عادت سانشيكا إلى الأماكن التي رأتها قبل لحظات مزدحمة بأشباح الناس. لكن أبا عبد الله وأشباح بلاطه كانوا قد ذهبوا جميعاً. القمر وحده كان يسطع على القاعات الخاوية فيما تعرت الأبهاء من جديد وولى كل ما كان يكسوها من روعة وجمال. لتعود مبقعة متقشرة بفعل الزمان تتدلى في كل مكان منها أعشاش العنكبوت وتضرب الخفافيش بأجنحتها هنا وهناك على غبشة الضوء وتطلق الضفادع من بركة الأسماك نقيقها الذي لا يهدأ. أسرعت سانشيكا، حينذاك تشق طريقها إلى درج بعيد يفضي إلى الجناح المتواضع الذي تشغله عائلتها .كالعادة ، كان الباب مفتوحاً . فقد كان لوب سانشيز أفقر من أن يحتاج إلى قفل أو رتاج. بهدوء انسلت إلى حشيتها . واضعة إكليل الريحان بجانب وسادتها ثم استغرقت في سبات عميق. في الصباح روت لوالدها كل ما حدث لها، لكن لوب سانشيز اعتبر المسألة كلها مجرد حلم ضاحكاً من الطفلة لسذاجتها. ثم انطلق إلى أعماله العادية في الحديقة . بيد أنه لم يمض طويل وقت حتى جاءت ابنته إليه راكضة مقطوعة الأنفاس. «أبي ! أبي!» صاحت سانشيكا « انظر إكليل الريحان الذي وضعته السيدة الجميلة حول رأسي ».

بدهشة حملق لوب سانشيز. إذ كانت سوق الريحان من الذهب الخالص وكل ورقة عبارة عن زمردة متلألئة ! ونظراً لأنه لم يكن معتاداًأن يرى الحجارة الكريمة، فقد كان يجهل القيمة الحقيقية للإكليل. لكنه رأى ما يكفي لإقناعه

بأن الأمر حقيقي أكثر مما يمكن للأحلام أن تكون وأن لحلم الطفلة غرضاً محدداً بشكل من الأشكال. باديء ذي بدء بات همه ان يضمن السرية التامة حول كل ما يتعلق بابنته، لكن في هذا المجال، كان في أمان، إذ أن ابنته كانت تبدي من العقل والحكمة أكثر مما يسمح سنها وجنسها بكثير. بعدئذ مضى إلى القبو، حيث كان ينتصب تمثالا الحوريتين المرمريتين ، فلاحظ أن رأسيهما يلتفتان بعيداً عن البوابة وان نظرة كل منهما تنصب على النقطة نفسها داخل المبنى، فلم يستطع لوب سانشيز منع نفسه من الإعجاب بهذا الابتكار الأروع والأشد حكمة لحراسة سر. مد سانشيز خيطاً من عيني كل تمثال الى النقطة التي ينظران إليها . وضع علامة خاصة على الجدار ثم انسحب.

لكن طوال النهار ظل بال لوب مشغولاً بألف هم وهم، فهو لم يستطع منع نفسه من أن يظل يحوم هنا وهناك قريباً من التمثالين كما بات سريع الغضب خشية أن يكتشف أحد سر الكنز. كل خطوة تقترب من المكان تجعله يرتجف وهو لا يفتأ يفكر كيف تمر تلك السنون والقرون دون أن يخطر ببال أحد سر النظرة التي ينظرها ذانك التمثالان إلى النقطة ذاتها.

« اللعنة عليهما! » راح يقول لنفسه سينفضحان كل شيء!! هل سمع ابن أنثى بمثل هذه الطريقة لحفظ السر؟» كذلك كان يتسلل بعيداً، حين يسمع أي وقع خطا، وكان مجرد اختبائه قرب المكان يمكن ان يثير الريب والشكوك.

بعدئذ يمكن أن يعود بحذر، يختلس النظر من مكان بعيد ليرى إن كان كل شيء في أمان لكن رؤية التمثالين نفسها كانت تثير حنقه من جديد فيقول « إي...هناك ينتصبان محدقين دائماً ، محدقين تماماً حيث ينبغي ألا يحدقا. تباً لهما!! إنهما مثل بنات جنسهما كلهن، إن لم يكن لهن ألسنة تنطق نطقت عيونهن نفسها فاضحة الأسرار ».

أخيراً، ولكي يستريح، غابت شمس ذلك اليوم الطويل المقلق فلم يعد يسمع وقع خطا في القاعات التي تردد الأصداء في الحمراء، وقد رحل آخر غريب عنها، كما أغلقت البوابة الكبيرة بالقفل والمفتاح فيما استعادت الوطاويط والضفادع والبوم نشاطها الليلي في ذلك القصر المهجور . مع ذلك، انتظر لوب سانشيز حتى الهزيع الثاني من الليل قبل أن يغامر ويذهب بابنته الصغيرة إلى قاعة الحوريتين فوجدهما تنظران كعهده بهما تلك النظرة الفاضحة إلى المكان السري للكنز. «بعد

إذنكما، أيتها السيدتان اللطيفتان»، قال سانشيز وهو يمر بينهما «سوف أحرركما من هذه المهمة التي أثقلت كاهلكما ولا شك طوال هذين القرنين أو الثلاثة من الزمان». وفي الحال مضى إلى العمل في ذلك الجزء من الجدار الذي كان قد علمه، وخلال برهة وجيزة انفتح أمامه تجويف خفي تنتصب فيه جرتان كبيرتان من الفخار. حاول ان يسحبهما خارجاً، لكنه لم يستطع إذ ظلتا ثابتتين في مكانهما إلى أن لمستهما يد ابنته الصغيرة البريئة. بمساعدتها فقط استطاع أن يزحزهما من مخبئهما كما وجد، ويا لفرحه العظيم! أنهم مملؤتان قطعاً ذهبية عربية تختلط بالجواهر والحجارة الكريمة. قبل طلوع النهار، تدبر سانشيز أمره فنقل الجرتين إلى حجرته، تاركاً التمثالين الحارسين ونظراتهما ما تزال متجهة إلى ذلك الجدار الخاوي.

وهكذا، على حين غرة، أصبح لوب شانيز رجلاً ثرياً، لكن الثروة تحمل معها، كالعادة، همومها التي بدت أنها غريبة عليه تماماً. كيف تراه ينقل ثروته بعيداً بأمان ؟ كيف يمكن التمتع بها دون أن يثير الريبة والشك؟ حينذاك . وللمرة الأولى أيضاً بدأ الخوف من اللصوص يتسرب إلى نفسه، فنظر بنوع من الرعب إلى حالة الأمان التي كان عليه مسكنه فأسرع يعمل في تركيب الأرتجة والأقفال على أبوابه ونوافذه ، لكن رغم كل احتياطاته، لم يعد يستطع النوم بعمق. لقد غاض مرحه المألوف. كذلك لم يعد باستطاعته ان يمازح جيرانه، أو يغني لهم. وباختصار، بات أبأس كائن على قيد الحياة في الحمراء كلها. لاحظ رفاقه القدامى تغيره ذاك، فأشفقوا عليه من صميم قلوبهم ثم بدؤوا يبتعدون عنه، وكل ظنهم أنه في ضيق وعوز وأنه قد يطلب منهم المساعدة ، دون أن يشكوا البتة بأن كارثته الوحيدة هي ثروته الجديدة . كانت زوجته تشاركه قلقه ذاك لكنها سرعان ما أحست براحة روحية .

لا .. لا .. ربما كان علينا قبل ذلك ان نذكر أن لوب ، لكونه رجلاً ضئيل الحجم غير مراع كثيراً لمشاعر الآخرين ، اعتادت زوجته في كل مسألة خطيرة تواجهها أن تبحث عن مشورة الأخ سيمون، الراهب الذي تعترف له، وهو رجل ذو رأس مدور كالكرة ، أزرق اللحية ، عريض المنكبين . صلب عنيد من سان فرانسيسكان المجاورة وهو الراهب نفسه الذي كان . بالحقيقة مصدر راحة روحية لنصف زوجات الجوار الطيبات . علاوة على ذلك فقد كان موضع تقدير عظيم لدى مختلف الأخوات الراهبات اللواتي كن يزودنه مقابل خدماته الروحية

بهدايا الكعك والمعجنات التي غالباً ما يصنعنها في أديرتهن ، إضافة إلى الحلويات اللذيذة والبسكويت الحلو وزجاجات المنعشات الروحية التي ثبت بالدليل القاطع أنها تعيد قوى الانسان على نحو مدهش بعد الصيام والسهر. لقد كان الأخ سيمون ناجحاً في أداء وظائفه، وكان جلده الدهني يلمع تحت ضوء الشمس وهو يكد صاعداً رابية الحمراء في يوم حار وجاف، مع ذلك ، ورغم حالته البائسة والحبل ذي العقد المشدود حول خصره الذي يبين الصرامة التي يعامل بها نفسه، كان الناس يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم وهو يعبر بهم ، علامة التقى والورع بل حتى الكلاب كانت تشم رائحة القداسة المنبعثة من حلته فتنبح من أوجارها وهو يعبر بها. ذلك هو الأخ سيمون، المستشار الروحي لزوجة لوب سانشيز الوديعة والأب الذي يتلقى اعترافها وموضع السر المؤتمن لنساء الطبقات الدنيا في اسبانيا

لهذا. كله ، سرعان ما عرف، في جو من السرية الشديدة، قصة السر المخفي. فغر الراهب فاه وفتح عينيه ورسم الصليب على نفسه اثنتي عشرة مرة لدى سماعه الخبر، بعدئذ قال «يا بنة روحي اعلمي أن زوجك قد ارتكب إثماً مزدوجاً ضد الدولة وضد الكنيسة فالكنز الذي استأثر به لنفسه هو بطبيعة الحال للتاج، وقد وجد في أرض تعود ملكيتها للتاج، ولأنه أيضاً ثروة من ثروات الكفار، أخذت ، إن جاز القول، من براثن الشيطان نفسه، فالواجب أن يكرسها للكنيسة، مع ذلك ربما ما يزال بالامكان تسوية المسألة. ائتي لي هنا بإكليل ريحانك». حين وقعت عينا الراهب الطيب على الإكليل طرفت أجفانهما المرة تلو المرة اعجاباً بحجم الاكتشاف «إذن لا بد من أن يقدم لأغراض التقى والورع. لهذا، سآخذه وأعلقه عالياً نذراً منكم وقرباناً لصورة سان فرانسيسكو في كنيستنا الصغيرة ولسوف أصلي هذه الليلة بالذات وبكل إخلاص داعياً أن يتاح لزوجك التمتع بثروته بكل راحة وهدوء. سرت السيدة الطيبة أيما سرور بإقامتها السلام مع السماء مقابل ثمن بخس كهذا، ثم ما إن وضع الأب الإكليل تحت عباءته حتى رحل بخطا القديسين إلى ديره. عاد لوب سانشيز إلى البيت فأخبرته زوجته بما حدث وفي الحال أرغى وأزبد، هو الذي كان يفتقر لتقى زوجته كما كان طوال فترة من الزمن يشكو سراً من زيارات الراهب الخاصة لبيته.

«أيتها المرأة» قال سانشيز «ما الذي فعلته؟ إنك بثرثرتك تعرضين كل شيء للخطر». «ماذا؟» صرخت المرأة الطيبة «أتمنعني من إراحة ضميري بالاعتراف

لراهبي».«كلا، أيتها الزوجة، اعترفي ما شئت بما عليك من ذنوب، لكن بالنسبة إلى نبش الكنز هذا فهو ذنبي أنا وضميري مرتاح كثيراً بحمله».لكن لا فائدة من التذمر، فالسر افشي وليس بالمستطاع جمعه مرة ثانية إلا إذا جمع ماء سكب على الرمل، مع استثناء وحيد هو أن يكون الراهب نفسه كتوماً لا يفشي سراً.

في اليوم التالي، كان سانشيز خارج البيت، فطرق مسامع زوجته قرع خفيف على الباب ثم دخل الأخ سيمون بسيماه اللطيفة الرزينة قائلا: «يا بنتي، لقد صليت بكل إخلاص لسان فرانسيسكو ولقد سمع صلواتي، وفي هدأة الليل ظهر لي القديس في الحلم لكن بوجه عابس وجبين مقطب ثم قال «لماذا تصلي لتبديد كنز النبلاء ذاك، في حين أنك ترى الفقر الذي تعاني منه كنيستي؟ إذهب إلى بيت لوب سانشيز واطلب باسمي بعض ذلك الذهب العربي لتجهز مذبح كنيستي بشمعدانين جميلين ولينعم هو بالبقية في سلام».سمعت المرأة الطيبة تلك الرؤيا فرسمت الصليب على نفسها بكل هلع وخوف، ثم ذهبت إلى المكان السري حيث كان لوب قد خبأ الكنز. ملأت كيساً جلدياً كبيراً بقطع الذهب العربية ثم أعطته إلى الراهب الذي منحها مقابل ذلك من البركات ما يكفي، لو أن السماء تدفع، لإغنائها هي وذريتها حتى يوم القيامة. بعدئذ زلق الكيس في كم عباءته وطوى يديه على صدره ثم رحل وعلى محياه سيماء الشكر والامتنان.سمع لوب سانشيز بالهبة الثانية للكنيسة فكاد يفقد أعصابه «يالي من رجل بائس » صرخ ملء صوته « ماذا سيحل بي؟ لسوف يسرقونني شيئاً فشيئاً ؟ سوف يحطمونني تماماً حتى أعود شحاذاً . » بصعوبة بالغة استطاعت زوجته ان تهدئه، مذكرة إياه بالثروة الطائلة التي ما تزال في حوزته، وكم هو شيء رائع أن يقنع سان فرانسيكسو بجزء ضئيل من تلك الثروة. لكن لسوء الحظ، كان لدى الأخ سيمون عدد من الأقارب الفقراء الذين يجب تمويلهم ، هذا إن لم نذكر حوالي نصف دزينة من الأطفال اليتامى ذوي الهيئات الصلبة القاسية والرؤوس المدورة كالكرات وعدد من اللقطاء المهجورين الذين كانوا يعيشون تحت رعايته .

لهذا، راح يكرر زياراته يوماً بعد يوم حاملاً طلبات لصالح القديس دومنيك، القديس أندرو، القديس جيمس ، إلى أن بلغ لوب المسكين حافة اليأس، مدركاً أنه إن لم يبتعد عن منال ذلك الراهب المقدس فإنه سيضطر لأن يقدم عروض سلام لكل قديسي الكنيسة على الإطلاق . لهذا ، قرر أن يخرج بما تبقى له من ثروته، وأن يفر ليلاً دون أن يدري به أحد منتقلا إلى ناحية أخرى من انحاء

المملكة.جلب سانشيز، وقد ملأ عليه مشروعه فكره كله بغلاً قوياً يفي بالغرض ثم ربطه في القبو المعتم لبرج الطوابق السبعة، أي في المكان نفسه الذي يقال إن بللودو أو الحصان الجني، ينطلق في منتصف الليل ويجوب شوارع غرناطة تتبعه زمرة من كلاب الجحيم.لم يكن لوب سانشيز يؤمن كثيراً بتلك القصة لكنه استفاد تماماً من الفزع الذي تثيره، موقناً كل اليقين انه ما من أحد سيجروء على التلصص على اسطبل الحصان ـ الشبح الواقع تحت الأرض.

في النهار أرسل عائلته آمراً إياها ان تنتظره في قرية بعيدة من قرى الفيغا، وحين تقدم الليل نقل كنزه إلى القبو الواقع تحت البرج ثم حمله على بغله ومضى قدماً منحدراً، بكل حذر وتمهل، الشارع المعتم.كان لوب الشريف قد اتخذ اجراءاته بأقصى درجات التكتم والسرية، دون أن يخبر أحداً بها سوى زوجته المخلصة ورفيقة عمره الوفية، لكن بطريقة عجيبة من طرق التجلي. عرف الأخ سيمون بذلك. رأى الراهب المتحمس ثروات الكفار تلك وهي على شفا الإفلات من قبضته إلى الأبد، فصمم أن يقوم بهجومه الأخير لصالح الكنيسة، وسان فرانسيسكو. طبقاً لذلك، وحين دقت الأجراس من أجل البهائم، والحمراء كلها ساكنة هادئة، تسلل هو من ديره، منحدراً عبر بوابة العدالة مخفياً نفسه بين أجمات الورود والغار النامية على جانبي الشارع الكبير. هنا، تلبث ساكناً يعد أرباع الساعات، التي يدقها جرس البرج وهو يصغي الى نعيب البوم ونباح كلاب الغجر. في النهاية، سمع وقع حوافر، وعبر غصون الشجيرات الكثيفة رأى ما يشبه حصاناً ينحدر الشارع.

كتم الراهب الصلب ما يشبه الضحكة وهو يفكر بالمقلب الذي سيفعله بلوب الشريف. لملم الراهب أطراف عباءته وتجمع على نفسه كقط يهم بالانقضاض على فأر منتظراً إلى أن تصبح فريسته أمامه، تماماً. حينذاك اندفع كالسهم من اجمته الكثيفة الأوراق، واضعاً يداً على كتف الحصان والأخرى على كفله ثم وثب وثبة عالية يعجز عن القيام بمثلها أمهر الفرسان فوجد نفسه وقد أصبح على ظهر الحصان ورجلاه في الركاب «آه.. ها..» قال الراهب الصلب العنيف «سنرى الآن من يفهم اللعبة أكثر»، لكنه لم ينه كلماته تلك حتى بدأ الحيوان يرفس ويركل، يشب إلى الخلف وإلى الأمام منطلقاً بعدئذ بأقصى سرعته نازلاً السفح. حاول الراهب كبح جماحه لكن عبثاً. فقد كان ينط من صخرة إلى صخرة ومن شجيرة إلى شجيرة، ممزقاً ثياب الراهب إرباً إرباً مطيراً إياها في الهواء. رأسه الحليق تلقى

الكثير والكثير من طرقات الأغصان وضرباتها كما أصابه الكثير من الخدوش بسبب الأشواك . ولكي يزيد طينه بلة ورعبه شدة ، فقد لحقت به زمرةٌ من سبعة كلاب وهيٍ تنبح أشد النباح، حينذاك أدرك، لكن وفي وقت متأخر جداً، أنه كان يمتطي فعلاً ظهر بللودو الرهيب .

بعيداً مضى به الحصان بعد ذاك، وطبقاً للعبارة القديمة «اكبح شيطاناً تكبح راهباً» نزل الشارع عبر ساحة نوفا، على طول سوق الزكاتين، حول الفيفا رامبلا ـ وعلى نحو لم يسبق لصياد وكلاب صيده أن قاموا بجري اكثر جنوناً أو أثاروا جلبة أكثر جهنمية.

عبثاً راح الراهب يستنجد بقديسي التقويم كلهم، بل حتى بالعذراء نفسها، لكنه لم يكن يذكر اسماً من تلك الأسماء حتى يبدو وكأنه مهماز جديد ينخس بللودو فيجعله ينط أعلى من المنزل. وهكذا ، طوال البقية الباقية من الليل، ظل الأخ سيمون العاثر الحظ ينقذف على ظهر الحصان هنا وهناك، حيث يريد ولا يريد إلى أن راح كل عظم من عظامه يؤلمه وكل مكان فيه يوجعه وإلى درجة محزنة أكثر من أن تذكر. أخيراً صاح الديك إيذانا بعودة النهار، مع الصياح دار الحصان حول نفسه عائداً عدواً إلى برجه. ومرة ثانية قطع الفيفا رامبلا، أسواق الزكاتين، ساحة نوفا وشارع النوافير والكلاب السبعة تنبح خلفه وتعوي واثبة إلى الأعلى مزمجرة، ناهشة عقبي الراهب المذعور. ومع بزوغ أشعة الفجر الأولى وصل الحصان بحمله إلى البرج، هنا، رفس بخلفيتيه إلى الأعلى مرسلاً الراهب في الجو لينقلب هذا رأساً على عقب كالبهلوان، فيما غاص الحصان بعد ذلك في القبو المعتم ، وفي عقبه زمرة الكلاب الجهنمية، فحل صمت شديد بعد الجلبة الأخيرة التي كانت تصم الآذان.

ترى هل سبق وانطلت خدعة شيطانية كهذه الخدعة على راهب مقدس؟ في الصباح الباكر، وجد أحد الفلاحين، وهو في طريقه الى عمله، الراهب المنكود، الأخ سيمون ، متكوماً على نفسه تحت شجرة تين عند أسفل البرج، لكن في جسده من الكدمات والجروح والخدوش ما جعله عاجزاً عن الكلام أو الحركة.

برعاية شديدة، نقل الفلاح الراهب إلى حجرته فيما تناقلت الألسن قصة مفادها أن لصوصاً اعترضوا طريقه، فأوسعوه ضرباً وسلبوه ما معه، ثم مر يوم أو يومان قبل أن يستعيد الرجل قدرته على استخدام أطرافه. في غضون ذلك راح

يعزي نفسه بأنه على الرغم من أن البغل الذي كان يحمل الكنز قد أفلت من يديه، إلا أنه كان قد حصل من قبل على بعض العطاءات النادرة من غنائم الكفار تلك. همه الأول كان، بعد أن تمكن من استخدام أطرافه، هو أن يفتش تحت حشيته حيث كان قد خبأ إكليل الريحان والأكياس الجلدية الملأى بالذهب التي استحوذ عليها نتيجة ورع السيدة سانشيز وتقواها، لكن ياللهول !! لقد وجد الاكليل فعلاً لكن مجرد غصن ذابل من الريحان كما وجد الأكياس الجلدية لكنها ملأى بالرمل والهباء !

رغم حزنه وكربه كله، استطاع الأخ سيمون أن يمسك لسانه ولا يبوح بسره، ذلك أنه إن فعل ذلك جر على نفسه الويل والثبور وعظائم الأمور: سخرية الناس وملاحقة القانون وعقوبات الكنيسة: لهذا مرت سنون كثيرة بعد ذلك دون أن ينبس ببنت شفة. على فراش الموت فقط، تكلم كاشفاً لمن يتلقى اعترافه عن امتطائه الليلي ذاك لظهر بللودو. كذلك مرت فترة طويلة من الزمن دون ان يسمع أحد بسانشيز. لقد اختفى فجأة من الحمراء، مخلفاً وراءه ذكرى طيبة عن انسان مرح حسن المعشر، رغم أنها شوهت في الفترة الأخيرة بالهم والغم الذي لاحظه على سلوكه الكثير من أصحابه قبل رحيله الغامض وذلك الفقر والضيق اللذين ساقاه بعيداً إلى نهاية ما. لكن بعد بضع سنوات كان أحد أصحابه، وهو جندي عاجز خارج الخدمة، يزور ملقا. مرت عربة ذات ستة خيول به، فصدمته ملقية به أرضاً وكادت تدهسه لكن العربة توقفت ثم خرج منها سيد كبير السن، رائع الثياب، ذو لمة مستعارة كالكيس وسيف على جنبه، لنجدة العاجز المسكين. لكن كم كانت دهشة هذا كبيرة وهو يرى في ذلك الفارس العظيم صديقه القديم لوب سانشيز الذي كان بالحقيقة يحتفل بزواج ابنته سانشيكا من أحد أبناء النبلاء الكبار في البلاد.

كانت العربة تنقل زمرة العرس: السيدة سانشيز وقد كبرت وأصبحت مدورة كالبرميل، لابسة الريش مزدانة باللآلىء والجواهر وأنواع من الحلي لم يرها أحد منذ أيام الملكة بلقيس، ملكة سبأ. كذلك كانت الصغيرة سانشيكا قد نمت وترعرعت حتى أصبحت امرأة جميلة رشيقة حتى لتحسبها دوقة إن لم تحسبها أميرة من الأميرات. إلى جانبها العريس ـ وهو رجل صغير يابس العروق منكمش على نفسه كعنكبوت لكن دون أن يبرهن هذا إلا على أنه من ذوي الدم الأزرق

الحقيقي: نبيل اسباني شرعي قلما يزيد طوله عن مائة وخمسين سنتيمتراً، فقد كانت الزيجة من تدبير الأم .

بيد أن الثروة لم تفسد الرجل الطيب لوب سانشيز. فقد أبقى رفيقه القديم أياماً عدة عنده، كما احتفى به وأولم له وكأنه ملك، كذلك أخذه إلى المباريات والألعاب وصراع الثيران، وأخيراً زوده بكيس كبير من النقود يستمتع به هو نفسه وينعم، فيما أرسل كيساً آخر كي يوزعه على أصحابه القدامى في الحمراء. كان لوب قد أشاع من حوله ان أخاً غنياً له مات في أمريكا تاركاً إياه الوريث الوحيد لمنجم نحاس ، لكن مروجي الإشاعات الماكرين في الحمراء كانوا يصرون على أن ثروته كلها جاءت من اكتشافه لذلك السر الذي كانت تحرسه حوريتا الحمراء الرخاميتان، غير أنه يلاحظ أن التمثالين الحكيمين الكتومين للغاية ما يزالان حتى اليوم، يلتفتان جانباً وأعينهما مثبتة على النقطة نفسها من الجدار بنظرة مفعمة بالغزى: مما يدفع الكثيرين لأن يفترضوا أنه ما يزال هناك كنز مخبأ في الجدار يستحق اهتمام المسافر الباحث عن المشاريع ، فيما ينظر آخرون ولا سيما الجنس اللطيف من الزوار ، بقدر كبير من الارتياح باعتبار أن ذينك التمثالين هما التمثالان الوحيدان اللذان يجسدان حقيقة عجيبة وهي أن باستطاعة النساء أن يحفظن الأسرار.

حرب صليبية لسيد «القنطرة» العظيم

خلال بحثي الصباحي في سجلات مكتبة الجامعة المتعلقة بالتاريخ القديم، وقعت على حكاية صغيرة من تاريخ غرناطة تتميز تميزاً شديداً بالحماسة المفرطة التي كانت تلهب أحياناً قلوب المسيحيين وتدفعهم للعمل ضد هذه المدينة الرائعة، إلى درجة أنها اغرتني باستخراجها من الكتاب المجلد برق الغزال والذي دفنت فيه ، بغية تقديمها إلى القارىء.

في سنة استردادها ، أي 1394، كان يسود «القنطرة» سيد عظيم وفارس شجاع يدعى مارتن يانزدي باربودو، يلتهب حماسة وحمية لمحاربة العرب. لكن لسوء حظ ذلك الفارس الشجاع التقي، كان السلم قد استتب بين القوتين المسيحية والمسلمة، إذ كان هنري الثالث قد تولى لتوه عرش قشتالة ويوسف بن محمد عرش

غرناطة وكلاهما ينزعان للمحافظة على السلم الذي ساد بين أبويهما. بحزن وأسى كان السيد العظيم ينظر إلى الرايات والأسلحة العربيــة الـتي تزيـن قاعـة حصنـه، كرموز للانتصارات التي حققها أسلافه، فيئس أكثر وأكثر على قدره في أن يعيـش في مرحلة من الهدوء والسلم اللذين يكرههما كل الكراهية.

في النهاية، تجاوز نفاد صبره كل حد، وحين رأى أنه ليس بمســتطاعه أن يخلق حرباً عامة يشارك فيها فقد قرر ان يصطنع حرباً صغيرة خاصة به . هكذا، على الأقل، هي الرواية الـتي تحكيهـا سجلات التـاريخ القديمـة رغـم أن هنـاك روايات أخـرى تعطـي السـبب التـالي كدافـع لذلـك القـرار المفـاجىء بشـن حملـة عسكرية.

ذات يوم كان السيد العظيم يجلس إلى مائدته مـع عـدد مـن فرسـانه. فجـأة دخل القاعة رجل طويل ناحل معروق، على محياه سيما الشراسة وفي عينيه شـرر النار، فعرف فيه الجميع ذلك الراهب الذي كان أيـام شـبابه جنديـاً، لكنـه بعـد ذاك إعتزل الحياة ليعيش متوحداً في كهف من الكهوف. تقدم الراهب إلى الطاولـة ضارباً إياها بقبضة بدت كأنها من جديد، ثم قال «أيها الفرســان، لـماذا تجلسـون هنا كسالى عاطلين؟ أسلحتكم معلقة على الجدران بينما يسيطر أعـداء دينكـم علـى خير ناحية في البلاد؟» .

«أيها الأب المقدس، ماذا تريدنا ان نفعل؟ سأله السـيد العظيـم و« الحـروب قد انتهت كما ترى وسيوفنا قد غلتها معاهدات السلام؟»».

«اسمعوا كلماتي» أجاب الراهب «بينما كنت جالســاً في الهزيـع الأخـير مـن الليل، عند مدخل، كهفي، متفكراً بالسموات، رأيت رؤيا عجيبـة تشـبه الحلـم. رأيت القمر مجرد هلال لكنه مشع كما تشع الفضة وأكثر، وقد علق في السماء فوق مملكة غرناطة.

تطلعت اليه فرأيت نجماً وهاجاً ينطلق من قبـة السـماء، جـاراً وراءه نجـوم السماء كلها لتنقض جميعاً على القمر وتطرده بعيداً ثم تمتلــىء السـماء بنـور ذلـك النجـم الوهـاج. بعدئـذ ، وعينـاي مـا تـزالان مبهورتـين بذلـك المشــهد الغريــب العجيب، وقف إلى جانبي شخص ذو جناحين كالثلج وملامح ساطعة كـالنور ثـم قال «أنت، يا رجل الصلوات، اذهب الى سـيد القنطـرة العظيـم واحـك لـه الرؤيـا التي رأيت . إنه هو النجم الوهاج المقدر له أن يطرد الهلال مـن البـلاد، فليشـهر

سيفه بشجاعة وليتابع العمل الطيب الذي بدأه بيلازو قديماً وليكن على ثقة أن النصر سيصحب رايته.

اصغى السيد العظيم الى الراهب وكأنه يصغي الى رسول في السماء ثم تبع نصيحته في كل شيء. إذ أرسل طبقاً لمشورته اثنين من أعتى محاربيه المسلحين حتى آخر شعرة في رأسيهما بوفادة الى ملك العرب. دخل المحاربان بوابات غرناطة دونما إزعاج فالأمتان في حالة سلام ثم شقا طريقهما إلى الحمراء حيث أدخلا في الحال إلى الملك الذي استقبلهما في قاعة السفراء. على الفور سلماه الرسالة هكذا ، مباشرة ودونما مقدمات «إننا آتون أيها الملك، من قبل الدون مارتن يانيزدي باربودو، سيد القنطرة العظيم الذي يؤكد أنه هو وحده الحق والصواب وأنكم انتم الزيف والضلال كما يتحداكم للنزال في مبارزة مفردة بينك وبينه فإن أبيت ذلك يعرض عليك نزالاً بمائة فارس مقابل مائتين أو أي عدد تريده منا مقابل ضعفه منكم. ولتذكر أيها الملك أنه ليس باستطاعتك ان ترفض هذا التحدي، بل لا بد من أن تستجيب له بأي شكل تريد».

«لا شك أن سيد القنطرة هذا رجل مجنون» رد الملك يوسف وشعرات لحيته ترتعش «كي يرسل رسالة كهذه، وأنتما غران أحمقان كي تأتيا بها».

قال ذلك ثم أمر بالقائهما في زنزانة لتلقينهما درساً في الدبلوماسية وحسن التصرف، كما عوملا، وهما في طريقهما الى الزنزانة' شر معاملة من قبل الناس، الذين أغاظتهم كثيراً تلك الإساءة الموجهة الى ملكهم وقومهم. سمع سيد القنطرة العظيم بانباء المعاملة السيئة التي تعرض لها وفده دون أن يعطيها قيمتها الحقيقية، لكن الراهب استمتع كل الاستمتاع حين نقلت له «الرب نفسه أصاب ذلك الملك بالعمى كي يسقط في الهاوية »، قال الراهب «وطالما لم يرسل لك جواباً للتحدي الذي أرسلته له، اعتبر أنه قد قبل التحدي . لذلك، اجمع قواك وسر إلى غرناطة ولا تتوقف قبل أن ترى بوابة إلفيرا، وكن على ثقة أن معجزة ستحدث لصالحك، فسوف تجري معركة عظيمة: ولسوف ينهزم العدو لكن دون أن يصاب جندي واحد من جندك».دعا السيد العظيم كل محارب متحمس لمساعدته في تلك الحرب الصليبية وخلال فترة وجيزة، اجتمع تحت رايته ماينوف على ثلاثمائة فارس وألف من المشاة. كان الفرسان جنوداً قدامى ومحاربين متمرسين مجهزين للمعركة شاكي السلاح، لكن المشاة لم يكونوا كذلك فكلهم أغرار وبغير نظام . مع ذلك كان على النصر أن يتم بمعجزة والسيد العظيم

رجل شديد الإيمان يعرف تمام المعرفة أنه بقدر ما تكون الوسيلة أضعف تكون المعجزة أعظم. لهذا، وبثقة كاملة بالنفس، انطلق بجيشه الصغير وقد تقدم راهبه الجيش، حاملاً صليبه على عمود طويل يرفرف فوقه علم القنطرة.

حين اقتربوا من قرطبة، جاءتهم الرسل وكلهم مسرع بالأوامر من ملك قشتالة بوقف الحملة. لكن السيد العظيم كان رجلاً عنيد الرأس متصلب الرأي، وبعبارة أخرى كان رجلاً يسيطر على ذهنه فكرة واحدة «لو كنت أقوم بأية مهمة أخرى» قال السيد العظيم للرسل «إذن لأطعت الأوامر الآتية من سيدي الملك، لكنني هنا مرسل من قبل قوة أعلى من الملك، وخضوعاً لتلك الأوامر العليا فإنني اتقدم، ولسوف تكون خيانة عظمى أن أعود دون أن أنجز المهمة التي كلفت بها». وهكذا نفخت الأبواق ورفع الصليب عالياً من جديد واستأنفت عصبة المتحمسين مسيرتها. أثناء مرورها في شوارع قرطبة كان الناس يندهشون لرؤية راهب يحمل صليباً على رأس حشد من المحاربين لكن حين علموا أن النصر ـ المعجزة أتٍ وأن غرناطة ستدمر، راح الشغيلة، المهنيون، اصحاب الحرف الصغيرة يلقون بأدوات عملهم جانباً ويلتحقون بالحملة الصليبة، كما تبع الحملة زمرة من المرتزقة على أمل النهب والسلب.

غير أن عدداً من الفرسان ذوي المراتب والذين كانوا يفتقدون للإيمان بالمعجزة الموعودة، ويخشون في الوقت نفسه نتائج اندفاع متهور إلى بلاد العرب كهذا، تجمعوا عند جسر الوادي الكبير ساعين لتثبيط همة السيد العظيم ومنعه من عبوره، لكنه أعطاهم الأذن الصماء فهو لا يسمع رجاء ولا توسلاً لا ترغيباً ولا تهديداً، كما غضب أتباعه من تلك المعارضة لقضيتهم الدينية وهاجوا وماجوا واضعين نهاية الجدال بنفخهم الأبواق من جديد ومن جديد رفع الصليب رفعة النصر عبر الجسر.

على الطريق كان الحشد يتزايد وهو يمضي قدماً وحين وصل السيد العظيم الى «قلعة الرجال» التي تنتصب فوق جبل يطل على سهل الفيغا، سهل غرناطة، كان ما ينوف على خمسة آلاف راجل يسيرون تحت لوائه.

عند القلعة جاءهم ألونزوفرناندز القرطبي، سيد أغيلار، وأخوه دييغو فرناندز، قائد قشتالة العسكري، وفرسان آخرون من المشهود لهم بالبسالة والخبرة، معترضين طريق السيد العظيم «أي جنون هذا يا دون مارتن؟» قالوا

له«لدى الملك العربي مائتا الف من المشاة وداخل أسواره خمسة آلاف من الفرسان. ماذا باستطاعتك، أنت وحفنتك هـذه مـن الخيالـة ورعـاعك الصـاخبين هـؤلاء أن تفعلوا إزاء قوة كهذه؟ فكر بالكوارث التي حلت بالقادة المسيحيين الآخرين الذين عبروا هذه الحدود الصخرية بعشرة أضعاف قوتك. فكر أيضاً بالشر الـذي ستجره على هذه المملكة نتيجة حماقة من هذا النوع يرتكبها رجل بمكـانتك وأهميتـك يـا سيد القنطرة العظيم. توقف، نتوسل اليك، طالما أن الهدنة ما تزال قائمـة. تريـث ضمن الحدود بانتظار جواب ملك غرناطة علـى تحديـك. إن وافـق علـى منـازلتك إفرادياً، أو ببطلين أو ثلاثة، كانت تلك مسألتك الشخصية وقاتلت بمفردك باسـم الرب، أما إن رفض، فيمكنك ان تعود مرفوع الرأس والعار والشنار له وحده».

تأثر عدة فرسان ممن كانوا حتى تلك اللحظة قد تبعوا السـيد العظيـم بدافـع الحماسة الشديدة فقط، بتلك الأقوال والحجج وفي الحال اقترحوا عليه أن يستمع لتلك لنصيحة.

«أيها الفرسان» قال السيد العظيم موجهاً خطابـه إلى الونزوفرنـاندز القرطـبي وصحبه «أشكركم على النصيحة التي قدمتموها لي بكل هذا اللطف والكياسة لكن، إن كنت هنا فقط من أجل مجـد شـخصي، فـأرجو أن لا ينـالني شـيء مـن ذلـك المجد، لكنني هنا وهمي الوحيد أن أحقق نصراً عظيماً للدين الذي وعدني الـرب أن يحققه لي بمعجزة من عنده. أما أنتم أيها الفرسان » قال وهو يلتفت إلى أتباعـه من الفرسان الذين ترددوا«فإن كانت قلوبكم قد خذلتكم، أو كنتـم قـد ندمتـم علـى المشاركة في هذا العمل الطيب، أقول لكم باسم الرب عودوا تصحبكم بركتي، لكـن بالنسبة إلي وحتى لو لم يقف الى جانبي أحد سوى الراهب المقدس فإنني بالتـأكيد سأمضي قدماً إلى أن أغرس هذه الراية المقدسة على أسـوار غرناطـة أو أهلـك وأنـا أحاول ذلك». «دون مارتن يانيز دي باربودو» أجاب الفرسان «مـا نحـن بالرجـال الذين يديرون ظهورهـم لقـائدهم مهمـا يكـن مشـروعه متهـوراً. لقـد تكلمنـا حـذراً وحيطة فقـط فـامض إذن ، وإن كـان ثمـة المـوت فكـن علـى ثقـة أننـا إلى المـوت نتبعك». حينذاك، كان الجنود العاديون قد نفد صبرهم فصاحوا بصوت واحد «إلى الأمام! ! إلى الأمام! !» وهكذا، أعطى السيد العظيم إشارة التقدم، ومن جديد رفـع الراهـب الصليب عالياً وهم ينحدرون رتلاً زاحفاً على سفح الجبل مرددين أناشـيد النصر الرزينة. تلك الليلة، خيموا عنـد نهـر أزنـور. في الصبـاح التـالي، وكـان يـوم أحد، عبروا الحدود ثم توقفوا أول مرة عند «أضاليا» أو البرج المنعـزل الـذي شـيد

على صخرة ليكون موقعاً أمامياً لمراقبة الحدود والانذار عند حدوث غارة لهذا السبب كان يدعى «برج الجاسوس».

أمام ذلك البرج وقف السيد العظيم داعياً حاميته الصغيرة للاستسلام فكان الرد وابلاً من الحجارة والسهام جرحت يده وقتلت ثلاثة من رجاله.

«كيف هذا أيها الأب؟» قال للراهب «لقد أكدت لي أنه ما من رجل من رجالي سيصاب أو يقتل».«صحيح يا بني. لكنني كنت أقصد أنه لن يقتل في المعركة الكبيرة مع ذلك الملك الكافر. ترى أي حاجة بنا لمعجزة من أجل الاستيلاء على برج صغير؟».

اقتنع السيد العظيم بالحجة وللتو أمر بتكديس الخشب على باب البرج بغية حرق البرج بمن فيه. في غضون ذلك كانت المؤن قد أفرغت من أحمالها على ظهور البغال، وكان رجال الحملة قد جلسوا بعيداً عن مرمى السهام على المرج الأخضر كي يتناولوا طعامهم عسى أن يزودهم بالقوة التي يتطلبها العمل المضني الذي ينتظرهم.أثناء انشغالهم ذاك، أجفلوا وقد ظهرت فجأة جمهرة عظيمة من الفرسان العرب. فحامية «أضاليا» كانت قد أرسلت إنذارها بإشعال النار والدخان على ذرى الجبال وهكذا. من ذروة إلى ذروة مضى ما معناه. «قد عبر العدو الحدود». وفي الحال انطلق ملك غرناطة بقوة كبيرة لمواجهة الخطر.

طار رجال الحملة، وقد أخذوا على حين غرة، إلى سلاحهم يستعدون للمعركة، فيما أمر السيد العظيم خيالته الثلاثمائة ـ بالترجل عن خيولهم والقتال راجلين دعماً لمشاته. لكن العرب شنوا هجومهم بغتة إلى درجة أنهم فصلوا الخيالة عن المشاة ومنعوا أي اتحاد بينهم. صاح السيد العظيم صيحة الحرب القديمة «سانتيا غو ! سانتيا غو ! واسبانيا الغالية!» ثم اندفع هو وفرسانه إلى أتون المعركة، لكن كان يحيط بهم عدد لا يحصى من المقاتلين وكانت تنهمر عليهم من كل حدب وصوب السهام، الحجارة، الرماح الخفيفة وطلقات القربينات (البنادق القديمة). مع ذلك ظلوا يقاتلون دون خوف صانعين مذبحة كبيرة. الراهب نفسه خاض غمار القتال ، بيد يحمل الصليب وبالأخرى يشهر السيف ضارباً به كالمجنون ذات اليمين وذات الشمال مجندلاً العديد من الأعداء إلى ان سقط على الأرض مثخناً بالجراح . رآه السيد العظيم يسقط كما رأى حماقة تنبؤاته لكن بعد أن فات الأوان، مع ذلك جعله اليأس يقاتل بشراسة أكثر إلى أن سقط هو الآخر

وقد غلبته الكثرة. فرسانه المخلصون كانوا يضاهونه حماسة مقدسة، فما من فارس أدار ظهره هارباً ولا طلب رحمة بل قاتلوا جميعاً إلى ان سقطوا صرعى. أما المشاة فكثير منهم قتلوا لكن أخذ الكثير منهم أسرى، فيما فر البقية إلى «قلعة الرجال». وحين جاء العرب لتجريد ضحايا المعركة وجدوا أن جروح الفرسان كلها في الصدور.

تلك هي الكارثة التي انتهى اليها ذلك المشروع المجنون. بعده، راح العرب يتباهون به باعتباره البرهان الحاسم على عظمة دينهم وتفوقه ممجدين ملكهم رافعيه إلى السماء وهو يعود بالنصر إلى غرناطة.

تلك الحملة، كما هو مبين وعلى نحو مقنع، كانت مشروعاً إفرادياً مخالفاً تماماً لأوامر ملك قشتالة الصريحة، لذلك استمر السلام بين المملكتين قائماً، ليس هذا وحسب بل إن العرب أظهروا كل مشاعر الاحترام لبسالة السيد العظيم العاثر الحظ وبكل طيبة خاطر سلموا جثمانه للدون لو نزو فرناندز القرطبي الذي جاء من القلعة طلباً لها. وهكذا، تجمع مسيحيو الحدود لإقامة آخر مراسم التكريم له واضعين جثمانه على عربة دفن وقد لف بعلم القنطرة ، واضعين أمامه الصليب المحطم ، رمز آماله المهشمة وخيبته القاتلة .



قصة رومانسية
من اسبانيا

في الشطر الأخير من إقامتي في الحمراء، غالباً ما كنت أنزل على مكتبة الجزويت في الجامعة، مستمتعاً أكثر وأكثر بسجلات التاريخ الاسبانية القديمة التي وجدتها هناك مجلدة بجلد الغزال وقد استمتعت على نحو خاص بتلك التواريخ الطريفة التي تتناول العهود التي كان فيها العرب يحتفظون بموطىءٍ قدم لهم في شبه الجزيرة، ورغم كل ما فيها من تعصب أعمى وعدم تسامح أحياناً، إلا أنها ملأى بالفصول النبيلة والعواطف الكريمة، كما يحس فيها المرء بنكهة شرقية رفيعة عبقة لا توجد في السجلات الأخرى لتاريخ شبه الجزيرة حين كانت أوربية خالصة ـــ والحقيقة أن اسبانيا، حتى في الوقت الراهن، هي بلاد منفصلة، مقطوعة تاريخاً، عادات، أعرافاً ونمط تفكير عن بقية أوروبا. إنها بلاد رومانسية لكن ليس لرومانسيتها عاطفية الرومانسية في أوروبا المعاصرة. إنها مستمدة بصورة

رئيسية من مناطق الشرق بكل ما فيهـا مـن إشـراق وألـق ، مسـتمدة مـن المدرسـة العالية ـ التفكير للفروسية العربية الشرقية.

إن فتح العرب لتلك البلاد قد حمل معه حضارة أرقى وطرازاً أنبل في التفكير إلى اسبانيا القوطيـة ، فـالعرب أنـاس شـاعريون لامعـو الذكـاء، سـريعو البديهـة ، أصحاب إباء وشهامة ، وحكمة وعقل، وقد تشربوا بعلوم الشـرق وآدابـه ، وحيثمـا كـانوا يقيمـون مركـز قـوة ونفـوذ، يصبـح علـى الفـور مركـز اسـتقطاب للمتعلمـين والنابغين، كما كانوا يقومون بتشذيب وصقل الناس الذين يفتحون بلادهم، وشـيئاً فشيئاً كان ذلك الاهتمام بالتعليم والصقل يعطيهم حقاً وراثياً، علـى مـا يبـدو، في موطىء قدمهم ذاك في البلاد ولا يعود احد ينظر إليهم على أنهم غزاة دخلاء، بل جيران منافسون، وشـبه الجزيـرة الـتي مزقـت الى عـدد مـن الدويـلات المسـيحية والمسلمة على السواء، ظلت على مدى قرون ساحة قتال، حيث كان فـن الحـرب قد أصبح شغل الرجال الرئيسي كما كان يتم بأعلى درجة مـن درجـات الفروسـية الرومانسية، ذلك أن الأرضية الأساسية من الحقد والعداء واختـلاف الديـن كـانت شيئاً فشيئاً قد فقدت حدتها. والـدول المجـاورة، رغـم اختـلاف العقـائد، كـانت أحياناً تعقـد فيمـا بينهـا التحالفـات، الدفاعيـة منهـا والهجوميـة، بحيـث كـان الصليب والهلال غالباً ما يشاهدان جنباً إلى جنب وهما يقاتلان ضد عدو مشـترك. في أيام السلم أيضاً، كان شبان الطبقة النبيلة من كـلا المذهبـين يلجـأون إلى المـدن نفسها، مسيحية كانت أم مسلمة ليلتحقـوا بـالمدارس الـتي يتعلمـون فيهـا العلـوم العسكرية، بل حتى في أيـام الهدنـة المؤقتـة للحـروب الدمويـة، كـان المحـاربون الذين عادوا لتوهم من العراك الشديد ضد بعضهم بعضـاً، يلقـون جانبـاً عداواتهـم ويلتقون في مباريات ومبارزات ودية ويشاركون في الأنواع الأخرى مـن الاحتفـالات والمهرجانات ويتبادلون المجاملات بروح نبيلة كريمة . على ذلك النحو، أصبحت الشعوب المختلفة تمتزج معاً وتختلط بنوع من التواصـل السـلمي، وإذا كـان هنـاك أي تنافس فإنما يكون على درجة عالية من الرقي والنبل الذي يتناسـب مـع روح الفارس الشهم النبيل. لهذا السبب ربما، كان المحاربون من العقيدتين المختلفتـين يطمحون للتفوق بعضهم على البعـض الآخـر في الشـهامة والمروءة كمـا في البسـالة والاقدام، والحقيقة، أن فضائل الفروسية وشمائلها كانت قـد شـذبت وصقلـت إلى درجة بلغت أحياناً حد التقييد وصعوبة الإرضاء، لكن أحياناً أخرى كـانت نبيلـة ومؤثرة على نحو لا يمكن التعبير عنه. إن حوليات تلك الأيام ملأى بالأمثلة الـتي

توضح تلك الحالة الرفيعة من الرقي والنبل والكرم الرومانسي والرفعة والتركيز على الشرف والكرامة مما ينشر الدفء ويبعث الراحة في النفس حين يقرأه المرء. إنها موضوعات جاهزة لتكون مادة لمسرحيات وأشعار وطنية، هي التي كانت مادة رائعة لتلك الاناشيد والأغاني التي تجدونها في كل مكان في إسبانيا والتي تشكل أنفاس الحياة للشعب الاسباني، والتي استخدمت على هذا النحو لكي تمارس تأثيرها على شخصية الانسان التي لم تستطع قرون من الانهيار والتراجع تدميرها . بحيث أن الاسبان، رغم عيوبهم الكثيرة، ما يزالون حتى الوقت الحاضر، وفي جوانب عديدة أكثر شعوب أوروبا رقي عقل وكبرياء روح. صحيح أن رومانسية المشاعر مستمدة من المصادر التي ذكرت، إلا أن لها مثل كل رومانسية أخرى، تكلفاتها وتصرفاتها، إنها تجعل الاسباني في بعض الأحيان دعياً مغروراً، ميالاً لأن يتجاوز، في مسائل الشرف والكرامة، حدود المنطق والعقل والأخلاق السليمة . نزاعاً وسط الفقر والعوز لأن يؤثر التمسك بسلوك «الفارس العظيم».

وأن ينظر بازدراء تام الى المهن اليدوية وكل سبل كسب العيش لدى الطبقات الدنيا من الشعب ، لكن «نفخة» الروح هذه تحديداً، وعلى الرغم من أنها تملأ دماغه زبداً وبخاراً، إلا أنها ترفعه فوق كل ضعة وخسة، وعلى الرغم من أنها تبقيه في حالة من الفقر والعوز إلا أنها تحميه من الرعاعية، لكن لكي لا أستطرد أكثر، يسرني أن أقدم للقارىء ثمرة من ثمرات قراءاتي الصباحية في مكتبة الجزويت الجامعية القديمة، وهي حكاية جميلة أخذتها من أحد السجلات التاريخية المحترمة التي أشرت إليها:



حكاية الدون

« مونيو سانشو دي هينوجوسا »

في أروقة دير من أديرة سان دومينغو في سيلوس ، قشتالة، لا تزال هناك نصب بالية لكن رائعة لعائلة الفرسان هينو جوسا التي كانت ذات يوم صاحبة قوة ونفوذ . بين ذلك الركام البالي ثمة تمثال من رخام لفارس بكامل عدته وسلاحه وقد انضمت يداه الواحدة إلى الأخرى وكأنه يصلي . على أحد جانبي ضريحه نقش بالرسم النافر، صور عصبة من الفرسان المسيحيين وهم يأسرون قافلة من العرب ذكوراً وإناثاً على الجانب الآخر، رسم الفرسان أنفسهم وهم يركعون أمام مذبح. الضريح شأنه شأن معظم النصب المجاورة، في حالة بائسة تقارب الحطام كما أن المنقوشات عليه باتت غامضة يصعب أن يفهمها إلا الخبير المتمرس بالآثار القديمة. مع ذلك. فإن القصة المتعلقة بالضريح والنقش ، ما تزال محفوظة في السجلات الاسبانية القديمة وهي كما يلي:

في ماضي الزمان، وقبل عدة مئات من السنين، كان هنالك فارس نبيل من قشتالة يدعى الدون مونيو سانشودي هينو جوسا، يملك حصناً على الحدود صد الكثير من غارات العرب وغزواتهم . سبعون فارساً كانوا هم قوته وجنده، وكلهم قشتاليون اصلاء محاربون اشداء، فرسان أقوياء لكأنهم رجال من حديد. بهؤلاء الرجال كان الدون يجوب أراضي العرب غازياً مغيراً . مما جعل اسمه يبعث الرعب في القلوب في منطقة الحدود كلها. جدران القاعة في حصنه كانت مغطاة كلها بالرايات والسيوف والخوذ الاسلامية وكلها دلائل ترمز لشجاعته وبسالته . علاوة على ذلك كان الدون مونيو صياداً ماهراً لديه كلاب صيد من كل الأنواع، خيول لطرد الطرائد ، بزاة للقنص. كانت متعة الرجل حين لا يكون منشغلاً بأعمال الحرب والقتال، أن يطرق الغابات في الجوار وقلما كان يركب حصانه وينطلق بعيداً بغير كلاب صيد وأبواق، رمح الصيد في يده، والبازي على قبضته وحاشية من الصيادين في ركابه.

غير أن زوجته الدونا ماريا بالاسين ، كانت بطبيعتها رقيقة لطيفة غير مهيأة كثيراً لأن تكون زوجة فارس مغامر قاس صلب كزوجها، ولشد ما أراقت تلك السيدة المسكينة من دموع حين كان ينطلق في مشروع من مشاريعه الجريئة تلك ولشد ما كانت تصلي وتدعو ربها من أجل أمانه وسلامته.

ذات يوم، كان ذلك الفارس المقدام في الصيد والقنص وقد كمن في حرج كثيف، على تخوم غابة خضراء، موزعاً أتباعه هنا وهناك لاستثارة الطرائد وسوقها باتجاهه. لم يكن قد مضى على مكمنه وقت طويل، حين ظهر موكب من العرب، رجالاً ونساء، على الطرف الآخر للحرج ، لم يكونوا مسلحين بل كانوا يرتدون أزهى الملابس ، ثياباً مطرزة مزخرفة، شالات فاخرة من الهند، حلياً وأساور من الذهب وماساً وجواهر تتلألأ تحت أشعة الشمس. على رأس ذلك الموكب البهيج كان هنالك فارس شاب يفوق أقرانه رفعة في الشرف ورقياً في السلوك وروعة في الملابس. وإلى جانبه فتاة، أزاح الهواء نقابها جانباً فتجلت بوجه فائق الجمال وعينين مطرقتين أرضاً بحياء العذارى لكنهما تشعان رقة ومرحاً.

شكر الدون مانيو طالعه على إرساله جائزة كهذه له منتشياً في سره لمجرد التفكير بأن يعود إلى بيته وزوجته بأسلاب أولئك الأعداء المتلالئة. للتو، وضع بوق قنصه على شفتيه نافخاً نفخة دوت لها أرجاء الغابة. أسرع صيادوه من كل

حدب وصوب وسرعان ما وجد الموكب نفسه محاصراً من الجهات الأربع مما اضطره لأن يرفع راية الاستسلام.

راحت الحسناء العربية تفرك يديها يأساً وقنوطاً، كما راحت وصيفاتها وحاشيتها من النساء يولولن صائحات صارخات، لكن الفارس وحده ظل محتفظاً برباطة جأشه. سأل عن اسم الفارس المسيحي آمر ذلك الرهط من الخيالة. قالوا له انه الدون مونيو سانشو دي هينو جوسا، فأشرق وجهه ثم اقترب منه قائلاً «أيها الدون مونيو سانشو، إن صيتك لذائع في كل مكان بأنك فارس عنيد ومقاتل رهيب في ساحة الوغى لكنك متشرب بشيم الفروسية والشهامة والنبل وإني لعلى ثقة أنني سأجدك هكذا. إنك ترى أمامك عبد الله ابن القائد العربي هناك وأنا في طريقي لإقامة عرسي على هذه الفتاة. المصادفة وحدها ألقتنا بين يديك لكنني واثق كل الثقة بشهامتك ومروءتك. خذ كل ما معنا من ذهب وجواهر، واطلب ما تشاء، من فدية، لكن لا تعرضنا للذل والمهانة».حين سمع الفارس الطيب ذلك الرجاء ورأى جمال العروسين الشابين، رق قلبه وتحركت شهامته ثم قال «لا سمح الله أن أعكر صفو عروسين سعيدين هكذا. انتم بالحقيقة، سوف تكونون أسرى لدي مدة خمسة عشر يوماً، تقضونها بالصون والحفظ داخل حصني ولكنني أطالب كغاز، بحق الاحتفال بزفافكما».

قال ذلك ثم بعث بأسرع فرسانه كي يسبق الركب فيعلم الدونا ماريا بالاسين بوصول موكب العرس ذاك، في حين سار هو وفرسانه مع الموكب لا كآسرين بل كحرس شرف. حين اقتربوا من الحصن، كانت الرايات ترفع عالياً على الأسوار، والأبواق تنفخ من التحصينات وحين اقتربوا أكثر، أنزل الجسر المتحرك على الخندق وخرجت الدونا ماريا لاستقبالهم تصحبها سيدات الحصن وفرسانه، وصيفاتها ووصفائها، مغنوها وموسيقيوها. بالأحضان تلقت الدونا العروس الصبية العفراء، مقبلة إياها كما تقبل الأخت اختها سائرة بها إلى داخل الحصن. في غضون ذلك، أرسل الدون مونيو الرسل في كل اتجاه آمراً بأن يأتوا بالمؤن والأطعمة من كل صنف ولون من أنحاء البلاد كلها، ثم جرى الاحتفال بزفاف الحبيبين العربيين كأبهج وأمتع الاحتفالات. خمسة عشر يوماً ظل الحصن في حالة فرح وابتهاج. فأقيمت مبارزات وجرت مباريات وصراع ثيران، ولائم ورقص على أنغام الغيتار وأغاني الشعراء، بانتهاء الخمسة عشر يوماً، قدم الدون الهدايا اللائقة

للعروسين ثم نقلهما وحاشيتهما إلى خارج الحدود بأمان وسلام. هكذا ، في الأيام القديمة، كانت شهامة الفارس الاسباني ومروءته.

بعد سنوات من ذلك الحادث، دعا ملك قشتالة نبلاءه للمشاركة في حملة عسكرية ضد العرب وكان الدون مونيو أول من لبى النداء، مع فرسانه السبعين وكلهم مجرب في الحروب مقدام. شبكت الدونا ماريا، زوجته ، يديها حول عنقه قائلة ـ وا أسفاه يا سيدي!! ما أكثر ما تغري قدرك بك ، فمتى يا ترى ينطفىء ظمأك للمجد!!

«معركة واحدة أخرى» أجاب الدون مونيو «معركة واحدة من أجل مجد قشتالة، وأقسم لك إنني بعد هذه المعركة، سأغمد سيفي وأذهب مع فرساني للحج إلى ضريح سيدنا في بيت المقدس». للتو انضم فرسانه اليه مقسمين قسمه. حينذاك فقط أحست الدونا ماريا بشكل من أشكال الراحة والطمأنينة. لكنها ظلت تشعر بأنها مثقلة القلب حزينة لرحيل زوجها، ترقب رايته وهي تبتعد بعينين دامعتين إلى أن غيبتها عن الأبصار أشجار الغابة.

إلى سهول الحمراء قاد ملك قشتالة جيشه . هناك التقوا بالجيش العربي قرب «أكليس» في معركة طويلة دامية، كان المسيحيون فيها يتأرجحون باستمرار بين كر وفر ولم يكن يعيدهم إلى الكر إلا نشاط قادتهم وعزيمتهم. أثخن الدون مونيو بالجراح لكنه أبى أن يترك ساحة القتال. أخيرا انهزم المسيحيون واشتد الضغط على الملك، مهدداً بخطر التعرض للأسر.

نادى الدون مونيو فرسانه كي يلحقوا به لانقاذ الملك صائحاً ملء صوته «الآن ، آن الأوان لاثبات إخلاصكم . فلتموتوا كما يموت الشجعان !! إننا نقاتل من أجل حقنا، وإذا متنا متنا شرفاء». قال ذلك ثم اندفع برجاله حائلاً بين الملك ومطارديه، متمكناً أخيراً من صد هؤلاء تاركاً فسحة من الزمن لنجاة مليكه، إلا أن فرسانه جميعاً سقطوا ضحايا إخلاصهم بعد أن قاتلوا حتى آخر نفس. بين يدي فارس عربي شديد البأس وقع الدون مونيو وحيداً مفرداً. ولأن ذراعه اليمنى كانت قد جرحت من قبل فقد كانت معركته خاسرة وسرعان ما سقط صريعاً. بسقوطه كانت المعركة قد انتهت فترجل الفارس لسلب ما في حوزة فارسه الصنديد من غنائم. لكن ما إن حل رباط الخوذة عن رأسه ورأى أمامه محيا الدون

مونيو حتى أطلق صرخة مدوية داقاً على صدره «الويل لي! ! لقد ذبحت من أحسن إلي! ! فارس الفرسان! ! أعظم الرجال شهامة ومروءة ! !»

على الرغم منْ أن المعركة كانت تجري في سهل سلمانارا، إلا أن الدونا ماريا ظلت في حصنها فريسة القلق والاضطراب عيناها مسمرتان أبداً على الطريق الآتي من بلاد العرب، لتسأل من حين إلى حين المراقب في البرج«ماذا ترى؟».

ذات مساء، ومع ظلال الغسق، نفخ الحارس بوقه ثم صاح « إنني أرى ركباً كثير العدد يلتف مع الوادي. هو خليط من عرب واسبان. راية سيدي في المقدمة. أخبار مفرحة ! ! » هتف الحارس القديم «سيدي يعود بالنصر والكثير من الأسرى ! ! .. عندئذ دوت في أفنية القصر وقاعاته صيحات الفرح كما رفعت الرايات ونفخت الأبواق وقرعت الطبول وأنزل الجسر المتحرك. فانطلقت الدونا ماريا مع حاشيتها من سيدات وفرسان ، خدم وحشم للترحيب بسيدها العائد من الحرب. لكن مع اقتراب الركب رأت عربة نعش فخمة مجللة بالقطيف الأسود' وقد تمدد عليها محارب وكأنما هو يستريح .لقد كان بكامل سلاحه، خوذته على رأسه وسيفه في يده كما لو أنه لم يقهر قط' وحول النعش شعارات النبالة الخاصة بعائلة هينوجوسا .عدد من الفرسان العرب كانوا يرافقون النعش وكلهم بثياب الحداد وسيماء الحزن والاكتئاب. وصلوا فألقى قائدهم بنفسه عند قدمي الدونا ماريا مخفياً وجهه بين يديه .نظرت إليه فرأت فيه الفارس عبد ا لله الذي كانت ذات يوم قد رحبت به هو وعروسه في قصرها لكنه اليوم جاء بجثمان زوجها الذي ذبحه في المعركة دون أن يعرفه.

في احد أروقة دير سان دومينغو أقيم ضريح الدون، وعلى حساب العربي عبد ا لله ' دليلاً بسيطاً على حزنه لموت الفارس الشهم الدون مونيو وإجلالاً لذكراه .أما الدونا ماريا الرقيقة المخلصة فسرعان ما لحقت بسيدها إلى القبر وعلى واحدة من حجارة القوس الصغير الذي أقيم بجانب ضريحها نقشت العبارة البسيطة التالية «هنا ترقد ماريا بالاسين زوجة مونيو سانشو دي هينوجوسا». غير أن حكاية الدون مونيو لم تنته بموته، ففي اليوم نفسه الذي جرت فيه المعركة على سهول سلمانارا' كان قند لفت الكنيسة المقدسة في بيت المقدس يقف عند بابها الخارجي، حيث رأى ركباً من فرسان مسيحيين يتقدم وكأنه أتٍ للحج. كان القندلفت اسباني الأصل وحين اقترب الحجاج عرف قائدهم: إنه الدون مونيو سانشو دي هينوجوسا الذي كان يعرفه جيداً في الأيام الماضية. في الحال

أسرع الى البطريرك مخبراً إياه عن المرتبة الرفيعة للحجاج القادمين عند الباب. لهذا السبب انطلق البطريرك بموكب عظيم من كهنته ورهبانه مستقبلاً الحجاج بما يليق بهم من حفاوة وتكريم. لقد كانوا سبعين فارساً إضافة إلى قائدهم، والكل من المحاربين الشجعان الاشداء، يحملون خوذاتهم بأيديهم وعلى وجوههم شحوب الموتى. لم يحيوا أحداً ولم ينظروا إلى اليمين أو الشمال، بل دخلوا الكنيسة الصغيرة ثم ركعوا أمام ضريح السيد المخلص، متمتمين صلواتهم بسكينة وصمت. حين انتهوا، نهضوا كما لو أنهم راحلون. أسرع البطريرك ومرافقوه للتحدث إليهم، لكنهم لم يستطيعوا أن يروا أحداً فقد اختفوا عن العيان، تعجب الجميع «ما تراه معنى ذلك كله»؟ لكن البطريرك دوّن في كتابه تاريخ ذلك اليوم وأرسل الى قشتاله يسأل عن أخبار الدون مونيو سانشو، فجاء الجواب: في ذلك اليوم بالذات قضى نحبه ذلك الفارس النبيل وفرسانه السبعون في ساحة الوغى.

لهذا، لا بد من أن يكون ما رآه البطريرك وحاشيته في القدس أرواح أولئك الفرسان المسيحيين المباركة وقد جاءت للوفاء بعهد كانوا قد قطعوه وهم أحياء في أن يحجوا إلى الضريح المقدس في بيت المقدس. هكذا كان الإيمان القشتالي في الأيام القديمة، يحافظ فيه المؤمن على كلمته حتى وإن كان في القبر!

لكن إن كان هنالك من يشك بالظهور العجائبي لأولئك الفرسان ـــ الأشباح، فما عليه إلا أن يرجع إلى «تاريخ ملوك قشتالة وليون» بقلم الراهب الورع الفهامة «فراي برود نسيو دي سانديفال» أسقف بامبلونا حيث سيجد القصة مسجلة في تاريخ الملك دون الونزو السادس في الصفحة مائة واثنتين، وإنها لحكاية أثمن بكثير من أن تترك للشكاكين المرتابين.

الشعر والشعراء
في الأندلس العربية

خلال الفترة الأخيرة من إقامتي في الحمراء. زارني أكثر من مرة مغربي من تطوان، كان يسرني كثيراً التجوال معه في التلال والمتنزهات وجعله يشرح لي الكتابة العربية، وهي المهمة التي سعى لأدائها بكل إخلاص لكن، على الرغم من أنه أفلح في إعطائي فكرة عنها، إلا أنه يئس من تشريبي بالفكرة التي يحملها هو عن روعة لغة الشعر وجمالها، فقد قال لي إن نكهة الشعر كلها تضيع في الترجمة، مع ذلك فقد تشربت بما يكفي ليزيد من ارتباطاتي المتعة بهذا الصرح الخارق للعادة، فربما ليس هنالك أثر يعبر عن عصره وناسه اكثر من الحمراء: تلك القلعة الكالحة خارجاً والقصر الباذخ داخلاً، الحرب تكشر فوق أسواره، وأنغام الشعر تنسرب في قاعاته الرائعة المعمار. بلا مقاومة، يجد المرء نفسه وهو ينتقل بخياله إلى تلك الأيام، حين كانت اسبانيا العربية الاسلامية منطقة إشعاع للحضارة والنور وسط أوروبا المسيحية إنما الغارقة في الظلام، فقد كانت، خارجها

قوة حربية تقاتل من أجل البقاء لكن داخلياً دولة مكرسة للآداب والعلوم والفنون، حيث الفلسفة تصقلها العاطفة فتتحول إلى حكمة ومأثورات وحيث وسائل الترف الحسية تتسامى بها وسائل التفكير والخيال.

بلغ الشعر العربي، كما قيل لنا ، ذروة روعته أيام الأمويين في اسبانيا الذين ركزوا، ولفترة طويلة من الزمن، قوة الخلافة العربية وعظمتها في قرطبة. لقد كان معظم حكام تلك السلالة اللامعة هم أنفسهم شعراء، أحد أواخرهم هو محمد بن عبد الرحمن الذي عاش حياة الترف والانغماس في الملذات في قصر الزهراء الشهير وحدائقه الغناء، يحيط به كل ما يمكن أن يثير الخيال ويبهج الأحاسيس . فقصره ملاذ الشعراء ووزيره، ابن زيدون، هو «هوراس» اسبانيا العربية وذلك لأشعاره الرائعة التي كانت تروى بحماسة حتى في قاعات خلافة الشرق. هذا الوزير تعلق بهوى الأميرة ولادة بنت محمد هذا، معبودة بلاط والدها، الشاعرة من الطراز الأول والمشهورة بجمالها شهرتها بموهبتها. وإذا كان ابن زيدون هو «هوراس» اسبانيا العربية الاسلامية فقد كانت ولادة شاعرتها «سافو». لقد أصبحت الأميرة شغل الوزير الشاغل وموضوع هواه وأشعاره، ولا سيما تلك الرسالة التي وجهها لها والتي، كما يقول المؤرخ القلقشندي، لم يعرف تاريخ الأدب ما يضاهيها رقة وأسى. وإذا كان الشاعر قد عرف السعادة في حبه أم لا ، فإن المؤلفين الذين رجعت إلى كتبهم لم يذكروا ذلك، لكن أحدهم يلمح إلى أن الأميرة كانت حصيفة عاقلة بقدر ما كانت جميلة مما جعل كثيراً من عشاقها يطلقون التنهدات سدى. والحقيقة ، أن هيمنة الحب والشعر على جو الزهراء الماتع البهيج، سرعان ما بلغت النهاية إثر قيام انتفاضة شعبية، فر محمد وعائلته إثرها ملتجئاً إلى قلعة «اكليس» قرب طليطلة حيث غدر به القائد هناك وسجنه وبذلك كانت نهاية السلالة الأموية.

على أن انتهاء تلك السلالة اللامعة التي ركزت كل شيء في قرطبة، كان لصالح الأدب في اسبانيا العربية بصورة عامة. يقول القلقشندي « بعد انفراط العقد وتناثر لؤلؤه، تقاسم ملوك الدويلات الصغيرة بينهم ملك بني أميه، فراحوا ينافسون بعضهم بعضاً في اجتذاب الشعراء والعلماء إلى عواصمهم مغدقين عليهم الهبات والعطايا بسخاء لا حدود له » هكذا كان ملوك اشبيلية وهم من السلالة ' ستنيرة بني عباد. «الذين على أيديهم » كما يقول الكاتب نفسه «قطفت الثمار ، رمان وعنب ونخيل ، فاصبحوا مركز استقطاب للفصاحة شعراً ونثراً . كل

يوم من أيام حكمهم مهرجان للأدب، تاريخهم يزخر بأعمال الفخار ومآثر البطولة تلك التي ستدوم مدى الزمان حية خالدة في ذاكرة الانسان».

مع ذلك، ما من مكان استفاد، من وجهة نظر الحضارة والرقي، من سقوط خلافة الأندلس أكثر مما استفادت غرناطة إذ كانت تلي قرطبة في العظمة رغم أنها تفوقها جمال موقع ورومانسية. فاعتدال مناخها، حيث يخفف حر الصيف وقيظه الانسام الآتية من الجبال المكللة بالثلج، وكذلك خصوبة ديانها ووفرة رياضها وحدائقها كلها كانت تدفع الحواس باتجاه الاسترخاء والاستمتاع وتنزع بالعقول منزع الحب والشعر. لهذه الأسباب كلها، ازدهر ذلك العدد الكبير من شعراء الغزل في غرناطة ولهذه الأسباب ظهرت أناشيد الحب تلك التي تضوع بشذا الحب والحرب وتضفر أكاليل الغارعلى رؤوس الفرسان حتى في أعمالهم الحربية نفسها.

تلك الأناشيد التي ما تزال تشكل فخر الأدب الاسباني وبهجته إن هي إلا أصداء لقصائد الفروسية والغزل التي كانت في الماضي تبهج بلاط الملوك في الأندلس وتبعث في قلوبهم المسرة، والتي ، كما يدعي مؤرخ حديث لغرناطة، تعود إليها أصلاً قصيدة «ريمة القشتالية» وذلك اللون من «فنون المسرح» الذي يقدمه الجوالون في غرناطة، كان ينظم الشعر كلا الجنسين. «لو أن ا لله» كما يقول القلقشندي «لم يهب غرناطة من هبة سوى أنه جعلها مسقط رأس الكثير من الشاعرات ، لكفاها مجداً وشرفاً».

ولعل أشهر تلك الشاعرات هي حفصة التي ، كما يقول المؤرخ القديم نفسه، اشتهرت بجمالها ومواهبها وحسبها وغناها، لكن للأسف، لم يبق لنا إلا القليل القليل من شعرها على شكل أبيات متفرقة ومقطوعات صغيرة تخاطب في إحداها حبيبها أحمد، وهي تتذكر أمسية قضياها معاً في حديقة «المؤمّل».

وحديقة المؤمّل تذكرها كتب العرب لما اشتهرت به من جداول وينابيع، وورود وأزهار وخاصة شجر السرو منها . لقد سميت بهذا الاسم تيمناً بالوزير عبد ا لله ، حفيد ابن حبوس، سلطان غرناطة. إذ نفذت، بإدارة هذا الوزير، الكثير من أعظم الخدمات العامة. فقد شق قناة تأتي بالماء من جبال الفقار لري الروابي والبساتين شمالي المدينة، كما أنشأ منتزهاً عاماً كله من أشجار السرو وأقام حدائق غناء يجد فيها الناس السلوان لهمهم وغمهم «واسم المؤمّل» كما يقول القنطري «يجب أن

يكتب بماء الذهب ويخلّد إلى الأبد » . ولعله خلد فعلاً لارتباطه بالحديقة التي زرعها ولورود ذكره في أشعار حفصة ولرب كلمة عارضة من شاعر تمنح الخلود ! ! لعل القارىء يتوق الآن لأن يعرف شيئاً عن حفصة هذه وقصتها مع حبيبها، وبذلك يحقق التواصل مع واحدة من أجمل القصص المحلية في غرناطة، لكن النتف التالية هي كل ما استطعت استخلاصه من قلب الظلمة والنسيان اللذين يلفان ألمع الأسماء والعبقريات في اسبانيا العربية. عاش أحمد وحفصة في القرن السادس للهجرة، أي القرن الثاني عشر الميلادي. وأحمد هذا هو ابن قائد «قلعة الرجال» خطط له أبوه لأن، يعيش حياة عسكرية وسياسية بحيث يكون مساعداً له . لكن الفتى كان ذا ميول شعرية وكان يفضل حياة الأدب، والدعة في قصور غرناطة المترعة بهجة ومتعة. لهذا، أحاط نفسه بكل ماله علاقة بالفن والشعر والكتب مقسماً وقته بين الدرس والعلاقات الاجتماعية. كذلك كان مولعاً بالرياضة الميدانية، كما كان لديه خيول وبزاة وكلاب صيد، وقد كرس نفسه للأدب فاشتهر بمعرفته الواسعة وتآليفه في النثر والشعر تلك التي ذاع صيتها لجمالها وفائدتها حتى صار اسم أحمد على كل شفة ولسان. ولأنه كان رقيق القلب، هشاً، شديد التأثر بسحر المرأة وفتونها، فقد أصبح العاشق المتيم لحفصة التي بادلته هي الأخرى الحب، ولحين من الزمن، بدا طريق ذلك الحب سهلاً ممهداً. فالعاشقان كلاهما في ميعة الصبا، وكلاهما رفيع المحتد عالي المرتبة يضاهي الآخر شهرةوثروة، يعجب بموهبة الآخر ويتغزل بها تغزله بشخصه كما أنهما كليهما يعيشان في منطقة وجدت لتكون دنيا الحب والشعر. في البداية جرى التواصل بينهما شعراً فكان ذلك بهجة لغرناطة ومتعة، إذ راحا يتبادلان الأشعار والرسائل يوماً بعد يوم ، « تلك الأشعار التي» كما يقول المؤرخ العربي المقري «تشبه هديل الحمائم».لكن، وهما في ذورة سعادتهما، طرأ تغير على حكم غرناطة ففي تلك الفترة وضع الموحدون، وهم قبيلة بربرية من جبال الأطلس، يدهم على اسبانيا العربية وسيطروا عليها، ناقلين مقر الحكم من قرطبة إلى مراكش. منذئذ راح السلطان عبد المؤمن يحكم اسبانيا من خلال ولاته وقادته العسكريين. وقد عين ابنه «سيدي أبا سعيد» والياً على غرناطة . باسم ابيه حكم سيدي أبو سعيد حكم الملك المطلق ، لكنه كان غريباً عن البلاد ومغربي المولد. لذلك سعى لأن يقوي نفسه باجتذاب رجالات المجتمع ذوي الأصل العربي والنفوذ الشعبي، ولهذا السبب جعل من أحمد، الذي كان قد بلغ حينذاك ذروة شهرته وشعبيته ، وزيراً

له. حاول أحمد رفض المنصب لكن الوالي أصر عليه. وهكذا ، في حفلة صيد وقنص، ومع بعض أصحابه المرحين، أرخى العنان لمزاجه الشعري فرحاً بخلاصه من قيود سيد مستبد وانتشاء بتحرره من واجبات المنصب مثلما يفرح وينتشي بازي أطلقه صاحبه لأجواء الحرية يحلق بها حيث يشاء. لكن الناس بالمرصاد وما نطق به أحمد نقله إلى سيدي أبي سعيد مخبر همام قائلاً «أحمد يزدري قيودك ويحتقر سلطتك» وفي الحال عزل الشاعر من منصبه. بالطبع لم يشكل خسرانه لمنصب مضجر كهذا أي حزن أو أسى لرجل مرح الطبع رائق المزاج، لكنه سرعان ما اكتشف السبب الحقيقي لعزله، فالوالي كان غريمه، إذ كان قد رأى معشوقته حفصة وأصبح مغرماً بها، والأسوأ من ذلك ان حفصة كانت قد بهرت بالفتح الجديد الذي صنعت.

حيناً من الزمن عالج أحمد المسألة باستخفاف، ملتجئاً إلى التعصب بين العرب والبربر ، فسيدي أبو سعيد كان ذا بشرة داكنة كالزيتون « كيف يمكن أن تتحملي ذلك الرجل الأسود»؟ قال بازدراء «وحق ا لله، بعشرين ديناراً أشتري لك من سوق النخاسة عبداً خيراً منه».

وبلغت تلك الإهانة مسامع سيدي أبي سعيد فأوغرت صدره أكثر وأكثر.

في أوقات أخرى كان أحمد يستسلم للحزن والاكتئاب، متذكراً الأيام السعيدة الماضية لائماً حفصة على تقلبها، محذراً إياها بنبرة يائسة من أنها ستكون سبب موته، لكن دون أن تبالي كثيراً بكلماته تلك . فأن يكون عاشقها ابن السلطان نفسه فكرة سيطرت على خيال الشاعرة وخلبت لبها.

غير أن الغيرة واليأس كادا يصلان بأحمد إلى حافة الجنون، وبدافع منهما اشترك في مؤامرة ضد العائلة الحاكمة، لكن المؤامرة انكشفت والمتآمرين فروا من غرناطة إلى حصن من حصون الجبال، أما أحمد فالتجأ إلى ملقا حيث اختبأ هناك وفي نيته أن يرحل بحراً إلى فالنسيا لكن أحداً وشى به فحملوه مقيداً بالأغلال والأصفاد إلى زنزانة في السجن بانتظار حكم سيدي أبي سعيد.

في السجن، زاره ابن أخ له وسجل وصفاً لتلك الزيارة . لقد تأثر ذلك الفتى حتى درجة البكاء لمرأى عمه العظيم الشهير الذي كان قد بلغ درجة عالية من المجد والسؤدد وهو مكبل بالقيود كأي مجرم فاعل للشر، فقال أحمد له «لماذا تبكي؟ أمن أجلي تريق هذه الدموع؟ أمن أجلي أنا الذي استمتع بكل ما يمكن

للدنيا أن تقدم من متع للانسان؟ لا .. لا تبك علي . لقد أخذت نصيبي من الدنيا، فقد حضرت أعظم الولائم، أكلت أشهى المأكولات. شربت بأقداح البلور، نمت على فرش من ريش، رفلت بالخز والحرير، امتطيت أعتق الخيول، استمتعت بأجمل النساء، فلاتبك علي وما انقلاب حظي الآن إلا سنة القدر التي لا مناص منها. لقد ارتكبت من الأعمال ما يجعل العفو محالاً، وإنني أنتظر عقابي».

وكان تصوره صحيحاً، فانتقام سيدي ابي سعيد لم يكن يرضى بأقل من حياة غريمه ، غله لم يكن يشفيه إلا رؤيته لدمه مهراقاً على الأرض.وهكذا، أعدم أحمد العاثر الحظ في ملقا، الأول من جمادى عام 559 للهجرة (نيسان) 1164م) . بلغ الخبر مسامع حفصة القلب فطغى عليها الحزن والأسى وأكلت قلبها الحسرة والندامة فلبست الحداد وهي تتذكر الكلمات التي كان يحذرها بها، لائمة نفسها على أنها سبب موته.ما حل بحفصة بعد ذلك، لم أستطع أن أعلم شيئاً عنه أو أجد أثراً لأخبارها، سوى أنها توفيت في مراكش عام 1184، وقد مات عشيقاها كلاهما، فسيدي أبو سعيد مات بالطاعون في مراكش عام 1175م وقد ترك بعده ذكرى لإقامته في غرناطة، هي قصر شيده على ضفاف الزنيل. الآن لم يعد هنالك أثر لحديقة المؤمل، ذلك المكان الذي شهد أيام الصبا والشباب لأحمد وحفصة(*) لكن بالإمكان تحديد موقعها من قبل الباحث المتتبع للآثار الشعرية القديمة.

(*) : المقصود هنا هي حفصة بنت الحاج الركونية: شاعرة أديبة كان لها دور في الحياة السياسية والادبية في غرناطة فقد ذكرها المؤرخون تمدح سلطان الموحدين عبد المؤمن بن علي وغيره من الأمراء وقد أولع بها الوزير أحمد ابو جعفر بن سعيد وعاشا فترة من الزمن يتبادلان الحب ومن أشعارها في أبي جعفر هذا قولها :

ثنائي على تلك الثنايا لأنني ... أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب الله انني ... رشفت بها ريقاً أرق من الخمر

واتفق أن بات أبو جعفر بن سعيد معها في بستان بحوز مؤمّل على ما يبيت به الروض والنسيم من طيب النفحة ونضارة النعيم فلما حان الانفصال

قال أبو جعفر:

رعى الله ليلاً لم يرح بمذمم   عشية وارانا بحوز مؤمل
وقد خفقت من نحو نجد أريجة   إذا نفحت هبت بريا القرنفل
وغرد قمري على الدوح وانثنى   قضيب من الريحان من فوق جدول
يرى الروض مسروراً بما قد بدا له   عناق وضم وارتشاف مقبل

فأجابته بقولها:

لعمرك ما سر الرياض بوصلنا   ولكنه أبدى لنا الغل والحسد
ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا   ولا غرد القمري إلا لما وجد
فلا تحسن الظن الذي أنت أهله   فما هو في كل المواطن بالرشد

ومن شعرها الجميل قولها:

أزورك أم تزور فإن قلبي   إلى ما تشتهي أبداً يميل
فثغري مورد عذب زلال   وفرع ذؤابتي ظل ظليل
فعجل بالجواب فما جميل   إباؤك عن بثينة يا جميل

المترجم

رحلة بحثاً عن
« وثيقة دبلوم »

أحد أهم الأحداث التي جرت داخل الحمراء هو رحيل ما نويل، ابن أخـــي الدونا أنطونيا إلى ملقا كي يقدم امتحانه كطبيـب. لقد سبق لي وحدثـت القارىء الكريم أنه يتوقف، على نجاحه وحصوله على الشهادة، وإلى حـد كبير، زواجـه بابنة عمته دلوريس وكذلك مستقبلهما وحظهما معاً، أو هكذا على الأقل أخبرني ماتيوزيمنس وقد أكدت لي مجريات الأحداث المختلفة إخباره هذا. مع ذلك كانت علاقة حبهما تجـري بهـدوء وكتمـان، ولعلـي مـا كنـت لأكتشـفها بنفسي لـو لم ينبهني إليها ماتيو الذي يرقب كل شيء ولا تفوته شاردة ولا واردة.

في الحالة الراهنة، كانت دلوريس أقل تحفظاً، وقد انهمكت عـدة أيـام في إعداد مانويل المخلص لرحلته، مرتبة ثيابه كلها رازمـة إياهـا علـى خـير وجـه، وقبل كل شيء كانت قد صنعت له سترة سفر اندلسية أنيقـة بيديهـا. في الصباح المحدد لرحيله ، جيء ببغل قوي إلى بوابة الحمراء وللتو باشـر العم بولو، وهـو

جندي قديم خارج الخدمة، بوضع عدة الركوب على ظهره، والحقيقة أن هذا الجندي القديم هو إحدى عجائب ذلك المكان بوجهه المتيبس الجلد الغائر الخدين وبشرته التي سفعتها الشمس المدارية الحارة وأنفه الروماني الطويل وعينيه السوداوين الجاحظتين، إذ غالباً ما كنت أراه يقرأ باهتمام بالغ ظاهريا في مجلد قديم، جلده من رق الغزال، محاطاً أحياناً بمجموعة من أخوانه الخارجين من الخدمة أيضاً، بعضهم يجلس على الحاجز وبعضهم الآخر يستلقي على العشب مصغين بانتباه شديد، فيما هو يقرأ على مهل وتأن كتابه المفضل، متوقفاً أحياناً كي يفسر او يشرح لمستمعيه الأقل معرفة وتنوراً .

ذات يوم انتهزت مناسبة كي استعلم بنفسي عن ذلك المجلد القديم الذي بدا أشبه بكتاب مقدس لديه فتبين لي أنه كتاب ظريف من أعمال بدر بنيتو فيجو يدور حول السحر في اسبانيا، كهوف سلمنسة وطليطلة الغامضة، مطهر سان بتريسيو (سان باتريك) ومواضيع سحر أخرى مشابهة. منذ ذلك الحين ركزت انتباهي على ذلك الجندي القديم.

في المناسبة الراهنة، رحت أسلي نفسي بمراقبته وهو يعد مطية مانويل بكل التوقعات المسبقة لجندي يعد نفسه لحملة عسكرية. بادىء ذي بدء قضى وقتاً لا بأس به في تعديل سرج ثقيل من الطراز القديم بحيث يتناسب مع ظهر البغل، إذ كان مرتفعاً في الأمام والخلف، له ركابان من الطراز المغربي كأنهما رفشان، بل ان منظره كله يوحي بأنه أثر من آثار الحمراء القديمة. بعدئذ قام بوضع جلد خروف على مقعد السرج العميق الغور وتسويته ثم القى فوقه رداء يمكن استخدامه كعباءة او غطاء مقعد ثم وضع الخرج وفي كلا جانبيه قربة يمكن ان يوضع فيها الخمر أو الماء وأخيراً الترابوشو أو الراية التي كان الجندي القديم يعلقها خلفه لتمنحه البركة والتوفيق فبدا الأمر أشبه بإعداد فارس عربي في الأيام القديمة لمبارزة أو مباراة في ساحة الفيرا رامبلا. كان عدد من متسكعي القلعة العاطلين عن العمل قد تجمعوا حوله مع بعض العجز وكلهم يتفرج او يعرض مساعدته او يلقي النصائح، الأمر الذي كان يزعج العم بولو كل الإزعاج. عندما انتهت الاستعدادات، ودع مانويل الأهل وأمسك العم بولو بالركاب، فامتطى متن بغله، عدل له الأحزمة والسرج ثم حياه التحية العسكرية، بعدئذ التفت إلى دلوريس التي كانت تقف وكلها إعجاب بفارسها المغوار وقد انطلق البغل خبباً «آه،

دلوروسيتا!!» هتف الجندي العجوز بإيمارة رأس وطرفة جفن «ما أروع مانويل في سترته!!» فاحمرت الفتاة خجلاً ثم ضحكت وهي تجري الى البيت.

أيام مرت دون ان تأتي أخبار مانويل، رغم أنه كان قد وعد بأن يكتب، فبدأت دلوريس تقلق وقلبها يتخوف، هل حدث له شيء على الطريق؟ هل رسب في الامتحان؟ بعدئذ حدث طارىء في بيتها الصغير زارها قلقاً وبلبالاً، إذ كان يضاهي تقريباً فرار حمامتها، ففي الليل فرت قطتها ذات الظهر الأشبه بظهر السلحفاة ونطت إلى سقف الحمراء الآجري لينطلق في هدأة الليل مواء مخيف، إذ كان بعض الهررة الهرمة غير مهذب تجاهها. فقد حدث تدافع وعراك بالمخالب ثم انقلب كلا الطرفين على السطح إلى أن سقطا من ارتفاع عالٍ إلى ارض الرابية بين الأشجار. بعدئذ لم يرَ أحد ولم يسمع شيئاً عن القطة الهاربة فاعتبرت دلوريس ذلك نذير شر أكبر.

لكن بعد مرور عشرة أيام، عاد مانويل بالنصر وقد فوّض عن جدارة بأن يقتل أو يشفي المرضى وانتهى بذلك كل غم وهم لدى دلوريس. في المساء تجمع الأصدقاء والمتعلقون بحواشي السيدة أنطونيا لتهنئتها وتقديم الاحترام للسيد الطيب الذي قد تكون حياتهم وموتهم جميعاً في يديه. اغتنمت المناسبة كي أطور معرفتي به «اوه، سيدي» هتفت دلوريس «أنت الذي تتوق كثيراً لمعرفة كل ما يتعلق بتاريخ الحمراء القديم. العم بولو يعرف عنها أكثر من أي إنسان آخر. أكثر من ماتيو زيمنيس وأفراد عائلته كلهم معاً. هيا.. هيا.. عم بولو! ارو للسيد تلك القصص التي رويتها لنا ذات مساء عن العرب المسحورين والجسر المسكون بالجن على نهر الدارة، ارو له قصة الرمان المتحجر القديم الذي ما يزال على أمه من أيام الملك تشيكو.

لكن، كان لابد من مرور بعض الوقت قبل أن يستطيع الجندي العجوز أن يتخذ وضع الراوية، إذ هز رأسه في البدء قائلاً«كلها حكايات فارغة لا تستحق أن تروى لرجل مثله!» ثم لم أفلح في جعله يتكلم إلا بعد أن اضطررت لأن أروي بعض الحكايات بنفسي. حينذاك فقط، فتح جعبته، فكان ما فيها مزيجاً غريباً مما سمعه في الحمراء وما قرأه في كتاب بدرو فيجو، ولسوف أبذل جهدي كي أقدم للقارىء الجوهر الأساسي لما رواه لي، لكن دون أن أعده بتقديم ذلك بكلمات العم بولو ذاتها.

حكاية
الجندي المسحور

ما من أحد إلا وسمع بكهف القديس سيبريان في سلمنسة، حيث كان يدرّس سراً في الأزمنة القديمة علم التنجيم، قراءة الكف، استحضار الأرواح، وكل ما هنالك من فنون السحر والشعوذة على يد حافظ لهذه الفنون قديم قدم الزمان، أو كما كان البعض يقول، على يد الشيطان نفسه متخفياً بزي ذلك الرجل. لقد سد الكهف منذ زمن طويل ونسي الناس حتى موقعه، رغم أن مدخله يقع طبقاً للأقوال المتوارثة، في مكان ما قريب من المكان الذي ينتصب فيه الصليب الحجري في ساحة كرافاجال الصغيرة، يؤكد هذه الأقوال إلى حد ما ظروف القصة التالية.

ذات مرة كان هنالك طالب من سلمنسة يدعى دون فنسنت، هو من ذلك الصنف المرح إنما المتعيش على الصدقات ، الذي ينطلق على طريق العلم دون قرش في جيبه والذي ينتقل خلال عطله الدراسية من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية متسولاً كي يحصل على المال الذي يمكنه به أن يتابع دراسته في الفصل القادم.

في ذلك الحين، كان ذلك الطالب يتهيأ للانطلاق في تجواله، ولكونه موسيقياً بشكل من الأشكال ، فقد علق غيتاره على ظهره عله يسلي به القرويين مقابل وجبة طعام او مأوى ليلة.

حين مردون فنسنت بالصليب الحجري في ساحة كرافاجال الصغيرة، رفع قبعته متمتماً بصلاة قصيرة للقديس سيبريان طالباً منه التوفيق وحسن الحظ. في تلك اللحظة اطرق برأسه إلى الأرض فوقع بصره على شيء صغير يلمع عند أسفل الصليب. التقطه فتبين له أنه خاتم مصنوع من معدن مزيج: ذهب وفضة. على الخاتم نقش مثلثان متقاطعان بحيث يشكلان نجمة. هذا النقش، كما يقال، رمز القبلانية (مذهب سري يهودي) ابتكره سليمان الحكيم نفسه وهو ذو قوة بالغة في كل ما يتلعق بالسحر، لكن الطالب البسيط الذي لم يكن حكيماً ولا ساحراً لم يكن يعرف شيئاً عن الأمر كله. أخذ الخاتم باعتباره هدية من القديس سيبريان مكافأة له على صلاته، زلقه في إصبعه، انحنى للصليب، ثم سوى غيتاره على ظهره وانطلق فرحاً مبتدئاً تجواله.

ليست حياة الطالب الذي يتعيش على الصدقات في اسبانيا بالحياة الأبأس في العالم، خاصة إذا كانت لديه موهبة ما في أن يجعل نفسه مقبولاً لدى الناس. إنه يتجول على راحته من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة وحيثما تقوده نزواته أو فضوله، فخوارنة البلاد الذين عاش معظمهم تجربة التسول هذه حين كانوا هم أنفسهم يدرسون، غالباً ما يرأفون به ويقدمون له المأوى ليلاً والوجبة المريحة نهاراً وربما ينقدونه بعض القروش في الصباح. كذلك حين يمثل امام الباب بعد الباب في شوارع المدن فإنه غالباً ما يلقى بعض الرأفة والإشفاق. إذ ليس هناك ما يعيبه في تعيشه على الصدقات مع دراسته، خاصة ان الكثير من كبار العلماء في اسبانيا بدؤوا حياتهم بتلك الطريقة. لكن إذا كان الطالب، شأن صاحبنا هذا الذي نتحدث عنه، شاباً حسن الهيئة جميل المنظر، حسن المعشر وبإمكانه أيضاً ان يعزف الغيتار فمن المؤكد أنه سيلقى الترحيب والود لدى الفلاحين والابتسامات والملاطفات من زوجاتهم وبناتهم.

بهذه الطريقة، إذن ، كان طالبنا الموسيقي الرث الثياب يشق طريقه هنا وهناك قاطعاً نصف المملكة، وقد صمم تصميماً راسخاً على أن يزور غرناطة، مدينتنا الشهيرة قبل أن يعود إلى دراسته. أحياناً، كان يتكوم على نفسه لقضاء الليل في حظيرة خراف كاهن القرية وأحياناً يلتجيء الى بيت فلاح مسكين إنما

حسن الضيافة يستظل سقفه، فيجلس عند باب الكوخ وغيتاره بين يديه يعزف أنغامه ويغني أغانيه فيبعث البهجة والسرور في قلوب سكانه البسطاء أو يطلق العنان لموسيقى الفاندانغو أو البوليروس دافعاً بفتيان الريف وفتياته السمراوات للرقص في غسق المساء اللطيف، ثم يرحل في الصباح مودعاً بالكلمات اللطيفة من مضيفه ومضيفته، وبالنظرات اللطيفة وربما بعصة يد من الابنة.

أخيراً ، بلغ الغاية العظمى لتجواله الموسيقي. وصل إلى المدينة الذائعة الصيت، غرناطة، فحيا بعجب وابتهاج أبراجها العربية وسهولها الجميلة وجبالها المكللة بالثلج، اللامعة تحت أشعة شمس الصيف. وغني عن القول بأ ي توق وشوق دخل بواباتها وتجول في شوارعها وحملق مذهولاً بآثارها الشرقية ونصبها. لقد كان كل وجه انثوي يطل من شباك أو يتألق في شرفة هو، بالنسبة اليه، وجه زبيدة أو زريدة كما أنه لم يكن يستطيع رؤية سيدة مهيبة في «المضافة» إلا ويتخيلها أميرة عربية، هو على أتم الاستعداد لأن يفرش رادءه المدرسي تحت قدميها.

موهبته الموسيقية، مزاجه الحسن، مرحه وحسن هيئته، كل ذلك هيأ له ترحاباً شاملاً من كل من يلقاه رغم ثيابه البالية. على ذلك المنوال عاش عدة أيام حياة المرح والسرور في العاصمة العربية القديمة ومحيطها. أحد الأمكنة التي كان يرتادها من حين إلى حين هو نبع أبي نواس في وادي الدارة، وهو أحد المنتجعات الشهيرة في غرناطة وقد كان كذلك منذ ايام العرب. هنا أتيحت الفرصة للطالب لأن يلاحق أبحاثه عن جمال المرأة وهو فرع من فروع الدراسة كان قليل الميل إليه.

أجل ، هنا كان يتخذ مقعداً له مع غيتاره، يرتجل بعض أغاني الحب للمعجبين من الفتيان والفتيات أو يحرضهم بموسيقاه على الرقص هم الجاهزون دائماً لأن يرقصوا. على ذلك النحو كان منهمكاً ذات ليلة ، حين رأى رجل دين يقترب،ومع اقترابه كانت كل يد ترتفع إلى رأسها لامسة قبعتها. إذن، لا شك أنه رجل ذو مكانة وبالتأكيد هو مرآة الطيبة إن لم يكن القداسة الحية بذاتها، قوي البنية، متورد الوجه، يتنفس من كل مسام جلده دفء الجو مستمتعاً بممارسة المشي. على طول الطريق، ومن حين إلى آخر، كان يخرج من جيبه قطعة نقدية يمنحها لشحاذ من الشحاذين بهيئة إحسان فريد من نوعه«آه ـ يا للأب المبارك» كانت الصيحات تنطلق خلفه «ليمنحه الرب العمر الطويل عسى ان

يصبح أسقفاً» . ولكي يدعم خطاه، وهو يصعد الرابية، كان يستند بلطف ، ومن حين إلى آخر، على ذراع فتاة من الجلي أنها كانت الحمل المدلل لدى ألطف رجال الدين ذاك. آه يالها من فتاة أندلسية من رأسها إلى أخمص قدميها: بدءاً من الوردة في شعرها وحتى جواربها المخرمة فالحذاء الأشبه بحذاء الجنيات، أندلسية في كل حركة من حركاتها، في كل تثن من تثنيات جسدها: أندلسية ناضجة تذوب أنوثة لكن مع ذلك متواضعة جدا خجول جداً عيناها دائماً على الأرض، تصغي إلى كلمات رجل الدين، وإذا ما نظرت صدفة إلى هذا الجانب أو ذاك فإنها سرعان ما ترتد لتتسمر عيناها على الأرض من جديد.

تطلع الكاهن الطيب بحب ومودة إلى الجمع المتحلق حول النبع ثم جلس بشيء من الاعتداد بالذات على مقعد حجري، في حين اسرعت الفتاة تملأ له كاساً من الماء الرقراق. بتأن وتلذذ راح يرشفها. بعد أن اضاف لها واحدة من تلك القطع الاسفنجية من السكر المجمد على شكل البيض والغالي على قلوب الأبيقوريين الاسبان، وحين أعاد الكأس إلى يد الفتاة، قرص وجنتها بحب ولطف لا حدود لهما.

«آه يا لرجل الدين الطيب» همس الطالب لنفسه «أية سعادة يمكن للمرء أن يلقاها إذا ما أتيح له قضاء ليلته في حظيرة خرافه وبصحبته مثل ذلك الحمل المدلل».

لكن أنى له نعمة كتلك النعمة؟ عبثاً جرب الطالب قدراته على الإمتاع تلك التي وجدها لا تقاوم لدى فتيات الريف وخوارنته. لا ، لم يسبق له أن لامس أوتاره بمثل تلك البراعة والحذق، ولم يسبق لشفتيه ان سكبتا بمثل ذلك الدفء والحميا أغاني الحب لكن وأسفاه لم يكن يتعامل مع خوري او فتاة ريف. فالكاهن الهام لم يكن يستمتع بالموسيقى ، على ما يبدو، والفتاة الحيية لم تكن ترفع عينيها عن الأرض قط فترة قصيرة من الزمن مكثا عند النبع. ثم أسرع الكاهن الطيب عائداً إلى غرناطة. نظرة حيية واحدة نظرتها الفتاة إلى الطالب وهي تنسحب، لكنها كانت كافية لأن تسحب قلبه من صدره.

بعد رحيلها ، استفسر الطالب عنهما .إنه الأب توماس، أحد قديسي غرناطة، نموذج النظام والدقة في ساعة استيقاظه، ساعة صلاته، ساعة طعامه وساعة شرابه، في قيلولته وراحته، بل حتى في لعبة «التريسيلو» في المساء مع

بعض سيدات الحلقة الكاتدرائية. إنه يتمشى في وقت محدد وفي وقت محدد يذهب إلى النوم كي يستعيد قوته من أجل يوم آخر من الواجبات المماثلة والنظام المماثل. مطيته بغل رشيق مطواع ومدبرة بيته سيدة بارعة في إعداد أشهى المأكولات لمائدته اما الحمل المدلل ذاك فما هو إلا الفتاة التي تمهد له الوسادة في الليل وتأتيه بالشوكولا في الصباح.

الآن، وداعاً لحياة الطالب المرحة الخالية من الهم، فالنظرة الجانبية من المقلة البراقة كانت نهاية ذلك كله. ليل نهار لم يعد باستطاعته ان يبعد عن ذهنه صورة تلك الفتاة البالغة الحياء، فمضى يبحث عن بيت الكاهن، لكن واأسفاه إنه فوق طبقة البيوت التي يمكن لطالب شريد مثله ان يصل اليها . كذلك لم يكن في قلب الكاهن ذرة عطف عليه، إذ لم يسبق له أن عاش حياة الطالب الشريد المضطر لأن يغني لقاء عشائه، وهكذا بات الطالب يحاصر البيت نهاراً مختلساً نظرة من تلك الفتاة بين الحين والحين إذا ما أطلت من شباك أو ظهرت في شرفة، لكن ما كان لتلك النظرات ان تزيده إلا جوى واضطراباً دون أن تمنحه بصيص أمل، في الليل كان يعزف تحت شرفتها ويغني، وذات ليلة خفق قلبه فرحاً وقد ظهر شيء أبيض من النافذة ، لكن واأسفاه لم يكن ذلك سوى قبعة الكاهن الليلية.

ما من عاشق كان أكثر ولهاً قط، وما من فتاة كانت أكثر حياء قط، وهكذا استمر الحال إلى ان أوشك الطالب المسكين على اليأس. أخيراً حلت أمسية القديس يوحنا، حين يتجمع أبناء الطبقة الدنيا في الدارة والزنيل ليلة منتصف الصيف تلك. وكم هم سعداء أولئك الذين يستطيعون، في تلك الليلة المشهودة، أن يغسلوا وجوههم بتلك المياه حين يقرع جرس الكاتدرائية منتصف الليل تماماً، ففي تلك اللحظة بالضبط، تكون لتلك المياه قدرة هائلة على إضفاء الحسن والجمال على الوجوه، ولما كان الطالب بلا عمل يشغله ، فقد حمل نفسه على التحرك مع الجموع الحاشدة إلى أن وجد نفسه في وادي الدارة الضيق تماماً تحت رابية الحمراء العالية وأبراجها القديمة المرتفعة. الحوض الجاف للنهر، الصخور التي تحيط به، الحدائق المتدرجة مصاطب مصاطب فوقه، كلها كانت تعج بالحياة وقد توزع عليها الناس جماعات جماعات يرقصون تحت عرائش العنب وأشجار التين على أنغام الغيتار والصنج.

حيناً من الزمن، مكث الطالب في حالة من الحزن والصمت، متكئاً على واحدة من أشجار الرمان الضخمة البائسة المتحجرة ، تلك التي توشي أطراف الجسر الصغير فوق الدارة. نظرة دامعة ألقاها على المشهد المفعم فرحاً وسروراً، حيث كان لكل فتى فتاته أو بالأحرى لكل حبيب حبيبته، ثم تنهد متأسياً على وحدته ووحشته، ضحية نظرة حييّة من عين حوراء وجهتها له أصعب الفتيات منالاً، كما تأسى على ثيابه الرثة التي اغلقت، على ما يبدو، باب الأمل في وجهه. شيئاً فشيئاً، بدأ يجذب انتباهه جار له يماثله وحدة ووحشة. إنه جندي طويل قاسي الملامح يخالط لحيته الشيب ، متسمر إلى الجانب الآخر من شجرة الرمان وكأنه حارس. وجهه كأنه البرونز بفعل الزمن، يلبس درعاً اسبانياً قديماً ويحمل ترساً ورمحاً وينتصب كالتمثال دون حراك، لكن ما أدهش الطالب كل الإدهاش أنه على الرغم من مظهره وعتاده الغريب هذا، فإن أحداً من الجمهور لم يلحظ وجوده، على الرغم من أن الكثيرين مروا به بل إن بعضهم لامسه واحتك به.

«هذه مدينة العجائب منذ قديم الزمان» فكر الطالب «ولا شك أن هذه واحدة من تلك العجائب التي الفها السكان إلى درجة لم تعد تثير دهشتهم، أو حتى انتباههم.» لكن فضوله كان قد بلغ أشده، ونظراً لأنه اجتماعي النزعة فقد خاطب الجندي:

«درع نادرة تلك التي تلبسها أيها الرفيق، ترى هل أستطيع ان اسألك من أي فرقة أنت؟».

«من الحرس الملكي لفرديناند وإيزابيلا» جاءه جواب الجندي وقد انفتح فكاه عن مفاصل بدت وكأنها صدئت لطول الزمان. «يا أمنا مريم!! إنها ثلاثة قرون مذ كانت تلك الفرقة في الخدمة.» «وعلى مدى ثلاثة قرون ما زلت أحرس هذا المكان، أما الآن فإني على ثقة ان نوبتي في الحراسة قد انتهت . ترى هل ترغب في أن تكون ثرياً فرفع الطالب ذيل عباءته المرقعة الممزقة جواباً على السؤال.

«فهمت. إذن ، إن كان لديك الإيمان والشجاعة، اتبعني تحصل على الثروة». «مهلاً يارفيق، أن أتبعك أمر يتطلب قدراً من الشجاعة وأنا امرؤ لا يملك ما يخشى ان يخسره سوى حياته وغيتار قديم ليس بذي قيمة كبيرة، أما ما يتعلق بإيماني فالأمر مختلف ولا ينبغي ان يوضع موضع التجرب. إن كان هناك

أي عمل إجرامي عليّ أن أقوم به كـي أصلـح حظـي وأحصـل علـى الـثروة، فـلا تحسب أن عباءتي الرثة هذه تجعلني أقوم به».

هنا، التفت الحارس إليه بنظرة كلها ضيق وانزعاج ثـم قـال «سـيفي هـذا لم يشهر قط إلا من أجل العرش والإيمان، إنني مسيحي مخلص ثـق بـي ولا تخـش شراً».

على الفور تبعه الطالب وقد استبد به العجب، إذ لاحظ أنه ما من أحد أولى انتباهه لحديثهما وأن الجندي كان يشق طريقه بين جماعات الشبان اللاهين دون ان يلحظه أحد وكأنه خفي لا تراه العين.

عبر الجندي الجسر ثم شق طريقه عبر ممر منحـدر ضيـق متجـاوزاً طاحونـة عربية قديمة وقناة ماء . بعدئذ صعد الوادي الضيق الذي يفصل منطقة جنة الريف عن منطقة الحمراء. في تلك اللحظـة كـانت آخـر أشـعة الشـمس الغاربـة تخضـب بحمرتها رؤوس أسوار الحمراء وقد برزت عالياً، فيما بدأت أجـراس الديـر تقـرع داعية للاحتفاء باليوم التالي، وأشجار التين تلقـي بظلالهـا الكثيفـة علـى الـوادي إضافة إلى عرائش العنب والريحان وكذلك ا لأبراج الخارجية وأسـوار القلعـة. كـل شيء كان قد أمسى معتماً موحشاً، كما بدأت الخفافيش المولعة بالغسق تطير هنـا وهناك . في النهاية، توقف الجندي عند برج بعيد مهـدم، مصمـم علـى مـا يبـدو لحراسة قناة مائية أيام العرب. بعقب رمحه، ضرب الجندي قاعدة الـبرج فسـمع الطالب صوت قعقعة ثم بدأت الحجارة الصلدة تنشق وتتباعد إلى أن غدت الفتحة باتساع الباب.

. «باسم الثالوث المقدس، ادخل» قال الجنـدي «ولا تخـف شيئاً» لكـن قلـب الطالب كان يرتعش ارتعاش ريشة في مهب الريح مع ذلك، رسم إشارة الصليب ثم غمغم بالسلام على مريم لاحقاً بدليله الغامض إلى قبو عميق حفر في قلـب الصخـر تحت البرج وقد غطيت جدرانه بالكتابة العربية. أشار الجندي الى مقعـد حجـري محفور على طول أحد جوانب القبو، ثـم قـال : «انظـر ! هـو ذا مضجعـي طـوال ثلاثمائة عام » فحاول الطالب المذهول ان يداعبـه مازحـاً : «إذن، وحـق القديـس انطوني المبارك، لابـد أنـك كنـت مسـتغرقاً في سبات عميـق كيـلا تحـس بقسـوة مضجعك !».

«بالعكس، فعيناي لم تعرفا الرقاد والمراقبة دون انقطاع كـانت قـدري. اصغِ الى قصتي. لقد كنـت أحـد الحـراس الملكيـين لإيزابيـلا وفرنـاند، لكـن في إحـدى الغارات أسرني العرب وفي هذا البرج حبست، وحينٍ جرت الاسـتعدادات لتسـليم القلعة للعاهل المسيحي، هيمن علي فقيه مسلم مقنعاً إياي بـأن أسـاعده في إخفـاء بعض كنوز أبي عبد الله في هذا القبـو. علـى خطـأي ذاك عوقبـت العقـاب الـذي أستحق، فالفقيه كان ساحراً مغربيـاً يستحضرِ الارواح وبقدرتـه الشـيطانية تلـك، أبقاني مسحوراً كي أحفظ كنوزه. لابد أن شيئاً ماقد حدث له، إذا أنه لم يعد قـط فلبثت منذ ذلك الحين مدفوناً وأنا على قيد الحياة.

سنون وسنون مرت، زلازل زلزلت هذه الرابية، وحجراً بعد حجـر سمعتهـا تتساقط من فوق ذلك البرج لتتدحرج أرضاً بمرور الزمـانِ وتأثـير عوامـل الطبيعـة لكن جدران هذا القبو المحمية بالطلسم ظلت تتحدى كلاً من الزمان والزلازل.

مرة كل مائة عام، وفي احتفال القديس يوحنا، كان الطلسم ينفك عني متيحا لي فرصة الخروج والانتصاب على جسر الدارة، حيث لقيتني أنتظر مجيء من لديه القدرة على فك ذلك السحر عني إلى الأبد. لكنني كنت أنتظـر عبثـاً ، فأنـا أسـير وكأنني في سحابة لاتراني أعين البشـر حتـى جئـت أنـت الليلـة فكنـت أول مـن يبادرني بالخطـاب منـذ ثلاثمائـة عـام. إنـني أرى السـبب، ففـي إصبعـك خـاتم سليمان الحكيم الذي يبطل كـل سـحر، وباسـتطاعتك الآن أن تحررنـي مـن هـذا السجن الرهيب أو تتركني أتابعَ حراستي هنا مائة سنة أخرى.

بعجـب أخـرس، أصغـى الطـالب الى الحكايـة، هـو الـذي كـان قـد سمـع حكايات كثيرة عن الكنز المخبأ في اقبية الحمراء يحرسه طلسم سحري، إنما كـان ينظر اليها كلها على أنها خرافات. في تلـك اللحظـة فقـط، أحـس بقيمـة الخـاتم الذي وهبه له بشكل من الأشكال القديس سيبريان، لكـنِ، وعلـى الرغـم مـن أنـه كان مزوداً بتعويذه بالغة القوة، فقد كان مايزال أمراً رهيباً بالنسـبة اليـه أن يجـد نفسه في مكان كذلك المكان، وجهاً لوجه أمام جندي مسحور يتعـين عليـه، طبقـاً لقوانين الطبيعة، أن يكون راقداً في قبره منذ أكثر من ثلاثمائة عام.

تلك هي القاعدة، لكن شخصية من هـذا النـوع هـي اسـتثناء القـاعدة وليـس بالامكان الاستخفاف بهـا، وهكـذا، أكـد لـه الطـالب أن بإمكانـه الاعتمـاد علـى صداقته وطيب سريرته وانه سيفعل كل مافي وسعه من أجل خلاصـه. «إنـني أثـق

بدافع أشد قوة وفعالية من الصداقة» قال الجندي ثم اشار الى صندوق حديدي ثقيل مقفل بأقفال وعليه كتابة عربية.«ذلك الصندوق يحوي كنزاً هائلاً من الذهب والجواهر والأحجار الثمينة. أبطل الطلسم السحري الذي يأسرني ولك نصف ذلك الكنز».

«وما عساي أفعل لابطاله؟».

هنا لابد من مساعدة كاهن مسيحي لإبطال قوى السحر والظلام، وفتاة مسيحية للمس ذلك الصندوق بخاتم سليمان ولابد من أن يتم ذلك ليلاً لكن كن على حذر. هذا عملٍ خطير لاينبغي ان يتم بدافع من شهوة، إذ على الكاهن أن يكون مترهباً متبتلاً ، أنموذجاً للطهر والقداسة، كما أن عليه أن يميت شهواته كلها قبل أن يأتي هنا بصوم شديد طوال أربع وعشرين ساعة متواصلة، أما الفتاة فعليها أن تكون عذراء طاهرة ثبت بالتجربة والبرهان أنها فوق الإغراء والإغواء. لاتتباطأ في تقديم مثل هذا العون. بعد ثلاثة أيام تنتهي فرصتي. إن لم يتم خلاصي قبل منتصف الليلة الثالثة ظللت حارساً مائة سنة أخرى.

«لاتخف» قال الطالب «بأم عيني أرى الفتاة والكاهن اللذين وصفت، لكن كيف يمكنني أن أعود الى هذا البرج من جديد؟» .

«خاتم سليمان يفتح الطريق لك»

في الحال، انطلق الطالب خارج البرج وهو أكثر فرحاً وبهجة مما كان عليه حين دخوله، وفي الحال أيضاً انغلق الجدار خلفه ليبدو صلداً مصمتاً كما كان من قبل.

في الصباح التالي، وبكل إقدام وشجاعة مضى الى بيت الكاهن، لاطالباً مشرداً مسكينا يكسب قوته بغيتاره، بل سفيراً من عالم الأشباح يملك مفاتيح الكنوز المسحورة. في مفاوضاته، لم ينطق بشيء خاص بل كل مافعل هو إثارة حماسة الكاهن العظيم لإنقاذ جندي قديم من جنود الإيمان وصندوق كبير من صناديق الملك تشيكو من قبضة الشيطان نفسه. حينذاك أية صدقات يمكن أن يوزعها! أية كنائس يمكن أن يبنيها ! وكم من أقرباء فقراء يمكن أن يثريهم بذهب العرب وكنوزهم!

كانت الفتاة العذراء الطاهرة علـى أهبـة الاسـتعداد لتقديـم يـد العـون، وهـو المطلوب لفعل التقى والورع ذاك، وإذا كان بالإمكان تصديق نظـرة حييـة ترشـقها عيناها بين الحين والحين فقد بدأ السـفير يـرى أثـراً مـن ميـل في تينـك العينـين الحييتين. على أن الصعوبة الكبرى تجسدت في الصـوم الـذي كـان علـى الكـاهن الطيب أن يتحمله. مرتين حاول الرجل ومرتين أثبت الجسد أنه أقوى من الـروح. في اليوم الثالث فقط، تمكن الرجل من مقاومـة إغـراء الطعـام، لكـن كـان السـؤال مايزال قائماً: هل يصمد الى أن يفك الطلسم أم لا ؟

في الهزيع الاوسط من الويل، تلمست المجموعة طريقها صاعدة الوادي على ضوء مصباح، حاملة سلة من طعـام لطـرد شـيطان الجـوع حالمـا تلقـى الشـياطين الاخرى في البحر الاحمر.

بخاتم سليمان فتحت الجماعة طريقها الى البرج، فكان الجندي هناك جالساً على الصندوق المكين المسحور ينتظر ذلك الوصول. بالأسلوب المناسب قـرأ الكـاهن الرقى والتعاويذ ثم تقدمـت الفتـاة فلمسـت أقفـال الصنـدوق بخـاتم سـليمان، وفي الحال انفتح الغطاء عالياً لتلمع تحته أكداس هائلة من الذهب والجواهر والحجارة الكريمة.

«هلموا نأخذ مانستطيع ثم نعود ثانية» صرخ الطالب منتشياً طرباً وهو يتقـدم حاشياً جيوبه، لكن سرعان ماصاح به الجندي:

«مهلاً، مهلاً، دعنا نخرج الصندوق كله ثم نقتسـم مافيـه» بكـل همـة وعـزم مضوا يفعلون ذلك، لكنها كانت مهمة صعبة فالصندوق ثقيل للغايـة وقـد انغـرس هناك منذ قرون، لكن في الوقت الذي شغلوا فيه علـى ذلـك النحـو، مـال الكـاهن الطيب على أحد جانبيه وشن هجوماً شديداً على السلة لطرد شيطان الجوع الذي كان يرغي ويزبد في أحشائه، وخلال لحظة من الزمان التهم قطعة مـن اللحـم ثـم غسل مجراها بزجاجة من خمرة دي بيناس، وامتناناً لنكهة اللحم، فقد منح قبلة من القلب «للحمل المدلل»، فتاته التي كانت تهتم برعايتـه، وقـد تم ذلـك بهـدوء تام في إحدى الزوايا لكن الجدران الواشية الثرثـارة نقلـت ذلـك في الحـال وكأنهـا حققت ظفراً، فلم تترك تحية عنيفة آثاراً أفظـع مـن آثـار تلـك التحيـة. إذ أطلـق الجندي، على صوتها نفسه، صرخة يأس حادة، كما أن الصندوق الذي كـان قـد ارتفع نصف ارتفاعة، سقط عائداً الى حيث كان، مرتجاً من جديد. بعدئذ، وجـد

الكاهن، الطالب والفتاة جميعاً أنفسهم خارج البرج الـذي انغلـق في إثرهـم جـداره مطلقاً هزيماً كهزيم الرعد. وا أسفاه! لقد انهى الكاهن الطيب صيامه قبل الأوان!

حين استعاد الطالب وعيه من هول الصدمة والمفاجأة، أراد أن يدخل الـبرج من جديد، لكنه علم، ويا لهول ما علم !! لقد أوقعت الفتاة لشدة رعبهـا، خـاتم سليمان، وأين أوقعته ؟ داخل القبو.

باختصار، دق جرس الكاتدرائية بعـد ذلـك منتصف الليـل، فعـاد مفعـول الطلسم، محتماً على الجندي أن يظل حارساً على الكـنز مائـة سـنة أخـرى، أي مايزال هو والكنز هناك حتى هذا اليوم. كل ذلك لأن ذلك الكـاهن الرقيـق القلـب قبّل فتاته. «آه !! أيها الأب ! أيها الأب!» صاح الطالب وهو يهـز رأسـه أسـى وحزناً، فيما كانوا ثلاثتهم يعـودون منحدريـن الـوادي «اخشـى أنـه كـان في تلـك القبلة من الإثم أكثر مما فيها من الطهارة!».

بعد ذلك تنتهي الحكاية كما تناقلتها الأجيال، لكن، ثمـة مصـدر يقـول إن الطالب كان قد حشا جيبه من ذهب الكنز بما يكفي لجعله يشق طريقه في الحياة ا لى درجة ازدهرت معها أعماله وأعطاه الكاهن الطيب «الحمل المدلل» زوجة لـه، ربما ليصلح الخطيئة التي ارتكبها في القبو. بعد ذلك، أثبتت الفتاة المحصنة أنهـا مثال الزوجة الصالحة مثلما كانت مثال الخادمة المخلصة، فقـد أنجبـت لزوجهـا العديد من الأولاد، وإن كان الأول قد جاء عجيباً متمـيزاً، فقـد وضعتـه أمـه بعـد سبعة أشهر من زواجها، وعلى الرغم من أنه كان ابن سبعة، فقد كان أشد أخوته صلابة وأقواهم بنية، أما البقية فقد ولدوا جميعاً أبناء تسعة.

لكن حتى يومنا هذا، لاتزال قصة الجندي المسحور إحدى أشهر الحكايـات المتناقلة في غرناطة، رغم انها تروى بطرق عديدة، فعامة الناس يؤكدون أنه لايزال يقف حارساً، في ليلة منتصف الصيف، بجانب شجرة الرمان العملاقـة المتحجـرة عند نهاية جسر الدارة، لكن دون أن يسـتطيع أحـد رؤيتـه إلا مـن أسـعده الحـظ وامتلك خاتم سليمان.

ملاحظات حول
« حكاية الجندي المسحور »

بين الاساطير الاسبانية القديمة، ثمة أسطورة عن وجود كهوف عميقة يتم فيها تعليم فنون السحر، إما بواسطة الشيطان نفسه، أو عجوز مسن مكرس لخدمته. أحد أشهر تلك الكهوف كهف سلمنسة الذي يذكره الدون فرانسيسكو دي توريبلانكا في الجزء الاول من كتابه عن السحر. هنا، كما يقول، يلعب الشيطان نفسه دور العراف، مقدماً أجوبة لأولئك الذين يأتون اليه ليطرحوا أسئلة مصيرية كما هي الحال تماماً في كهف تروفونيس الشهير، والدون فرانسيسكو، رغم انه يسجل هذه القصة إلا أنه لايصدقها: مع ذلك يؤكد أن أحد حافظي المقدسات، ويدعى كلمنت بتوسي، كان يعلم سراً فنون السحر في ذلك الكهف، كما أن بدر فيجو الذي استفسر عن المسألة يدونها على أنها من معتقدات الرعاع وان الشيطان ذاته كان يعلم فنون السحر هناك فيقبل سبعة طلاب فقط كل مرة وعلى أحدهم، الذي يتم اختياره بالقرعة، أن يكرس نفسه له، جسداً وروحاً الى الابد. بين إحدى مجموعات الطلاب تلك، كان ثمة فتى هو ابن المركيز دي فلينا

الذي وقعت عليه القرعة بعد أن أكمل دراسته. مع ذلك، نجح في خداع الشيطان تاركاً له ظله بدلاً من جسده. أما دون جوان دي ديوس، أستاذ العلوم الانسانية في الجامعة، في مطلع القرن الثامن عشر، فيقدم نسخة اخرى عن القصة استخلصها، كما يقول، من مخطوطة قديمة، لكن لابد من أن نلاحظ انه شوه الجزء مافوق الطبيعي من القصة ملغياً الشيطان منها كلية. إذ يقول انه بالنسبة الى كهف سان سيبريان. فكل مانستطيع أن نؤكده هو انه يقع حيث ينتصب الصليب الحجري في الساحة الصغيرة أو المكان الذي يدعى "سميناري كرافجال" حيث كانت كنيسة الابرشية سان سيبريان. وهناك مهبط من عشرين درجة يفضي الى غرفة المقدسات تحت الأرض وهو قبو واسع أشبه بالكهف، كان حافظ المقدسات يعلم فيه ذات مرة السحر، علم التنجيم الشرعي، الضرب بالرمل، التنجيم بالماء، التكهن بالنار، قراءة الكف، استحضار الارواح، الى آخر ماهنالك من فنون السحر.

وتمضي القصة فتقول أن سبعة طلاب كانوا يتعلمون على يد حافظ المقدسات في احدى الدورات، لقاء راتب محدد. وقد أجريت القرعة بينهم لمعرفة من سيدفع عوضاً عن الجميع، باعتبار أن من تقع عليه القرعة يتوجب عليه أن يبقى في غرفة المقدسات الى أن يقترب موعد الدفع، وفي الممارسة التي باتت مألوفة وعادة متبعة منذ ذلك الحين. وقعت القرعة على هنري دي فلينا، ابن المركيز نفسه الذي ذكر اسمه، لكنه لاحظ انه حدث خداع وتحايل في إجراء القرعة كما ارتاب في ان يكون حافظ المقدسات مطلعاً مسبقاً على النتيجة، لذلك رفض القرعة، وللسبب نفسه سجن هناك. وللمصادفة فقد كان هناك، في زاوية معتمة من غرفة المقدسات، جرة ضخمة أو خزان فخاري لحفظ الماء، وكانت تلك الجرة متشققة وفارغة. في تلك الجرة تدبر الفتى أمره فخبأ نفسه. عاد حافظ المقدسات في الليل مع خادمه حاملاً الشموع والعشاء. فتح الباب فلم يجد أحداً في القبو، فيما وجد كتاب السحر مفتوحاً على الطاولة . بخوف شديد، تراجع تاركاً الباب مفتوحاً فهرب منه فليناً. بعدئذ تستمر القصة لتقول انه بواسطة السحر جعل نفسه غير مرئي ـ والآن، أمام القارئ نسختا القصة وبامكانه ان يختار. لكن لابد لي فقط

من أن الفت الانتباه الى أن هنري دي فلينا هذا عاش في زمن جوان الثاني ملك قشتالة الذي كان خاله، وقد اشتهر بمعرفته بالعلوم الطبيعية، ولعل هذا هو السبب في وصمه بممارسة فنون السحر في عصر الجهل ذاك، إذ يتحدث عنه نان بريز دي غوزمان، حين يذكره في كتابه الرجال المتميزين، بكثير من

التبجيل والتقدير لسعة معرفته واطلاعه. لكنه يقول انه كرس نفسه لفنون العرافة والكهانة، تفسير الاحلام والاشارات والنذر.

بموت فلينا، انتقلت ملكية مكتبته الى الملك الذي جاء من يحذره بأنها تحوي كتباً تتعامل مع السحر، وليس من اللائق قراءتها، فأمر الملك بنقلها بعربات الى مقر الاسقف المحترم كي يتم فحصها. ولان المطران كان أكثر تقى مما هو علماً، وكانت بعض الكتب تتعامل مع ا لرياضيات واخرى مع علم التنجيم وفيها رسوم وبيانات ومخططات ورموز للنجوم. فيما كانت بعض الكتب الأخرى عن الكيمياء أو السيميا، كما كان يسميها العرب. مع كلمات أجنبية وغامضة. فقد بدا هذا كله في عين المطران التقي الورع نوعاً من السحر والتنجيم واستحضار الارواح. لهذا أمر بحرقها فذهبت تلك الكتب كلها طعاماً للنار كما حدث لمكتبة دون كيشوت.

خاتم سليمان :

رسمه مؤلف من مثلثين متساويي الاضلاع، متقاطعين بحيث يشكلان نجمة سداسية تحيط بها دائرة. وطبقاً للتراث العربي، فان ا لله سبحانه وتعالى حين منح سليمان خيار البركات والنعم فاختار الحكمة، نزل عليه من السماء، خاتم نقش عليه هذا الرسم فكانت تلك التعويذة الغامضة سر حكمته وعظمته وسعادته . وبها حكم وازدهر. لكن نتيجة ارتداد مؤقت عن الفضيلة وهفوة بسيطة ارتكبها، اضاع الخاتم في البحر. وفي الحال عاد سليمان الحكيم الى مستوى البشر العاديين، ثم لم يعفُ عنه ربه إلا بالصلاة والتوبة حيث سمح له أن يجد خاتمه في بطن سمكة وبذلك استعاد هبته السماوية، ولكي لا يفقدها كلية من جديد، فقد أفضى للآخرين بسر الخاتم.

هذا الخاتم، كما يروى، استخدمه بعض المسلمين كما استخدمه قبلهم عرب الجاهلية. كذلك استخدمه قبل هؤلاء العبريون «من أجل مشاريع شيطانية وأعمال أسطورية بغيضة»، ومن يرغب في معرفة المزيد عن هذه المسألة. فما عليه إلا أن يعود إلى أطروحة الأب العلامة «أثناسيوس كيركر» وعنوانها «القبلانية السراسينية».



وداع المؤلف لغرناطة

فجأة ، قطعت إقامتي الهادئة السعيدة في الحمراء رسائل وصلتني، وأنا غارق في جو الترف الشرقي في قاعة الحمامات الباردة، تدعوني لمغادرة فردوسي الإسلامي والانخراط من جديد في مشاغل العالم الأغبر وزحامه. ترى كيف سأواجه متاعبه ومشاكله بعد تلك الحياة التي عشتها من الدعة والنعيم والهناءة؟ كيف سأتحمل رعاعيته بعد شاعرية الحمراء؟.

لكن لابد مما ليس منه بد، وهكذا باشرت باتخاذ الاستعدادات اللازمة للرحيل، فقد جاؤوا إلي بمركبة ذات عجلتين تدعى «ترتانا» تشبه إلى حد كبير عربة مغطاة لتكون مطية نقلي أنا وشاب إنكليزي عبر مرسيا فأليكانت ففالنسيا ونحن في طريقنا إلى فرنسا، كما أتوا بشاب طويل الأطراف كان في يوم من الأيام رجل عصابات وربما قاطع طريقٍ ليكون دليلنا وحارسنا. في الحال اتخذت الاجراءات لكن الرحيل صعب. يوماً بعد يوم كان يؤجل، ويوماً بعد يوم كنت أقضي وقتي متسكعاً بين مواقعي المفضلة ويوماً بعد يوم كانت تبدو لي أكثر إمتاعاً وبهجة.

كذلك، غدا عالمي المنزلي والاجتماعي الصغير، الذي كنت أتحرك ضمن دائرته، أغلى وأغلى على قلبي، في حين أقنعني الاهتمام الشديد الذي أبداه

الناس من حولي برحيلي القادم ان مشاعري تجاههم ليست سدى، فهم يبادلونني بالمثل رقة مشاعر وحرارة عواطف.

والحقيقة، أنني لم أجرؤ، حين حل يوم الرحيل، على المغامرة بالذهاب إلى بيت السيدة الطيبة أنطونيا لوداع أهل البيت، فقد أحسست أن قلب دلوريس الصغيرة، على الأقل، مفعم حتى الحافتين رقة وتعاطفاً بل كان على وشك أن يفيض. لذلك ودعت القصر وأهليه وداعاً صامتاً ثم نزلت إلى المدينة وكأنني أنوي العودة. لكن الترتانا والدليل كانا جاهزين هناك. تناولت وجبة الظهيرة مع زميلي في السفر ثم انطلقنا راحلين.

متواضعاً كان الموكب وكئيباً كان رحيل الملك تشيكو الثاني! ! مانويل، ابن أخي السيدة انطونيا، ماتيو دليلي إنما في تلك الساعة سيدي الذي لا عزاء له، واثنان أو ثلاثة من عجّز الحمراء المسنين الذين كنت قد عقدت معهم أواصر صحبة للقيل والقال، هؤلاء هم الذين جاؤوا لوداعي. إذ أن إحدى عادات اسبانيا القديمة الحسنة هي الذهاب أميال لاستقبال صديق قادم ومصاحبته أبعد مسافة ممكنة وقت رحيله. هكذا إذن، انطلقنا :دليلنا ذو الساقين الطويلتين في الامام وبندقيته على كتفه، مانويل وماتيو على كلا جانبي الترتانا والعجز المسنون في الخلف.

إلى الشمال من غرناطة قليلاً، يبدأ الطريق بصعود الروابي شيئاً فشيئاً. هنا، ترجلت من المركبة وصعدت الطريق متمهلاً مع مانويل الذي اغتنم هذه المناسبة كي يسر إلي سره الدفين ويحدثني عن شؤونه الصغيرة هو ودلوريس، تلك التي كنت على علم مسبق بها من قبل، وقد نقلها لي ماتيو زيمنيس العارف بكل شيء والكاشف لكل شيء. كان دبلومه الطبي قد مهد الطريق لاتحادهما، لكن كان ينقصهما قرار من البابا بتحليل زواجهما بسبب القرابة العصبية بينهما. وإذا ما استطاع الحصول على منصب طبيب القلعة، فإن سعادته ستكتمل. حينذاك، هنأته على حسن تقديره وذوقه الذي أبداه في اختياره لشريكة حياته، راجياً له كل سعادة ممكنة في حياته الزوجية، مبدياً كل الثقة بأن دلوريس الصغيرة ذات القلب الرقيق ستمنحه مشاعرها وأحاسيسها كلها بدلاً من أن تمنحها للقطط الضالة والحمام.

لحظة حزينة كانت تلك اللحظة التي ودعت فيها أخيراً أولئك الناس الطيبين ثم رأيتهم ينحدرون السفح على مهل ملتفتين من حين إلى آخر إلينا،

ملوحين بأيديهم تلويحة الوداع الأخيرة. صحيح، أنه كان لدى مانويل ما يأمل أن يفرحه ويحمل لقلبه البهجة. لكن ماتيو المسكين بدا مثبطاً تماماً: إنه سقوط محزن بالنسبة إليه، أشبه بالسقوط من مرتبة الوزير الأول ومدون التاريخ الرئيسي إلى مرتبة المواطن العادي بعباءته البنية البالية وهزاله الواضح ونسجه للشرائط. هو الشيطان المسكين الذي كان، رغم إساءاته أحياناً، قد كسب من تعاطفي أكثر مما كنت أتصور. ولعلني كنت سأجد الكثير من العزاء أثناء رحيلي ذاك لو استطعت أن أحدس مسبقاً بالحظ الحسن الذي كان ينتظره والذي ساهمت إلى حد ما في صنعه، ذلك أن الأهمية التي أوليتها على ما يبدو، لحكاياته وقصصه ومعارفه المحلية، وكذلك صحبته لي في رواحي ومجيئي، كل ذلك كان قد رفع من تقديره لمواهبه وفتح طريقاً جديداً له، فغدا ابن الحمراء منذئذ دليلها النظامي وصاحب الراتب الجيد حتى قيل لي انه، بعد ذاك، لم يضطر قط للعودة إلى عباءته الرثة التي رأيته يرتديها أول مرة.

قبل غروب الشمس وصلت إلى حيث كان الطريق يلتف صاعداً الجبال فتوقفت لإلقاء النظرة الأخيرة على غرناطة، ومن هناك رأيت منظراً رائعاً للمدينة وسهل الفيغا والجبال المحيطة. ذلك أن التل الذي وقفت عليه كان يقع في الجهة المقابلة لتل الدموع الذي اشتهر في التاريخ بأنه المكان الذي انطلقت منه «آخر تنهيدة لعربي». في تلك اللحظة، انتابتني بعض مشاعر المسكين أبي عبد الله وهو يودع فردوسه خلفه دون أن يرى أمامه إلا طريقاً وعراً أجرد يفضي به إلى المنفى.

وكالعادة، كانت الشمس الغاربة تضفي مسحة من كآبة على جبال الحمراء المصبوغة بالحمرة، فلم أستطع إلا بالكاد أن أرى النافذة ذات الشرفة في برج الأقمار، حيث غالباً ما كنت أستغرق في أحلامي البهيجة هناك. أما الحدائق والرياض الكثيفة التي تحيط بالمدينة، فقد كان الغروب يضفي عليها صفرة الذهب الأخاذة، فيما كانت غبشة أمسية صيفية تتجمع فوق الفيغا. كل شيء كان عذباً جميلاً لكنه محزن موجع لقلبي الراحل وعيني المودعة ففكرت للتو:

«لأسرع بالابتعاد عن هذا المنظر قبل أن تغرب الشمس علني أحمل ذكراها بكل ما فيها من روعة وجمال».

بتلك الأفكار تابعت طريقي بين الجبال، مبتعداً شيئاً فشيئاً عن غرناطة لتغيب عن ناظري هي والفيغا والحمراء جميعاً، منهياً بذلك حلماً من أمتع أحلام الحياة، ربما يحسب القارىء أنه من نسج الخيال.

الفهرس

المدير المسؤول :

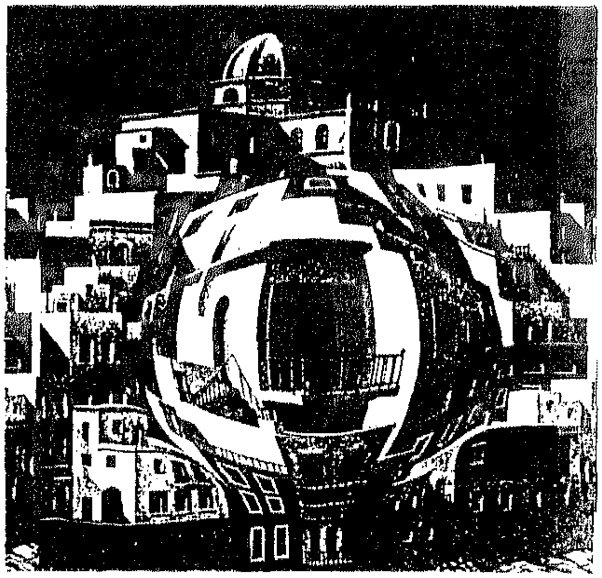
نـــادر الســـباعي

حلب / المحافظة - شارع القاهرة - بناية السباعي (ط١)
تليفون: 679531- 664742* فاكس: 247756-21 00963

ع - 1996/1/100

الحمراء : قصة أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس واسبانيا / تأليف واشنطن ايرفننغ ؛ ترجمة هاني يحيى نصري ، عبد الكريم ناصيف . ـ حلب مركز الانماء الحضاري ، 1996. - 2 مج في 1 ؛ 30 سم .

1 - 823 أم ا ي ر ح 2 - 914.6 ا ي ر ح 3 - العنوان
4 - ايرفينغ 5 - نصري 6 - ناصيف



إن فتح العرب لإسبانيا قـد حمـل معـه حضـارة ارقـى وطرازا في التفكير انبل، فـالعرب أنـاس شـاعريون، لامعو الذكـاء سـريعو البديهـة، أصحـاب إبـاء وشـهامة وحكمـة، وعقـل، وقـد تشـربوا علـوم الشـرق وآدابـه، وحيثمـا كـانوا يقيمـون مركـز قـوة ونفوذ يصبـح علـى الفور مركـز استقطاب للمتعلمـين والنـابغين كمـا كـانوا يقومـون بتشذيب وصقـل النـاس الذيـن يفتحـون بلادهـم ...

وليس هنـاك مـن أثـر يعـبر عن عصـره واناسـه أكـثر من الحمـراء: تلـك القلعـة الكالحـة خارجـاً والقصـر البـاذخ داخـلاً، الحـرب تكشـر فـوق أسـواره وأنغـام الشـعر تنسرب في قاعاتـه بـلا مقاومـة، يجـد المـرء خيالـه ينتقـل الى تلـك الايـام، حـين كـانت اسبانيا العربيـة الاسـلامية منطقـة اشـعاع للحضـارة والنـور وسـط أوروبـا الغارقـة في الظـلام، فقـد كـانت الحمـراء، خارجيـاً، قـوة حربيـة تقاتل من أجـل البقـاء لكـن داخليـاً دولـة مكرسـة لـلآداب والعلوم والفنـون

واشنطن ايرفينغ

مركز الانماء الحضاري C.E.C
CENTRE ESSOR ET CIVILISATION